مديح الكراهية

خالد خليفة

19.5.2014



رواية

دار الآداب

خالد خليفة



مديح الكراهية

رواية

دار الآداب - بيروت

مديح الكراهية

مديح الكراهية

خالد خليفة/روائيّ سوريّ

الطبعة الأولى لدى دار الآداب عام 2008

الطبعة الثالثة عام 2010

ISBN 978-9953-89-033-3

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana.adab@hotmail.com

Website: www.adabmag.com

إلى أمينة محمد علي

الفصل الأول

نساء يقودهن أعمى

رائحة الخزانة العتيقة جعلت منّي امرأة مهووسة بإغلاق الأبواب والتنقيب في الدروج بحثًا عن صور قديمة رتبتها بعناية فائقة ذات يوم، صورة أمي تهزّ شجرة الليمون الوحيدة في أرض الحوش، وأنا واقفة إلى جانبها لامعة العينين، صورة أبي في لباسه العسكري، حليق الذقن وحادّ النظرات، صورة أخي حسام مرتدياً لباسه المدرسي ضاحكًا، يحمل أخانا الصغير همام المقمّط بأقمطة زرقاء، صورة لي بلباسي الطويل الأسود، وجهي مدوّرٌ وسط الملاءة السوداء وجسمي غائب تمامًا، خلف الصورة لوحة باهتة لصيادين يطاردون مع كلابهم السلوقية غزالاً هاربًا وضعها المصوّر على حائط استوديو اصطحبني أبي إليه، ردّ على أسئلة المصوّر بمفردات غير مفهومة، أخذني المصور من يدي وأجلسني على كرسي خشبي بارد، تودّد إليّ بلطف، أشار إليّ بالنظر إلى إبهامه قرب فتحة الكاميرا وقال لي «إضحكي» لا أعرف كيف أضحك، أنظر إلى أبي، أستأذنه ثم أعاود النظر إلى إبهام المصوّر الذي مازال يصرّ على أن أضحك فَأُكَشّرُ وكأنّني أضحك. طقّة الكاميرا وجلال تلك اللحظة ما زلت أذكرهما تمامًا، كأنّني الآن خارجة من باب الأستوديو الذي تفوح منه رائحة نفتلين ثقيلة، وعلى مشاجبه عُلّقت بدلات باهتة لضباط

وفلاحين وقبعات مكسيكيَّة مع لباس رعاة بقر كامل كالذي ارتداه «ترانس هيل» في فيلم «مازال اسمي ترينتي»، يدي الصغيرة ضائعة في كفّ أبي يقبض عليها بقوة خوف ضياعي في زحام شارع التلل.

ما زلت أبحث عن رائحة الخزانة العتيقة في الغرفة التي خصَّصتها لي خالتي الكبرى مريم بعد أن جَلَسَتْ مقابل أبي وأقنعته بأخذي للعيش معها ومع خالتي الوسطى صفاء، قالت له إنَّهما وحيدتان بعد موت جدّي وجدّتي وزواج خالتي الصغرى مروة. أبي هزّ رأسه موافقًا، أملى شروطًا لم أسمعها، مريم وافقت وبدأت مع أمي بلملمة ثيابي وكتبي وأشيائي الخاصّة المبعثرة في الغرفة الصغيرة التي بناها والدي في فناء الدار قرب المطبخ حين ارتفعت في صدري هضبتان صغيرتان متماسكتان، زادتا من ثقلي وجعلتاني أقلّ كلامًا.

في منزل جدّي، فرحت بالغرفة العالية السقف، بمواعيد الطعام الصارمة والزيارات الدوريَّة إلى الحمّام مساء كل خميس وإلى بيت الحجّة رضية مساء كلّ يوم جمعة كطقس لم أفهم ضرورته، أول الأمر أزعجتني أصوات المُرَدّدات النشاز وراء الحجّة رضية، وأثرن أعصابي، كدت أختنق في الغرفة المزدحمة، لم أجرؤ على الهرب. في الزيارات التالية تمكَّنت روائح العرق المختلطة بعطر النساء من جذبي إلى الاسترخاء كأنثى يُهَيّجُ الإنشاد رغباتها.

في السنة الأولى لإقامتي في المنزل الكبير، أربكتني المساحات الهائلة، جعلتني شبه ضائعة بين الأدراج ودرابزين الحجر والحديد، الغرف الواسعة العالية المزخرفة السقوف، ملوَّنة بدقّة فنّان سمرقندي

التقطه جدّي من سمرقند أثناء إحدى سفرياته للبحث عن السجّاد العجمي، خصصت جدّتي المربع العلوي لإقامته التي استمرت ستة أشهر متواصلة، كان خلالها يستيقظ في الخامسة صباحًا، يتوضأ مع جدّي ويخرجان إلى الجامع الأموي، بعد تناولهما لطعام الإفطار الذي تعدّه جدّتي قبل نهوضهما وتضعه على الطاولة الواطئة قرب البركة الكبيرة.

السمرقندي لم يُعرف له اسم، كان يعود من الجامع ويدخل إلى غرفته الصغيرة، يخلط الألوان وينظّف الريش ثم يغمض عينيه ويغيب في نشوة الرسم كمتعبّد، حَوّلَ السقوف الثلاثة للغرف الكبيرة إلى تحف خالدة. ذاعت شهرته بين عائلات غنية تنافست في تزيين منازلها، عاش بصمت في بيت جدّي ولم ينطق إلا بكلمات قليلة مع جدّي، تابع صمته حتى رحيله مع زوجته الحلبيَّة وطفله إلى باريس مع ضابط فرنسي سحرته يدا هذا السمرقندي الذي يُشكِّلُ من الهواء تحفًا خالدة كما قال، بقيت سقوفه شاهداً أبدياً على عيشه ذات وقت في هذه المدينة، بقي وفياً لجدّي الذي اكتشف مواهبه وتوسّط له في زواجه من ابنة عبود الصمدي.

قبل رحيله إلى باريس أتى إلى منزل جدّي بثياب نظيفة، عيناه الصغيرتان ضاحكتان، احتضنه جدّي بقوة وقبّله مودِّعًا، قال له «أنت أبي»، بعد ذلك بعث إليه رسالةً وعنوانه في باريس وصورة فوتوغرافية كانت كالأعجوبة وهو يقف مع زوجته وطفله في إحدى الحدائق، زوجته دون غطاء رأس مرتدية ثوبًا ملونًا مفتوحًا، يكشف عن صدرها الأبيض ونهديها الكبيرين، وقبعة على النمط الاسكتلندي، ضحك جدّي وأعطى الصورة لجدّتي التي استنكرت سفورها ثم رمتها في مدفأة

الحطب، لم تعد لذكر سفور ابنة الصمدي التي أتت لزيارة أهلها بعد عشرين عامًا مع ابنها الشاب الذي يرتدي بذلة مبالغًا في أناقتها، وتفوح منه رائحة عطر قوي أربك مريم.

دهش ابن السمرقندي بمنزلنا الواسع، بأقواسه الحجريَّة وقناطره الداخليَّة، المزينة بعمودين من طراز كورنثي أضافهما جدّي ليصبحا مدخلاً افتراضياً لغرفته الخاصة، تفحّص المكان ثم أخرج كاميرته ليلتقط التفاصيل الدقيقة لزوايا المنزل وسقوف والده، بينما أمه ترتشف القهوة بهدوء وروية امرأة باريسية مع جدّي، كان ودوداً ومنشرح الأسارير وهو يستمع إلى أخبار ابنه السمرقندي الذي مازال يحفظ له الجميل لانتشاله من إحدى زوايا سوق عتيق في سمرقند إلى الفضاء الرحب للعالم، كما يردِّد دومًا أمام زائريه من طلاّب ودارسي فنّ الزخرفة. فرح جدّي بهذه الفتاة الحلبيَّة التي خلعت أثوابها السوداء، وأبدت مقدرة مدهشة على التأقلم، تعلّمت الفرنسيَّة بسرعة وبدأت تساعد زوجها الذي أعلنها عالـمًا له، عمل الاثنان على دخول بوابات باريس بتصميم سلحفاة تصعد جبلاً وعراً. وحدها مريم بقيت مذهولة برائحة العطر الذي تغلغل إلى أعماق مساماتها، ثم إلى قلبها، استرقت النظر إلى ابن السمرقندي، تفحّصته بخجل، خائفة أن ينتبه أحد إلى نظراتها الطويلة الذاهلة إليه وهو ينحني على الأرض مركِّزاً زاوية الكاميرا، متفحِّصًا دقّة المعاني في تناغم الحجر وخشب الجوز وألوان خطوط مازال الكثير منها لغزاً لم يستطع أحد فهم معانيه. بعد رحيلهما قالت جدّتي دون أن تنظر إلى عينيّ جدّي إنه بالغ كثيراً في التسامح مع ابنة الصمدي، كانت مريم كئيبة لرحيله، تفكر بالخطيئة التي لا تدري حتى الآن كيف حصلت.

لمريم وجه مدوَّر مع استطالة على الجبين ككل نساء أسرة جدّي بمن فيهن أمي، عينان خضراوان صافيتان، أصابع يديها طويلة، ناعمة كأرستقراطيَّة سوريَّة قديمة، قامتها طويلة، مثيرة وسط تكوين صدر عادي يضم نهدين غير فاتنين ورقبة متوسِّطة الطول، جعلها صفة قبح لا تستطيع العينان الخضراوان إخفاء آثاره.

في المنزل الكبير ضعت في الأروقة والغرف الثلاث الكبيرة، أسرتني مرآة كبيرة معلّقة في صدر غرفة مريم ذات إطار عريض من خشب جوز محفورة عليه أغصان نبات طفيلي وورد جوري؛ أستغل فترة غيابها لأدخل إلى غرفتها، أقف أمام المرآة، أتمعّن في تفاصيل وجهي وجسدي الذي أحسست بثقله، أرق نومي دون أن أعرف أني قد بدأت التحوُّل والدخول من بوابة الأنوثة المبكرة. لاحظت صفاء تحوُّلي، عاملتني بلطف ولمّحت إلى بعض الأشياء، عكس مريم التي أحسست بقلقها من وقوفي أمام المرآة مستعرضة قوامي وصدري، ذاهلة عن الأشياء الأخرى المثيرة في غرفتها.. كتبت لي حجابًا، راقبتني بصرامة وقسوة، علّقت الحجاب في رقبتي، أمرتني ألا أرفعه عنها لأنَّ الشيطان يتربَّص بجسدي، فتزداد صرامتي وصمتي يمتدّ.

الذكر الوحيد الغريب، المسموح له بدخول أرض الحوش والتجوُّل في أرجائها هو رضوان الأعمى، يسكن غرفة صغيرة في زاوية الحوش. رضوان الأعمى طويل القامة، نحيل، نظيف الثياب، تفوح من يديه رائحة عطر يتاجر به، يخلطه في زجاجات كبيرة ضمن مقادير يعرفها جيِّدًا، يعبئه بزجاجات بنسلين صغيرة، يقوم بإغلاقها بإحكام ويبيعها لزبائنه الخاصّين من نساء الجلوم وروّاد الجامع الأموي، مروِّجًا لتجارته

الصغيرة بأغانٍ عذبة تتداخل فيها الآيات القرآنيَّة والأذكار، يدّعي أنَّ ماركة هذا العطر الذي أطلق عليه اسم (الضرير رضوان)، معروفة في كلّ أنحاء البلاد العربية، ويفاخر أنَّ تجَّاراً مغاربة حاولوا بشتى الوسائل الحصول على سرّ التركيب الذي يجعل النساء لينات، لذيذات في الفراش وشبقات؛ والنوع الآخر يضفي على الرجال سحراً ذكورياً وفحولة لا تستطيع المرأة مقاومتها. أمام مريم يدَّعي أنَّ هذا العطر هو ما أمر الرسول صحابته التطيُّب به، وحدَّد لهم أزهاراً نادرة تنبت في الشام لاستخراجه.

كان رضوان يأكل ويشرب وينام مع رفاقه عميان الجامع الأموي المنتشرين حول مقام سيدنا زكريا، يقرأون الموالد، وفي المساء يتوغلون في أحياء حلب ومنازلها؛ رضوان لم يعرفه أحد إلا في الجامع كأنَّه وُلد وعاش وسيموت فيه، صامتًا وعيناه الفاقدتا النظر تتابعان دورانهما في محجريهما، تتشمّمان الألوان وبهجة ثياب المصلِّين.

أتى به جدّي إلى المنزل وخصَّه بغرفة كانت مخصَّصة ذات يوم لسائس الخيول وسائق عربة حنطور جدّي الثاني، نظّفت مريم الغرفة ونقل خالي الكبير سليم سريراً حديدياً صدئًا كان مهملاً في القبو وفراشًا من الصوف، لم يستمع جدّي لاحتجاجات جدّتي التي اعتبرت هذا الأمر خرقًا لحرمة المنزل من غريب، أكملت ما ينقص غرفة رجل مقيم وأعزب. عاش رضوان الضرير كخادم ذي صلاحيات خاصّة في غرفته مبتهجًا، داخلاً في نسيج العائلة ليصبح أحد أشكال الوجود الأبدي، لم أستطع تخيُّل الدار من دون رضوان، كان يجلسني على ركبتيه حين كنت طفلة، يخرج من خزانته الصغيرة سكاكر وألعابًا من القماش، يغني لي

بصوته العذب، أشعبط على صدره ثم أسترخي وأهدأ. حين أصبحتُ إحدى ساكنات الدار تحاشيته، عاملته بتكلف سيدة تعامل خادمًا، لا يحتج ولا يتجاوز حدوده، يتناول طعامه على طاولة المطبخ ويمضي. مريم لم تنس أبدًا مواعيد مائدته، وهو لم يتخلّف عنها، يرافقنا كل خميس إلى الحمّام، يحمل الصرّة الكبيرة ويقف أمام الباب لننهي اغتسالنا فيصحبنا من الطريق نفسه الذي لا تخطئه عكازه الغليظة.. يسير أمامنا مرفوع الهامة، بخطوات متساوية وثابتة، مشهدًا أصبح في الحلوم رمزًا لما تبقّى لخالاتي من مجد غابر صنعه الأجداد بثباتهم في المكان دون أن تنال منهم التحوُّلات التي لم تسلم منها المدينة وعائلاتها.

كل خميس أذهب إلى منزل أهلي بعد انصرافي من المدرسة، أتناول الغداء مع أمي وأخويّ الصغيرين حسام وهمام، كغريبين يسلّمان عليّ بأدب كأنّني زائرة طارئة، أمي تقبّلني دون اندفاع، أساعدها في تجهيز الطعام، تسألني ببرود عن أخباري وأخبار خالاتي ولا تنتظر جوابًا، موقنة أن لا شيء يتغيّر في بيت أهلها الذي تركته فتاة صغيرة لم تتجاوز الخمسة عشر عامًا. حين عاد أبي من الإسكندرية التي سافر إليها بعد الوحدة مع مصر مباشرة ليعمل بائع سمك فيها؛ كثيرون يشكّكون بصحة هذه الرواية ويقولون إنّ أبي كان من رجال عبد الحميد السراج. بعد سنتين من الانفصال عاد أبي إلى حلب، بدون مقدّمات طلب يد أمي من جدّي، تمّ كلّ شيء بهدوء شديد، أمي تتذكّره بغموض، شاب منتفخ الصدر، يسير بكبرياء مشمرًا عن ساعديه، متمهلاً، لا يلتفت إلى جانبي الطريق. بقيت أمي في بيت جدّي بعد الزواج، التحق أبي بخدمته الإلزاميّة التي استمرت

ثلاث سنوات ونصف السنة. . وُلدت خلالها، لم يفرحوا بقدومي، أجواء الحداد خيّمت على البيت الكبير بعد وفاة جدّتي التي أصرّت أن تلحق بجدّي الذي سبقها إلى الموت بسبع سنوات بطريقة تراجيديَّة تذكّر برجال اختاروا حياتهم وطريقة موتهم، لم يسمحوا لأحد بالعبث بهم رغم الشيخوخة التي كان يصفها جدّي بالوجه الآخر لمحبة اللّه لعباده.

استقال من عمله في متاجره الثلاثة، جمع أخوالي الثلاثة في غرفة الضيوف، جلست مريم وجدّتي إلى جانبهم، تحدَّث باختصار أنّه لم يعد قادرًا على إدارة شؤون تجارته ونقل العهدة لأخوالي. تحسُّبًا للطوارئ أوصى بتقسيم ثروته بحسب الشريعة، والمنزل بقي من نصيب البنات، لهن حقّ الانتفاع حتى آخر حياتهن فيه، خالي سليم احتجّ إلى لهجته المستسلمة محاولاً ثنيه عن عزمه، ضحك جدّي واستند على عكّازه آمرًا جدّتي ومريم بإعداد طاولة الغداء في غرفة الطعام المخصَّصة للضيوف، أمر بإخراج طقم صواني الفضة، لم يفهم أخوالي قصده إلا بعد أسبوع جاهد خلاله ليبقى محتفظًا بقدرته على الوقوف والسير كقائد عسكري يستعرض جنوده، تقبَّل مساعدة رضوان الضرير في التعكُّز عليه للذهاب إلى الجامع يوم الجمعة أو لقضاء حاجة، لم يسمح لجدّتي أن تخدمه كما العجائز، كان يقول لمريم وهو يتعكّز على رضوان «المرأة يجب أن لا ترى رذالة عمر رجلها كي تتذكَّره بحب». أربع سنوات ورضوان لا يتركه إلاّ آخر الليل، أحيانًا ينام قربه على طراحة فُرشت خصِّيصًا له في الزاوية، ذات مساء طلب جدّي حضور أخوالي في الصباح لأنَّه يريد زيارة القلعة، تداولوا الأمر فيما بينهم ولم يجرؤوا على إبداء أيٍّ رأي.

في التاسعة صباحًا كانوا ثلاثة رجال مرتبكين، طلب منهم مساعدته على النهوض فاندفع الثلاثة لحمله، أوقفهم بإشارة من يده، خيم الذهول على الجميع، تقدمهم باتجاه باب الدار الخارجي طالبًا من رضوان مرافقته، أهالي الجلوم لم يصدِّقوا المشهد، جدّي في المقدمة بجانبه رضوان المبتسم كأنَّه الوحيد الذي يفهم ما يحدث. متعلِّقًا بذراع رفيقه، وقف أمام باب القلعة، تأمَّل الأسوار العالية، تشمّم رائحة الأحجار وكأنَّه يصفِّي حسابه مع الزمن، انحدر إلى بوابة سوق المدينة المغطَّى، غاص في زحامه، تشمّم رائحة الثياب والنسيج والخيش، رائحة الذهب وتزاحم أجساد النساء، السوق المشعشع بالأضواء، بالعباءات المقصّبة والمنشورة في الواجهات، تقاطيع البسط ونقوش السجّاد، دخل خان الجمرك، وقف أمام باب محلّه، حيث وقف خليل مبتسمًا، قبَّله وعاد إلى مكانه.. تأمَّل جدّي طويلاً السجّاد المُكَدّس داخل المحل، قال بصوت مسموع لأخوالي ناظرًا إلى رضوان، «هذا الضرير له حصّة في كلّ أرزاقكم، إن أتى يوم واحتاج أنتم مسؤولون أمام الله...»، سليم غمغم ورضوان رفع رأسه مبتسمًا، بكفه ضغط على كف جدّي المبتهج بضوء الصباح، فرحًا بتجار الخان وزبائنه القدامى الذين التقاهم، فتح مساماته للهواء وللأصوات لتطرد ذلّ السنوات السابقة، ثابت الخطى عاد إلى منزله بعد أن صلَّى الظهر في الجامع الأموي مع أخوالي؛ ورضوان احتمل سخرية زملائه العميان الذين أنشدوا مولدًا مجانياً تحية لصديقهم المبتسم.

بعد الظهر عاد جدّي إلى منزله، رجل بكامل مهابته، داعب جدّتي بكلمات قليلة، أطرى على خالاتي وطعامهن اللذيذ الذي مُدّ على طاولة كبيرة وُضِعَتْ قرب النافورة، جلس الجميع يتلذَّذون بأحاديث مختلطة

بفوضى الأيدي المتشابكة الممتدة نحو الخروف المحشي باللوز والمسجّى فوق تلة من الفريكة المقليّة بالسمن العربي، أخوالي ذهبوا ليأتوا بأولادهم المتشوّقين لرؤية جدّهم وزوجاتهم غير مصدقات المعجزة التي تفننوا في إعادة سردها، نهض جدّي بعد أن غسل يديه، دخل إلى غرفته، خلع عباءته، اندسّ تحت الغطاء، تمدّد في الفراش ومات.

في المساء تذكّر أخوالي أنّه عرج إلى مقبرة الصالحين، تأمّل الشواهد طويلاً، أشار بعصاه «هنا ادفنوني»، راسمًا مستطيلاً يكفيه، مضيفًا «هنا سأكون قريبًا من أجدادي وأصدقائي»، اختفى رضوان أربعة أيام دون أن يلمحه أحد، أيقنت أنّ جدّي اختار موته، وبمساعدة رضوان استطاع تحديد لحظته الأخيرة.

تُروى في هذا المنزل حكايات ناقصة عن نساء ورجال ومعجزات فتنتني، جعلتني أسيرة الضوء المنعكس على ماء البحرة الحجرية المتوسطة للمسافة بين حدود دائرته التي نتحلّق حولها، نتشبّث برطوبتها في الصيف، ننقل كل أمور معيشتنا إلى فسحة الحوش، طاولة الطعام، مقاعد الخيزران الوثيرة والراديو لا يفارق صفاء، تبقى طوال أيام الصيف هدفًا لنوبات اكتئاب شديدة، وأحيانًا نوبات مرح لا يعرف أحد سرّه، تتبختر في لباس شفاف، ترفعه إلى ما فوق ركبتيها، ترشق الماء على النبات والحجر فتفوح رائحة عذبة في الفضاء مع رطوبة منعشة، تأتي بالقهوة وتجلس على طرف البحرة، تتمهل بشرب فنجانها مع نسائم أول العصر، تحتجّ مريم على عريها، صوتها يتعالى بلهجة قاسية مؤنبة. صفاء المسترسلة لا ترد، مفندة حجج مريم التي تقول إنّ رضوان سيأتي بعد قليل فترد «ضرير ولا يرى»،

تتابع مريم «بأنّ اللّه فوقنا يرانا»، فتردّ صفاء بأنّ «الله يرانا ونحن عراة وفي كافة الأشكال والوضعيات»، دومًا ينتهي الشجار ومريم تنهض من وراء ماكينتها «السنجر»، تجلس إلى جانب البحرة، تشرب القهوة بهدوء وتعود إلى قراءة سورة يوسف، ألحظ تجاعيد مبكرة على جبينها وقسوة في عينيها، تحاول إخفاء حنانٍ لمسته حين انفجر دفعة واحدة وأغرقني، بصرامتها وثيابها السود تحاول قتل شيء لكنّها لا تستطيع، لا تتحدّث به أمام أحد، لا تترك أيّة إشارة لوجوده أو حتى لمحاولة ظهوره، تخفيه في بئر عميقة ومهجورة، أحاول أن أسألها، أستجمع قواي ومفردات يجب صوغها في جملة، أتلعثم وتضيع مني المفردات، ترفع نظرها وتثبت عينيها بعيني منتظرة كلامي، أسكت وأنظر إلى جهة أخرى متحاشية التقاء نظراتنا مرةً أخرى.

عاد ابن السمرقندي مع أمّه لوداع جدّي قبل عودتهما إلى باريس، احتفى بهما جدّي، كانت مريم خائفة، غائمة مع العطر الفوّاح من ابن السمرقندي السعيد بزيارته الأولى إلى مدينة أخواله، طلب من الجميع الوقوف لالتقاط صور تذكاريّة ستُفرح أبيه، وافق جدّي، نظروا جميعًا بدهشة إلى فتحة الكاميرا، حبسوا أنفاسهم، بدا عمر في الصورة خائفًا ومريم شاردة، التقط صورة أخرى لجدّي بمفرده واقفًا قرب شجرة الكباد، صورة أخرى له جالسًا على كرسي الخيزران قرب البحرة، ثم صورة للجميع مع ابنة الصمدي، سيطر على الجميع جوّ مرح إلا مريم، كانت مخدَّرة لا تستطيع الخروج من حالة الذهول. قبل ذهابهما، دخل جدّي إلى غرفته، خرج حاملاً بيده لوحة متقنة الصنع لعمر الخيام، من حوله ساقيات الخمر وأشعار باللغة الفارسيَّة، دهش ابن السمرقندي بهذه التحفة التي قال

جدّي إنَّها سجّادة أصليَّة أتى بها من أحد مزادات استنبول تليق بنجاحات ابنه السمرقندي. جدّي منشرح الصدر أوصل ضيوفه إلى باب الدار، حين وقف ابن السمرقندي أمام مريم ماداً كفّه لمصافحة الوداع كانت قد وصلت إلى آخر غيبوبتها، رددت شفتاها بكلمات غير مسموعة «ذبحتني..»، لم يلحظ أحد تبدُّلها إلاّ جدّتي التي عرفت أنّ ابنتها تعيسة الحظ وأسيرة عشق مكتوم لا تستطيع الإفصاح عنه، ولا داعي لأن تخمِّن أيَّ شخصٍ لأنّها لم تر منذ بلوغها أي غريب وجهًا لوجه سواه، حاولت التقرُّب منها لتعترف لها، لكنّ مريم ازدادت كتمانًا، بقي سرًّها مفضوحًا بين أخواتها اللواتي حاولن بشتى الوسائل إقناعها بالعدول عن هذا الكبرياء الأجوف.

بعد شهرين من هذه الزيارة أتت رسالة من باريس، بتوقيع السمرقندي الذي خاطب جدّي بـ «أبي العزيز»، شاكراً إيَّاه على حسن استضافة ابنه وزوجته وعجزه عن الشكر على السجّادة التي قدّر أهميتها، كما ضمّن الرسالة أربع بطاقات من ابنه، واحدة لجدّي وهي عبارة عن كاتدرائية نوتردام، ولمريم صورة منظر طبيعي لسهوب خضراء ونوافير ماء وزهور صفراء وحمراء وليلكيَّة، وبطاقة لخاليَّ بكر وعمر، آخر البطاقات كانت لرضوان الذي أقنعه أنَّه أهمّ خبير عطور في المدينة، فأرسل له منظراً عاماً لباريس وعناوين أهم مصانع عطورها ليراسلها ويتبادل الخبرات معها، إضافة إلى البطاقات كانت صورهم مطبوعة على كرت بوستال كبير، تبادلها الجميع مسرورين، رضوان تلمَّس الصور وقال إنّه سيراسل المعامل الفرنسيَّة ليعرض عليهم اختراعاته وخلطاته السريَّة، بحث عن شخص يكتب له الرسائل ولا يفضح أسراره أو يستولي عليها! الصور وصلت إلى يد مريم، بعد ذلك نسي الجميع أمرها، ولم تظهر إلا بعد رحيل جدّي.

استأثرت مريم بغرفة جدّي، أعادت ترتيبها، غطاء سريرها الجديد طرزت حواشيه وفي المنتصف رسمت طاووسًا ملونًا، أعادت للصوف بهجته، مدّت شراشف زهريّة وسماويّة جديدة واحتفظت بالكثير من الأشياء على حالها، كرسي الخيزران والكومودينة والمرآة الكبيرة، مسحت الغبار عنها، أخرجت الصورة التي جمعتها مع جدّي وأمي وأخوالي وخالتي، وضعتها على طاولة صغيرة أمامها لتراها كل صباح، بجانب الصورة كان كرت بوستال إبن السمرقندي، الصورة والكرت أخذهما رضوان إلى نجار بعيد عن الجلوم كما أوصته مريم، أطّرهما ببروازين من خشب بني محروق، كنت أرى مريم تمسح الغبار عنهما بعناية، مريم التي لم تستيقظ من خدرها، استغلّت حاجة رضوان إلى من يكتب له رسائله إلى الشركة الفرنسيّة، تآمرت معه بسرّية تامّة واستمرّ تآمرهما دون أن يصلا إلى اتفاق، مريم تكتب له الرسالة باللغة العربيّة، تقرأها عليه بينما هو صامت، متأمّلاً السماء، يهزّ رأسه غير راضٍ، مضيفًا جملاً وحاذفًا جملاً أخرى، بعد ذلك يملي على مريم التي تكتب بحماس شديد، من يراهما جالسين يتناقشان وتعلو أصواتهما لا يستطيع تصديق أن هذه المرأة هي مريم، والرجل هو رضوان الذي يصرخ بصوت عالٍ أن هذا مستقبله العالمي ولا يجوز الاستهتار بأسلوب الرسالة، ويكمّل بأنّ الفرنسيّين يحبّون الدقّة في كلّ شيء، مريم تمزق الورقة، تنتظر كلمات رضوان الذي يهدأ ويتذكر أنّ التي يتعالى صوته عليها هي سيّدته، يعتذر ويصفن ثم يبدأ بديباجة أحد الموالد التي مازالت عالقة في ذهنه، تنبّهه أنّ هذا ليس رسالة إلى شركة فرنسيّة، يضحك ويروي لها عن رجل فرنسي كان يصطحبه إلى منزله ليقرأ مولدًا لنساء فرنسيات

يجلسن شبه عاريات على أرائك من خشب جوز محفور على تيجانها أسماء اللّه الحسنى، ويجزل له العطاء قبل أن يعيده بسيارته إلى باب الجامع الأموي باحترام بالغ، يعود رضوان للتفكير في الرسالة المناسبة وتركيب عطر طلبته مريم منه، اتفقا أن تبقى رسائله وعطرها سراً من أسرارهما، أقسما على حفظ السر، أشهدا اللّه على اتفاقهما وأسمياه (اتفاق الضرير ـ مريم)، اختصره رضوان فيما بعد إلى (اتفاق ضم)، لم يعجبها هذا الاختصار الذي يوحي بتعابير تخشى التفكير بها والإشارة إليها، كانت توصيني دائمًا أنّ الجسد دنس ومعصية، كلماتها تتغلغل فيّ كحقيقة غير قابلة للجدل، بدأت أقي نفسي من هذه المعصية المسماة جسدًا، كرهت نهديَّ المتفتحين بصلابة، تبرعمت حلمتاهما السمراوان بشكل كامل، أخفيهما تحت سوتيان قاسٍ صنعته لي مريم من الساتان المبطن بالكرتون، حين ينفلتان ألمسهما وأشعر بلذة غريبة. حين أرى طالبات صفي يرخين سوتياناتهن معرضات أثداءَهن للهواء والشمس في الباحة، أو لإغراء الشباب المتقاطرين على دروب مدارس البنات أشعر بغضب من دنسهن، أتحاشى النظر إلى حركاتهن والاستماع إلى أحاديثهن، يصفن الأوضاع الجنسية للقاء رجل وامرأة، البنات يروين هذه السير بشغف شديد، أحيانًا بأسماء الأعضاء الصريحة. فاطمة أجرأ هؤلاء الفتيات، تحاول التودد إليَّ فأنفر من ألفاظها الفاحشة ورائحة عرق مساماتها، ألتفّ حول جماعة دلال وأتبادل معهن الكتب الصفراء.

دلال رزينة، وقورة، تبدو في ثيابها السوداء قائدة لنا، جسمها ضخم، أوامرها قاطعة تلقيها بعبارات مختصرة وصوت خشن، تهيمن

علينا ونحن أربع فتيات، سعيدات بقائدة لا تتوانى عن مسك شعر أيّة بنت تحاول السخرية من صمتنا وثيابنا السوداء. دلال تقول المرأة مجموعة أوساخ متحرِّكة، لاتسعفها ذاكرتها بعبارة مقتضبة، مختصرة، مؤثّرة فتثرثر بجمل غير مترابطة، أهزّ برأسي موافقة على كلّ شيء كي أحظى بالجنّة.

الغرفة التي خصصتها لي مريم، رتبتها بذوق سأظلّ دومًا أحاول إعادته، السرير الحديدي المملوكي وفراش الصوف، شراشف معطّرة بيضاء ناصعة، طاولة صغيرة من خشب عتيق وضعت فوقه مفرشًا مطرزًا لإخفاء ندوبه المهترئة، كرسي محفور على تاجه ثعبان وفراشة لا أعرف كيف جمعهما الصانع، أجلس على الكرسي المريح، أشرد ساعات في زوايا الغرفة العالية، خزانة للابسي ومكتبة صغيرة لكتبي، أثمن هذه الأشياء سجّادة صغيرة عجمية من جهاز عرس جدّتي الثالثة، نصيبي من حصص نساء العائلة وفروعها من السجّاد، أحببت نقوش السجّادة، خفت أن أثقل عليها بقدمي فعلّقتها على الجدار، مدَّدت مكانها بساطًا متشابك الألوان ومهترئ الحواف، فرحت مريم حين رأت السجّادة معلّقة على الحائط، غرفتي تنفتح مباشرة على أرض الحوش، من نافذتها أرى ضوء القمر الساطع بفضته على البحرة فيشدّني المشهد وأحسّ ببرودة تداهمني، تعلَّقت بتفاصيلها، أصبحت عالمي الصغير، زيّنت جدرانها بلوحات رسمتها أثناء فترة صمتي الذي امتدّ وبدأت أفقد شهيتي للكلام.

بعد عودتنا من الحمّام تدخل صفاء إلى غرفتها، تخرج زجاجة عطر ملفوفة بقميص نوم شفاف، تخلع ثيابها وتدهن جسدها بكريم زهري، ترشّه بالعطر، ترتدي قميص النوم وفوقه عباءة مغربية تخفي معالم مفاتنها،

تعود إلى غرفة المعيشة ولا تشارك مريم تحضير عشاء يوم الخميس، نجلس إلى المائدة صامتات، تنهض صفاء وتدخل إلى غرفتها ولا تخرج منها حتى الصباح. مريم تفتح القرآن على سورة يوسف، تتابع قراءتها اليوميّة لتنهض في موعدها تمامًا الحادية عشرة ليلاً، تندسّ في فراشها، لم أستطع فهم سرّ انسحاب صفاء من سهرة الخميس إلا بعد سنوات عديدة، حين أصبحنا نتحدَّث بطلاقة عن الرجال الذين لا نراهم وعن لذة لا نلمسها.

جدّتي تخلَّت عن مشروع تزويج مريم، بعد رفضها لثلاثة عرسان بالغت جدّتي في توصيف أنسابهم وجمالهم، دومًا مريم تعدِّد عيوبًا غير موجودة، تتأفّف من هؤلاء العرسان ثم تعود إلى غرفتها، تخلع ثيابها وتلفها رائحة عطر غريب استوطن مساماتها، يفوح كل يوم من أحلامها وجسدها المسجّى في السرير كجثّة باردة تنتظر الخلاص وحرارة رجل جاهدت لتعيد رسم ملامحه، محاولة توصيف رائحة العطر لرضوان الضرير الذي يستمع إليها بصمت، ينهض إلى غرفته معيدًا تركيب الروائح، بابونج مع يانسون مع روح الجوري، يعيد الخلطة في اليوم التالي، يقدِّمها إلى مريم، تشمّها وتعيدها إليه أو تقذف بها إلى سلّة المهملات دون أن تكترث إلى غضبه، يبربر بأنَّ ما فعلته استهتار بخبرته وعطوره، فيما بعد يتذكّر أنّها تكتب له الرسائل إلى الشركة الفرنسيّة وتحفظ أسراره وأنّها سيِّدته، يهدأ صوته، يعاود الاستماع إلى توصيفها الذي تبدأه بتمهل شديد، كلمة كلمة تعيد توصيف تلك الرائحة التي سكنتها.

بعد سنوات من الجدل والتجارب الفاشلة نسيت مريم أمر تركيب العطر، بعد أن قال لها رضوان بجرأة، احتاج إلى صبر سبع سنوات

ليمتلكها: هذه رائحة رجل تحبّه وليست رائحة عطر. أيضًا نسي رضوان أمر الشركة الفرنسيّة بعد أن ردّت عليه برسالة مختصرة، تطلب منه عدم إرباك قسم العلاقات العامّة في الشركة، وأنّ ما أرسله ليس عطرًا بل روائح عطريَّة.

قرأت مريم الرسالة بتمهّل وتشفٍ واضحين، أعادت الكلمات أكثر من مرّة، ثم حزنت حين رأت الخيبة ترتسم على وجهه كأن دموعًا ستطفر من عينيه، أمسكت بيده الباردة، واسته بكلمات رقيقة، تابعته وهو يمضي إلى غرفته حاملاً الرسالة بيده متعثرًا بالبلاط، فقدَ مواقع الأشياء، اختلطت ذاكرته بمكان حفظه عن ظهر قلب فلم يخطئه أبدًا. بقيت الرسالة التي لم يقرأها أحد سوى مريم دليلاً على جحود الغرب الكافر بحق العبقرية، كما كان يردِّد رضوان لرفاقه العميان حين يذهب إلى زيارتهم في الجامع الأموي، يحمل إليهم الطعام والحلويات التي تصنعها مريم، بثقة يمشي إلى باب غرفة الشيخ عبد الجبّار الذي يرحب بصديقه ويدعوه إلى الجلوس على السرير. في باحة الجامع الأموي، يطلق صرخة يعرفها جميع العميان فيتقاطرون إلى الغرفة، يشمّون رائحة الطعام والحلويات ولا يخطئون رائحة رضوان الذي يستهلّ ترحيبهم به بقصيدة نبوية شاكرًا إيَّاهم على الاستقبال الملوكي، كما كان يقول وهو يصفهم الواحد تلو الآخر، يردّ على سخرياتهم وهزئهم منه بتسامح كبير، يتقاطرون جميعهم إلى شوارع المدينة، غير آبهين بنظرات مارة يستهويهم منظر العميان التسعة المنقسمين إلى ثلاث مجموعات، يتهامسون بعربية فصيحة، يضحكون بصوت عالٍ أو ينشدون أغاني غزل واصفين وجوه نساء غريبات عن عوالم البشر.

شيء لا أعرف توصيفه يكبر داخلي، يمنحني هدوءاً لم أعرفه من قبل، بعد نوبات قلق وهواجس ألـمّت بجسدي ودروس مريم عن الطهارة والجسد المشدود إلى نار جهنم بذنوبه، بدأت أشعر أنَّني أكثر قرباً من الصورة النورانيّة، تتوضّح ملامحها كل يوم عن مؤمنات طاهرات لم يدنسهن إلاّ رجل الحلال الذي سيأتي ذات يوم، سأجلس بين يديه خادمة مطيعة معترفة بقوامته عليّ، أخدمه كجارية وأتعبَّد ربي كي يلهمني أسرة صالحة.. صورة رسمتها لي مريم بدقة متناهية، تستشهد بآيات قرآنيَّة وأحاديث نبويَّة، بسير أولياء مولعة لحدّ الافتتان بها، أجلس على كرسي مقابلة لها قرب النافورة حين يبدأ المساء منعشاً في ليالي الصيف، أو قربها على الكنبة في ليالي الشتاء، أو ملتصقة بها في مجلس الحجّة رضية التي يتردَّد صوتها العذب على وقع الدفوف منشدة سيرة رابعة العدويَّة، يأخذنا ذلك الوجد العميق أنا وبقية النساء، تنهمر الدموع على خدودنا، نتمايل كأغصان حور رقيقة، ذاهبات في سفر بعيد تنفتح طرقاته على أنهار العسل واللبن ولذّة اليقين، الحجّة رضيّة تنشد وصوت الدفوف يتغلغل في مساماتي، أطير فوق المدن والمنازل، أتطهر وأهبط على أسوار الجنّة، أرى الأولياء مرفرفين بعباءاتهم البيضاء كطيور نورس فوق بحر شديد الزرقة. همت في عذوبة الصوت وإنشاد النساء والذهاب في وجد تعلّمت أسراره، أصعد درجاته رويداً رويداً، قبل وصولي إلى الذروة التي تنفتح لي من بعدها السهوب، ألحق بالأولياء وأرى وجوههم الرضية البشوشة. أيّة عذوبة كانت تتملَّكني، تغسلني، تعريني وتجعل منِّي أسيرة حلم طويل ظلّ يراودني طوال حياتي، النبي قادم من بعيد بعباءة ناصعة البياض، يسير فوق الماء بهدوء المتأمِّل، يقترب منِّي وأنا أبتعد، أراه يمدّ

ذراعيه إليّ، تحفّ به طيور ملوّنة.. يذكّرني صوتها برنين الذهب، يقترب النبي، خطواته يمحوها الماء وأنا أبتعد كي أصل إلى طرف الماء الآخر، أتربّع منتظرة قدومه الجليل، أسمع صوته العذب يتردّد ويغمرني الصدى، «اقتربي يا بنيّتي المؤمنة»، أقترب منه فيطير، تقول لي مريم مستبشرة إنّها أبواب الجنّة، قلت لها «لكنّه كان يطير»، قالت «نعم لقد طار وعرج إلى السماء»، مريم تباركني، الدموع تطفر من عينيها وتنصحني، «خبئي أسرارك»، أتقنت هذه النصيحة، بدأت أخفي أسراري، أتحاشى الجلسات الطويلة مع صفاء، لا أستطيع النظر إلى عينيها دون أن تتملّكني رغبة البوح بكلّ شيء. صفاء تحذّرني من الذهاب بعيدًا في الوجد وطقوس الحجّة رضية دون أن تفصح عن معناها بكلمات واضحة، تدخل إلى غرفتي ليلاً، تستلقي على سريري، تمسك أيّ كتاب ثم تعيده إلى مكانه، تمسك كتابًا آخر، سرعان ما تملّه، أراها شاردة، عيناها معلّقتان في السقف وجسدها مسترخٍ على السرير، تشتم الصمت والهجران، تفتح الباب لتخرج إلى أرض الحوش، تجلس على كرسي القش الكبير قرب البحرة تنتظر شيئًا ما، أحيانًا تخرج صباحًا وحيدة لزيارة مروة، أسمع حوارها العنيف مع مريم التي ترفض خروجها وحيدة، تؤنّبها وتتّهمها بالفجور، تردّ صفاء بكلمات مقتضبة مختصرة وقاسية، تترك ملاءتها السوداء على وجهها وتخرج، مريم تلبس على عجل وتهرع خلفها، يلحق بهما الضرير رضوان بعد أن تستدعيه مريم فورًا، يكتمل المشهد المألوف لسكان الجلوم، خالتاي في لباسهما الأسود الطويل الذي يخفي بياض جسديهما حتى أصابعهن الطويلة، أمامهما رضوان صامتًا، لا أحد يرى دموع صفاء تحت الملاءة السوداء، مريم تسير

بخط مستقيم دون أن تلتفت أو تحرّك رأسها عن نقطة ثابتة في الأفق، رضوان يعود إلى غرفته، أبقى وحيدة في المنزل الموحش. ينتابني فضول لأستطلع المكان بهدوء وروية، أدخل إلى غرفة مريم، أقف أمام المرآة أستعرض وجهي وتفاصيل جسدي النجس، كرهت نهديّ المشرئبين كقرني غزال، تمنيت لو أنّهما ليسا بهذا الارتفاع، تساءلت كيف يموت الجسد؟ كيف تموت الحلمة والمسامات والرغبات؟ كيف سأسير في ذلك الدرب المضيء المؤدّي إلى صفحة الماء حيث رابعة العدوية خارجة للتو من الملكوت باحثة عن وجه اللّه، أمدّ يدي إليها، أنتظر عبقها، أسألها أن تأخذني معها في درب النور، تمدّ يدها إليّ، ألامس أطراف أصابعها، تنتابني قشعريرة تهزّ أعماقي، تتحرّك الآسنات، أقول لها عمّديني بالماء المقدّس واتركيني على ضفة اللّه وحيدة، أرى عينيها ذاهبتين خارج حدود اللغة المتداولة، صمت عميق يمتدّ بيننا، أسمع صوت دفوف بعيدة، تقترب رويداً رويداً، كل الجهات تضج بالصوت الناعم المضبوط الإيقاع، من بعيد تتراءى لي أشباح وجوه، هياكل بشر، وجوه بلا ملامح وتقاطيع ملساء، لا أفهم النشيد، يد رابعة تزداد دفئًا وحنانًا، تعرق أصابعي وتتصاعد النشوة في نسغي كشجرة دائمة الاخضرار، تقترب القافلة من مكان وقوفنا، وجه رابعة ما زال غارقًا في صمته، أحصنة سوداء وكائنات دون ملامح ودفوف، أرفع نظري لأستفسر من رابعة عن هذه الجموع، أراها غارقة في تمتماتها، لا أفهم معاني الكلمات الناقصة، تقودني من يدي ونخرج، لم أدرِ إن كنّا قد طرنا أم أنّنا عبرنا شوارع الجلوم وتغلغلت فينا رائحة الزعتر والبهار المنثورة في فضاء الأزقة الحجريَّة.

كانت الأرض فسيحة، مروج عشبها غضّةٌ كسندس وصحارى رمالها تلتمع كنثار الفضّة، بيوت من حجر أبيض دخلناها، سمعت أصوات أناس لم نر أحدًا منهم، ضحكات نسائيّة وزعيق أطفال وضجيج آلات موسيقيّة. خرجنا إلى شارع ضيّق كلّما سرنا فيه ضاق أكثر حتى وصلنا إلى نقطة لا تكفي لعبورنا متجاورتين، رابعة ممسكة بيدي وأنا خلفها ألهث محاولة اللحاق بحفيف ثوبها الأبيض وشعرها المجدول، لم تلتفت إليّ، أكملت سيرها خلف جموع الأحصنة والمنشدين وعازفي الدفوف. في نهاية الزقاق ضاقت المنطقة على جسدي ومنعت عبوري بينما رابعة تسلّلت بخفّة، كأنّي رأيت الجدران تنزاح كي تعبر، عبرت رابعة وتركتني وحيدة، مددت يدي لأستعيد دفء راحتها، نظرت خلفها ابتسمت لي ثم غابت وانفتح البرزخ إلى ماء لامتناهٍ، ابتعدت أصوات الدفوف وغابت الأحصنة، بقيت وحيدة، كل شيء من حولي صامت، الحجارة والماء والسماء، عدت وحيدة، وكان جدّي ممسكًا بيدي يقهقه، ومن خلفنا كانت خالاتي الثلاث في لباسهن المعتاد يسرن خلفنا بخطى منتظمة. عند أول منعطف رأيت رضوان يقود قافلتنا إلى باب الدار الضخم، يتركنا في عرائها الفسيح ليغيب في غرفته دون أن يتكلّم كعادته، من حولي النبات وأمامي الماء، أيقنت أنّ رابعة لن تهبط من سقف الغرفة كي تقودني من يدي مرة أخرى إلى ماء لا يشبه ماءً أعرفه، كلّما حاولت تركيب الصورة كاملة كان الماء الآخر يطفح في ذاكرتي بلونه العسلي الممزوج بالأخضر، أحسست بتعب شديد، دخلت إلى غرفتي مرتجفة، تسلّلت إلى سريري ونمت بعمق، حاولت استعادة تفاصيل وجه رابعة التي لم أنتبه إلى تقاطيعها ولون عينيها، غابت عني الملامح والأصوات والروائح كأنّي في غيبوبة أو في

طريقي إلى نوبة هذيان، لم أستيقظ إلاّ على ضجيج خالاتي، سمعت صوت مروة، نهضت من فراشي متعبة، غسلت وجهي على عجل ودخلت إلى غرفة المعيشة، كانت مروة تنتحب، احتضنتها ودفنت وجهي في شعرها، وأحسست بآخر شهقاتها وهي تبعدني كي تتأمّل وجهي الذي لم يستعد صفاء سمرته بعد، لم أستطع فهم ما جرى، خالاتي يتكلّمن دفعة واحدة ويسكتن دون أية مقدمات، بعد قليل دخل رضوان إلى الغرفة، قال «سيأتي سليم»، ثم غادر وصمتت خالاتي.

لخالتي مروة شامة على خدها، هذه الشامة إرث عائلي قديم انقطع منذ جيلين، حين رأتها جدّتي لأول مرة قالت هذه ستعيد السلالة إلى مسارها الصحيح، الإناث من بعدها سيستمتعن بحياتهن وينجبن، لن تدخل العزلة إلى قلوبهن. جدّي اليائس لم يكترث، يقينه أنّ بناته لن يقطعن حبال العنوسة. كان يؤمن أنّ القدر وإن أخطأ مرة إلا أنّه لا بدّ سيعود كل شيء إلى مجراه الطبيعي، لذلك لم يكترث بحجب تطوق عنق صغيرته وخرز أزرق استحضرته جدّتي وصنعت منه أطواقًا ملوّنة، كانت مروة تتزيّن بها حين ترافق جدّتي إلى مجالس العائلات التي تثير رغبة مريم بشتم هؤلاء المنحرفات اللواتي يجتمعن كأنّهنّ في بازار يستعرضن فيه قوام بناتهن ولدانة أجسادهن وحجم أثدائهن وصلابتها، يجري الحديث دومًا عن صفقات غامضة بين نساء يستمتعن بالبيع والشراء وإبراز مفاتن أولادهن الغائبين وبين أمهات الفتيات المتبخترات بأثواب طويلة مثقلة بالجواهر المزيفة، وجوههن مطلية بالكريمات، تفوح من أجسادهن روائح عطور غريبة تختلط فتثقل الأنفاس، العجائز الخبيرات يمددن أياديهن إلى

الشعر والأسنان والنهد، يعرّين الصدر ليتحسّسن الجسد البض، المتفتح للتو بشهوات ملوَّنة، يجري توصيفها بدقّة في غرف العذراوات. أتى خالاي سليم وبكر، بكت مروة أمامهما، قالت إنّها لم تعد تطيق حياتها مع زوجها الذي لا يعود إلى البيت إلا مخموراً ومحششًا، يضربها ويركلها بقدمه، يشتم أهلها ويتهمها بتخريب حياته، كشفت أمامنا عن ظهرها الأبيض، أشارت مريم إلى بقع زرقاء وكدمات حمراء قانية تشبه آثار سياط، سليم يكتم انفعاله وبكر ينظر غاضبًا إلى أخيه تارة وإلى ظهر خالتي المكشوف تارة أخرى؛ ظلّت تراودني الألوان المبقعة لجلدها المحروق كأرض جافة. هدأت مروة بعد أن طمأنها سليم أنّه سيضع حداً نهائياً لتصرفات زوجها عبد اللّه النيشاني ولن تغادر هذا المنزل ما لم يغير سلوكه، أقسم بكر أنّه سيهشم رأسه بمطرقة الحديد المعلقة في قبونا أمام كل أعمامه الذين تدخلوا أكثر من مرة للحدّ من تصرفاته العنيفة. رحل خالاي آخر الليل، حضورهما مناسبة لحديث طويل عن أحوال الجميع بمن فيهم رضوان الذي أخبر صديقه بكر أنّه يركّب عطرًا جديدًا سينزل إلى الأسواق، سيطلق عليه اسم (عطر الأسرار). تحدَّث بكر عن سفرياته المتزايدة إلى أماكن مختلفة من العالم لضرورات توسيع تجارته، فرحت مريم بلم شمل العائلة، نسيت تذمّرها من تصرُّفات صفاء، تناست مشكلة مروة بعد خروجها إلى غرفة صفاء، خلعت ثيابها فبدت في ثيابها الخفيفة جميلة دون تكلف، رأيت رقبتها وشعرها مفروداً من تحت غطاء رأس خفيف ربطته حول عنقها. سليم سألني إن كنت أحتاج أيّ شيء، وأثنى بكر على أخلاقي المستقيمة التي أصبحت مضرب المثل بين جميع أفراد العائلة، ردَّد بفخر «أتركوها لي هذه حصتي، إنّها ابنتي»، سررت باهتمام

خالي بكر الذي كان يمثّل بالنسبة لي العنفوان والألق بقامته الطويلة وجسمه القوي وملامحه التي توحي بقسوة مبطنة بحنان هائل وحزن عميق لم يستشفه أحد أو يلمح ملامحه، عيناه تدوران في محجريهما دون أن تتوقفا كنيران تشتعل في أعماقه دون أن أفهم هذا القلق والتكتم في تحرُّكاته التي أصبحت مريبة ومثيرة، يغيب لأيام طويلة دون أن يخبر أحداً عن وجهته. زوجته اشتكت لمريم التي روت لها أنّ جدّي كان يردِّد أنّ التجارة أسرار، كنت أودّ القول لمريم بأنّ المدينة أسرار، الشوارع أسرار، الحجارة والناس، البيوت والغرف، القلوب و.. حتى الضحكات أسرار في مدينة تحتفي بالأسرار ويُمارَسُ كل شيء فيها بعيداً عن الأعين. في الآونة الأخيرة أحسست بتواطؤ الجميع ضد الجميع، هذا التواطؤ رأيته في عينيْ مروة التي استعادت سريرها في غرفة صفاء، انشغلت الاثنتان بأحاديث جانبية تحاولان كتمها عنِّي، حاولت الاقتراب منهما والتجسُّس على أحاديثهما الخافتة وهما تنسجان الصوف، أحسست بعيني مروة تغمرانني بمحبتها، توقظني إلى المدرسة، ترتّب سريري ريثما أغسل وجهي، تحضِّر إفطاري وقهوتها، كلماتها قليلة، رقيقة تغمرني بفيض خفي من حنان أحسست أنِّي أحتاجه أكثر من أي وقت مضى. الأسئلة تضطرم داخلي، في المدرسة أنغمس مع دلال والبنات الأخريات الملفعات بأثوابهن السوداء بتوصيف نار جهنم وعذاب قبر ترعبني صوره وتجتهد البنات في سردها بجدّيّة، أحسّ بأنّه على الضفة الأخرى للشارع سينتظرني ملاك الموت الأسود، سيفتح لي أديم الأرض وهناك سأجول معه بين الجثث الناهضة، في الطريق إلى الصراط سأنتظر دوري، لا ملامح لوجهي، كائنة مسطحة دون ندوب تسير على الصراط، إن سقطت

قبل أن أصل إلى بوابات الحليب والعسل والأنهار العذبة حيث يجتمع المؤمنون، سأهلك وسط ذنوبٍ لم أعد أعرف كيف سأبتعد عنها. في المدرسة أصبحت عدائيّة مع فاطمة وجسدها اللدن، تقفز في ساحة المدرسة أثناء الفرص ودروس الرياضة، ينكشف صدرها ولاتبالي، تستمتع بإرخاء سوتيانها الزهري الشفاف المصنوع من الدانتيلا الخفيفة، عكس السوتيان الذي يحتضن ثديي محاولاً قتل الحلمة التي بدأت تختفي نحو الداخل، لم أجرؤ على لمسهما كي لا تستيقظ شهوات كانت دلال تحذِّرنا منها. الحجّة رضية تبكي حين تصل إلى رابعة، أقول لها «أنجديّني»، الغطاء الأسود يغطي شعري ووجهي فأشبه سمكة تسبح في قار أسود. مدَّت يدها إليه، نزعته وقالت لي «سيري معي»، لأول مرة أرى وجه رابعة يلتمع بهاءً منثوراً على ذرى أشجار النخيل والفستق في الطريق، الدفوف تحف بنا، يترجل فرسان وجوههم تشعّ منها الأنوار، تطفح بمسرات بعيدة حاولت ملامستها، مددت يدي ورفعت قامتي، سحبتني رابعة وقالت لي «دعك من هذا، الشمس تنير كلّ شيء». قلت لها «وهؤلاء الرجال؟» ضحكت، رأيت شفتيها تنفتحان على ابتسامة عذبة وأسنان تلمع ببياض لم أر ما يشبهه، كبلّور مشع أو كريستال متعدِّد الوجوه. قالت لي «هؤلاء ليسوا رجالاً». نجتاز حقول نخيل وفستق، تظللنا بأغصانها، تنتشر في الفضاء رائحة عطر خاص لم أتشممه من قبل. رابعة تسير بجانبي أو أسير بجانبها، تشير إليَّ، «هل رأيتِ وجه الله؟» رفعت رأسي إلى الأعلى، كأنّي أرى زرقة السماء لأول مرة صافية، «أين وجه اللّه يا رابعة؟» وحيدة في حقول الفستق والنخيل، الأرض أمام أقدامي تنغلق مساربها، أحسّ بوحشة ووطأة تزداد كلّما اقتربت من نهاية

الحقول، خوف ومشاعر غامضة تنتابني كالتي تزداد إيغالاً حين أجلس قرب الحجّة رضية المتسامحة معي، التي حاولت الإجابة عن أسئلتي المخيفة، قلت لها إنّي أرى رابعة، سألتني «هل تذهبين إليها أم تأتي إليك»، لم أفهم دلالات سؤالها، لا يهمّ إن كنت أذهب إليها أم تأتي إليّ، المهم أنّنا نسير وسط الحقول ونعبر أنهارًا لم تعد تخيفني بعدما رأيت الفتيات يغتسلن بمائها دون أن يفتض النهر بكارتهن أو يؤذي عفافهن، أضافت الحجّة رضية «إنّها أنهار الجنّة وليست أنهار الدنيا»، خرجت من حقول النخيل والفستق كئيبة. الشمس التي كانت تظلّلنا تجهمت، أعلنت سخطها من الحجاب الثقيل الذي نرخيه فوق وجوهنا.

أخرج من المدرسة مثقلة بأحلام يقظتي، أدخل الأزقّة الضيّقة، سألت مريم «هل هناك روائح محرّمة؟» قالت دون أن تتمهل «نعم رائحة الرجال الغرباء». بقيت أتحاشى هذه الرائحة المحرّمة، أتحاشى النظرات والتقاء العيون غير المقصود الذي يزلزل أعضائي، وأعاقب نفسي بقسوة تريح مريم، تخفّف صفاء من إحساسي بالمصيبة الذي ينتابني، يجعلني أسيرة وهم أنّني تلوثت وأعضائي دخلت كهوف الحرام كأنّ هذه النظرات استباحت عفتي وتغلغلت إلى أعماق أنوثتي المصانة بحجب ودعوات وحبال صراط أسير عليها إلى أبواب الجنّة، من هناك سأصعد الأدراج العالية لأجلس في حضرة اللّه.

الروائح الحرام تلاحقني، لم أعد أقترب من رضوان كي لا أشمّ رائحة رجل غريب، كدت أنجح في إقناع مريم بمنع رضوان من دخول غرفة المعيشة دون استئذان، ووقوفه بعيدًا عنّا حين يحدّثنا، لولا تدخل

صفاء بعنف لم أعهده فيها قائلة «أتريدان جعل المنزل تكيّة»، تراجعت مريم لحاجتها الشديدة لخادم كرضوان، مازالت تصف له رائحة ابن السمرقندي، لم تيأس وبالغت في مدح عبقرية رضوان بتركيب العطور، رغم أنّه فشل ولم يعد يأخذ توصيف مريم على محمل الجدّ، كان يأتيها كل شهر بقارورة دون اصطفاء، يسهب في شرح خصائصه وينتهي بالصلاة على النبي فتردد وراءه مريم ما ذكر وتشكره.

مروة فردت ثيابها، رتَّبت أشياءها القليلة في الخزانة، بهدوء شديد استمعت إلى خالي سليم يخبرها أنّ زوجها قد تمادى كثيراً في التهديد إن لم تعد إلى المنزل دون أيّة شروط. ضحكت مروة وقالت إنّها لن تعود، ستعد نفسها للعيش دون رجل، أخرجت أثوابها الملوّنة، رتَّبتهم بجانب أثواب صفاء، غرقت الاثنتان في أحاديث طويلة لا تنتهي، تقطعها أصوات نشيج مكتوم أو ضحكات فاجرة تستثير مريم فتكتم غيظها، ترفع نظرها إليّ كأنّها تستجديّ لي الصمم كي لا أسمع، تشوقت للاختلاط بهما ومشاركتهما سهرهما على السرير الواسع، كانتا تضطجعان في ثياب نومهما الرقيقة الناعمة، الزاهية الألوان.. أدخل غرفتهما، تفسح لي صفاء مكانًا قربهما، أجلس على حافة السرير ولا أعرف ماذا سأقول، أتأمَّل صدر صفاء الأسمر الذي يشبه صدري، أرى ثدييها اللذين حافظا على صلابتهما رغم تجاوزها الثلاثين، أحسّ بارتجافهما في النعومة التي يمنحها الساتان لنهدين محرومين من لذة الانفلات الآسر في فضاءات رجل يرخي حبال الحرير من أصابعه لتصعد النشوة إلى سماء مفتوحة. مروة تسترخي بهدوء، تهزأ من روائح عطر النساء وأحاديثهن التافهة عن

أولادهن الغائبين. ذات يوم اصطحبتها أم عبد اللّه إلى الحمّام، حاصرتها مع نساء العائلة اللواتي لا يعرفن أهمية الخصر المدقوق على ورك بارز قليلاً والصدر المنسوج كطيات رمل في صحراء لم تمسها ريح، النهدان المعتدلان في كبرياء كتاجين من المرمر الصقيل، مددن أياديهن إلى شعرها، كادت أخت عبد اللّه أن تقتلعه، صرخت مروة أنّ هذه بضاعة أصليّة.

تلعب مروة بخصلات شعرها وتقول خسارة في بيت النيشاني! تكمل مروة هازئة من أم عبد اللّه التي تفوح من فمها رائحة تشبه الحامض، لا أعرف كيف احتملتها، تضيف لا أعرف كيف احتملته ثلاث سنوات.

جدّتي كانت تريد لهذا الزواج أن يتمّ بأيّ ثمن، مروة قالت لي رائحة الرجال لذيذة إن كانوا رجالاً، لم أفهم معنى كلماتها. تنهض بهدوء ورويّة، تدخل إلى المطبخ، تحضّر شايًا ولا تنسى أعواد النعناع والقرفة، لا تأبه كثيرًا أن يُزعج ضجيجها مريم المستغرقة في النوم على سريرها الفسيح، بجانبها كومودينة صغيرة تخفي في درجها الثالث صور شاب أقرب إلى الطول منه إلى الاعتدال في القامة، أسمر البشرة وذي عينين ذكيتين، صور أخرى تشتمّ منها تلك الرائحة التي لم يستطع رضوان الوصول إلى أسرارها. ما زالت مروة تتذكّر أنّها سمعته يقول محتجاً على زعيقها له بأنّه عطّار فاشل، وبأنّ هذه المرأة تريد مضاجعة رائحة رجل، مروة تدخل إلى الغرفة حاملة صينيّة مفضّضة عليها ثلاث كؤوس كبيرة، تصبّ الشاي، أرى في الضوء الخفيف قامتها المتمايلة بخبث لذيذ، تقدّم لي كأسي بتمهل وتمثيل «تفضلي يا صغيرتي»، تغمز صفاء فتمدّ يدها إلى تحت الفراش، تخرج علبة سجائر ألحظها لأول مرّة، خالتاي تدخنان باستمتاع، تلتفت إليّ مروة، قرأت استنكاري الخفي قالت «إنّه مكروه

وليس محرمًا»، خجلت وأحسست بحب كبير لمروة وصفاء التي سرحت بعينيها المعلقتين في السقف، استضفتهما في غرفتي بعد نوم مريم، تعلّقت بمروة وصوتها العذب، يتعالى في الليالي منشدًا أغاني عذبة عن الهجر والفراق، وأخيرًا بأعذب أغنيات أم كلثوم التي دخلت نسيج حياتنا اليوميَّة. نفضت مروة الغبار عن زهدنا بالموسيقى واكتفائنا بأناشيد الحجّة رضيّة التي لم أنقطع عن مرافقة مريم إلى مجلسها كل يوم جمعة بعد أن انقطعت صفاء عن الذهاب، أعلنت مللها من تكرار الأناشيد والسير القديمة. مريم تراقب بصمت، كنَّا جميعًا نمارس الخديعة والالتزام بطقوس مضبوطة على إيقاع ساعة اسكتلنديّة اشتراها جدّي من تاجر يهودي مولع بالأنتيكا، علَّقها على جدار غرفة المعيشة، مكانها لم يتغيَّر كصوت عقاربها الشبيهة بأصوات ضفادع غارقة ليلاً في مستنقع إشنيات عفنة.

أصلحنا النافورة الحجرية للبحرة، صوت الماء المنثور على صفحة السكون الراكد هيّج طقوس ليالٍ لن أنساها، مروة تصدح بـ (الأولة في الغرام) أو (فكروني) بصوت رخيم، عذب، عميق، يتغلغل فيّ، يفتح أمامي بوابات خروج كنت أخشاه، رعشة حقيقيَّة تنتابني حين يتعالى صوتها في صفاء الليل. مروة تقف كمغنية محترفة، تغلق عينيها، مسترسلة بتشكيل يديها كأنَّهما تقبضان على شيء ثمين أو حبيب مفقود في عتمة الليل.

صفاء شاردة مسترسلة تدخِّن بصمت. رضوان جالس قرب غرفته، أسمع آهاته الصامتة من نشوة كنّا نفتقدها قبل اكتشاف أنّ لمروة هذه الرخامة والأرستقراطيَّة في التعاطي مع الليل. حضورها جعلني أعترف أنّي امرأة صغيرة تحاول تحسُّس طعم جدّيد للأشياء، حكيت لها في الليالي عن معاني أشياء تتراكم حولي، ترتفع كحاجز وهمي لا يراه أحد غيري،

كشرك يدعوني لاجتيازه، مروة تتحسَّس مفرداتي ولا تقاطعني، أقرأ في عينيها رضىً عميقًا مصحوبًا بشكّ يتنابني فأهرب منه إلى اللحظات الدافئة العميقة قرب الحجّة رضية. صوت الدفوف يتغلغل إلى أعماقي، يسحبني من يدي، أطير فوق المدينة، فوق البراري المحيطة بها، أدخل التكايا وأرقص بوجد على صوت المزاهر. مريم تدمع عيناها وترفع يديها مبتهلة إلى السماء، تتمتم بدعوات لا أسمع منها إلا كلمة اللّه. في طريق عودتنا المألوف، نعبر الزقاق نفسه، الأحجار نفسها، وجوه الباعة والمنعطفات، كأنَّنا على موعد أبديّ لا نحيد عنه مع ظلال المدينة التي تتراءى لنا رجراجة من وراء غطاء وجهينا الأسود السميك. رضوان الضرير يصل إلى بيت الحجّة رضية، يقف قرب الباب دون أن يقرع الجرس، ينتظرنا دون أن يتكلَّم مع أحد، حين نخرج يحس بوقع خطواتنا، يسير أمامنا بخطوة كأنّه يفسح لنا الطريق، أستسلم ليد مريم تقبض على ذراعي، دون أن تنبس بأيّة كلمة. نعبر الطرق والناس ألفوا مشاهدتنا كل يوم جمعة، في الوقت ذاته ولم يهتموا بأمرنا، خطواتنا خائفة تنسلّ كسحالي صامتة على أحجار أزقة الجلوم. يصل رضوان إلى باب المنزل، لا يحتاج من يأمره بالوقوف، لا تخطئ يده مفتاح الباب، ندخل بصمت إلى أرض الحوش، ترفع مريم ملاءتها السوداء، أرى تغضنات وجهها الذي بدأ جلده يتجعَّد قليلاً، مازالت تحتفظ بذلك التأثير الشديد الذي يرافقها طيلة يوم الجمعة، لا تأبه بما يجري في المنزل، تهجع إلى سريرها مبكرة، تنهض من على كرسيها، لا تستأذن أحدًا، تدخل إلى غرفتها، تغلق الباب وراءها، بعد قليل تطفئ الضوء، تجاهد الكلوبة النحاسية قربها على نثر ظلال بهجة الضوء الخفيف. يوم الجمعة يتغيَّر مزاج صفاء فتغرق في صمتها، تتأخَّر في السهر

وحيدة، تغضّ نظرها عنّي إن أتيت بكتابي وجلست إلى الطاولة القريبة منها، تقدِّم لي كأس شاي، تمدّ أصابعها إلى شعري، تمسِّده بحنان وتعود إلى كرسيّها قرب الراديو تبحث عن أغنية تحبُّها.

تعتقد مروة بأنّ للمكان روحًا، لم أفهم معنى كلماتها إلا بعد زمن بعيد؛ محاولاتي للبحث عن روح المكان لم تثمر، لم يساعدني تعلُّقي الشديد بغرفتي التي تتشكَّل تفاصيلها داخلي كحلم أعيشه يوميّاً على فهم المعنى، لا تفقد الخزانة القديمة ألقها، كلّما فتحت بابها هبّت رائحة خشب الجوز القديم، سمعت صوت صريرها يكرِّر صيحات أزمنة أخرى، بدت السجّادة العجميَّة الصغيرة المعلّقة على الجدار قطعة من أحلام تبعثرت، أعاد الصنّاع تكوينها ولملمة خيوطها، بدأت أفكِّر.. هل صنعتها امرأة أم فتاة، رجل متخم بالألوان، هل ما زال أحفاد هؤلاء الصنّاع موجودين يعيدون لملمة الحلم المفتت أم أنَّ السلالة قد اندثرت، ربما ماتوا في حرب أو داهمهم سيل جارف فأطاح بأنوالهم وبعثر الخيوط والأصباغ.. نعم للمكان روح طالما بحثت عنها لأعيد تشكيلها في نسيج لحظاتي المبعثرة بين مريم التي ازدادت تشدُّدًا وصمتًا وبين صفاء ومروة اللتين كأنَّهما خططتا لإنقاذي وإعادتي إلى سيرة الأنثى التي تُخرج حلمة ثديها للماء الشبق والهواء المفعم بأيد خفيفة تداعبها فتنتعش، تهبّ واقفة بجلال وشموخ. كنتُ تلك الأنثى المحتاجة للهواء والماء، أحسّ بجسدي قبواً معتمًا، رطبًا، عشعشت فيه العناكب، فاحت منه روائح العفن. أنتظر يوم الخميس موعد ذهابنا إلى حمّام السوق، بعد انضمام مروة إلينا أصبح مشهدنا الذي كنت أحسّ بأزليّته مثيراً، أربع نساء ملفعات بالسواد، أمامهن يسير رضوان

حاملاً «البقجة» على كتفيه، نقطع الطرق نفسها من الجلوم إلى باب الأحمر، أسمع وقع خطواتنا على بلاط الشارع، أشفق على رجولة رضوان. قبل أن نصل إلى باب الحمّام بخطوات، يمدّ يديه بالبقجة، تأخذها مريم وتمنحه إجازة قصيرة بصمت وتفاهم أزليّ بينهما، نحني رؤوسنا كي ندخل باب الحمّام الواطئ، تمعنت في تفاصيل التاج الحجري المنقوش عليه صورة نسر فارداً جناحيه وتحته كلمات ممحوّة وتاريخ بارز بالهجرية لم أستطع قراءته، أتمهل في الدخول وأنظر إلى عينيّ النسر تحدّقان بإباء وعنفوان، أغرمت بسير كبرياء ترويها مريم عن أجدادي، اعتقدتهم يشبهون هذا النسر المصلوب على جدار. ماضٍ يؤرقني بقداسته، لا أدري إلى أين سيودي بي القلق المتصاعد فيّ، بدأ يمنعني من الإغفاء بسهولة، أتململ في الفراش، أُقرِّب المخدّة إلى مستوى النافذة، أرقب الصمت وصفحة الماء الساكن في البحرة، شيء في صدري يؤلمني، يمتدّ الألم إلى كافة أعضاء جسدي، أتحسّسه في مساماتي، في نهايات أصابعي وبين فخذيّ، لا أجرؤ على الاقتراب وملامسة أعضائي، أتلاشى في الظلام بصمت، أحسّ بعريي أمام أناس عيونهم جاحظة وشفاههم مرتخية من هول المشهد، «هناك شيء يجب أن يموت» أردِّد لنفسي، لا أعرف ماهو هذا الشيء الذي يجب أن يموت، إحساسي بالمكان وبالفضاء المترامي لغرفتي أم بجسدي الذي أخاف من انفجاره كلوح زجاج مهشّم، أم رغبة مساماتي، «نعم الرغبة يجب أن تموت»، . . الرغبة هذه الكلمة المحمّلة بآلاف المعاني يجب أن تموت، تهدأ قليلاً لتجعلني أنام كما كنت أفعل قبل سنوات قليلة، لو أستطيع تلمّسها ورؤيتها كي أحدِّد مقاساتها، لونها ورائحتها كي أقتلها وأبدّدها لتنتشر مع الريح القوية.

الدخول إلى الحمّام يتم بترتيب متفق عليه بصمت، مريم أولاً ثم صفاء ومروة، أتلكأ في اللحاق بهنّ لحظات قليلة، تخرج «نظمية» من وراء طاولتها مرحبة كعادتها، تقبل مريم وتمازحنا، تختم حديثها القصير بالتسليم لعطاء اللّه وقدرة جلالته فتبدو لي في تلك اللحظة كأنّها تبحث عن دور مفقود في سيرة العائلة، قلاع وظلال جدّتي التي ما زالت مقصورتها محجوزة لنا كل خميس حتى لو لم نأتِ.

أول مرة دخلت إلى الحمّام كنت طفلة صغيرة، رأيت الأجساد يغبشها بخار الماء، نساء من مختلف الأعمار، يتمددّن عاريات على الحجر الأصفر القديم، تتعالى ضحكاتهن فاجرة، خافتة، البلل يغرق مساماتهن المنفتحة لشهوة الماء، المكان يخنقني، تركت مقصورتنا وخالاتي وأمي يغسلن أجسادهن، يستمعن إلى استياء جدّتي من ترهل مبكر في أجساد صباياها، تُخرِجُ من صرّتها أعشابًا تنقعها وبيلونًا وأشياء كثيرة لا أعرف استعمالها، تفرد طاساتها، توزّع عليهن الدهون ومنقوع الأعشاب، بصمت يمددن أياديهن وينفّذن تعليمات الاستعمال دون أن تجرؤ واحدة على التفوُّه بأيّة كلمة. في غفلة أحسست بضيق تنفس شديد، خفت من نظرات جدّتي، جسدها ملفوف بمئزر وشعرها مفرود للحناء بين يدي مريم، تشبه ساحرة هاربة من الحكايات، بشعرها الأبيض المخضّل بسواد في طريقه إلى الزوال، أسنانها الاصطناعيّة حين تخلعها كأنّها تفكّك جسدها إلى قطع، جلدها المترهل بَشِعٌ. هربت منهن وجلست أستطلع المقصورات، نساء عاريات يتحدّثن، أخريات يفركن ظهور بعضهنّ، في مقصورة بعيدة نساء يغنين ويتمايلن، واحدة منهن ترقص بهستيريا لم أستطع وقتها فهم

أسبابها، لسانها ممدود من بين شفتيها، غمزت لي فابتسمت، أحببت تمايل أجساد النساء وتداخل عريهن، لفّني عبق عطر الغار، دخلت في سراديب لا أعرف إلى أين ستقودني، ضائعة كأنّي هبطت صدفة في مكان لا أعرف مخارجه، استسلمت للمتاهة، كأنّ الحمّام قلعة والنساء يتحرّكن في أرجائها بحرية كمقاتلات أو سبايا منسيات تدلّت من آذانهن أقراط العبوديّة وعلى أثدائهن وشم أسيادهن. المتاهة ما زالت تلتمع في ذاكرتي كلما دخلت إلى الحمام، مبالغة في التأنيث أخطو بهدوء، أخلع ملابسي بتأن، أرتدي المئزر ولا أغادر المقصورة كسيدة محترمة، صفاء ومروة تتبادلان طاسات الماء الساخن، تحاولان الإمساك بالبخار كي يدخل مساماتهما، أشاركهما نكاتهما البذيئة أحيانًا وفي الوقت نفسه ألحظ عيني مريم الغاضبتين تجولان بتأنيب صامت لهما ورضى لصمتي، لا تلحظ ابتسامتي المتضامنة مع مروة، تهمهم بكلمات غير مفهومة لصفاء حين تفرك لها ظهرها فيحمرّ، تغدق عليه رغوة صابون الغار فيلتمع تحت الضوء الأصفر متجاهلة طاسات الأعشاب المنقوعة التي تقدّمها مريم إليهما، محافظة على تقاليد جدّتي التي أورثتها كل شيء حتى الصرامة ومكان جلستها المعتادة في أفخم مقصورات حمّام «باب الأحمر».

في الثامنة مساءً نخرج من الحمام، رضوان يقف على مقربة من باب الحمّام، يسمع وقع خطواتنا فيتحرّك بصمت في طريق العودة بعد أن يأخذ البقجة من مريم؛ صفاء تمازحه بكلمات قليلة تثير غضب مريم المكتوم. الماء يجعل من صفاء ومروة امرأتين مختلفتين، تثرثران طوال طريق العودة ورضوان يتابع طريق عودته بصمت ودراية. أتمعن في

الشوارع المبلّطة بحجر أسود بازلتي، بنوافذ تبدو لي مطفأة الأضواء من تحت الملاءة، لا أرى شيئًا، ظلال سوداء تغلّف كل شيء، وجوه رجال أخمّن أنّها تتغيّر تعابيرها حين يصلون قربنا وتهاجمهم روائح أجساد صفاء ومروة المعطّرة، أجساد تفوح في أزقة ضيّقة، هذه هي الرغبة الوحيدة التي لا تمانع مريم في إظهارها، لا أستطيع تخمين أنّها تبتهج حين ترى رجالاً يلتفتون وراءهم ليدقّقوا في مشهد يبدو غريبًا لمن لم يشاهده من قبل، نساء يقودهن أعمى وعلى وقع خطاه يسرن بانتظام غير مرئي ومتّفق عليه.

مريم تغرق في صمتها وتدخل إلى غرفتها، مروة وصفاء تخلعان أرديتهما السوداء وتثرثران. أدخل إلى غرفتي، في المرآة أبحث عن عيون تنظر إليّ، أحاول تجاوز خجلي، تقليد مروة وهي تتبختر أمام مرآتها بثوب حريري شفّاف وصفاء تمشّط شعرها، كأنّي أرى وجهي مريم والحجّة رضية مرسومين على المرآة، أنتظر موعد الساعة العاشرة وأعود إلى غرفة صفاء ومروة، بثوب قطني سميك يخفي جسدي، أجلس بخجل أول الأمر قريبًا من صفاء، مروة جالسة أمام المرآة تنهي ماكياجها، أحمر شفاه غالي الثمن يحضره رضوان من أرقى محلاّت العزيزيّة، كحل ومسحة كريم خفيفة، كأنّهما ينتظران رجلاً أو ظلاً أو وهمًا. لم أفهم معنى الانتظار حينها، بعد زمن طويل اكتملت الصورة في ذهني، حملتها معي دومًا، امرأتان تتزينان كي تحتسيا كؤوس الشاي وتستمعان إلى أغاني أم كلثوم وعبد الحليم حافظ من الراديو. لم أتساءل مطوّلاً عن أسرارهما، ظننت الأمر مزحة تحبانها، لكنّ الجدّية والمبالغة في الإصرار على أدقّ التفاصيل والمبالغة في احترام الصمت الذي يهيمن حين يبدأ صوت أم كلثوم بالغناء،

جلوسهما كمتفرجتين في مسرح غير مرئي، رشفات الشاي وصحن الفاكهة الكريستالي، صحون البزر المحمّص ودخان السجائر، الهمهمات القصيرة والآهات الصامتة الطويلة، كلُّها توحي بانتظار لن يطول وحضور مؤكّد للغائبين، حاولت إيجاد اسمٍ يليق بهذا المشهد، اكتفيت بمراقبة شفاه مروة وهي تتمتم مع أم كلثوم، تبتسم ثم تمدّ يدها إلى صفاء الغارقة في الكنبة القريبة والدموع تنسال على وجهها بصمت.

انتظارك شيئًا لا يأتي أفضل من أن لا تملك أي شيء تنتظره. أعدتُ الصورة ولوّنتها، بعد الأغنية تعيد الاثنتان ترتيب الغرفة في حركة يائسة لقدوم لا أعرف طعمه حتى لو كان عبثًا، تدخلان إلى غرفتهما، تتمددان على سرير مروة، ترقبان من النافذة صفحة الماء الساكن في البحرة ولمعان البلاط الحجري الأصفر القريب من اللون الأزرق الفاتن حين تضيع حدّته، يتراءى من النافذة مرائياً يخفي ظلالاً ووقع خطوات لا أسمعها، سألت صفاء ذات مرة بحدّة «هل تنتظران أحدًا»، ضحكتا وتفاهمتا بنظرة خاطفة وقالت «إنّنا ننتظر الانتظار».

أتمدَّد قربهما على السرير، أحاول الاسترخاء وأجيب بكلمات مقتضبة على تحرُّشات مروة، أشاركهما السأم المطلّ من عبق ثيابهما المعطّرة، تغرقان في سريريهما دون أن أقترب من عمق لحظة مازالت تتردَّد أمامي وتذكّرني بأنّنا نساء مهجورات كلّما حاولت أن أمنع صورة رحيل جدّي ممتطياً عربته المصنوعة من خشب السنديان، ثمة بغلان أشقران يجرّانها، مولدان من سلالات هجينة اشتراهما من خان في مدينة «نازدلي» التركيّة التي كان يصلها مساءً في توقيت مدروس لم يخالفه إلا

نادراً كتلك الليلة الشتائية من عام ١٩٤٥ ، التي ظلّ جدّي يروي تفاصيلها كلما رأى قوس قزح في السماء، لم تسعفه الذاكرة بإكمال التفاصيل، أرتاب في شكل الحكاية كما وصلت ولم تستطع مريم إخفاء جزإها الثاني، المتعلّق بخليل سائق العربات ووصال خانم زوجة صاحب خان «قرطبة» الذي نهض من نومه في غرفته المستقلّة عن غرف الخان وإصطبلاته؛ كان صوت جدّي ضعيفًا لم يستطع تمييزه «عصمت اجقباش»، كانت الاستغاثة مختلفة عن استغاثات رجال يضلّون طريقهم أو مطاردين يصادفهم وجود خان «قرطبة» في زاوية البلدة، الوصول إليه يحتاج إلى أكثر من نصف ساعة سيراً على الأقدام. نهض عصمت من فراشه، رجته زوجته وصال أن لا يفتح الباب، الوقت متأخّر والدنيا غير آمنة؛ عصمت يحمل بيده الفانوس ويحاول التعرُّف إلى صاحب السعال الحادّ، دق بقبضته بعنف على الباب الخشبي، عرف عصمت صوت جدّي حين ناداه باسمه، فتح الباب مسرعًا، كان جدّي واقفًا، على وجهه علامات إرهاق وتعب شديدين وإنهاك أقرب إلى المرض، بجانبه وقف خليل بوجه قاسٍ ونظرات حادّة اخترقت جسد وصال الواقفة شبه عارية خلف زوجها ضاغطة بنهديها الحارين وقد كشفت عنهما فتحة ثوب النوم الخفيف؛ تهالك جدّي على صدر عصمت الذي احتضنه وجرّه إلى الداخل، بقي خليل واقفًا على الباب يرتجف من البرد القارس، يتابع إرباك وصال وهي تحاول ارتداء أيّ شيء يستر عريها. دخل الجميع إلى الغرفة، جلس جدّي على طرف السرير الحديدي العالي، عصمت يستفسر بعينيه عمّا حدث، جدّي لا يستطيع النطق وخليل المنشغل بوصال التي ارتبكت تحت وقع نظراته القاسية، بدأت تتكشّف وتحسّ بلذّة لم تعهدها من قبل، تمهّلت

بتسخين الشوربة وسكبها في «صحنين» من البللور القسطنطيني، استجاب جدّي بصعوبة لرجاءات عصمت بالتماسك قليلاً، قرَّب شفتيه من الصحن ورفع نظره ببطء فلمح ظلال وجه عصمت قلقًا على صديقه العزيز كما كان يحب دومًا بمناداته، جدّي اعتاد النزول في هذا الخان منذ عشر سنوات حين قرَّر تغيير طريق قافلة أبيه التي كانت تمرّ عبر العراق قاطعة مدنه وقراه حتى تصل أصفهان ومنها إلى سمرقند.

حملت وصال صحن الشوربة الثاني بين كفّيها، قرّبته من خليل الذي تمهّل بإنزال يديه ونظراته تبحث عن النهدين المستترين تحت حجب ثوب مخملي خمري، لامع وطويل، مبقّع بزهور صفراء. تناول الصحن متلمّسًا أصابعها وموجّهًا رسالة شديدة الوضوح إلى امرأة تلقتها بوضوح كامل فلم تسحب أصابع يديها حين لفّهما بأصابعه باحثًا عن دفء، بدا الخدر عليها فلم تطل بوقفتها أمامه كذلك لم يطل صمتها، عادت إلى زوجها المنهمك بجدّي الذي يحتضر، دفء البطانيات وكؤوس عصير الليمون المسخن هدّأت من هذيانه، راغبًا في نوم عميق لم يذقه منذ ليلتين. نهض عصمت مطمئنًا إلى صحة جدّي، رأى خليل حارس العربات واقفًا مكانه في زاوية الغرفة فبدا وكأنّه يراه لأول مرّة. حدَّثه مستفسرًا عمّا حدث معهما، أدرك من حركات شفتيه أنَّه لا يتقن التركية، ارتدى معطفه وخرج إلى ساحة الخان، أخذ معه سلسلة المفاتيح وفتح باب غرفة صغيرة في وسطها سرير خشبي عتيق يصلح لنوم مؤقت، رتَّبت وصال معه الشراشف النظيفة ووجوه المخدات المطرّزة بأشكال طواويس وديكة، حمله الرجل من إبطيه، أصبح جدّي في غبش أول الفجر واعيًا فسار معهما دون عناء

ووصال من خلفهما ترتّب البطانية على كتفيه، مدّدوه في السرير وغطّوه جيِّدًا، ارتسمت علامات الارتياح على وجه عصمت ووصال حين استسلم إلى نوم عرفا من شخيره أنّه عميق، أغلق عصمت الباب وراءه، أشار إلى خليل أن يتبعه، جدّي لا يحب أن يستيقظ ويجد أحد خدمه أو صناعه متمدِّدًا معه في الغرفة نفسها، مدّت وصال فراشًا نظيفًا في زاوية المطبخ، أشارت لحارس العربات أن ينام، قبل أن تغلق الباب وراءها نظرت إليه فوجدته مازال واقفًا يراقبها بشهوة مفضوحة، لمح سرورها الخفي ودلالها وهي تنسحب إلى سرير زوجها، فهم عصمت ما حدث حين رأى عربته ملطّخة بالطين، وقد هشمت جوانبها وانهارت أعمدة دواليبها.

في الصباح أخبرهما جدّي عن موت حصانه الأشقر وعن السيل الذي داهمهم وكاد أن يودي بحياتهما وببضائعه، استفاض في مديح قوّة خليل التي أنقذتهما وأثارت وصال أكثر.

المطر الغزير لم يتوقف عشرة أيام متواصلة، قام خلالها خليل بإصلاح دواليب العربات، ذهب جدّي مع عصمت إلى الكنيسة القريبة واشتريا حصانًا جديدًا من الخوري المولع بتربية الجياد، أمضيا ساعات قليلة بعيدًا عن النزل كانت كافية لنسج حكاية خليل ووصال، حاول جدّي إخفاءها عن الجميع إلا أنَّ إعجابه للحظات قليلة بهذه الجرأة المجنونة سرّبَ الكثير من تفاصيل لم ينكرها خليل أو يؤكِّدها، اكتفى بابتسامة وأحيانًا تجاهل الموضوع تمامًا.

حين رأى خليل جدّي وعصمت يبتعدان لم يتمهل أو يفكِّر كثيرًا، دخل إلى النزل، توجَّه فورًا بخطًى ثابتة إلى غرفة نوم وصال، فتح الباب

دون أن يقرعه أو يطلب إذنًا من أحد، وقف في العتبة ووصال ما زالت في سريرها، نظرت إليه وأحسّت بقوة رغبته التي حاولت استفزازها طيلة أيام المطر الماضية بدلالها وغنجها ونظراتها وإشارات لا تخلو من إباحية كادت أن تفضحها، قالت له كلمة لم يفهم معناها، اكتفى بالصمت والنظر إليها بدقّة متمهِّلة متفحّصًا الشعر، العينين، الصدر المرمري الأبيض، النهدين الصلبين. حين كشفت الغطاء عن جسمها، ونهضت من سريرها فقد خليل أعصابه، بدأ يغلي كمرجل قطار سريع، أغلقت الستارة ورآها في ظلال الأشياء تتمطّى، اقترب منها بهدوء ولفحتها أنفاسه، سمعت دقّات قلبه المتصاعدة، كأنّها في غيبوبة أو أمام امتحان قد يودي بحياتها، طوى خصرها بين ذراعيه القويين وأغلق فمها بكفّه الخشنة القويّة، مزّق كلّ ثيابها، فبدت كمغتصبة تحب الاغتصاب، مدَّدها على السجّادة، أولج فيها ذكره وكل أشواقه لأنوثتها، لحظة واحدة فقط وانتهى كل شيء، تركها ونهض من فوقها، كأنّها في غفلة من الزمن نهضت ذاهلة، خائفة من مباغتة أحد. نزلت بعد نصف ساعة ورأته جالسًا، الخادمة العجوز تقدِّم له مع مسافرين آخرين صحون شوربة عدس ورؤوس بصل يابس فاحت رائحته القوية، هدأت أنفاسها حين أخبرتها الخادمة بذهاب عصمت وجدّي إلى الكنيسة، قدّرت المسافة والوقت اللازم لعودتهما، تصاعدت رغبتها مجدّدًا، استدرجته إلى قبو المؤن البعيد عن النزل، فوق أكياس العدس المجروش تمدَّدت بهدوء وبدأت تفرد أسرار الأنثى، تداعب شعر صدره وتتأمّل جسده العاري تحت الضوء الخفيف المنبعث من شقوق الباب الضخم، تهذي بمفردات تركية بصوت مغناج يشبه صوت السناجب في غابة نائمة. ساعات قليلة فوق أكياس

العدس في قبو مظلم وأربعة أيام أخرى كانت كافية لجعلهما يركبان عربة جدّي المحمّلة بالسجّاد ويبتعدان في دروب لا يعرفها أحد سواهما، يكتبان ضياعهما تاركين الذهول يرتسم على وجوه الجميع، النزلاء وجدّي والجنون يسيطر على عصمت الذي لم ير بدًا من البحث عنهما برفقة بندقيته المحشوة بالبارود.

في مساء اليوم الثالث عاد، بدأ يهذي كأيّ رجل محطّم لم يستمع إلى نصيحة خادمته العجوز التي أسرّت له أكثر من مرّة أنّ وصال تضاجع زبائن تنتقيهم على أكياس العدس المجروش، أقسمت أنّها سمعتها تطلب من رجل إيراني غريب الأطوار أن يضربها على مؤخرتها ويمرٍّر لحيته الطويلة فوق صدرها، ورأتها تتلوى كالأفعى بين ذراعي مخنّث تركي يحترف الغناء في الأعراس.

بعد عشر سنوات دخل خليل إلى السوق خائبًا، يجرّ قدميْه بتثاقل كمن يجرّ وراءه كرات حديد، وقف جدّي يتأمّله مرتبكًا، تبادلا نظرات طويلة، متفاهمة ومليئة بالأسى، عاد خليل إلى السقيفة، عادت يداه إلى رتي السجّاد كأنّ شيئًا لم يحدث، ثقل الغضار الواطئ في السقيفة ورائحة الخيوط والنفتلين أكسبته هذا الصمت، ولون العينين الكابي.

جلست قربه مرّة، حاول مرارًا وصف طعم ذلك الفجر الذي غلّفه مع وصال بضبابه على تخوم مدينة الموصل بعد سفر طويل أنهكهما، عبرا فيه دروبًا جبلية بعدها انفتحت أمامهما السهول، لاحت بيوت الموصل من بعيد مضاءة بشحوب، كانا كمن يرى طاقة الفرج. نزلا من العربة وتمدّدا على سجّادة فوداها تحت شجرة، غفوا إلى ما بعد الظهر كقتيلين

يستعجلان دفنهما معًا كي ترتاح أعضاؤهما المستفزة. لم تثقل وصال عليه بالكلام، أتقنت دور المرأة الخرساء كي يتجنبا الردّ على الكثير من الأسئلة التي انهمرت عليهما في سوق الموصل حين فرد خليل أول سجّادة أمام أعين التجار المتلهفين لنقوش الطواويس الإيرانيَّة، بدا خليل مقنعًا، خبيرًا يتحدَّث عن العقد والألوان ونوعية الصوف وأسماء التجار الإيرانيين والسوريين، أقنع الجميع بأنّه تاجر متجوّل وصانع ماهر. نجحا ببيع السجّاد بأسعار جيِّدة وكسب الثقة، أصبح حضور وصال الذي كان ثقيلاً أول الأمر مستحبًا، ابتسامتها أبعدت الشكوك وأنهت الأسئلة، قبل أن يرتميا على سريرهما في فندق «النهرين» ويتركا البغال للسائس، عرجا على جامع وجلسا بين يدي شيخه الذي لم ير بدًا من كتابة وثيقة زواجهما ومهرها بخاتمه بعدما ادّعى خليل أنَّه هارب من بطش الفرنسيين ووصال قريبة له توفي أهلها بالكوليرا ولم يبقَ من يعيلها، كانت الخمسة دنانير التي دفعها خليل كفيلة بردّ اليمين الذي يفكّر فيه الشيخ وهو يتأمَّل شفتي وصال المرسومتين بعناية كحبتي توت ناضجتين. خرجا إلى السوق زوجين انفتحت أمامهما أحلام العيش والحب ومراكمة الذكريات، كان المساء منعشًا، وجدا مطعمًا تناولا فيه وجبة شواء، مستعجلين العودة إلى غرفتهما والاضطجاع بعيدًا عن خطر ابتعدا عنه في مسيرهما عبر الجبال والقرى والسهول بذكاء كبير، اكتسبه خليل من رحلاته مع جدّي إلى سمرقند وإيران حيث الطرقات تعجّ بالمسلحين والفوضى تعم المدن مما اضطر التجّار إلى تسيير قوافل كبيرة وحمايتها بمسلّحين مأجورين وأدلاّء يعرفون الطرق الآمنة.

في ليلتهما الأولى لم تندم وصال لنسيان رائحة الرجال على أكياس العدس المجروش في قبو معتم تفوح منه رائحة قلي الباذنجان وبقايا الجرذان الثقيلة، استحمّت بماء ورد أخرجته من صرّتها التي فردتها في الخزانة، ارتدت ثوب عروس مزّقه خليل قبل أن يحملها كفراشة إلى السرير، مذهولة بقوة ذراعيه ولهيب شفتيه، كأنّها لأول مرّة تضاجع رجلاً، تعالت أصواتها دون أي خجل، بربرت بمفردات تركية مستسلمة لمصير غامض، بعدها هدأت ودفنت رأسها في صدره متشمّمة رائحته التي تغلغلت في قلبها وأسرتها. علّمته اللغة التركية وقصّ الأظافر، أصرّت على رائحة عطر زهر الصبار، كانت تفوح من أرديته حين يسير في سوق الموصل بثقة.

أصبح خليل يتبادل مع التجّار سجائر التبغ، يرشدهم إلى أفضل الأنواع، يبادلهم الخيطان الملوّنة بسجّاد يصمّمه ويتناسل من نوله كأيقونات أدهشت الموصليين والتجّار العابرين وجامعي تحف أجانب وثقوا بخياله ودقة صنعته وتعاطفه مع الهواة وجهلهم بعالم السجّاد وأنواعه.

كان يبحث عن أمان مفقود وحماية وصال التي أنجبت طفلة أسمياها زهرة، تشبهها تمامًا إلا أنّ عينيها السوداوين تذكّر بدم مختلط وبأصل غريب قد يكون أقرب إلى النوبيين منه إلى خليطهما.

لمس جدّي سجّادة نقش عليها هذا البيت من الشعر لأبي الطيب المتنبي:

لَكِ يا منازِلُ في القُلوبِ منازِلُ
أقفَرتِ أنتِ وهنّ منكِ أواهِلُ

عرف أنّ خليل صانعها وقد اشتاق إلى حلب، بعدما أخبره التاجر الموصلي عن براعته وجمال زوجته التي تتدخّل في توزيع الألوان التي كانت تبدو غريبة أول الأمر إلا أنّ الزبائن الأجانب اجتذبتهم الديوك الحبشية وأذرع نساء صدورهن ناهدة يشبهن آلهة السومريين وغمزات عيون تشبه دومًا امرأة يعرفها خليل، يغرق في دفء ملذاتها المتجدّدة كلّ ليلة وتبدو لهما الأيام دون نهاية. ماهو جدّير بالعيش السعيد لن يتجدَّد، كآبته التي لازمته طوال عمره اختفت تمامًا، أصبح بشوشًا في المجالس، خاصةً في دار المستر «جون» الذي كان يزوره يوميّاً، يشرب معه القهوة ويطلعه على رسوم لفنّاني عصر النهضة، اصطحبه معه أكثر من مرة إلى موقع التنقيب في بابل حيث تخيِّم بعثة أثريَّة. ما لا يعرفه خليل أنّ وصال بدأت تشعر بالملل، اشتاقت إلى رجال آخرين، لم تعد تأتيه بالعطور وتصرّ عليه أن يغسل بها يديه. أصبحت أيامهما الأخيرة باهتة كرجل وثق بنجاحه وامرأة لم تعد تغريها ألوان السجّاد الزاهية، انسحبت بهدوء، صمتت غير مكترثة بتساقط الأواني من على رفوف المطبخ وتحطُّم صحون البورسلان الكشميري وتناثر شظاياها، تتركها أيّامًا قبل أن تلمها وببرود تقذفها إلى القمامة. ندمت على السنوات العشرة التي قضتها في مدينة يغزوها البعوض، تنبعث رائحة الشواء والصمت من أزقتها كقدر لا مفرّ منه. استمعت وصال بذهول إلى جون يبالغ بلؤم في وصف ليالي لندن الشغوفة بالموبقات في حانات منتصف الخمسينات التي بالغ جون في الحنين إليها، تذكر رائحة الليالي الطويلة، يرى دهشتها ويستمع إلى أسئلتها التي لا تنتهي فيكمل بصوت منخفض وبإيقاع بطيء. يطري ذوقها في تقديم القهوة، يشبهها بأميرات ملأت قصص شبقهن قصور

أوروبا. «لقد جعلني أحلم هذا الإنكليزي الفاجر» قالت لنفسها وهي تتأمل الفجر من نافذة غرفة نومها، استبدّ الأرق بها ونحلت، تنتظر مساءات يدخل فيها جون مصطحبًا معه أفرادًا من البعثة وجامعي تحف هواة ومحترفين وجواسيس وتجار خيل عابرين في طريقهم إلى مضارب عشائر البادية، يتناثرون في منزل خليل مصرّين على تناول الشاي حسب تقاليدهم، يرطنون بالإنكليزيَّة، بحياد يبدون دهشتهم من تداخل الخطوط والألوان في السجاجيد المفرودة، يتحرَّك جون بينهم كدلاّل بارع ومترجم أمين وناصب شراك لوصال التي أحسَّت فورًا أن تدويرة ثديها وأصابعها الطويلة قد فتنته في حجبهما، استمتعت بنهمه الشديد لرؤيتهما حين تترك العباءة للحظة واحدة، تظهر الحلمة نابقة بوضوح شديد من تحت ثوب القطن الطويل، لعبة أحبَّها جون ووصال في البداية، ثم أثقلتهما وأرّقتهما، خليل شبه غائب ومستسلم إلى يقين أنَّ المال القليل الذي جمعه وخبّأه في الخزانة الأبنوسية الصغيرة في قعر صندوق الثياب، الطفلة التي بدأت تلثغ باللغتين التركيَّة والعربيَّة، وصال الزوجة التي تقوم بكلّ واجباتها ببرود ودون حماس كان كافيًا كي يفكِّر بالذهاب إلى مكّة للحج ومن ثم العودة إلى حلب كي يعيش الهناءة كلها. تلتمع عيناه حين يحدّث وصال بيقين كامل يتملَّكه أنَّ هذه النهاية ستبهجها، تستمع وصال إليه ثم تشرد لوقت طويل، لا تعرف لماذا تنرفز حين يبالغ خليل في التمنّي عليها بالحمل مرّة أخرى كي تنجب صبيّاً بدلاً من الذي كست جسده البض الدمامل قبل أن يبلغ عامه الثاني، قبل أن يتفقا على تسميته مات ودفناه في مقبرة قريبة من منزلهما، إثنان يحلمان بعالمين مختلفين يربطهما منزل يبدو مستقبله شبه مضمون، تفوح منه رائحة الفاصولياء وأغانٍ

عراقية حزينة تتحدَّث عن حب الصبيان وتبالغ في توصيف الوله، أدمنت وصال هذه الأغاني وبالغ جون في شرح مقاماتها كموسيقي متكلّف ومدع، حين تطول الجلسة يتنابه الحنين إلى لندن بعد فراق طويل.

أثارتني سيرة وصال، عرفت فيما بعد أنَّها أرّقت جدّي، جعلته يحمل لها الحناء والعطور والأقمشة الغالية من حلب كهدايا من صديق عائلة كريم لا تثار حوله الشبهات، مقابل خدمات مميّزة تقدّم له كزبون في نزل على طريق مهجور، بالغت جدّتي في عدائها لزهرة ابنة وصال التي صمّم خالي بكر على الزواج منها، صمت جدّي أمام توسُّلات الجميع كي يقنعها أن تكفِّر عن يمينها الذي أقسمته بأنَّها لن تسمح لها بدخول الدار ولن ترى بكر حتى تموت. جميعنا أحببنا وجه وصال الجميل الذي يغيِّر لونه حين يهبط المساء فيصبح نورانياً، بزهدها وقوّة إيمانها كسبت قلوبنا، شكلت مع خالي بكر زوجين يخفي هدوءهما وخفرهما أمام الناس عواصف عشق حلال يسرفان فيه، يمتصّانه حتى الثمالة ويغلّفانه بالأسرار، حياته حسدها الكثيرون، الطاعة والبيت النظيف، المرأة التي لا تفوح من ثيابها رائحة البصل والقرنبيط المقلي، الصابرة على مصائب الدهر الذي كان أحد تجليّاته كما يقول جدّي أن يرى بكر وجه زهرة ويتحسَّس سماحتها ضاربًا عرض الحائط بذكرى أمها وصال التي جعلت من خليل رجلاً يتنابه الحنين، يغرق في دموعه وكوابيسه خاصةً عندما يهطل المطر غزيراً، قوياً، يتحدَّث بسرعة وغضب، يشتم الإنكليز والنساء القحاب والرجال الشهوانيين، جمله غير مترابطة، لا تفصح عن أيّة حقيقة، لا يفهمها أحد سوى جدّي، وخالي بكر بعد انفراده بعروسته التي سارت كاليتيمة في موكب صغير أصرَّت مريم أن تحضره كي لا تغضب الحجّة رضية التي أثنت على زهرة وتقواها.

نفّذت جدّتي وعدها، وزهرة لم تكترث بمنزل جدّي كثيراً، اعتادت على زيارات بكر إليه وامتناع جدّتي عن مقابلته رغم كل توسُّلاته ووساطة أمي التي قالت بأنّ جدّتي تحبّ زهرة لكنَّها لا تجد الوقت المناسب كي تتخلّى عن عنادها غير المبرّر خاصة بعد موت جدّي وعدم دفاع زهرة عن أمها، التي ردَّدوا أنّها احترفت الدعارة بعد هجرها للإنكليزي جون، وتعلُّقها برجل باكستاني يعمل سائق أجرة التقطها ذات ليلة من أمام أحد البارات منهكة، على وجهها الإعياء والسكر وشبه غائبة عن الوعي. في غرفته البعيدة منحته جسدها ببرود مقابل مبيت ليلة واحدة في سرير ضيق وصحن شوربة ساخن ذكّرها بذلك القبو الذي لم تحنَّ إليه أبداً ولم تندم على مغادرته.

استيقظت وصال متأخِّرة، ما تبقى في ذاكرتها من الليلة الماضية طعم الفلفل الحار في الشوربة، وجدت نفسها وحيدة في غرفة فقيرة، نهضت بتثاقل واستحمّت، استمعت إلى موسيقى باكستانية، تجسَّست على صوره مع فتاة إنجليزيَّة سمينة بلهاء ورخوة كسمكة، أيقنت أنَّه رجل وحيد وغريب بملامحه الناعمة وحاجبيه الأسودين الكثيفين.

أحسّت بمتعة وجودها بعيداً عن تكلُّف جون وادّعائه احترام التقاليد الإنكليزيَّة، عادت للنوم وصنعت عشاءً خفيفًا من بقايا أعواد بقدونس ذابلة ورأس من الكرنب وحبات بطاطا قليلة. تصرفت بعفوية كأنَّها سيِّدة هذه الغرفة الفقيرة، رتّبت الكنزات المتناثرة على الكنبة الوحيدة والكتب بطريقة عشوائيَّة أضحكت الباكستاني الذي حاول إخفاء ارتباكه من وجود امرأة عابرة في غرفته الفقيرة، استسلمت له في الليلة الفائتة ببرود رغم كل محاولاته لجعلها تفصح عن ماضي أنوثتها.

تفاهم الاثنان بسرعة، أحبّت طرافته ونكاته البذيئة التي يلقيها بنذالة أفصح عنها في اليوم الثالث دون مواربة حين اصطحبها مقابل عشرين جنيهًا استرلينياً، إلى شقة عبد الغني البلاني التاجر السوري المولع بالذهاب إلى متحف الشمع وقراءة سير مشاهير السياسة وحفظ الأقوال المأثورة، كان عبد الغني البلاني رجلاً مسليّاً أول الأمر ومتواطئًا مع الباكستاني الذي تركهما بمفردهما فابتسمت ساخرة، مارست دور عاهرة محترفة لكنّها غير مبتذلة.

أثنت على رائحة عطره وذوقه في اختيار ألوان الشراشف والمخدات في غرفة النوم الواسعة، كادت أن تبدي رأيًا في تشرشل وتعيد عبد الغني إلى حماسه الأول حين يلخّص لها تاريخ الرجل الذي علّم أوروبا السياسة، مرّات كثيرة تواطأت وصال مع الباكستاني الذي أصبحت تدعوه لمنزلها، تقدّمه لضيوف جون وتضحك معه في الشوارع، تذهب أحيانًا للإقامة في غرفته ليوم أو يومين حين تشعر بأنّها على وشك وضع السم في الطعام لجون وتركه مع كلبه ذي الرائحة التي تثير أعصابها، كتبه السميكة ودوريات الآثار والأحاديث المملّة عن مواسم التنقيب، استرجاع ذكريات الغوص في التراب مع زملاء وأصدقاء يفاخرون بأنّ شمس العراق لفحتهم، تناولوا المعلبات مع البدو كما حاولوا ركوب الأحصنة وقصصهم السخيفة عن سقوطهم من على ظهورها كما كانت تصفها وصال.

«يفهمني هذا الباكستاني» قالت لنفسها وهي تراقب نذالاته المتكررة التي تعجبها أحيانًا وتثير سخطها أحيانًا أخرى، تردّدت على شقة

عبد الغني كلّما زار لندن، أقنعته بعد أشهر عديدة أن يصطحبها معه إلى حلب، تحدّثت بفتنة عن روعة زنوبيا وأسواق حلب ودماثة السوريين، كانت تعرف بأنّها أغوته حين التقط لها صورة قرب تمثال «سبارتاكوس» في متحف الشمع ومفاجأته بأنّها عارية الصدر مبتسمة بغموض مثير وشبق، جعلت من عبد الغني رجلاً غريب الأطوار، عاشقًا يفصح عن مكنوناته دفعة واحدة، اندفع نحوها وبدل أن يلتقط النهدين المتدليين كثمرتي تفاح أحمر ركع تحت قدميها، ألقى أبياتًا لشاعر حلبي ترك وراءه ديوانًا يدعى «أغاني القبة» وموسوعة ضخمة يصف فيها عادات الحلبيين وأطعمتهم ومزاجهم ويفاخر بخصوصيتهم، عبد الغني يقرأ الأبيات، ينفحها كمنشد ديني يحرص على الإدغام بِغنَّة وعلى إظهار جمال الأحرف الصوتيَّة بوضوح، اصطحبها إلى حلَب، تنفّست بعمق حين تجولت في الأسواق، رأت القباب ومآذن المساجد، بعثت برسول يحمل رسالة مقتضبة تخبر زهرة برقم غرفتها في فندق بارون.

لم تفاجأ زهرة، كأنّها تنتظر هذا الموعد تأكيدًا لإحساسها الدائم بأنّها ستقف يومًا أمام صديقتها الأخرى التي جمعت سيرتها من نثار أحاديث متناقضة لرجال عرفوها، وذكريات ثابتة في ذهن طفلة صغيرة، لم يتبقّ منها سوى ملامح امرأة متأفّفة، يرفّ جفنها الأيمن حين تتحدَّث بهدوء من يلقي أوامر لخدم غير مخلصين، احتفظت زهرة بسر لقائهما الوحيد طويلاً، لم تخبرني به إلاّ في أحلك اللحظات حين كانت ممدَّدة على سريرها والموت يخيِّم فوق المدينة كخفاش نراه ولا نستطيع الإمساك به.

جلست أمامها في صالون فندق بارون غير آبهة بالحركة المهذّبة لرجال أجانب أتوا باحثين عن مكان بدائي مرّت به آغاثا كريستي ذات يوم وتركت غبار حذائها على بلاط الغرفة، رفعت زهرة الغطاء الأسود عن وجهها النضر، صافيًا، وعيناها السوداوان، المتسامحتان، كانتا تعرفان أنّ الوقت غير كاف لعتاب طويل، كفتا عن البكاء وتفاهمتا بسرعة، خرجتا من باب الفندق إلى زحام الشارع مرتبكتين، متلبستين بقرابة أزليّة.

«كنّا نحتاج إلى رفيق» قالت لي زهرة مستعيدة الساعات القليلة المملّة التي مرّت مثل أرواح مثقلة بالخطيئة في عبورها البرزخ، روت زهرة لأمها التي شعرت بها غريبة عنها إلى درجة أنّها لا تعرفها، قريبة إلى درجة كأنّهما لم تفترقا أبدًا والسنوات الطويلة التي مرت أكذوبة منام لم يستمر سوى ثوان قليلة، كأنّ وصال ستنهض الآن لتدخل المطبخ وتضيف الملح إلى طنجرة البازيلاء ثم تعود لتلملم كرات الصوف الملوّنة التي عبثت فيها زهرة كأيّة أم منشغلة بأمور أسرتها، بكلمات حياديّة شكّلت جملاً باردة ومنضبطة لم تصف زهرة أحزانها وآلامها المبرحة كفتاة يتيمة مع أب محبط، رسمت لها صورة بكر كزوج مشتهى وابنيها. أسهبت في الحديث عن جدّي كي تتهرّب من أمنية وصال باحتضان حفيديها، بحذر ألقت بالأسئلة، وقبل أن تتركها رجتها أن تقسم أمامها أن لا تموت في ماخور، طلبٌ غريب أقسمت وصال عليه أمام زهرة التي أنهت حديثها من حيث بدايته المفترضة.. تبادلا العناوين والعناق بحرارة من يودع حبيبًا لن يراه بعد الآن.

فهمت وصال أنّ كل شيء بينهما قد انتهى، بدأت سيرة المكاشفات عبر رسائل قاسية ستكتبها زهرة ردًا على توسُّلات وصال المتكرِّرة، أن

تنطق مرّة واحدة بكلمة أمي، وبأيّة لغة تختارها، أيام مضطربة عاشتها زهرة، جلست خلالها قرب الحجّة رضيّة لساعات طويلة غير مكترثة بقرع الدفوف والدروس الدينيَّة التي تلخِّص مآثر أمهات المؤمنين وحكم رسول اللّه التي كانت تبكينا نحن الجالسات المندهشات من بلاغة الحجّة رضيّة ونهر معلوماتها الذي يفيض في صدورنا، يعيدنا مرّة أخرى إلى اليقين الذي ترشح في أرواحنا، لم تفهم الحجّة رضيّة إصرار زهرة على توزيع ثمن إسوارتها المبرومة على إطعام عائلات فقيرة إلاّ حين تتالت الرسائل بشكل منتظم كل يوم سبت، سلّمتها إيّاها دون أن تسألها عن مصدرها بعد ما استطاعت تهجئة اسم أمها، علاقة غريبة جمعت بين الاثنتين، الحجّة رضيّة كانت أمّا وأختًا ورفيقة لزهرة، علاقتهما أثارت غيرة المتردِّدات على حلقتها، خاصّة ممن تعتبرن انتماءهن العائلي القوي وقرابتهن لأولياء حلب كافيين كي يحتللن المكانة المرموقة في مجلسها ويثرثرن بدون ضوابط عن أسعار الذهب وفتاوى ابن مالك وأعراض النساء. هذه العلاقة كانت مثار تكهُّنات كثيرة، تقبّلها خليل دون اعتراض وباركها بكر، خاصّةً أنَّ غيابه خارج البلاد بدأ يطول لأسابيع طويلة، زهرة المحرومة من دخول منزل جدّي، الوحيدة في مدينة لا يمكن العيش فيها دون ثرثرة، حاملة وزر أمها التي أول ما خاضت به الحاسدات، ثم اتهامها بعلاقة جنسية مع الحجّة رضيّة المشهورة بولعها بالنساء الجميلات وعطورهن، توقف هذا الولع عند تشمّم رقابهن بشغف مادحةً البشرة الناعمة وقارصةً المرأة التي كانت غالبًا ما تطلق آهة مشوبة بشبق مكتوم، زهرة حفظت القرآن وأحكام التجويد وقرع الدفوف في منزل الحجّة رضيّة التي لم تُخفِ إعجابها بالوجه المستطيل المائل إلى الشقرة والجسد الفارع

الذي بدأ ينمو أمام عينيها، تراقب تحوُّلاته حين تهرب زهرة من ضجيج الأواني ومخاط الأطفال في منزل خليل إلى منزل الحجّة رضية الساكن والمحترم من عائلات حلب. الصمت ورائحة النظافة تعبق من الأرائك ووجوه المخدّات، بخور يلف زهرة فتغيب وسط نشوة لا تعرف لماذا تنتابها مع نسيمات العصر حين تمدّ رجليها وتسندهما إلى البحرة فيتبلل ساقاها، تسترخي وسط دلال الحجّة رضية الباحثة عن ابنة لأصابعها طعم «الغريبة» ...(*)_ تسير كالفرس الملجوم في أرض ضيِّقة، تشبه زهرة تماماً. تمنُّع خليل لم يصمد طويلاً أمام إصرار الحجّة رضيّة على اقتسام تربيتها، في وقت لاحق على نسيان أمرها، كيتيمة وجدت أمّاً أنجبت من زواجين متتاليين خلال أربع سنوات ولدين أكبرهما مدمن مخدرات، والثاني مجنون يحاول التهام أنفه وأصابع رجليه، يدور في الأزقّة معفرّاً بالتراب، جسده يكسوه القشب، زوجان وولدان كأنّهما غير موجودين في حياتها، كأنّهما أكذوبة أو دواة حبر سفحت على رصيف متسخ، احترفت الإنشاد في الموالد والأعراس ورواية سيرة رابعة العدوية محاولة نسيان ماضيها دفعة واحدة، سألتها مرة عن طعم الرجال قالت دون تردُّد: «يشبه الخراء»، أكملت حياتها حالمة بملذات الجنّة، متحاشية عذاب القبر؛ حديثها الأثير حين تخشخش النساء بأساورهن الذهبية.

ماتت جدّتي ودخلت زهرة دار جدّي لأول مرة برفقة الحجّة رضيّة التي أصرَّت على تكفينها بيديها، بكتها بوقار، عابثت جثمانها ومازحتها على سنوات القطيعة بسبب زواج بكر من زهرة الذي كانت جدّتي تعتقد

(*) ـ الغريبة: حلويات حلبية وتصنع من السميد والسكر وتتميَّز بهشاشتها.

أنّه من تدبيرها، عمر طويل قضته الاثنتان في قلي البزر وتناول مربى المشمش والنميمة، الإنشاد والذهاب إلى الحمّامات الفاخرة والاضطجاع في مقصورات خاصّة. وقفنا في باحة الدار ننتظر الجثمان وزهرة تتجوَّل في الدار، تتأمَّل النقوش وأبواب الغرف، اقتربتُ منها، ابتسمت لي واحتضنتني ثم تفاهمت مع خالاتي بسرعة، خرجت الحجّة رضيّة من الغرفة طالبة إخلاء الطريق للرجال كي يحملوا جثمان جدّتي إلى المقبرة، نظراتها الحادّة لم تمنع أصوات البكاء المتعالي كجوقة تتبادل الأدوار بفوضى غير متَّفق عليها. الرجال يدفنون الموتى والنساء يبكين ويلوحن من بعيد للتابوت، سألت الحجّة رضيّة مرّة لماذا لا تدفن النساء الأموات؟ شردت وكأنّها تتذكَّر أنّ كلّ نجاسة العالم فينا، وكلّ طهره، قلت لها مرّة «حلمت مراراً أنّني أدفن ميتًا»، أكملت «إنَّني لا أعرف وجهه لكنّه يشبه رجالاً كثيرين أعرفهم». . علّقت لي حجابًا وأمرتني بقراءة سورة البقرة عشر مرات، فرحت بالحجاب وأغمضت عيني، عن ظهر قلب قرأت سورة الأنفال ثم سورة يوسف ولم أعد أروي لأحد أحلامي الغريبة، لم تعد ترعبني مشاهد الحجّاج الذين يتدحرجون من فوق جبل عرفات ككرات ثلج تذوب وتتلاشى، مشهد النساء اللواتي يحملن النعوش، يصلين عليها ويقمن بدفنها ضاحكات ويتناولن عصير التوت المثلّج، إحداهن تشبه مريم ترقص على إيقاع مواويل غريبة تشبه موسيقى سريانيَّة سمعتها مرة أثناء مروري من أمام محل تسجيلات، تجرّأت ودخلت إليه، اشتريت الكاسيت، أقنعت صفاء بأن نستمع إليه سويّاً مستغلّة طيشها في إحدى الأماسي، لم تعد ترعبني أحلامي التي دخلت صورها مملكة أسراري، حاولت تثبيت ما أستطيع تذكّره، قرَّرت كتابتها، اشتريت دفتراً

زهرياً وأقلامًا ملوَّنة، تحوَّلت الكتابة إلى رسوم أحببت غرابة أشكالها، وجدتها وسيلة للبوح لا يستطيع أحد كشفها متى وقع الدفتر بين أيدي خالاتي، أجمل تلك الأحلام رسمتها كشجرة يقف على أحد أغصانها سنجاب يضحك وهو ينظر إلى الغيوم، كان حلمًا عن رجل يمزّق «ستيان» فاطمة ويغتصبها في باحة المدرسة على مرأى من الطالبات اللواتي يصفقن بمرح، أنتقم لرفيقات السواد من فجورها ومجاهرتها بمفردات فاحشة لا تقال إلا في المخادع، لم أحاول التساؤل إن كان عضو الرجل مرئياً أم مخفيًا في الحلم، خائفة من لمس صورة لا أعرفها، قد تربك حياتي كلّها، تخيّلته كعرنوس ذرة كما كانت تصفه فاطمة لرفيقاتها بينما كنت أستمع بدهشة لجرأتها في سرد فيلم إباحي كامل بسهولة من تتناول تفاحة مقشّرة، في صورة أخرى رسمت حقل ذرة ثم طمسته باللون الأسود خوفًا من حالة شهوة قد تتلبسني فتدمِّر وقاري وتذروني كحبّات رمل على درج بيت عتيق.

كلّ شيء بدأ مبكراً، أوائل أيامي في المدرسة الثانويَّة جعلتني كئيبة، حادة الطباع، ثمة شيء ينهشني ويبكيني حين لا يموت، شهوة الأنثى لم أستطع الهرب منها، تصاعدت فيّ، كادت توصلني إلى الجنون، بدأت أفهم معنى أشواق الأنثى إلى رجل، تعاطفت مع صفاء التي تنتابها حالات صداع مزمن وشرود طويل فتفلت الصحون من بين يديها ويتناثر حطامها، لتذكرهن جميعًا بأنّهنّ منذورات لقدر تستسلم له مريم وتحاول صفاء إبعادي عنه بتحريضي على ارتداء فساتين زاهية، مفتوحة الصدر وشفّافة، الخروج إلى الأسواق، تلكزني بمودة من ينقذ غريقًا محتملاً، تزفر غاضبةً

من كتبي الصفراء التي يأتيني بها بكر، يضعها على طاولة السفرة ثم يغادرنا، تتفحّصها مريم وتتركها لي كجثث ميتة، عيناها تلتمعان فخرًا بـ «العالمة الصغيرة» كما تحبّ أن تسميني وسط سخرية صفاء وتأنيب مروة لها حين تذكّرني دائمًا «أنّ النساء لا يحقّ لهنّ الإفتاء»، تتابع بعد أن تميل عليّ «أفتي لي بتعدُّد الأزواج.» نضحك جميعًا. ترتبك مريم وتدعو لنا بالهداية ثم تعود إلى مصحفها تاركة لي فتاوى ابن باز.

تضجرني الصفحات الصفراء ولا أستطيع تركها، ألتهم صفحاتها لأهرب من قلقي وخوفي من مجهول لا أعرفه وإن كنت أتحسّسه، جاثمًا فوق أنفاسي يحاول خنقي، أنبش فتاوى ابن باز، أحسّ بنشوة التحريم، أنظر بشفقة إلى فتيات من حولي ليقيني أنّهنّ سيدخلن النار، أتخيل كيف ستشوى «فاطمة» قبل أن تخر ساجدةً ونادمةً، باكيةً، مستنجدةً بشفاعة رسولنا الكريم.

الطريق إلى المدرسة طويل، من الجلوم إلى سوق النحاسين، أقطعه سيرًا على الأقدام، كل صباح يصبح أكثر ألفة، أتجرأ وأتمهل قليلاً لأنظر إلى أصحاب الدكاكين الذين يغضّون بصرهم حين أعبر، لم أفكّر ماذا يعني لهم مروري كل صباح لمدة ثلاث سنوات في الموعد نفسه، من أنا بالنسبة لرجال يتثاءبون في دكاكينهم ويغرقون في رائحة الجبن، كيس أسود يحمل حقيبة مدرسيّة دون ملامح، دون رائحة عطر، حتى بدون تنهيدة واحدة، غربتي انتهت حين اقتربت من بنات يشبهنني في أشياء كثيرة، وإن كان بعضهن يخلعن غطاء الرأس فور دخولهن إلى المدرسة ثم يخلعن المانطو الثقيل لينضممن إلى شلّة الطالبات المجاهرات بعدائنا نحن من لقبوننا بشلّة

البطاريق، أحيانًا شلّة زوزو، ساخرات من حرماننا من مشاهدة فيلم «خلّي بالك من زوزو» لسعاد حسني الذي رقصت فيه رقصتها الشهيرة، فقلّدتها فتيات المدينة بوضع الإصبع على الخدّ حالمات بأمجاد وعشاق مشهورين يستطعن الندم معهم، والتنهد على جسور خياليَّة في مدن بعيدة كانت تصفها حلا كأنّها تصف ماخوراً، تقول هنا كلّ شيء مقرف وسأرحل ذات يوم.

كان عهدًا غير مكتوب بيننا، نتبادل النظرات الحادّة والكراهية علنًا، نجلس في الصف كزميلات محترمات يشعرن بالوطأة نفسها وثقل الهواء نفسه في ذلك المبنى الكئيب، يتّفقن دون تصريح على كراهية المخبرات اللواتي يكتبن التقارير إلى فروع المخابرات، يجاهرن بولائهن للحزب وفخرهن بكلمة «رفيقة» التي تلفظها المديرة بتأن، ثقيلة المعنى وذات رهبة، نكره ندى التي كانت ترتدي بدلة مغاوير مموهة وتسير بنظام منظّم، تصرخ بصوت ذكوري عالٍ، متماهيةً مع صورة ضابط سرايا الموت الذي يأتي لاصطحابها من المدرسة بسيارته أمام جميع البنات، يرفع صوت المسجّل ويطقطق بمسبحة كهرمان عنبية اللون، يردد مبتهجًا مع فؤاد غازي أغاني أصبحت مشهورة من كثرة تردادها في الإذاعة والتلفزيون الرسمي، تخرج البنات من المدرسة والضابط يكاد يسدّ الباب بسيّارته، نرى وسامته بينما تخفض المديرة نظرها أمام وقاحة نظراته إلى صدورنا، تصعد ندى إلى جانبه باستعراضيَّة عسكريَّة تجعل منها فتاة مرعبة، تدخل إلى الصف في نصف الحصّة وتخرج متى شاءت دون إذن، المدرّسات يغضضن النظر عن إغلاقها الباب بعنف ما عدا مدرِّسة الكيمياء التي لم تسمح لها بالخروج وهدَّدتها بالفصل، نظرت ساخرة إليها وخرجت، جميعنا انتظرنا الحصّة

القادمة بشوق من ينتظر فيلمًا مثيرًا، في حصّة الكيمياء المقبلة طلبت مدرّسة الكيمياء من ندى الخروج بكلمات مقتضبة وصريحة المعنى، ضحكت ساخرةً من أوامرها، اقتربت المعلّمة منها وأمسكت بها من شعرها وقذفت بها خارج الصف، أغلقت الباب وعادت بكل هدوء إلى اللوح وهي تستمع إلى تهديداتها، المديرة حاولت تطويق المشكلة ومنع تنفيذ قرار نقل المُدرِّسة الذي لم يتأخَّر أسبوعًا واحدًا إلى إعزاز ... (*)_، بهدوء لملمت أوراقها ووقفت أمامنا وقالت «هذه حظيرة خنازير وليست مدرسة».

ندى بوجهها الأسمر المشدود وملامحها القويّة تشبه لاعبة كرة يد محترفة، شعر أجعد وطويل، نهدان كبيران وحركة سريعة مع سلاطة لسان كأنّها قادمة من مكان لانعرفه، تتودَّد إليها البنات فتفرّ منهنّ وتتابع وحدتها، تجاهر بعشقها «لأبو رامي»، تردِّد اسمه بموسيقيَّة، تروي بعض أسرارهما محاولة التقاط بعض البنات اللواتي لم يخفين إعجابهن بعضلاته المفتولة وأناقته وعنفه حين تنطلق سيارته بسرعة جنونيَّة، تحدثهن عن أصدقائه الضباط الآخرين، تسمِّيهم وتحدِّد رتبهم وأنواع سيّاراتهم وألوانها، تدعو البنات لمرافقتها إلى مطاعم حلب وفنادقها التي كان ضبّاط سرايا الموت يدخلونها، يضعون مسدساتهم على الطاولات، تتعالى قهقهاتهم وهم يرون الزبائن يتحاشون النظر إليهم قبل أن يغادروا خائفين، البنات اللواتي يرافقن الضباط يشعرن بالفخر ويأمرن بتغيير الأطباق أكثر من مرة، يستمتعن بذلّ أصحاب المطاعم الذين ينحنون ويعتذرون عن سوء الخدمة.

(*) _ اعزاز: مدينة صغيرة تبعد ٤٠ كم شمال مدينة حلب السورية.

الكراهية أربكتني كما الحب الشديد يربك عاشقة، أتلمَّس خلاصي بجلوسي وحيدة لساعات طويلة وقراءة الكتب الصفراء متجاهلة دعوات صفاء ومروة لمشاركتهما لفّ اليبرق والاستماع إلى الأغاني، وتعذيب رضوان بطلبات عبثية يحاول تلبيتها لهما ثم تتجاهلان أكياس عظام الطيور المطحونة ومناقير الحمّام التي يذهب إلى الأسواق للبحث عنها.

«أكره المدرسة» قلت للحجة رضية وأنا أختنق بدموعي، حدثتها عن مدرِّسة الكيمياء وندى وحلا وكراهيتها لحجابنا وصوتنا الضعيف وسخريَّتها من فتاوى الفقهاء، استمعت إليّ باهتمام، كدت أحدِّثها عن غادة التي تردِّد أغاني «مها عبد الوهاب»... (*)_ بصوت مسموع أثناء وقوفنا صباحًا لتحية العلم وترديد نشيد البعث، ثم مرورنا من أمام مدربة الفتوّة وندى اللتين تستعرضاننا كأنّنا كقطيع من البغال، تتأكّدان من برادعنا وأطواق الخرز في أعناقنا.

غادة لمعت فجأة في سماء المدرسة كنجمة، خلعت حجابها ولم تعد تشاركنا الصمت في الاستراحات وسندويش الفلافل، بعد عودتنا من العطلة الصيفية صافحتنا ببرود، لم أصدق عيني حين رأيتها تتراقص على وقع أغنية لفرقة M. Boney، تتأبّط ذراع ندى التي اضطروا لإدخال أجوبة أسئلة امتحانها إلى قاعة الصف كي تنجح وسط اشمئزاز المدرِّسات اللواتي كلّما فكّرن بالاحتجاج تذكّرن مدرِّسة الكيمياء ومدرِّسة الجغرافية النحيلة التي أخرجتها دوريّة مخابرات من منزلها أمام أعين جيرانها، مزّقوا ثيابها وأولادها الصغار يبكون بحرقة لأنّها أعطت علامة الصفر لطالبة

(*) ـ مطربة اشتهرت في السبعينات بأغانيها الإباحيّة.

أبوها يعمل محققًا في المخابرات العسكريَّة، وصفها الأب بالعاهرة، هدَّدها بالحرق والموت في ظلام الأقبية إن لم تكف عن معاقبة ابنته المهذّبة كما وصفها لرفاقه المحققين، مدرِّسة الجغرافية صمتت، ذُهلت، فيما بعد فقدت قدرة النظر في عيون طالباتها وتبادل التعليقات المرحة معهن، كشبح ترسم الخرائط على السبورة، وتتحدَّث ببرود عن عواصم البلدان.

لم أستطع احتمال هجر غادة لي، لم أستطع الاعتراف أنّي أحب تقبيلها كل صباح وتشمُّم رائحتها، أحيانًا تنزلق يدي دون قصد إلى نهدها فأحسّه حارًا، مكتملاً بشهوته المفرطة.

أثارت ذعري هذه الحقيقة التي لم أستطع الهرب منها، طلبت بإصرار من ليلى أن تقود هدايتها مرة أخرى، لم تهتمّ بالأمر كثيرًا، كواعظة أخلاق تافهة اعترضتها في الباحة، طلبت منها الكفّ عن الكفر ومرافقة ندى، عند الشيخ الدسوقي كتبت حجابًا لها، أخذته منّي وقبلتني برقّة، وضعته في جيب قميصها الكاكي النظيف وقالت لي «لم تتذوقي طعم السعادة بعد»، لم أفهم معنى كلماتها، حلا قاطعتها ووصفتها «بالشرموطة»، فلم أحتمل شتمها ودون أن أحسّ بنفسي فقدت أعصابي، أمسكت بشعر حلا، بدأت أضربها على وجهها بقوة لم أعرفها فيّ مردِّدة لأكثر من مرة «أنت الشرموطة وليست غادة».

ذُهلت حلا وسامحتني حين بكيت في غرفة المديرة، لم أستطع النطق بكلمة واحدة، كان المشهد مؤثرًا ونحن نتعانق ونعود لصفنا صديقتين، أحسست بالاختناق. في الأيام التالية أحسّ بنظرات الجميع

تخترقني، الطالبات، المدرّسات، المديرة، خالاتي، أمي التي ذهبت إليها وبكيت دون سبب، مسحت دموعي وخرجت دون أن أودعها، طلبت منّي غادة بمودّة ألا أدافع عنها، أضافت بصوت حنون أنّها قوية وتستطيع حرق المدرسة، ثم تجاهلتني تمامًا، لم أعد أخرج إلى الباحة، حاولت ليلى إقناعي بأنّ أحدًا لا يتذكّر مشاجرة تافهة بين زميلتين، المدرسة منشغلة بأحاديث أكثر خطورة بعد أن بدأت سيارة مرسيدس زرقاء تنتظر غادة كل يوم، بداخلها رجل يخافه ويحييه ضابط سرايا الموت حين يلتقيان أمام باب المدرسة، عدت إلى الباحة مرهقة، أشرد في الصف وأثير استغراب المدرّسات اللواتي عرفن قوة إدراكي، كلّما رأيت غادة تنعطف إلى الشارع الفرعي كي تصعد إلى جانب ذلك الرجل الخمسيني الذي رأيته غامضًا وجلفًا أحسّ بأنّ ركبتيّ لن تحملاني، تجاهلت صفاء الحديث عن غادة وبكائي في حضن أمي وخروجي كهاربة، اقترحت عليّ مساعدة رضوان في تركيب عطر جدّيد، وكتابة نشيد سيلقيه في ذكرى المولد النبوي أمام بكر وضيوف كثيرين سيجتمعون في منزل جدّي، أضافت «رجال، رجال محرمون سيدخلون إلى هذا القبر، سنطبخ لهم ونراهم من نوافذ غرفنا». بمرح كانت تلفظ «رجال»، وتجرّني من يدي محاولة استمالتي إلى الابتسام الذي تحوّل إلى ضحك فاجر أثار مريم فخرجت من غرفتها ووقفت تراقبنا من بعيد.

أكتب ما يمليه عليّ رضوان، صفاء تخلط له المقادير بشكل خاطئ قصدًا دون أن يعترض بل كان يثني أحيانًا على دقتها في تنفيذ تعليماته، يعود لوضعية الشاعر الجوّال، مدّاح الرسول، تحرّضني صفاء ألا ألتزم بما

يقوله بل أكتب مفردات معاكسة، لا أمتلك شجاعة صفاء في مناكدة خادمها، كنت أعتبره عمّاً لي نسيته السلالة في هذه الغرفة المهملة. تغاضيت عن سرقاته الكثيرة من «نهج البلاغة» للإمام علي بن أبي طالب، عن كسره لأوزان الشعر وللكلمات العامية التي يستعين بها، مردِّدًا أوصاف عطوره، مادحًا جدّي وأخوالي وبعض مشايخ المدينة، ضحكت من قلبي حين استرسل وشتم الإستعمار الفرنسي في بيتين، ابتسم بلؤم وأشار بيده لي «أكتبي، أكتبي، ستحفظها حلب ويتسابق إليّ المطربون». لم يعجب مريم اقترابنا الشديد من رضوان، جلست قرب مروة وبدأتا التحدث بصوت مرتفع عن استعدادات الاحتفال، مروة تسجِّل قائمة الطلبات التي سترسلها صباحًا إلى دكّان جدّي، وسليم سيبقى ثلاثة أيام يرسل صنَّاعه محمّلين بأكياس ضاق بها بيت المؤونة، أثارت غضب صفاء ورضا مريم التي تردِّد بفخر بأنّه منزل لا يطعم المحتاجين وقبو مؤونته فارغ لا يحقّ لسكّانه أن يعلِّقوا شجرة العائلة على جدرانه ولا يأخذ بناته إلا عابري السبيل.

في الليل أعدت قراءة ما أملاه عليّ رضوان، أعجبتني اللعبة، أضفت إليها أبياتًا غزليَّة جميلة لم يعرف أحد أنّها مناجاتي لـ غادة، وصفت وجهها الجميل ولوعتي على فراقها، لم يعترف رضوان أنّها مضافة إلى معلقته كما أسماها، قلت له «أتركها لك للذكرى»، تصاعد صوته مدافعًا عن مواهبه مذكِّرًا مريم بالقصائد التي كان ينشدها بين يدي جدّي وضيوفه، ساردًا أبياتًا متفرّقة نصفها لأبي فراس الحمداني والنصف الآخر من قصائد غنّاها صباح فخري.

لم أعرف لماذا استدعاني بكر على عجل لأمر فائق الأهمية، دخل في وقت متأخِّر إلى الدار، تحدَّث مع مريم لدقائق ودخل إلى غرفتي، لم يمهلني كي أسأله عن زهرة، سألني عمّا حدث في المدرسة، استمع إليّ بانتباه، سألني بدقّة عن ندى وحلا وغادة وبنات أخريات أعرفهن طالبات فقط، كما استمع إليّ وصفي لخروج مدرِّسة الكيمياء لآخر مرة من المدرسة، طمأنني وقال «إبتعدي عن غادة ولا تصطدمي مع ندى مهما حدث» قالها بلهجة آمرة، لم أفهم ضرورة تأكيده ومعناه، طلب منِّي الاتصال مع هناء التي كنت أكره تسلُّطها رغم محاولتها الدائمة فتح حوارات حول آداب الوضوء مستعرضةً كلّ التفاصيل وعلى كلّ المذاهب، قلت لليلى «لا أحبها»، وأكملت «تظنّ نفسها فاطمة الزهراء». ليلى ضحكت، وصمتت لدقائق ثم غيَّرت الحديث خائفة من الخوض في سيرتها.

في لهجة بكر تأنيب خفي، هذا ليس وقت الصغائر قالها بتفخيم لم أفهمه، أحسست بقلقه وحماسه في الوقت نفسه، عرّج على غرفة صفاء ومروة، شرب القهوة معهما، استمع إليهما كأخ محب قريب منهما ومتفهم رغم تدينه الشديد.

لخالي بكر ندبة تميِّزه عن باقي رجال عائلته، تشبه قطعة نقديَّة صغيرة وسط خده، كل من يراه يظنّ أنّ الأوبئة التي أصابت المدينة مرّت ولم تأخذه، فيستبشرون خيراً، حليق الذقن بشكل دائم، يثير حضوره غموضًا غير مفهوم، يتحدَّث بحياديَّة وبأحرف صوتيَّة واضحة عن أكثر المواضيع حميمية وإثارة، يبدو منذوراً لدور أكبر من كونه تاجر سجّاد

ورث عن أبيه المهنة وتفاصيلها كاملة، لمن يراه من بعيد يظنّه مستسلمًا لقدره ولطموحاته الصغيرة ولهناءته مع زهرة كامرأة راضية بشكل دائم، المقرّبون منه لا يتعدّون بضعة أصدقاء يراهم في أوقات متقطّعة ولأوقات قصيرة، لا تتجاوز الاطمئنان عن رخاء عيشهم، معهم يضحك ويستعيد ذكريات الطفولة والشباب بشغف من يطمئن إلى انغماسه بسخافات لا يريد الابتعاد عنها، ترك لخالي الكبير سليم كل التفاصيل الماليَّة وحساب المحلاّت، سليم يبدو بثباته وصبره قريبًا من صورة جدّي، يستيقظ فجرًا، يصلّي في جامع العثمانيَّة، يتناول إفطاره المعتنى به ثم يذهب إلى المحل، يشرب قهوته مع خليل، كرجلين عجوزين مهمومين بيوم القيامة كأنّ موعدها قريب إلى درجة أنّهما لن يستطيعا ترتيب توابيتهما ورتي السجّادات المتبقية في سقيفة المحل، بصعوبة بالغة استطاع سليم تعلُّم بعض الجمل الإنكليزيَّة الضرورية لإقناع الأجانب بشراء قطعة سجّاد يحملونها معهم كذكرى إلى منازلهم البعيدة الباردة من أقدم مدن الشرق، تاركًا الحوار مع خبرائهم وأصحاب المجموعات لـ عمر الخال الصغير الذي أتقن الإنكليزيَّة والفارسيَّة أثناء دراسته بكلية الشريعة التي اختارها بملء إرادته، تملكه الملل من آراء الفقهاء، حسم علاقته مع رغبة جدّي بإكمال علومه في الأزهر ليعود بالدكتوراه ويوزّع فتاويه على نساء ورجال المدينة الذين يتقاطرون إلى مشايخهم ويبعثرون أسرارهم بين أيديهم بحماس.

بعد عودة عمر من العسكريّة دخل إلى غرفته، رتّب كل الكتب في صندوق خشبي وحمله إلى القبو، ركنه في زاوية مهملة، تحدَّث مع جدّي وكان حازمًا برفضه الذهاب إلى الأزهر، بدأ العمل بحماس كبير

أثار إعجاب التجّار وخاليّ، في منزله جلست جدّتي تنتظر عودته، انتظرته يومين، حين رآها جالسة قرب مريم وريما المنهمكتين بتقطيع السفرجل انكبّ على رأسها وقبّله ضاحكًا، دون توقُّف سردت له كلّ ما تعرفه عن النساء الساقطات اللواتي يسرف في الصرف عليهن، مادحة صبر زوجته وأخلاقها الرفيعة، لم تهدأ إلاّ حين أقسم على القرآن بأنّه لن يرافق أصدقاء السوء. قبل أن تموت جدّتي كان عمر يقسم أمامها للمرّة التاسعة على القرآن ويجلس بوجل بين يديها في وضعية لا يمكن لأحد أن لا يصدِّقه، يعود بعدها لصخبه، كأنّ كل ما قيل رذاذ تبخّر في الهواء، من ينظر إلى عينيه الماكرتين ووجهه النحيل الأصفر يظنّه مصابًا بداء اليرقان. في طفولته أراد أن يصبح ممثِّلاً، ترك المدرسة وقضى معظم أوقاته في دور السينما وملاحقة أخبار الممثلين وتقليدهم أمام المرآة الكبيرة، يتقمّص دور شاب فقير يقع في غرام ابنة رجل غني يعانيان المصاعب وفي نهاية الفيلم يتزوجان، يقلِّد كلّ ممثلي الفيلم ويعيد صياغة الحوار بلهجة مصرية ركيكة، يندمج في الدور فيتعالى صراخه أنّه يحبها ويختار لها اسم «نيللي»، صعد مرةً إلى خشبة المسرح وقام بدور المحقِّق الذي سيحكم بالإعدام على جندي إسرائيلي، بعدها لم يعد التمثيل يستهويه ولا أخبار الممثّلين والممثّلات، جمع كل المجلاّت المصريّة، أحرقها في باحة الدار، ابتهجت جدّتي بنهاية هذا الضلال كما كانت تسميه.

«كان رائعًا وحنونًا» تصفه صفاء متذكِّرةً محاولاته الدائمة أن يكون ضالاً، مستهينًا بالتقاليد، أحمق تثير أفعاله قلق العائلة التي اجتمعت مرّات كثيرة، قالوا كلامًا مؤنِّبًا سمعه بهدوء ثم بكى أمامهم نادمًا، ليعود صباح

اليوم التالي إلى مفاجأتهم بحماقة جدّيدة لا تخطر في بالهم، أحضر مرة قطيع إوز إلى المنزل، ساعده سائق شاحنة استأجرها في إدخال عشرة أقفاص كبيرة، قام على الفور بفتح أبوابها لتبدأ فراخها بتخريب أزهار مريم، يرمي بقطع الخبز مبتهجًا ويقودها كراعٍ محترف، كاد أن يغمى على جدّتي، مريم أحسّت بالهستيريا تنتابها وهي ترى نباتاتها قد تقصّفت ونثرت في أرض الدار كمهرجان عبث لا يتوقعه أحد، كتمت صفاء ضحكتها وهما تتشاجران مع عمر وهو ينظر إليهما باستغراب ثم يخرج من الدار غاضبًا، انتهى حلمه بأن يصبح راعي إوز، يقود قطعانها في البوادي مستمتعًا بالهواء الطلق وبيده عصاه الرفيعة يهشّ بها على مناقير قطيعه، عاد جدّي وخالاي مساءً ليطاردوا ما تبقّى من هذا القطيع الذي كان يختال في الغرف والأقبية تاركًا برازه وآثار أقدامه على أغطية الأسرة والكنبات الزهرية، جدّي أكثر المتسامحين مع مزاجه الغريب، فوجئ أيضًا بمواهبه في ربح المال حين بدأ عمر العمل في المحلاّت وسط خوف سليم أن يهدم طيشه كلّ شيء، كأنّه وجد يقينه أخيرًا في لذّة الربح التي كان يفلسفها مفصحًا عن أفكار كانت تهزّ السوق أحيانًا، وتجعل منه شريكًا مرغوبًا تحاشيًا لخطره. تغاضى خالاي وجدّي عن طيشه مقابل إنعاش تجارتهم التي بدت باهتة في زمن لم يعد فيه السجّاد العجمي والكشميري فخرًا للعائلات بعد البريق الذي منحه ارتباط الأسر الكبيرة مع ضبّاط السلطة الذين استباحوا كل القوانين بعد دخول الجيش إلى لبنان، تحوّلوا من ضباط مقاتلين مختالين ببزاتهم العسكريّة النظيفة وأوسمتهم إلى مهربي سيراميك وأجهزة كهربائيّة، مرتبطين بمافيات الدخّان الأجنبي، أصبح مشهدهم مألوفًا في المطاعم الفاخرة يمتدحون اليبرق الحلبي والكبب ويتقاسمون

الأرباح، تتعالى أصواتهم حين تشتدّ خلافاتهم لتصل إلى إطلاق الرصاص بين رجالهم، وغالبًا ما تصل أصداءها إلى القصر الجمهوري الذي يتدخل بكلمات مقتضبة وواضحة المعاني تكون حكمًا مبرمًا يقبل به الجميع، يعودوا بعدها إلى اصطحاب الفتيات إلى المطاعم والمزارع مبتهجين بصلاحياتهم الكبيرة وإطلاق يدهم في نهب ثروات البلاد وفرض قوانينهم على كل المؤسسات التي أصبح مدراؤها يرتعدون حين يرون سيارة عسكريّة تتوقف أمام المبنى، يترجّل منها عساكر ببزات مموّهة، يدخلون إلى المبنى حاملين أسلحتهم، تقدّم لهم المشروبات الباردة مع قطع البيتفور وتنفّذ أوامر معلمهم فوراً، أصبحت المدينة التي تفتخر بتوأمتها مع فيينا خرابة تسكنها أشباح خائفة، يتحسّر على ماضيها المزدهر أبناء العائلات التي فقدت نفوذها فاضطرت لمصاهرة أبناء الريف ومشاركتهم لعب الطاولة والتغاضي عن فظاظتهم وامتداحهم، وضع مناسباتهم على قائمة الواجبات، سليم اعتبر شراكة عمر مع المهرّبين جنونًا وحماقة ستودي بالعائلة بأكملها وإرثها إلى الاندثار، لم يتوقع دفاعه البارد عن هذه الشراكة بسرد تفاصيل انحناء والده أمام العواصف، ومن قبله جدّه حين سلم الشيخ الداغستاني الجدّ إلى العثمانيين ليعلّقوا مشنقته أمام باب الحديد، معيدًا تذكيره بفرش أربعة أجنحة من قصر يلدز في استنبول بالسجّاد الفاخر ثمنًا لخيانته التي حاول جدّي مراراً إعادة كتابتها بطريقة يبدو فيها الأمر أقرب إلى الصدفة منه إلى المؤامرة، بكر لم يعترض، يقدّم نصائح لا يسمعانها، أصبح عمر كرجل مافيا منشغل الذهن، لا يعرف طعم الراحة، لم يعد يأتي إلينا آخر الليل وآثار خمرة خفيفة تجعله راضيًا ومنطلق الأسارير ليجادل مريم في أصول الفقه، يشرب القهوة مع صفاء ومروة، يمازحني ويترك لي

نقوداً كثيرة تضعها مريم في صندوقي الخاص، كأنّها تريد إبعادي عن رائحة بسطة السمك الكريهة التي تفوح من ثياب أبي ويديه اللتين تحوّلتا إلى غلاصم نتنة.

فضائح عمر وتهتُّكه العلني أثار قلق خالاتي اللواتي تسابقن لكتابة حجب مدروزة ومغلّفة بقماش ملوّن أنيق، علّقنها برقبته، جلس بين أيديهن باستكانة قنفذ، فيما بعد أوحى لصانعه بتوزيعها على الدراويش، صفاء برقت عيناها فرحًا حين تداولت المدينة شجاره مع مسؤول كبير اعترض طريق عشيقة له، كانت امرأة متزوِّجة تُفاخر بعلاقتها بعمر، تخرج معه علنًا إلى المطاعم وتسافر معه إلى بيروت لأيام قليلة، تعود بعدها لتستعرض أمام صاحباتها كرمه. نصحته صفاء بعد حديث طويل شكا فيه تعلُّقه بها واستغلالها لعاطفته الملتهبة بأن يطلّقها من زوجها ويتزوجها، أكملت ساخرة بأنّ الزوجة أرخص من العشيقة.

لم نستطع تفهم طِموحات عمر وقلقه وخوفه، لم نجد سببًا كافيًا لانغماسه المجنون في الملذات وتعمُّده إثارة الفضائح، كلّما نظرت مريم إلى شهادة الشريعة المعلَّقة في صدر غرفتها، تغرورق عيناها بالدموع وتتمتم بأدعية لم نعد نشاركها ترديدها بصوت مسموع بعد الحديث عن الأموال الطائلة التي ربحها خلال أشهر قليلة من تجارة السلاح التي كاد أن ينغمس فيها مهملاً نقوش السجّاد ورائحة خيوط الصوف والحرير، أصبح حذراً مع بداية الاغتيالات الفرديّة في المدينة لموظفين وضبّاط صغار امتدح الناس أكثرهم واستغربوا قتلهم في صباحات باردة، بدأ الوجوم يسود المدينة والخوف من مستقبل مجهول لا أحد يعرف إلى أي دمار

سيودي بمكانهم المحبب، لم يستطع الانسحاب من هذه التجارة ببساطة، حاصرته الأسرار التي يعرفها عن المصادر وأسماء شخصيات سياسيّة فلسطينيّة وسوريّة وعراقيّة متورِّطة في أسرار هذه التجارة وإيصالها إلى آبار مياه جافّة وأنفاق سريّة في منازل غامضة اتخذت كمستودعات جرى إخفاؤها بمهارة، حاصرته الأسرار، كان يحسّ بالاختناق وهو يدخل في تلك الليلة إلى غرفة مريم، خلع ملابسه وارتدى بيجامة حرير أزرق أخرجتها من صرة ملابس قديمة ومنسية، بقي ثلاثة أيام صامتًا يقرأ في القرآن بورع وصوت شجي حين يرفعه مجوداً سورة الأحزاب، أحسسنا جميعًا بتعبه وحاجته إلى صورة العائلة القديمة التي ما زالت في ذهنه، كأنّه اشتاق إلى ذلك المراهق الأخرق ينثر الطحين في أرض الدار ويتأمّل ذراته التي تهبط على حواف البحرة وأغصان الشجيرات والورود، يفتح ذراعيه ويدور كدرويش في حلقة صوفية ويتساءل بجدّية لماذا لا تمطر السماء طحينًا؟ ثلاثة أيام كانت عيداً لخالاتي وكانت كافية كي أقترب منه أكثر وألفت انتباهه إلى معارفي واستعراض معلوماتي الفقهية، مهرجان طعام لم أشهد مثيلاً له، انهمكت فيه مريم، أمرتنا بتنظيف طاولة الجوز المهملة في إحدى زوايا الغرفة الكبيرة من الغبار، أخرجت المفرش القرمزي الحريري المزيّن الحواشي برسومات آلات موسيقيّة صينيّة وزهور فاتحة، فردته بعناية وأنبت صفاء بهدوء أم حنون على نفورها من صنع الكبّة المشوية، التفتت إليّ لتبدي ملاحظاتها حول عدم انسجام أصابع اليبرق الملفوف، ممتدحةً مروة التي ورثت كل خبرة الحلبيين في إعداد طعامهم وأضافت أفكاراً كانت مثار جدل بينهن إلى أن اقتنعن بقدرتها على الابتكار، رضوان أكثر المتحمّسين وجد مبرراً للجلوس ساعات

طويلة قرب المدفأة، ممدّداً رجليه على الصوفا ومولعًا بالثرثرة مع عمر الذي يحبّه، كثيراً ما شاركه طيشه وتدخل لدى جدّي لإنقاذه من غضبه. مشهد صحون الطعام المصفوفة على الطاولة يثير فينا شهية عدم احترام آداب المائدة والانتقام من برودة مائدتنا نحن اللواتي يجلسن بصمت ليأكلن بأدب مبالغ به. أصرّ عمر أن يتناول رضوان طعامه معنا، لم تمانع مريم، أثارت أحاديثه وتهكّمه كمهرّج ضحكنا فضحكنا دون أن نخاف من كشف عورتنا أو نحسب حسابًا لهذه العورة، في الليل استعرضت مريم كل قصص طفولته، روتها بحماس استغربته، بدا وجهها محببًا وهي تحاول تقليد غضب جدّتي اليائسة من إصلاح أصغر أبنائها الذكور، لأول مرّة أعرف أنّه فكّر بالارتداد عن الإسلام فأثار ذعرًا حقيقياً وإرباكًا كاد أن يقود جدّتي إلى الهستيريا، اعتبرته مجنونًا يحتاج إلى رعاية خاصة، بكت ليالي بأكملها واصطحبته إلى مشايخ حلب ليجلس في حضرتهم، يستسلم لقراءتهم وحجبهم التي سرعان ما يملَ منها، يفتحها ويقرأ فيها أسماء الشياطين ورموز الدخول إلى الجنّة ثم يرميها بدون تقديس أمام جدّتي التي تلمّها وتحرقها كي لا تهان كرامة الأولياء.

أثارتني سنوات مراهقته، حاولت مرارًا تركيب تفاصيلها وإعادة رسم ماضيه، قريبًا منّي كأنّه ابني، بعد رحيله بدأت أفهم سر كآبة صفاء وحزن مريم ومبالغتهما في التشكي من متاعب الوحدة ومطالبتهما أن نصون شرفنا كأنّنا نسير عاريات وسط المدينة كما كانت تردّ عليها صفاء بعصبيّة، مروة المستسلمة كأنّها لا تنتظر شيئًا سوى الموت، توافق على كل شيء، فقدت شهيّة الكلام، صفاء تحمل مخدتها وتأتي لتشاركني السرير،

تتابع حديثًا لا ينتهي عن عائلات يقمن بزيارتنا أو نحضر استقبالاتهم ونلبِّي دعوات أعراسهم، في نهاية حديثها دومًا تمتدح قوة النساء وتسخر من ضعفهن، تسخر من برودة ريما وتجاهر بأنّ عمر يجب أن يطلقها، مختلفةً مع زهرة التي تصفها بالصديقة مستعرضة تفاصيل عنقها الطويل وحجم ثدييها وتدويرتهما المثيرة، صفاء تضحكني، أحسّ بأنفاسها قربي حين تغفو فأنظر إلى وجهها بتعاطف وأصدق بأنّها امرأة تعيسة ما دامت مساماتها فارغة من روائح الرجال. خرج عمر من منزلنا هائمًا في الجبال، ثلاثة أسابيع قضاها وحيدًا، كان أقرب إلى الزاهد منه إلى صورة العربيد التي حظي بها، نام في فنادق رخيصة، استمتع باستنشاق رائحة الصنوبر في غابات الفرنلق، تحاشى الحديث المباشر مع أصحاب الفنادق الذين استغربوا كرمه، ظنّوه هاربًا من جريمة ارتكبها أو رجلاً تلاحقه لعنة الوحدة والصمت، كان يحتاج إلى ترتيب كل شيء، علاقاته، أمواله، مشاريعه وأحلامه، علاقته مع ريما وأصدقائه الذين أخبرهم أنّه مسافر خارج البلاد، الهواء النقي في جبال صلنفة وكسب وابتعاده عن شرب الخمر أعادت النضارة إلى وجهه والحيوية إلى قدميه، استعاد علاقته مع الطبيعة، يسير ساعات طويلة صاعدًا الجبال متحاشيًا الطرق الرئيسيّة، موغلاً في الضياع الذي قاده إلى أمكنة ظنّها لأول مرة بكرًا، أغصان البلوط البري متشابكة مع أشجار الصنوبر ورائحة الزنزلخت تنبعث من الغابات بعد أمطار الليالي الفائتة، اكتسب ضياعه معنى، حين امتدّت أمامه سهول الغاب توقف وخطر له أن يقفز، تمنّى لو كان طيارة ورقيّة تهيم فوق البلاد، عادت إليه طفولته صورًا متراكمة، أزاح عنها الغبار، بدأ بترتيبها خالطًا أزمنتها، مستعيدًا طعم قلقها كثمرة دراق شديدة المرارة رغم تشقق

قشرتها، «كنت أقرب إلى الله» قال لمريم بعد عودته وإحساس كبير بالنقاء والخفة ينتابه. لم يضيِّع وقتًا أو يسمح بإبداء أيّ رأي؛ أبلغها قرار طلاق زوجته ريما وحقها بالعيش مع ولديه في الشقة الفاخرة التي كانت بالنسبة إليه جحيمًا تسبب له رائحة المخلّلات المنبعثة من مطبخها حساسية تجعله عصبيّاً وغير قادر على المخاط، بهدوء وكما كان متوقّعًا انتهت سنوات زواجهما التي دمَّرها ولعها باللحوم الباردة والمخلّلات التي كانت تقضي وقتًا طويلاً بترتيب قطرميزاتها في السقيفة وفوق خزائن المطبخ، يائسة من طلباته الغريبة التي لا تناسب ابنة شيخ عرفت المدينة كراماته وزهده الشديد «يريد تحويلي إلى عاهرة»، تبكي ثم تنهض إلى المطبخ، تضع الملح لمخلل الفاصولياء مستمتعة برائحة الخل، صفاء تعاطفت مع عمر، امتدحت طلاقه شاتمة غباءها، مستهجنةً رائحة البودرة الرخيصة المنبعثة من أطفالها، قامت مريم بترتيب طلاقهما مع أهلها بمشاركة سليم الذي اضطر لشتم عمر أكثر من مرّة مترحِّمًا على جدّتي التي اختارتها من بين فتيات كثيرات لحشمتها وطاعتها وسمعة أهلها العطرة.

في الأيام التالية بدأ عمر ينتقم من تاريخ الطاعة والحشمة والسمعة العطرة، بعد صمته وعزلته التي لم تكمل شهرها الأول، عاد إلى تهتكه الذي ازداد صخبًا، باحثًا عن فضائح يقدم عليها بدم بارد وثقة متناهية، متحرشًا بالنساء المتزوجات والفتيات المراهقات، رافق العاهرات علنًا إلى المطاعم، عاش في شققهن لأيام عديدة دون احتراس، تبادل معهن الحشيش والألفاظ البذيئة، قام باصطحابهن إلى الأسواق واستمع إلى كل ما يقال عنه دون اكتراث، ردَّد أمام خالاتي «لا شيء ينقذني إلا الحب»

كلماته القليلة أيقظت رغبتنا بالعزلة والصمت، الدار الصامتة موحشة، مهجورة يجول رضوان فيها بحرِّية مستمتعًا بعدم تلقيه أوامر مريم وسخريات صفاء ورجاءاتي، «جميعنا لا ينقذنا إلا الحب» قالت صفاء لمروة التي بدأت برسم سجّادة تزين حواشيها صور آلهة يطيرون في سماء شفافة، مبتسمين بهدوء وعلى وجوههم علامات ورموز غريبة، ذُعرت حين اكتشفت أنّها وثنيّة رأتها ذات مرة في كتاب مصوَّر عن الحضارة اليونانيّة، مريم بالغت في عزلتها، لم تكترث لما يحدث خارج غرفتها، تتنقل بين سريرها والكرسي الهزّاز قرب النافذة، تخرج من درج خزانتها ألبوم صورها، تنزل الستارة وتغلق الباب بالمفتاح كأنّها تتهيّأ لارتكاب إثم، تشرد في الصور القليلة ثم تنهض فجأة، تجلس على الأرض وتتابع قراءة السور القصار، يتعالى صوتها عاليًا كأنّها في حفل إنشاد ديني أو تحاول طرد شياطين ستهبط من أضواء الثريا المعلقة في السقف.

في اليوم الرابع لمهرجان الصمت والعزلة ذهبنا جميعًا إلى مجلس الحجّة رضية، أنشدت خالاتي مع النساء المتضرِّعات لحبيب الله، حينها قلت لنفسي، «ما أصعب أن تفصح امرأة عن أسرارها». حسدت عمر للحظة ثم طردت الوساوس والكآبة، استحضرت إلى سريري صورة غادة ثم رائحتها، توغلت أكثر في حلم يقظتي، اطمأننت إلى وحدتي في الظلام، أوغلت أكثر واستسلمت إلى شهوتي التي اندفعت كقطار مسرع في سهول خضراء، مددت أصابعي إلى أزرار فستانها الأزرق الذي أعرفه، فككت الأزرار وتأمّلت السوتيان الوردي الذي يقبض على جمر حلمتيها ونهديها الشهيين، نهضت فجأة من سريري، أغلقت الباب

بالمفتاح، أسدلت الستائر، تعرَّيت تمامًا وعدت كي أغرق في نعومة بطنها، ألهث ككلبة وأقبل سرتها بنهم امرأة تسترسل في فجورها.

في الصباح ندمت، سرت مذعورة إلى المدرسة، خائفة من الأصوات الأليفة، كرهت غادة حين رأيتها في الطابور الصباحي تضحك مع البنات وتتلكأ في صعود الدرج، حين اقتربت منها أحسست بالغثيان كأنّ روائح جيفة تفوح منها، في الحصّة الأخيرة اشتقت إليها وكدت أخرج من الصف كي أذهب إلى صفّها، أحسست بحاجة شديدة لرؤيتها، شردت ولم أسمع ما تقوله معلّمة الرياضيات رغم ولعي الشديد بالمعادلات والهندسة الفراغيّة، بحثت عنها في نهاية الدوام، تمهلت في الخروج، مرّت من أمامي سيارة الرجل الخمسيني تلوّح لي غادة منها بهدوء سيِّدة واثقة بنفسها، ابتسمتُ لها بتواطؤ زاد من آلامي، تمنّيت موتها وموت صديقها الذي لم أره يضحك بفجور كضابط سرايا الموت.

قلت لنفسي لا بدّ من الغرق في روائح البصل وأكوام الملوخية والبرغل المنقوع في جرن الفخّار، قبل يوم من تلك الدعوة التي أربكت صفاء وجعلت من كل شيء ماضٍ يجب عدم محوه كعار لم يغسله الدم، أتت زهرة حاملة طفليها، فردت ثيابهما في غرفتي بعد إلحاحي عليها بالبقاء معي، كنت أحتاج من يقاسمني الفضاء كي أهدأ قليلاً، أحيانًا نحتاج لآخرين لديهم ما يقولونه لنا ويستمعون إلينا بشكل جيِّد كي ننسى صمت من أحببناهم، قرَّرت أن أحدِّثها عن غادة وقسوة هجرها، عن كراهيتي وحقدي الذي بدأ يزداد كلّما رأيت الرجل الخمسيني يصطحبها من أمام باب المدرسة، انهمكت في إعداد الطعام، أحسست بنظرات مريم

الراضية تراقبني أتبّل السمك وأحشوه بالفليفلة وأجتهد فأضيف بعض أعواد البقدونس، مروة شجعت جرأتي في خرق تقاليد الطبخ الثابتة، صفاء تهامست مع زهرة بكلمات قليلة وبدت جديّة ومرتبكة، قامت بدور المربية لابني زهرة وإبني عمر، استدعت مريم الأحفاد الصغار كي يشهدوا مكانة منزل جدهم التي أحسّ الجميع أنّها في طريقها إلى الزوال، جهود مريم في إعادة ضبط حاضرنا على إيقاع ذلك الماضي لن تنفع بشيء، ستزيد من أوهامنا بانتماء لا نعرف كيف سنرمي بثقله ذات يوم عن أكتافنا ونتحرَّر من إطارات صور الأجداد المعلَّقة على جدران غرفة مريم، الأسرَّة النحاسيّة وقطع المائدة الفضيّة التي استعملها الأجداد ذات يوم بالإضافة إلى المرايا العتيقة المزخرفة وكمودينات من خشب الجوز، الصناديق المقفلة ومئات القطع المتناثرة في المنزل تحمل قدسية أكبر كلما استيقظنا، تلفّ حول رقابنا حبالها، تكبّلنا وتجعلنا عبيداً لها. ننظفها، نلمعها، نطمئن عليها، لا نجرؤ على تحطيم فازة حتى عن طريق الخطأ، كأنّ مريم لأول مرة تراني قد كبرت، كأيّة امرأة لبست ثوبًا فضفاضًا وأرخيت ثديي، لم أعد التلميذة الصغيرة، سُمح لي بالاقتراب من زهرة مصححة بصوت مسموع خطأ مريم في تدوير الشحمة وحشوها في الكبة. لم أر في حياتي استعراضًا ضخمًا للطعام كما في ذلك اليوم، أرادت مريم أن ينقل ضيوف بكر الصورة إلى نسائهم ليتحدثنّ مرة أخرى في شؤوننا، عن مهارتنا كنساء، فخروجنا من دائرة النميمة يزعجها كثيراً كأنّنا فقدنا بريقنا.

تَقاسَمْنا زهرة في الليل، أول المساء دار الحديث جديّاً بين مروة وصفاء وزهرة التي رأيتها من بعيد تتحدَّث وترتشف من كأس شايها بثقة، ومروة صامتة تراقب صفاء وهي تسأل وترمي يدها في الهواء بيأس

شديد. انشغلت بالحمام، كان جسدي يحتاج إلى الاسترخاء وإضاعة الوقت، أحسست بأنّهنّ اخترن تبادل أسرار أردن إبعادي عنها، تركن لي ابن بكر الصغير، استحمّينا سوياً، ابتهجت به، ببكائه حين يحرق الصابون عينيه، غنّيت له، لم أعرف من قبل أنّي لا أتقن إلاّ أناشيد الحجّة رضية التي لم يستسغها، استبعدت فوراً سؤال كيف يكبر الطفل ويصبح رجلاً، تذكرت ألم الليلة الماضية، ضحكت من هواجسي وتساءلت كيف أخفِّف من قوتها وأجعل منها فكرة سخيفة وعابرة لا تفسد براءة أول ذكر أغتسل معه وأرشقه بالماء الساخن والضحكات.

آخر الليل حدّثت زهرة بكلمات جافة عن خيانة الصديقات، عن غادة وخوفي عليها من الذهاب بعيداً في مغامرات غير مضمونة تجعل منها امرأة سيئة السمعة، عن قلقي وهواجسي، استرسلت في وصف ألمي وزهرة صامتة تستمع، لا توافقني على آرائي المتزمتة كما لا تعترض عليها، هذا ما أحبّه فيها، تستمع بصرامة إلى من يحتاج أن يبدو على حقّ دوماً مخفياً نصف الحقيقة، أحسست بورطتي حين نظرت إليّ كأنّها تقول «كم أنتِ بائسة» وبراحة لأنّني أدخلتها إلى عالمي الساكن كبحيرة هجرتها الرياح وطَيور البط وسنّارات الصيادين.

في الصباح أتت أمي كعادتها مبكِّرة جداً، أيقظنا ضجيج الطناجر النحاسيّة وجلبتها مع مريم لتحضير الفريكة التي كانت تبرع في تطييبها بالزعفران فتجعل لنكهتها مذاقاً خاصاً لا يمكن وصفه، بدت لي هرمة تشكو من لامبالاة أبي، امتدحت أخي حسام وتفوُّقه الدراسي وتديّنه، تغزلت بشاربيه الخفيفين وقامته المشوقة، كانت مرتبطة ببكرها ومولعة به إلى درجة

الجنون، تعتقد أنّه سينتشل أسرتنا من بؤسها، ككل الأمهات تريده طبيبًا وفيلسوفًا، أصبحت أختها الصغيرة أو رفيقتها، أربع سنوات وأنا بعيدة عنها، لم أعد جزءًا من مفردات يومها، تتلقى أخباري باطمئنان وتخاف أن تصيبني لعنة عنوسة أخواتها إلا أنّها تعود مرة أخرى وتتذكّر أنّ أبي بائع سمك على بسطة في مدخل سوق باب جنين، هذا يكفي كي لا يقرع باب بيتنا إلا عريس فقير، أو أحد أبناء عمي الذين لم تستطع لقاءاتي القليلة معهم جعل وجوههم واضحة الملامح بالنسبة لي، لم تمكث سوى ساعات قليلة، قبل رحيلها رأيت مريم تدسّ في حقيبتها نقودًا لم تمانع في أخذها.

فوجئنا بأكثر من ثلاثين رجلاً مدعواً استقبلهم بكر، لم أفهم سرّ وجود أخي حسام إلى جانب بكر ونفوذه الواضح حين يقبله رجال أعرف بعضهم، والبعض الآخر كانت مريم تعرّفنا بهم من مكان جلوسنا في المطبخ ونحن نراقبهم يأكلون بنهم واضح، فرحت مريم بقدوم الشيخ الداغستاني، بالنسبة لها قبول دعوتنا يُشكّل إعلان صفحه عن عمر، امتدحت رجاحة عقله وزهده، عددّت بعض كراماته ووصفته بـ أحد رجال الله بتفخيم زائد، كيف اجتمع كل هؤلاء؟ قلت لنفسي، تجّار كبار، صناعيّون، رجل سياسة متقاعد لعب دوراً مشبوهًا في حكومات الاستقلال، مشايخ بعضهم يتعاطى السياسة، رجال اشتهروا بانتمائهم إلى الأخوان المسلمين، ضابط جيش لا أعرفه ورجل سعودي، رجل يمني في الخامسة والأربعين من عمره، قالت مريم إنّه تاجر سجّاد وصديق بكر، جلس اليمني في منتصف الجلسة، من مكانه يستطيع رؤية شبّاك غرفة صفاء، أخي وأولاد سليم يخدمون الضيوف بصمت، يحاول رضوان إقناعهم بأنّ وقت تناولهم الطعام مناسب لإلقاء معلّقته في مدح النبي، تصرّف حسام بحزم أزعج

رضوان الذي شكا لي، استغربت برودته وعدم اكتراثه حين طلبت منه السماح له بإلقائها، لم يسمعني كي أشرح ماذا يعني لرضوان هذا الجمع، استغربت السرور الخفي على وجه مريم، شَرَحَتْه بإسهاب أنّ العائلة كسبت رجلاً جديّداً، تسلّلنا من المطبخ وراء الستارة التي أعددناها كي نستطيع العودة إلى غرفنا دون أن يرانا الغرباء، دخلت إلى غرفة صفاء وارتميت على السرير متعبة، استغربت ارتداء صفاء عباءة عربية مطرّزة وغطاء رأس، غفوت متعبة، استيقظت بعد ساعتين وحصارنا ما زال مستمراً، خالاتي اجتمعن مع زهرة في غرفة مريم وتعالى لغطهن، سكتن حين دخلت، بقي بكر مع ضيوفه المتبقين الذين عرفنا أنّهم خمسة من طلبه بإعداد الزنجبيل لستة أشخاص ليس من بينهم اليمني والسعودي ولا الشيخ الداغستاني الذين رأتهم صفاء حين غادروا. فرحت ببقاء زهرة وابتهجت بتمسكُها مشاركتي غرفتي، أحسّت كم أنا وحيدة وخائفة من مجهول لا أعرفه، أحلامي تحولّت إلى كوابيس أرى فيها ما ينذر بالسوء، رسمت في دفتري ثعابين ضخمة تلتهم أطفالاً، خفافيش تهدل كحمام في سماء المدينة وامرأة تلتهمها الذئاب، «كم هو صعب أن تصغي إلى صوتك الداخلي بحريّة» قلت لنفسي، أخبرت زهرة عن رغبتي بالسباحة في البحر عارية، نظرت إلى وجهها غير المصدِّق أن تنتابني رغبة كهذه، ضحكت وطمأنتها أنّ مناماتي تشرد أحياناً، ثلاثة أيام وبكر يستقبل الرجال الخمسة أنفسَهم الذين لم نعرفهم، يجلسون في الغرفة العلوية ساعات طويلة، يفردون أوراقًا، ثم يغادر معهم بعد أن يتهامس مع زهرة بكلمات قليلة، تهزّ برأسها وتعود إلينا لنكمل حديثًا أصبح مملاً، نستمع بشرود طويل إلى مريم تسرد ما قالته النساء عن طعم مأكولاتنا التي أعددناها يوم الجمعة الماضي لرجالهن.

بكر قلق، مرتبك، يعاني من قلة نوم واضح في تراخي جفنيه. في اليوم الرابع كالعادة حضّرنا عشاءً خفيفًا وعصير التوت كما كان يطلب دومًا، اختبأنا في غرفنا كي يغادر الضيوف في الموعد المحدَّد، بعد صلاة العشاء دخل بكر ومعه الرجل اليمني، بحضورنا طلب من صفاء التفكير بالزواج من «عبد اللّه اليمني»، أخبرنا بوضوح أنّه طلبها كزوجة ثانية، ترك لها حرية القرار والتعارف عليه حسب أصول الشريعة، دون تردد وافقت بعد أن امتدح أخلاقه واشترطت أن يتمّ الزواج خلال أيام.

زهرة عرابة هذا الزواج الذي صمّمت عليه صفاء بدون حب حاولت مريم تأجيله أو التمنُّع قليلاً، فاجأت صفاء الجميع بلهجتها الحزينة الجادة حين صرخت «أريد أن أصبح امرأة، لا أريد الموت عذراء»، ثم استدركت بهدوء «أريد طفلاً»، لا وقت عند مريم لامتداح أخلاق زوج اختها اليمني وتديُّنه وثرائه في مجالس النساء، أخوالي باركوا هذا الزواج كما هي عادتهم، كأنّ بقاءنا دون رجال يجعلهم يترقبون فضيحة قادمة، عمر استخفّ بانفعال مريم وقدّم لصفاء حزامًا ذهبيًا وخاتمًا مرصّعًا بألماسة نادرة، أخبرنا ضاحكًا أنّه اشتراه لإحدى صاحباته من بيروت. كلمات عمر المنفلتة تبدو غريبة عن قاموس الحشمة الذي صمّمت مريم على إحيائه وتذكيرنا بمفرداته كلّما تقدَّمت في السن.

بثوب أبيض باذخ أعِدَّ على عجل وجهاز قليل لم يتجاوز حقيبتين خرجت صفاء من باب منزلنا عروسًا على وقع دفوف الحجّة رضيّة، ونساء قليلات دُعينَ لمولد لم يستمر أكثر من ساعتين أثار ارتجاله على عجل غضب مريم التي بكت بحرقة حين خطت صفاء خارج المنزل

ليستقبلها «عبد الله اليمني» الذي رافقه أربعة رجال منهم يمنيان وتاجر حلبي اشتهر بصداقته لرجال الدين والشيخ الداغستاني، أغلقنا الباب وحلّ صمت رهيب كأنّنا شيّعنا ميتًا، دموع مريم أربكتنا، جعلتنا أنا ومروة وزهرة نبكي، بينما أمي تسبّح بمسبحتها قرب الحجّة رضيّة التي لململت دفوفها، انتظرت أن تهدأ مريم كي تحدّثها بكلمات قاسية عن النصيب وتطلب منها الكفّ عن التمسُّك بشروطها القاسية لزواجها الذي لن يأتي ببساطة رغم عراقة نسبنا وسمعة جدّي وأخوالي، تذكَّرت فجأة أنّه منذ ثلاثة أيام لم أر رضوان بعد أن منعته مريم أن يقود موكبنا كما هي العادة إلى الحمّام، قرعت باب غرفته وسمعت نشيج رجل يبكي، فتحت الباب، رأيته يأكل التين اليابس ويبكي صديقته الودودة صفاء كما وصفها أمامنا في أول زيارة للعروس، أهداها زجاجة العطر الملكي، تفاهما بسريّة وسرعة، ضحك كطفل حين وعدته أن تسمي ابنها الثاني رضوان وتأتي به ليحفِّظه القرآن ويعلّمه صناعة العطور.

تفاءلت صفاء بزواجها من اليمني، طمأنت مريم، تهامست مع زهرة بمودّة كأنّها تعبر لها عن العرفان بالجميل. ذهبنا إلى منزلها المؤلف من غرفتين وصالون في الجميليّة، كادت مريم تختنق من ضيق المكان الذي يشبه القبر كما وصفته، لأول مرّة أرى روح صفاء تتجلّى في مكان يخصُّها، تخلّت عن إهمالها، بشراسة تدافع عن حياتها الجديدة. رتّبت المنزل بطريقة توحي بأنّها تكره منزل جدّي المتلئ بالأثاث القديم، كنبات قليلة في الصالون من الستايل الأميركي الدارج، سرير واطئ قرب كمودينة سوداء لامعة وعليها شمعدان بثلاثة فناجين، أدوات قليلة في المطبخ، كأنّ

أصحاب هذا المنزل يقضون وقتًا قصيراً يشبه الإجازة وسيغادرونه إلى مكان آخر، لم تستمع صفاء إلى اقتراحات مريم بنقل أشياء كثيرة من منزل جدّي عرضتها كحقّ من حقوقها، طبطبت على يدها وأخبرتها بأنّ سجادتها تكفيها متخلية عن حقِّها في الإرث، كأنّها لا تثق بأنّ هذا المنزل الضيق أو الأمكنة المجهولة التي ستلحق بزوجها إليها ليست نهاية المطاف، احتفظت مروة بخزانة صفاء الممتلئة بفساتين أصبح بعضها تراثيّاً، كما بشراشف سريرها ووجوه المخدّات وكلّ أشيائها الصغيرة، كأنّها غير مقتنعة بأنّ صفاء قد كسرت قدرهن ولن تعود إلى منزلهن امرأة وحيدة.

أصبحت مساءاتنا رتيبة تنذر بوحدة طويلة لم أعرف كيف أهرب منها، مروة تطرز مناديل لا أعرف لمن ستهديها، تكدسها في خزانتها وتؤجل موتها يومًا آخر، عرضت عليّ تعليمي التطريز، قلت لها بجديّة استغربتها «لا أريد انتظار الموت»، تابعت إلى موعدي اليومي مع الحجّة سعاد التي بدأت التردُّد إلى منزلها، رغم إحساسي بغربة شديدة تحاصرني وأنا جالسة مع بنات تعرَّفت إلى أغلبهن للمرة الأولى يوم اصطحبتني هناء معها بناءً على أوامر بكر وإصراره الذي لم أفهمه إلا حين بدأت الحجّة سعاد بتقسيمنا إلى مجموعات تلتقيها في مواعيد ثابتة، تحدَّثنا بصرامة عن الجماعة والالتزام، ننقل إليها بحماس أخبار المدرسة وسعينا لضم بنات أخريات إلى مجموعاتنا التي بدأت تتّسع، تزداد سريّة وتكتُّمًا وحماسًا لتلك الدولة التي سيرفرف فيها علم رسول اللّه، سنعاقب الكافرين على كفرهم كما كانت تردِّد الحجّة سعاد بإيمان، كأنّها ترى ذلك اليوم، ونحن أخوات المؤمنين سنجلس في الجنة قرب رسول اللّه وأمّهات المؤمنين.

لا أدري من أين أتتني قوة الاعتقاد أنّ طريق الجنّة مفتوحة أمامي، وكل رغبتي أن أصبح شهيدة تحملني الطيور البيض نقية، مغفورة الذنوب إلى ذلك الفردوس الذي رسمته لنا الحجّة سعاد بصبر وثقة، هدأت عذاباتي، وجدت يقيني فجأة مستفيدة من قرابتي لبكر الذي خُلِقَ ليحقِّق حلم محو الفسق والفجور وإعادة أمجاد الخلافة الإسلاميّة.

لم أجد أفضل من عبد اللّه اليمني محاوراً، خاصّةً أن بكر منشغل دومًا، لا ينام في منزله ليلتين متتاليتين، لم تمانع مريم أن أجلس مع عبد اللّه اليمني لساعات طويلة، نتبادل أحاديث ومعلومات عن تاريخ الأحزاب الإسلاميّة وسِيَر شهداء ماتوا في الزنازين وساحات القتال. صفاء مندهشة من تورُّطي السريع وصلابتي في وجه محاولاتها لإبعادي عن هذا الطريق، مادحةً أنوثتي ومستقبلي العلمي المضمون، محاولةً إنقاذي من درب السياسة المهلك، خاصّةً أنّ سيرة زوجها التي استطعت أن ألمّ كلّ تفاصيلها، وأفتخر بقوة اليقين التي جعلت عبد اللّه اليمني يترك طريق الضلال، لينير قلبه بالإيمان قاطعًا رحلة عذاب استمرت أكثر من عشرين سنة قضاها قلقًا وباحثًا عن أجوبة لأسئلة ردَّدها قلبه منذ بداية تفتحه في المدرسة الإنكليزيّة الواقعة ضمن غابة أشجار سرو عملاقة في حي عابدين القاهري التي كان أحد تلاميذها المميّزين، وموضع ثقة أساتذته في دقّة تحليلاته لأشعار وليم بليك، وروعة إلقائها بلكنة تذكِّر أساتذته بفلاّحي منطقة ويلز حين ينتابهم الحماس في أعياد الحصاد، أعاد أمامي قراءة مقاطع طويلة من قصيدة «The tyger» التي لم يستطع نسيانها رغم السنوات التي مضت على ذلك التلميذ الحالم باليمن السعيد، وقف

فجأة، رفع يديه في الفضاء وبدأ يلقي بتأثر هذا المقطع :

Tyger, Tyger, burning bright
In the forests of the night:
What immortal hand or eye,
could frame the fearful symmetry?

بدا لي ممثّلاً مسرحياً من طراز رفيع، مرحًا على غير عادته، صفاء تتعلّق بعينيه اللامعتين كأنّها ترى سوادهما لأول مرة، ابتسمت بخجل وضحكت حين سمعت رضوان يصرّ على قراءة المعلّقة التي لم يسمح له حسام بقراءتها في ذلك اليوم، ظنّت أنّه نسيها، تحمّس وقرأها دون استئذان، عبد الله بتهذيبه استمع بملل إليه وهو يحاول تقليد إلقائه، صفقنا له طويلاً ومريم تضرب كفيها «لقد جنوا» تاركةً لنا التعبير عن حاجتنا إلى غرباء نحدّثهم ولو بتهذيب وخجل.

قرّر أبو عبد الله إبعاده عن عدن بناءً على نصيحة بحّار هندي دخل ذات يوم إلى محلّه في السوق القديم، باحثًا عن قنديل نحاسي أموي كان يصفه بدقّة بعد أن أقنعه رجل إنكليزي أفّاق التقاه في ميناء الإسكندريّة أنّه لن يجده إلا في اليمن، بدا البحّار الهندي مرتبكًا وهو يشرح بلغته الإنكليزيّة لرجل لا يفهم منها إلا كلمات قليلة، استدعى الأب ابنه عبد الله وطلب منه فهم طلب هذا الرجل الغريب، تفاهم الاثنان بسرعة وأبدى البحّار الهندي إعجابه بهذا التلميذ الذي لم يكمل الرابعة عشرة من عمره واستطاع إكمال رسم صورة القنديل، متحدثًا عن عوالم خياليّة أثارت البحّار، استمع بانتباه إلى مغامرات البحّار الهندي، الحديث الطويل بين الفتى والبحار أثار الأب

الذي تساءل عن سرّ اندفاع الاثنين ومتعتهما بحديث لا يريدان إنهاءه، مفتخراً بفصاحة ابنه الصغير التي أضحكت البحّار وجعلته يعاود زياراته إلى محلّ الأب وتبادل ألعاب الخفّة مع عبد الله التي تعلّمها بسرعة، استطاع بعد أسبوع واحد إخراج طوق ورد من كمّ قميصه، قبل أن تغادر سفينة البحار ميناء عدن اشترى الكثير من القناديل وطاسات النحاس والنراجيل المفضّضة لبيعها في موانئ أخرى أو لإهدائها إلى مدراء شركات شحن في أثينا، أفهم البحّار الهندي الأب أنّ ابنه يجب أن يكمِّل دراسته في المدرسة الإنكليزيّة في القاهرة إذا أراد له مستقبلاً مختلفًا عن أبناء جيله الشاردين في الشوارع، منتظرين ثأرًا قبليّاً أو رضا رجال الإمام.

كان حلمًا لا يعرفه، أقرب إلى الخيال، خطا عبد الله أولى خطواته داخل المدرسة التي جعلته خائفًا ثم وحيدًا ثم زعيمًا لأبناء صفه الذي يضم أبناء ملوك وأمراء صغار وأبناء عائلات عرفت بثرائها الشديد، «حكاية خرافية» كان يردِّد عبد الله، يصف لنا الأشهر الأولى ونحن مندهشون من غرابة حكاياته التي لا تنتهي. في القاهرة أحس بطعم غريب ما زال يحنّ إليه، اضطرّ للعمل أيام العطل في مطبعة كي يخفِّف عبء المصاريف الباهظة عن أبيه الذي لم يكن أميرًا، كان الأب مصمِّمًا على وقوف ابنه في ثوب التخرّج مع أبناء ملوك وأمراء يعدِّد أسماءهم لكلّ من يسأله عن عبد الله ودراسته، مصمِّمًا على تلك الصورة حتى لو اضطر إلى بيع محله وإنفاق كلّ مدخّراته أو بيع ما تبقى من قطيع جماله الكبير، كلّما رأى صورة ابنه مع الأمراء الصغار يذكر البحّار الهندي بالخير، يعيد روي حكاية دخوله إلى دكانه وحديثه الطويل مع عبد الله ثم صداقتهما التي

تشكّلت وحولّت عبد اللّه الصغير إلى دليل يرشد صديقه في أزقة عدن، يغرق معه في أحلام السفر والموانئ التي يرويها البحّار ببساطة وتشويق، إلى نهاية السيرة التي أصبح كلّ أبناء قبيلة عبد اللّه يعرفها ويردّدها كصدى لأسطورة تتكرّر كثيراً في مصائرهم المتروكة غالبًا للصدفة.

في الثامنة عشرة من عمره التقى عبد اللّه في قبو المطبعة بسليم الدسوقي، الرجل العبقري كما كان يصفه عبد اللّه بكثير من الحنين، رجل يتمهّل قبل أن ينطق بكلماته، دائم الابتسام، أرشده إلى الماركسيّة وقاده من يده إلى أحياء القاهرة الفقيرة، دخلا إلى غرف رسامين وصحفيين يعلّقون صور لينين وماركس على جدرانها ويحلمون بعالم تسوده العدالة، يُهرّب عبد اللّه الكتب الحمراء إلى مدرسته، يقضي الليل يقلّب صفحاتها وحيداً غير آبه بالخطر الذي يشكّله ضبطها في حوزته، «أصبحت ماركسيّاً متعصبًا» قالها بمرارة مستعيداً ذكرى مجاهرته بإلحاده، مؤمنًا أنّ هؤلاء الجياع سيجتاحون العالم ويقيمون مملكتهم العادلة، انهارت أحلام أبيه حين تلقى برقية تخبره باعتقال عبد اللّه بتهمة الشيوعية، وطرده من القاهرة بعد تعذيب ما زالت ندوبه على ظهره وفي روحه، هرب إلى دمشق ومنها إلى موسكو بجواز سفر سوري مزوّر أمّنه له رفاقه، حين خرج من بوابة مطار موسكو تنفّس الصعداء، تذكّر البحّار الهندي وأبيه الذي بحث عنه في القاهرة، نادمًا على مدخراته التي صرفها على ولد آبق، يترك صحبة الأمراء وقربهم المحمّل بالعطايا إلى أولئك الرعاع الذين تفوح منهم روائح الخراء، تجاهلت إدارة المدرسة طالبها اللامع، اعتبرته غير موجود وشطبت سجلاّته كأنّها تتخلّص من كابوسٍ ثقيل.

الأب قادته قدماه إلى سليم الدسوقي الذي حاول طمأنته على مستقبل ابنه الذي سيحرِّر اليمن من حكم الإمام، أحسّ الأب برعب شديد، الأيام القادمة ستدمرٍ كل ما بناه عبر سنوات طويلة، باع دكانه وعاد إلى مضارب العشيرة التي تربطها برجال الإمام أحلاف متينة بعد سنوات من النزاع، عشر سنوات قضاها عبد اللّه في موسكو محاربًا على كل الجبهات، مؤسِّسًا مع رفاقه اليمنيين القلائل لحلمهم المستحيل الذي اقتربوا منه، رسموا صورة يمنهم سعيداً، يرتدي فيه الأطفال ملابسهم الزاهية ويهتفون لطبقة عاملة غير موجودة، ليالي الأرق انتهت حين نزل مع رفاقه من الباخرة، تفحّص وجوه المستقبلين لم يجد والده أو أحداً من إخوته، بحث عنهم، عاد إلى مضارب العشيرة، وجد أباه ممدَّدًا في غرفة طينيّة، حوله إخوته السبعة الذين كبروا وأصبحوا رعاة مقاتلين يهتفون لمجد العشيرة، أحسَّ بالندم حين نظر إليه أبوه، حدَّثه أبناء القبيلة عن الأيام التي قضاها في سجن الإمام من أجله بعد أن بدأت أخبار استعدادهم لمحاربة الإمام وإنهاء حكمه تصل إلى اليمن. من أقسى الأشياء أن يتحمَّل غيرك عذاب انتمائك، مر الزمن ثقيلاً بينهما، حاول مشاركته إفطاره وطمأنته أنّه سيعوّضه فيها عن كل إحباطاته وأحلامه التي تحوَّلت إلى سراب، مرشح الوزارة المنشغل بأحلامه مع القادمين من القاهرة ودمشق وموسكو بأحلاف لم تصمد طويلاً، أصبح انقسام البلاد حلاً وحيداً لإيقاف المجازر والحفاظ على أحلام ضفتين لا تلتقيان، «عروبيين وشيوعيين» لا يمكنهم الجلوس على بساط واحد لاحتساء الشاي الأخضر ومضغ القات في قيلولة الظهيرة. تغيَّرت ألوان وجه مريم وهي تستمع إلى اعترافه بأنّه كان كافراً لا يؤمن باللّه، رغم قوة السرد في كلماته كحكواتي يروي سيرة

غريبة لا يمكن تصديقها، عذاباته وآلامه وأحلامه، اكتشافات تفتح أبواب المجهول فيقفز دون أي تردُّد ليمضي دومًا إلى موت لاينتظره، كان قريبًا منه إلى درجة كان يحسّ أنّه ينضح من جلده.

درب عذاب وشك أوصله إلى اليقين الكامل قبل أن يصل إلى الأربعين بسنوات قليلة، دخل سنته الأربعين نظيفًا من حرقة الأسئلة تاركًا إلى غير رجعة ليالي الأرق وإدمانه شرب الفودكا الروسيّة التي تأتيه بصناديق خاصّة من موسكو تحمل تواقيع حزبيين روس كبار، يصفونه بالرفيق المناضل حين قرّر مع رفاقه تقسيم اليمن والتربع على عرش عدن، أحلامهم بالثورة والعدالة والتقدّم لم تمنعهم من التنـزه على شواطئ عدن كمواطنين مخلصين، مصطحبين زوجاتهم وحبيباتهم اللواتي خلعن وشم القبيلة، اعتبرنه فلكلوراً من العصور البائدة وحلمن بثلج موسكو يهطل ليتمرغن فيه دون خوف من مسدسات أبناء العم.

تزوّج عبد اللّه من زينة، أذهلته بقدرة حفظها لسيرة أبي زيد الهلالي وترديدها عن ظهر قلب في مجلس الشيخ زعل التميمي الذي تبناها بعد مقتل أبيها في سوق الجمال انتقامًا لثأر قديم، اقترب منها عبد اللّه وسألها «ما اسمك» أجابته بصوت منخفض فيه حياء اليتيمة «زينة». كان عمرها ستة عشر سنة وما زالت تجالس الرجال فاكتسبت خشونتهم وعاداتهم، شجّعها على رفع صوتها تغاضي الشيخ الذي تعيش في منزله، بعد زواجه من أمها التي اشتهرت بقوّتها ونفورها من عادات البدو خاصة وحنينها الدائم إلى واحات نجد موطن طفولتها.

زينة ورثت عن أمها قوة شعرها الأسود الطويل وعينيها الشهلاوين، فتاة صغيرة تأكلها الحيرة ويقلقها غموض مستقبلها مع هذا الرجل الذي ملأت أخباره وحماقاته بيوت القبيلة حتى كادت أن تصبح حكاية معقّدة يرويها الكثيرون ببدايات متّفق عليها ونهايات متناقضة.

بكلمات قليلة طلبها للزواج دون مهر ودون مهلة تفكير، وافقت الأم وأجبرت الشيخ زعل التميمي على تجهيزها، كانت تريد زواجًا كهذا لابنتها التي بدأت التفكير جدّياً بثأر أبيها الذي تخلّت عنه القبيلة بمصالحة مع قبيلة القاتل مقابل عشر نوق ماتت بطريقة غامضة، كان الجميع يعرفون أنّ زينة دسّت لهم السم في العلف رافضة قبولهم كثمن رأته بخسًا لدم أبيها. اعتادت زينة ركوب الأحصنة والخروج في رحلات صيد متقمّصة شخصية الزير سالم في لحظات قلقه وتفكيره بالانتقام من جساس، أثقل صدرها هواء مدينة عدن والمنزل الضيّق المليء دومًا بالرفاق والكتب، حدّثها عبد الله عن سير رجال آخرين غير الزير سالم ورجال القبائل، استعرض أمامها صورًا، سرد بتأثر بالغ قصة عودة لينين إلى روسيا كي يقود الثورة البلشفيّة ويقيم إمبراطورية العمّال والفلاّحين القادرة على هزم الإمبرياليّة.

زينة اشتاقت إلى روي سيرة أبي زيد الهلالي والزير سالم في مجلس الشيخ زعل التميمي وإنشاد قصائده الحزينة بدلاً من سيرة لينين التي ملّت من سردها لأطفال الروضة النموذجيّة، لم تستطع إيجاد أيّ تشابه بينهما، امتنعت عن الذهاب إلى حفلات رفاق عبد الله، تعاني من صداع مزمن، ابتعد حلمها بالثأر ثم انتهى تمامًا، تقضي وقتها مع طفلها

غير آبهة بصراعات الرفاق التي بدأت تصل أخبارها إلى كل بيوت عدن، المدينة الهادئة التي استكانت وسارت مع هؤلاء الرجال إلى مستقبل غامض، تصاعدت الخلافات، أصبح عبد اللّه مهدَّدًا برصاصة طائشة أو حادث سير مدبّر كي يليق بالجنازة الفاخرة لرجل دولة، نصحه أصدقاء مقرّبون بالرحيل إلى خارج البلاد، على عجلٍ رحلت زينة وطفلها إلى بيروت، لحق بهما عبد اللّه متحسِّرًا على السنوات الثلاث التي حاول فيها إقناع رفاقه بتجاوز الخلافات وإعادة بناء الحزب، ذكّرهم بأحلامهم، بسنوات نضالهم، بطعم الغربة والسجون. في بيروت بدا رجلاً كئيبًا دون مستقبل، حين رفض رفيقه القديم فيصل عز الدين السفير في بيروت استقباله، أدرك أنّ كلّ شيء قد انتهى، أصبح عبد اللّه مشرّدًا في البلاد، كتب في الصحف اللبنانيّة سلسلة مقالات تُراجع تجربة الحزب وتتّهم عبد المحسن بالاستيلاء على السلطة بانقلاب أعدم فيه الكثير من الرفاق القدامى، سمع باعتقال إخوته واستجوابهم لساعات طويلة في حجرات مغلقة تعبق بروائح الحموضة، لم تنته أزماته المتتالية إلا حين بكى أمام الحجر الأسود في مكّة بعد أن اتّصل مع الأمير شهاب الدين، صديقه الذي ما زال يتذكَّر عبقريّته في حل مسائل الهندسة الفراغية في المدرسة الإنكليزيّة، ساعده بالحصول على عفو وإذن ملكي بدخول مكّة للحج والإقامة في قصره كضيف دائم، أكرم ضيافته وعادا للعب الشطرنج في خلوة الأمير، متذكرين رفاقًا رأى معظمهم حين كانوا يمرُّون في ديار صديقهم القديم فيجلسون لأيام قليلة يخرجون إلى الصيد ويتواعدون على عجل في العواصم الأخرى.

«في مكّة رأيت الله» قالها عبد الله بإيمان الزاهد، حسدته على هذه الرؤيا التي غيَّرت حياته، أحسَّت زينة بالانتصار حين رأته يهذي في الليل ويستنجد بصلواته كي تنقذ روحه التي حامت كنسر تطارده بنادق الصيادين، متهالكًا يعود أخيراً إلى عشه في قمم الجبال. صداقته مع الأمير شهاب الدين فتحت أمامه كل الأبواب المقفلة، زينة عادت مرة أخرى لروي سيرة الزير سالم مستعيدة أبياته الحزينة في رثائه لكليب في مجلس زوجة الأمير التي أحبَّت سحر هذه المرأة وقوة ألفاظها، تشدّ المستمعات إليها، معرفتها كبيرة اكتسبتها من اختلاطها مع رجال غرباء في عواصم متعددة بالإضافة إلى أخوالها المشهورين في نجد بكتابة الشعر النبطي والمراوغة، الأهمّ معرفتها بأسرار المتعة، تتحدّث بسلاسة عن وضعيات ركوب الخيل ملمّحة ببذاءة إلى الرجال، زينة تستعيد سيرة شهرزاد التي رغبت دومًا باستعادتها، ارتسمت صورتها في أحلامي مرّات كثيرة ورسمتها دومًا امرأة خائفة تستنجد بالكلام كي ينقذها من البطش، أرسم الكلام خطوطًا متداخلة بفوضوية لا تنتهي وتودي إلى عبث يخيفني التورُّط فيه فتجرفني رماله المتحرِّكة.

في مجلس الأمير شهاب الدين التقى عبد الله مع بكر، تفاهما بسرعة بعد حديث طويل في حديقة القصر، ابتدأ بمزايا السجّاد الكشميري وانتهى بالسياسة، لم يخفِ بكر إعجابه بتحوُّلات عبد الله، توقف طويلاً عند فترة وجوده في السلَطة التي شرح عبد الله بكثير من الإسهاب والثقة تركيبتها وطموحاتها وأسرارها وارتباطاتها، ليعود بصوت هادئ إلى طفولته وأيام دراسته في المدرسة الإنكليزيّة كأنّه يرمي بحملٍ ثقيل في أعماق المحيط المظلمة، مستعيداً بمرح ذكرى بحّار هندي

قاده إلى مصير أعمى لم يندم عليه، متذكِّرًا قسوة اللحظات التي كانت تتنابه في ليالي موسكو الباردة حين يحن إلى الركض وراء قطيع النوق حافيًا غير آبه بأشواك البرية.

ثلاثة أيام لم يفترقا، رافقا موكب صيد الأمير إلى الصحراء، اكتفيا بامتداح دقة تصويبه والثرثرة بقية الوقت. الصداقة التي نمت بينهما أبهجت الأمير، لم يتردّد عبد اللّه في دعم بكر ليفوز بعقد فرش قصره الجدّيد بالسجّاد الفاخر وجعله صورة من ذلك القصر الذي حلم به الأمير ذات ليلة، واعتبر تكرار الحلم مرّة أخرى أمرًا من عالم الغيب كي يقيم هذا القصر إكرامًا لذكرى أمه التي كانت في الحلم تصلي على سجّادة صغيرة، وصفها الأمير بحماس ودقّة، استمع بكر بانتباه إلى وصف الطواويس الملوّنة وعصافير الجنة وعروق الريحان حول النوافير مستعيداً وصف قصر أبي عبد اللّه الصغير آخر ملوك الأندلس، اختتم الأمير حديثه بعد أن أعياه الاسترسال في تذكُّر حلمه وقال كلمات مختصرة «أريد قصرًا يشبه رحم أمي»، عبد اللّه استأذن الأمير بمرافقة بكر كي يحقِّق له حلمه الذي أقسم عليه بحماس، غادرا القصر إلى طرقات مجهولة، شبه متشردين في أزقّة مدن إيران والعراق وأفغانستان وآسيا الوسطى بسيّارة جيب اختارها بكر قديمة كي لا يثيرا طمع أصحاب السجاجيد التي تجاوز عمرها خمسمائة سنة وجلس عليها الرحالة الشهيرون والسلاطين، صناديق خشب الأمانوس المطعّمة بالفضّة التي أهديت لنساء كنّ معبودات لرجال مشاهير في شبابهن وفي شيخوختهن اضطررن لبيعها في مزادات علنية بنقود لا تكفي لشراء زجاجة عطر.

أعجبهما التخفّي والمكر الذي مارساه ومتعة اكتشاف كل هذه الصحارى والمدن والقرى والبيوت التي دخلوها مستعيدين في قرارة نفسيهما سيرة رسول اللّه الذي بارك الربح الحلال والتجارة التي استعاد بكر كل تاريخها دفعة واحدة، مطلقًا مواهب صديقه عبد اللّه الخفية التي لم يكن يظنها بهذه البراعة، ست عشرة شاحنة أفرغت حمولتها في مستودعات القصر الجديد، أجبرت ستة مهندسي ديكور ومئتين وخمسين عاملاً وصانعًا ماهرًا في تلميع القناديل الأثرية وتجديد الأثاث على العمل أكثر من ستة أشهر متواصلة بإشراف بكر الذي أصابته الحمّى مرّتين، نصحه الأطباء بالابتعاد عن استنشاق رائحة الذهب المصهور الذي صُبت منه حنفيّات رسمها شاب إيراني مدمن على المخدرات، أقنع بكر وعبد اللّه بأنّها طبق الأصل عن حنفيّات قصر هارون الرشيد الذي تمرغ أبو النواس على بلاطه مع غلمانه ولم يطلب ثمن تصميمه الخيالي سوى نقود قليلة لا تكفي ثمن الهيرويين لمدة أسبوع، أعجبهما التصميم الغريب لحنفية تتدلّى على شكل فراشة تضحك وتفرد جناحيها حين يسيل الماء.

الأمير شهاب الدين لم يعترض على أيّ شيء، كاد أن يبكي من الفرح للقصر الغريب الذي دخله وتجوّل في غرفه العشرين مع إخوته وأبناء عمومته الأمراء، يرشدهم عبد اللّه ويشرح لهم تاريخ كل قطعة أثاث ومكان شرائها، تاركًا صديقه بكر في جناحه منتظرًا نتائج مغامرته في تجسيد حلم الأمير الذي أكّد حين اقترب من السجّادة الممدودة أنها نفسها التي كانت أمّه تصلّي عليها في الحلم، وهمس لعبد اللّه «هذا الرحم الذي أبحث عنه» مشيدًا بعبقرية بكر، شاتمًا المرتزقة الذين كانوا يتقاطرون

مبتسمين بصفراوية، ويعرضون أسرةً إيطاليّة يراها الأمير في أفلام البورنو التي أدمن مشاهدتها قبل أن ينتابه الحنين إلى رحم أمه.

قبل زواج صفاء كان بكر وعبد اللّه قد أصبحا صديقين لديهما ذكريات وطموحات مشتركة، قليلون هم الذين عرفوا بعد زمن طويل أنّ عبد اللّه كان يحمل الأموال لبكر وإخوانه كي يشتروا أسلحة ويخططوا لما حلموا به طويلاً وقدَّروا أنّ استياء الناس من توزيع المناصب الرئيسيّة في الجيش على الحزبيين قد وصل إلى درجة استعدادهم للموت في سبيل اللّه. كنت أفكِّر هل يموت الشهداء في سبيل اللّه وكيف سيدخل الجنّة القاتل والقتيل. استخدم بكر كلّ حنكته لإقناع قيادات الجماعة التقليديين بضرورة القتال، لكنَّه لم يستطع الردّ على حججهم وهم يسردون له تاريخ نضالاتهم وتذكيره بأهدافهم بأنّ السياسة ليست طبخ بامياء بمقادير ثابتة، الليالي التي قضاها مع عبد اللّه يتناقشان في حديقة القصر جعلت منه رجلاً يعتقد بأنّ أهدافه واضحة، يدلّل في قرارة نفسه بأنّ عبد اللّه الذي خانه رفاقه لأنّه كان يعتقد بأنّ الكلام يكفي لحلّ الخلافات وتوزيع كراسي الحكم، أرشده عبد اللّه إلى قراءة كتب غيفارا الحالم بتحرير قارّة بأكملها ببضعة رجال مؤمنين بالنظرة الثاقبة للكومندان وكتب ريجيس دوبريه. يردِّد بكر بعد أن قرأ كل كتب تروتسكي وتجارب الثورات وبرامج الأحزاب الشيوعية بهدوء «دومًا لدى الأعداء ما يعلموننا إياه» يوافق عبد اللّه ويسرد بصوته الخفيض، الذي يضفي عليه تهذيبًا ووقارًا، ما تعلَّمه من أعدائه.

تحمَّست للرجل غير المحرّم وناديته بعمي، استمعت إليه بشغف، أستعرض أمامه قراءاتي، مرّة واحدة قدّمت له رسومي، شاهدها على

عجل وتوقف عند رسم غادة الذي بدت فيه غزالة جريحة وحولها كلاب صيد مرقَّطون.

بعد شهرين عادت صفاء إلى منزلنا كي لا تبقى وحيدة بعد سفر عبد اللّه إلى مكّة مرّة أخرى، هادئة تتحدَّث ببطء وروية من يعرف الكثير من أسرار اجتماعات بكر مع الرجال الذين لم نرهم، أحسسنا من تأخرهم يتصايحون إلى أذان الفجر أحيانًا بخطر مقبل، تبدَّى باغتيالات موظفي دولة ومسؤولية أولئك الشباب الذين اصطحبهم بكر مع الشيخ جابر إلى الغابات القريبة من البحر، درَّبوهم على اصطياد الفرنك من مسافة ستين مترًا بالإضافة إلى تمارين الكاراتيه والجودو، كنّا نراهم متجمعين أمام باب الجامع الأموي كأنَّهم أصدقاء ذاهبون في رحلة، اشتاقوا للصراخ وسط البراري والغابات.

استدعتني الحجّة سعاد إلى غرفتها الداخليّة للقاء فتاة لم أرها من قبل، صافحتني بحرارة، قالت «أنا عليا» نظرت إليها، كدت أضحك من شكل أنفها الذي يشبه منقار الأوزّة وعينيها الباردتين، ببلاهة أضافت أنّها مسؤولتي، أذهلتني حين تحدَّثت بقوة وتعابير دقيقة لا تحتمل أي تفسير آخر عن الانضباط ومحاربة الانحلال الأخلاقي المتفشّي بين فتيات الإسلام، انضممت إلى خليتها دون نقاش وسمّت لي من ستبلغني بمواعيد وأماكن الاجتماعات التي بدأت أحلم بها.

مرّ الصيف كئيبًا، قضيت معظمه في منزل أهلي مبتعدة عن مريم التي تتشكّى من أمراض وهميّة في كليتيها وتفرط في شرب السوس البارد الذي كانت تصنعه مروة بكميّات كبيرة كثيفًا ليبقى طعمه تحت اللسان

لأيام طويلة. انشغل حسام بأسراره الجديدة التي أقلقت أبي، أحسّ حين تجاهل حسام أسئلته حول غيابه المتكرّر عن المنزل وأضاف بأنّ كليّة الهندسة المدنية التي سيدخلها لا تعني له شيئًا. ذهبت أحلام أمي بابنها الطبيب أدراج الرياح، أيام طويلة يقضيها حسام مع بكر وباقي رفاقه في غابات الفرنلق مستهدين بنجم القطب وبوصلات يدوية حين يضيعون في الجبال، متحلّلين من لحظات الحياة المكرّرة، يحملهم الشوق بعد أسبوعين للعودة أكثر شراسةً وشوقًا لبداية معركتهم. تخلّى لي حسام عن غرفته، أحسستها موحشة وباردة لا تليق بحرارة حضوره، لا يشبهنا غيابنا، فكّرت كم هو مؤلم أن تستوطنك الأمكنة ولا تستطيع التحلُّل منها، عدت إلى منزل جدّي واخترت أن أكون ضيفة أهلي دون موعد ثابت، دون نقاش أعطاني حسام كتب البكالوريا، أرادني أن أتجسَّس على أحلامه، قرأت كلماته ورسومه التي ملأت الهوامش بمسدّسات وقنابل يدويّة وأشكال غريبة لعيون جاحظة وباردة وشفاه فيل صغير تشبه شفة عليا العليا التي بدأت أتوجَّس من محاضراتها عن الكراهية. إلى أول اجتماع قادتني فتاة لا أعرفها، انتظرتني أمام محمصة في باب النصر، قبّلنا بعضنا كأيّة صديقتين تتلاقيان بموعد لتذهبا إلى السينما دون موافقة عائلتيهما، ابتسمت لي وأخبرتني بأنّ المنزل ليس بعيدًا، كنّا آخر من وصل، جلست قرب الباب وتأمّلت البنات السبع، عرفت منهنّ هبة ابنة مدرستنا الخجولة التي أصبحت فيما بعد مراسلتي، سبع فتيات يستمعن باحترام إلى عليا، تحثّنا على كراهية الطوائف الأخرى ممتدحة طائفتنا الأقرب إلى رسول الله، مستشهدة بتعاليم أئمّة وسير مشايخ ومجاهدين، في آخر الاجتماع وزّعت علينا أوراقًا طلبت منّا المحافظة

على سرّيتها، قرأتها بشغف في غرفتي، خبّأتها حين دخلت صفاء كي تشكو صداعها الدائم وشوقها لعبد الله الذي ستتأخّر عودته إلى نهاية شهر آب الذي تمنّيت رحيله وكرهت قيظه الذي يبلّلني حين أسير بأرديتي السوداء السميكة، «يجب أن تموت مساماتي» أقول لنفسي، حبّات العرق تفوح رائحة حموضتها من جسدي فأكرهه، أتذكّر أزهار عبّاد الشمس التي جلبتها صفاء من إحدى القرى القريبة، قطفتها قبل شروق الشمس كي تحتفظ بنداوتها، أعطتها لرضوان، أقنعته بعصيرها الذي يختمر ويصدر رائحة لم تجد تعبيراً كي تصفها، فقالت دون اكتراث «تساعد الحوامل على ولادة سهلة»، تحمّس رضوان، أفكار صفاء الغريبة تعجبه دومًا خاصّة حين ترجوه أن يحافظ على سريّة حديثهما مما يضفي غموضًا تحتاجه صناعة العطور كما يردّد رضوان دومًا حين نسأله عن القوارير المصفوفة بعناية في صندوقه الخشبي المركون في زاوية غرفته.

في نهاية ذلك الصيف تملّكتني الكراهية، تحمّست لها، أحسست بأنّها تنقذني، تمنحني شعوراً بالتفوق أبحث عنه، قرأت الأوراق التي كانت توزّع علينا في كل اجتماع بعناية، أحفظ منها مقاطع كاملة خاصة فتاوى تكفير الطوائف الأخرى، اقتربت من رفيقاتي السبع، أحببتهن، تبادلنا الأسرار وكتب تصف عذاب القبر الرهيب، اندماجي معهن خلّصني من أشواقي لغادة التي أصبحت في نظري فتاة بائسة ما زالت بعيدة عن القوّة التي أمتلكها والصرامة التي أتحدّث بها حين أسأل عن رأيي في معاقبة من يهينون تعاليم الدين، أفاجئهن حين أطالب بوضع قوائم بأسماء فتيات من بنات مدرستي وأطلب السماح لنا بتشويههن بماء

الأسيد لارتدائهن بلوزات ضيِّقة تبرز نهودهن بشكل فاضح، تلتمع عينا عليا وتطالبني بالتريث، كأنّها تعرف موعد القيامة.

«نحتاج إلى الكراهية كي نجعل لحياتنا معنى» فكّرت وأنا أحتفل وحيدة بعيد ميلادي السابع عشر، كم هو قاسٍ أن لا يحتفل بك الآخرون ويهدوك الورد والخواتم. صفاء عادت إلى منزلها مع عبد اللّه لأيام قليلة بعدها سيغادران إلى السعودية، مروة حملت بقجة صغيرة وذهبت لزيارة زهرة، مريم تعتبر أعياد الميلاد بدعة أجنبيّة لا تليق كرنفالاتها بأبناء عائلات استوطن اللّه زوايا بيوتها.. جلستُ وحيدة ومددت قدميّ إلى حافة البركة، استرخيت مستمتعة بنسيمات أيلول التي هبّت ناعمة ومنحت الصمت معنى، شربت عصيراً، بدأت بترتيب سنتي الدراسيَّة المقبلة وانتقامي من اللواتي يشعرنني بأنّني باهتة المزاج ولا أصلح للاسترخاء تحت ضوء الشمس، أحببت قدميّ، أصابعي الناعمة دغدغها الرذاذ المتطاير من النافورة الناعسة، أحتاج إلى الكراهية كي أصل إلى الحب، تاركة ورائي كل الرماد وغبش الأشياء والوجوه، قرأت هوامش كتب حسام ورسومًا خربشها على كتاب الكيمياء، ضحكت لرسم حمار كتب فوقه بالإنكليزيّة حرف N، خمّنت أنّها نجوى ابنة جيراننا التي تزوَّجت تاجر خشب ولم تشعر بارتباك حسام الذي كان يحبّها ويكتب لها قصائد غزليّة تمتدح طهرها وعفافها، ما كتبه حسام كان رسالة إليّ تعويضًا عن صمتنا سنوات طويلة وعدم البوح بأسرارنا كأي صديقين، ترك لي هوامش كتبه كي أقرأها وأعرف كم هو معذّب، يتوق إلى الشهادة في سبيل اللّه، لم يعد جسمه النحيل يحتمل روحه، خفت عليه من كلماته

النارية وتوعُّده للكفّار بيوم حساب قريب، بالإضافة إلى أناشيد دينيّة لم أسمع بها من قبل، تحرِّض المجاهدين على الموت، اشتقت إليه، كم كنّا قساة كأنّنا غريبان، نمرّ قرب بعضنا بعضًا، لا أحد فينا يتمهّل كي نتبادل الأسرار واللحظات التافهة كي نمنحها قيمة، اشتقت له ولم أبحث عنه، راقبته بصمت حين دخل إلى منزل جدّي منفعلاً، مسرعًا وعلى كتفيه حطة مرقطة بالأسود، على قميصه آثار دماء لم تصدّق مريم بأنّها من آثار ذبيحة نحرها صديقه وفاءً لنذر أمه، دخل إلى قبو المؤونة، رأيته يخفي المسدّس في كيس البرغل، عرفت بأنّه قتل جارنا عبّاس الضابط الطيّار الذي أغرمت صفاء بعينيه الخضراوين، استحمّ حسام وطمأننا بأنّ كل شيء سيكون على ما يرام، شرب قهوته بصمت، تحاشى النظر إليّ وكان يحب أن يبدو كلّ شيء طبيعيّاً. خرجت إلى المدرسة بصمت، رأيت الناس متجمهرين حول جثّة الطيّار المغطاة بحرام صوفي، لم أتوقف ورأيت يده الضخمة مسترخيةً كيد أي ميت من بين رجال مسلّحين أحاطوا بالجثّة وأغلقوا الشوارع. انتابني الغثيان وشعرت بدوار فظيع في الحصة الثانية، قدَّمت لي غادة كأس شاي ووضعت يدها على جبيني فعادت أشواقي إليها، بكيت وأخبرتها بأنّني رأيت القتيل، هناء وهبة ابتعدتا عنّي، راقبتاني من بعيد وفي نظرتهما احتقار لضعفي. أذنت لي الموجهة بالعودة إلى المنزل، رافقتني غادة بحنان، في الطريق كنت صامتة أبكي وغادة ممسكة بذراعي، عناصر المخابرات يفتشون بيوت الحارة ومن بينها منزلنا بعد أن حملوا القتيل ونظّفوا الأرض من دمائه، تبخّرت جثته، لم تعد ابتسامته تشع، كنّا نحبه ويمتدح الرجال أخلاقه وعفّته وكرمه. استغرقتُ في النوم، كأنّني فقدت وعيي، راودتني الكوابيس، رأيت وجهه مبتسمًا

رغم أنّي لم أر وجه القتيل. أول المساء سمعت همسات بكر الذي استمع إلى مريم تروي له تفتيش رجال المخابرات المنزل ونكشهم أكياس المؤونة، مضيفة أنّها احترزت وأخفت مسدس حسام في الحفرة التي كان جدّي يخفي فيها نقوده وبندقيته شاكرة اللّه أنّ حسام غادر قبل دخولهم بدقائق.

وجه بكر متعب، قلق، ينذر بما لا يمكن الإفصاح عنه، بقيت في السرير ثلاثة أيام، اختلطت الصور وتداعت كل ذكرياتي عن حسام دفعة واحدة، حين كان طفلاً صامتًا، نحيلاً مولعًا بالرياضيات، ينبّئ بمستقبل لا يمكن التكهّن به، صمته وشروده لساعات طويلة دون اكتراث بالضجة المحيطة به تجعلنا نعتقد بأنّه سيصبح شاعرًا، أفكاره الغريبة تذكّر أمي وخالاتي بطفولة عمر المتناقضة والغريبة، حين كنّا أطفالاً أعد مكانًا لجلوسه فوق أغصان الشجرة الوحيدة في منزلنا لساعات طويلة، في مراهقته لم يذهب مع رفاق مدرسته إلى السينما أو لملاحقة الفتيات مستمتعًا بحماقة ذلك العمر، يخفي أحاسيسه العنيفة ويكبتها، كنت أراه ينهض ليلاً من فراشه، يجلس على درجة غرفته ويبكي دون أن يشهق بدموعه، لم أعرف لماذا كان يبكي ويدور كالمجنون في حلقات المتصوّفة التي كان بكر يصطحبه إليها دون أن يستمع إلى الإيقاع، تبنّاه بكر وقدّر حدّة ذكائه، نمت في قلبه الكراهية والقسوة، رأى النور أخيرًا في نفق حياته المظلم، قضى وقتًا طويلاً مع بكر حتى بدا كسكرتير أو حارس شخصي، سجّل في ناد رياضي وبدأ جسمه ينمو، تفتّحت عضلاته وحركته غدت سريعة كعدّاء يستعدّ لسباق الماراتون، لم نتحدّث كأخوين أو نعد المؤامرات. انتقالي للسكن في بيت جدّي جعلني غريبة عنه،

زياراتي القليلة إلى منزل أهلي جعلت صورته باهتة وغير حاضرة بقوة في أحلامي وتفاصيل يومي، حين أراه أحس لأول وهلة أنّه غريب إلا أنّي أحبّه وأعترض على ملاحظاته الدائمة التي تعتبرني امرأة يجب أن تُصان وتُؤمر فتطيع، بارك أبي علاقته ببكر، اطمأن أنَّ رائحة السمك لن تفوح من ثيابه، تمنّاه للحظة تاجر سجاد وأمي أرادت مدللها طبيبًا، تذكرنا بأنّ أصابعه الناعمة وحدَّة عينيه تليق بجرّاح ماهر، صورته قاتل لجارنا الطيّار هيمنت عليّ، برودته وهو يخفي مسدسه بعد رمي قميصه الملطخ بالدم في مدفأة الحمّام وإغفاءته بهدوء جعلتني أتساءل عن قوّة الكراهية في قلبه، وأعجب به مستبعدة لحظات التعاطف التي انتابتني حين رأيت جثّة القتيل.

زارتني غادة وأحضرت لي وردًا، تحدَّثنا كصديقتين حميمتين، أحببت تعاطفها معي، أحسست بقلقها وهي تحدِّثني عن علاقتها مع الرجل الخمسيني الذي لم نعد نراه كثيرًا لانشغاله وحركته الحذرة بعد الاغتيالات الأخيرة التي تصاعدت، وبدت تنذر بمواجهة كبيرة لتدخل البلاد في دوّامة عنف لا يعرف أحد كيف ستنتهي. حدَّثتني عن متاعبها مع أهلها الرافضين لهذه العلاقة والصامتين خوفًا من بطش حبيبها الذي يكبرها بثلاثين عامًا، ناكرة شراسته في تعذيب المعتقلين، واصفة إياه بالرجل المهيب.

الصيف الذي مضى أنضج غادة، أصبحت كحبّة مشمش تطفح حلاوة، صار جسدها مشدودًا، متناسقًا، مشبعًا يطفح إغراء بنهديه البارزين، المعتنى بأناقتهما ليضفيا أنوثة صارخة لتفتّحها كامرأة مكتملة خبرت أصابعها طعم الجنس، وأناقة التمهل في الحديث يجعل من وجهها منحوتة تشبه ممثّلات الإغراء بشفتيها الممتلئتين كثمرة تين ناضجة تسيل

عسلاً حين تُلتهم، حسدتها للحظات على جرأتها وطلبت لها المغفرة، انتابني الحنين إليها، ملت على ذراعها وبكيت، شعرت بروعة أصابعها تتخلّل شعري كأرض تُحرث فتتنفس الهواء طاردة رائحة عفن يلازم شعري الأسود غير المحتاج إلى أيّة عناية والملبد من حجاب سميك لم أخلعه حتى في غرفتي، خائفة من تجسّس غرباء أراهم في المنامات عراة وممدَّدين في أكفان وحولهم نساء أعرف أغلبهن، يلطمن على خدودهن ويقرأن القرآن لراحة أنفسهن، أحتاج للتمدُّد مريضة في سريري كي أعيد ترتيب قلقي، على عجل أتت صفاء وعبد اللّه، شربا الشاي في غرفتي مرحين وخفيفين وهما يعلنان موعد سفرهما مساء اليوم نفسه، بكت صفاء وهي تودِّعنا، خرجت معهما إلى باب الدار، مددت رأسي لأراها تستند على ذراع عبد اللّه ويغيبان في المنعطف كأنِّي لن أراهما أبدًا. أخاف فقدان من أحبّهم، أتعلَّق بما يتركونه وراءهم، تراخيت في كراهيتي، أبديت تعاطفي مع الطيّار القتيل، أنّبتني عليا، سخرت الفتيات مني وذكّرنني باضطهاد طائفتنا وفساد الضباط الذين جعلوا من البلاد مزرعة خاصّة لهم ولطائفتهم، تراخيت فجأة وأحسست بفخر خفي أن يكون أخي حسام هو من وصفوه بالمجاهد حبيب اللّه، أنَّبت نفسي على ضعفي، رأيت البنات وهنّ يسخرن منِّي، أيقونات مضيئة، حسدت عليا على قوة الكراهية التي تسكن قلبها، كدت أقبِّل يديها كي تسامحني وتعيد إليّ ذلك الطعم الذي يجعل لحياتي معنى وسط دوائر تودي إلى سكون أحسسته عفنًا كشعري الذي داعبته غادة بيديها الحنونتين، أنَّبت مروة بعنف لتعاطفها مع عائلة عباس، ردّت مروة واستغربت أنَّني أريد خراب البلاد، لم أجاوبها وأفصح عن مشاعري، أعدت قراءة مقاطع كاملة من الأوراق بصوت منخفض أمام

هناء ورفيقاتي متوقِّفة عند أوصاف الكافرين، اقتربت كثيراً من غادة بأوامر أتتني واضحة لمعرفة مواعيدها الثابتة مع عشيقها ومكانهما السري، ذهبت معها إلى محلاّت الكاتو، ضحكنا في الطرقات، تهامسنا بأسرار البنات، سخرنا من صوت ندى الغليظ ورائحتها التي تفوح كجيفة فطسة، حلمت باستعادة روح غادة وتخليصها من ذلك الجلاّد، تخيَّلته قتيلاً وأهالي ضحاياه يشكرون حسام وبكر لانتقامهما ممن كان يعلّق رجالهم من أقدامهم، يجبرهم على التهام برازهم وهو واقف ببرود يراقبهم ويدخن بنهم، ستبكي غادة على صدري، سأمرِّر أصابعي في شعرها الناعم وأجعلها تسترخي بين ذراعي مخلصتها الوحيدة.

رسمت صورة رائعة لقدومها إليّ، فرسًا تركض في البراري، تصل إليَّ ذابلة من الشوق، متعبة، تتنهّد على كتفي، تقسم أنّها لن تحمل الزهور إلى قبر ذلك السفاح وستُخلص لي إلى الأبد، مريم ومروة استغربتا مرحي وأنا أقرأ لهما رسالة صفاء التي أخبرتنا ساخرةً بالعامية البدوية أنّها تقضي وقتها في النوم ولعب الدّامة مع ضرّتها زينة، وفي الصورة التي بعثتها لنا بدتا صديقتين حميمتين، ومتآمرتين على رجل تحبّانه، رسائلها القليلة اللاحقة امتلأت بالدموع والضجر من المنازل المغلقة والخادمات الفلبينيات وغياب عبد الله الطويل لمرافقته الشيخ نديم السلطي وجمعهما تبرعات لنصرة المحاربين ضد الشيوعيين الروس في أفغانستان.

في آخر رسالة أخبرتنا صفاء أنّها حامل، بكت مريم كطفلة فرحة وزغردت مروة، قادهما رضوان إلى زوايا الأولياء، قرأوا الموالد وكتبوا الحجب كي يبعدوا شر زينة عنها، غير مطمئنتين لما روته صفاء عن كرمها

وعلاقتهما الغريبة، حين رأيت مروة تزغرد بهذه القوة حاولت مجاراتها، اندفع صوتي كثغاء غنمة تحاول اللحاق بالقطيع، تذكرت بأنّ الزغاريد لم تتعال في منزلنا منذ زمن بعيد، ضجرت من تكتُّم غادة وعدم اصطحابي إلى منزلها السرّي كي أعاينه وأقدّم تقريري الأخير، كما ضجرت من ذلك الشاب الذي يلاحقنا في الخفاء، قميصه مفتوح وبلاك فضّة يزين معصمه كمستهتر يبحث عن فريسة، اطمأننت حين رأيته يصعد إلى سيارة أجرة يقودها حسام، تجاهلني تمامًا وعرفت بأنّه ليس مسافرًا إلى الأردن مع بكر.

في الليل انتابني قلق وارتجفت قدماي ذعرًا، رحلة تخفيهما تنذر بأنّ الاغتيالات وجثث القتلى الذين لم يتجاوزوا العشرة ما هي إلاّ بداية حلم أفصح عنه حسام بأربع دوائر وثلاثة مثلّثات رسمهم على حاشية كتاب الجبر، فهمت معنى الكلمات القليلة المخطوطة بالرقعي والمزينة بأعلام خضراء، قرأت كلماته تخبر رسول الله بأنّهم قادمون، أتبعها «أرواحنا فدا الإسلام» كتبها بإنكليزيّة متّقنة. طلبت من زهرة رؤية بكر، هزّت برأسها وأكملت رشّ البهار على الفريكة، نصحتني باستخدام البيلون لتنعيم شعري الذي أصبح يشبه أشواك القندريس، تجاهلتني. في الليل وقفت أمام المرآة لأرى شعري، وجهي كان يشبه رسمًا فرعونيًا، عينان حادتان، وجه طويل أسمر وجفنان متراخيان. قصصت شعري راغبة بالخلاص من رموز أنوثتي، اختفت حلمتاي في أعماق نهدي اللذين أصبحا ككيسين مطّاطين ممتلئين بالهواء الفاسد، احتفظت بجدائلي الطويلة في دفتر الرسم، شبّهني عمر ضاحكًا بميراي ماتيو، متجاهلاً سؤالي عن بكر وحسام، وصف لنا بحماس حصانه الذي اشتراه من تاجر خيول عربية، عضلاته الممشوقة وروعة تكوينه

ثم غادرنا فجأة كعادته. أكّدت مريم بأنّه ربح الحصان في القمار، ساردة كعادتها كل ما تقوله البيوت المحترمة عن آخر فضائحه، أضافت بأنّه سيقتل حصانه قريبًا، حاولت إقناع مروة بذهابنا لرؤيته، ردّت ساخرة بأنّ أخوالي قد ضاعوا، ملمّحة إلى تصوّف سليم الذي أصبح حامل دفوف فرقة الشيخ الداغستاني مهملاً أسرته ومحلات جدّي مكتفياً بتأكيده أنّ الحجب بينه وبين وجه الله قد زالت وانفتحت أمامه أعمدة الضياء، لم يعد يسمعنا، يهزّ رأسه مشفقًا علينا، متمنياً أن يسكن الرحمن قلوبنا لننعم بالسكينة، أفرغ خزانة ثيابه من بدلات الجوخ الإنكليزي التي كان مولعًا بألوانها الغامقة المحززة، متتبِّعًا بشكل خجول أخبار الموضة، مشيراً على خيّاطه بعض تعديلات تجعل البدلة أقرب إلى الكلاسيك المعدّل منها إلى الصرعات الحديثة، اكتفى بثوب خشن بني وعمامة صوف وحذاء مطاطي كالذي يرتديه القرويون، فارقته دقّة الحساب وغدا ملولاً، لا يرغب بتنظيم الدفاتر مما جعل إرث العائلة في مهبّ عاصفة لن تترك شيئًا. تدخَّل عمر بحذق وسرعة، رتّب المحلات والعمل دون أن يجرح مشاعره، أخبرنا بأنّه لا يمكن الثقة برجل يحتاج إلى ثلاثة أيام للعودة من بيانون...(*)ـ، استعان بصانع دفع له ضعف أجره، طلب من خليل ترك السقيفة ومراقبته، بدا كلّ شيء يسير على ما يرام، خليل لم تعجبه المهمة، اكتفى بالجلوس على كرسي قش والحنين إلى وصال التي لم تستطع زوجته الحلبية أن تنسيه روعة ليالٍ كثيرة قضاها في أحضانها متهتكًا.

ذلك الخريف كنّا في المنزل مثل غرباء يتبادلون المجاملات، نخفي قلقنا ولا نريد البوح به خوف انكشاف حقيقة إحساسنا بأنّ بكر بعد

(*) ـ قرية شمال حلب، تبعد ٢٠ كم عن المدينة.

خلافاته مع قيادة الحزب قد حسم خياره، وأصبح مع ثلاثة من رفاقه الأكثر تشددًا مسؤولاً عن الاغتيالات وقتل أبناء الطائفة الأخرى، حلفاؤه في الدول المجاورة نهضوا من مجالسهم واستقبلوه في قصورهم متفهّمين رغباته بإعادة البلاد إلى مسارها الطبيعي، متوعِّدًا الطائفة الأخرى و«الحزب الذي رمانا في أحضان السوفييت الكفرة» كما قال بعد أن تلقّى شيفرة سريّة تدعوه إلى بيروت ظهر يوم الأحد أوائل شهر تشرين الأول للقاء خاص رتّبه عبد الله أثناء زيارته الأخيرة إلى واشنطن.

روت لنا صفاء التي استغربت وجود بكر في الغرفة المجاورة لهما في فندق جونيه الكبير، ارتبكت قليلاً قبل أن تقبِّله بحرارة، ليصطحبه عبد الله فوراً تاركين صفاء لضجر الظهيرة، انتظرت عودتهما طويلاً ثم ضاعت في شوارع بيروت، انتابتها شهوة التسوُّق، تذكرتنا واشترت لنا كنزات صوف وربطات عنق لأخوالي ما زالت ملفوفة ومرمية في صندوق مريم، قلقت حين أكّدت أنَّ بكر دخل إلى بيروت بهويّة مزوّرة باسم جابر العتابي، مسجلاً مهنته كمهندس معماري في قوائم النزلاء. لم تنفرد ببكر رغم محاولاتها الدائمة، كان يهرب من لقائهما وحيدين، لا تفهم سرّ هذا التكتُّم، في الليل اصطحب عبد الله صفاء وبكر إلى دعوة عشاء مع صديق أميركي ادّعى أنّه التقاه صدفة، اصطحب الرجل الأميركي زوجته الرخوة التي تتحدَّث العربيّة الفصحى، تروي ذكريات عبورها حلب في طريقها من استانبول إلى الأردن مكان عمل زوجها، تحادث الرجال بالإنكليزيّة حول الطعام اللبناني، وصف بكر بهدوء أنواع الكبب، أفصح عن خبرة كبيرة في تصنيفات الطعام مقارنًا المطبخ الاستنبولي بالحلبي مروراً باللبناني، انفرد الرجال لأقل من نصف

ساعة، ساروا على شاطئ البحر رغم الهواء الشديد، لم تصدّق صفاء أنّ شراء سجّادتين عجميّتين يحتاج إلى كلّ هذا الحذر. لم ينم بكر ليلته الأخيرة في بيروت، وصل إلى حلب ليلاً، دخل إلى منزلنا رجلاً محطّمًا، في عينيه لون غريب وباهت، لم نصدّق اجتماعنا حوله وهو نائم على سريره يشخر من شدّة التعب، تحسّست مريم وجهه، رأته هرمًا رغم عدم تجاوزه الخامسة والأربعين، ونحن حولها نبحث عن الطمأنينة.

في اليوم التالي اجتمعت العائلة كاملةً عدا حسام، استعدنا زمنًا حلوًا افتقدناه، كأنّنا نستعيد ميتًا فرّ من بين أيدينا للحظات، وبعد أن ندبناه فتح عينيه بهدوء وتساءل إن كان المشمش الذي يشتهيه قد أثمر الصيف الماضي.. اجتماع العائلة بقدر ما ينذر بخطر فراق طويل، يفائل مريم بإمكانية استعادة لحظات حميمة تذكّرنا بمكانة عائلتنا وإرثها، رغم تخلّيها في السنوات الأخيرة عن تعداد صفات الأجداد مكتفية بمسح الغبار عن صورهم المعلّقة في غرفتها.

عمر لا يحبّ تفاهات العائلة، تذكّره بمخللات ربما لكنّه في ذلك اليوم استعاد الذكريات، أعاد سردها بحنين مؤثر، كنّا نحتاجها كي تحمينا، أخرجنا الصحون والملاعق الفضيّة، فرشنا المائدة، جلوس خالاتي وأمي مع عبد اللّه لتناول الغداء كان اعترافًا صريحًا بقبوله فردًا منّا، يحقّ له مشاركتنا الضحك الذي أثاره بكر بتعليقاته المرحة على تصوّف سليم وجلوسه وحيدًا على الأرض، يأكل من صحن ألمنيوم، مكتفيًا ببعض الخضار واللبن ثم التمر، تاركًا ملذات الدهون واللحوم المطبوخة التي غطت زوارق الفريكة المجلّلة باللوز المحمص، مبتعدًا عن شراب التوت

والبرتقال مكتفياً بكأس ماء. لم أعرف من قبل أنّ لسليم هذه الروح المتسامحة والمرحة خاصّة حين لمّح إلى امتناعه عن ممارسة الجنس مع زوجته وصيامه عن كلّ الملذات وأكل القريدس الذي كان يأتيه به أبي طازجًا.

قلت لنفسي «دومًا نحتاج إلى اللحظات التافهة كي نتخلّى عن وقارنا»، بقيت زهرة في منزلنا، فردت حقيبتها الكبيرة، علّقت أثوابها في خزانة صفاء، لم نعتقد أنّ زيارتها ستطول كلّ هذا الوقت، الشهر أصبح سنة والسنة أصبحت سنوات، لم يعد أحد يعرف متى تنتهي، غاب بكر تمامًا، أصبح كخفّاش ليلٍ لا نستطيع الإمساك به، نسمع وقع أجنحته ترفرف بصخب من حولنا، صفاء وعبد اللّه غادرا حلب كمطرودين بعد مكالمات سريعة أجراها عبد اللّه من هاتف عمومي مع عدّة بلدان.

مضى يومنا العائلي السعيد كلمح البصر، أسفت مريم على الظروف التي جعلت تناولنا الطعام على مائدة واحدة حدثًا نحتفل به. عدنا للذهاب إلى الحمّام في مواعيدنا مستعيدين صورتنا الثابتة، رضوان الضرير يقودنا دون اكتراث، نخاف الاعتراف أنّ الماء الساخن ورائحة الغار لا تنقذنا من الكآبة، عادت ثرثراتنا مرّة أخرى إلى تفاصيل لا تتجاوز الاهتمام بتقشير رؤوس الثوم وتخزين دبس الفليفلة في «قطرميزات» زجاجيّة أم في عبوات بلاستيكيّة، أربكني شرود زهرة الدائم وتملُّصها من جلسات الظهيرة حول البحرة حين تكون السماء صافية وشمس الشتاء ساطعة. كهاربة من كلّ شيء، أذهب إلى مدرستي صباحًا كملاذ وحيد، أبحث عن غادة كأنّها مرآتي لأرى صورتي المبعثرة

في عينيها الحزينتين وشرودها، فقدت حيويّتها وبدأت تذبل، لا تجيب على أسئلتي، أخبرتني أنّها ستختنق وطلبت منّي مرافقتها للسير في الشوارع، سرت قربها ممسكة بذراعها، قطعنا شارع القوتلي ووصلنا إلى الجميلية، انعطفت إلى إحدى البنايات، عرفت أنّه منزلها السرّي الذي تلتقي فيه عشيقها، عادت إليّ رغبة رؤيته قتيلاً، فتحت الباب ودخلنا، نظرت إليّ كأنّها استغربت وجودي ثم انفجرت ببكاء حارق، أخبرتني أنّه هجرها ولم تره منذ ثلاثة أسابيع، ببرود قال إنّها لم تعد تناسبه، غادر تاركًا رائحته على قميصه الوحيد وذكرياتها معه على الأرائك الجلدية الواطئة المرسوم عليها رؤوس فراعنة وثيران. . تبكي غادة وأنا أجول في المنزل الصغير، صوره في كل مكان، أنفاسهما تكاد تخنقني، تخيّلت كم مرّة أخذها بين ذراعيه كفراشة، مدّدها على السرير الواسع والتهم كوحش أنوثتها ورقّتها، الغيرة ملأت قلبي، انتابتني شهوة البكاء وتكسير كل شيء، حرق المنزل وجعله رمادًا، استعدت كل كراهيتي التي أصبحت جزءًا من إحساسي بالعالم، تحوّلت إلى محققة تجلس غادة كمتهمة بين يديها، ترك لها قليلاً من النقود تكفي امرأة مهجورة لتساعدها على النسيان، دفع إيجار المنزل لثلاثة أشهر وعرض عليها أحد مرافقيه إن اشتاقت إليه، وصفته بالحقير والنذل والحبيب الذي لا يُنسى، عرضت عليه انتظاره يوميًا كخادمة تنتظر سيّدها حتى ينهي ربط حذائه كي ينظر إليها فقط قبل أن يغادر. حين رأيتها تتجوّل في الصالون تستعرض صوره وتحتضنها أدركت أنّها مسكونة به، من الصعب أن تسمع أيّة كلمة سأقولها، انسللت كهاربة دون أن أودّعها، بكيت في الشوارع، غطيت وجهي وتبلّل الغطاء الأسود، كأنّي أرى حلب لأول مرّة، همت ضائعة،

لم ينتبه إليّ أحد حين عدت، اعتادوا غيابي في الأيام الماضية التي قضيت أغلبها مع عليا، أحسست بحاجتي لها، رغم أنّ موعدنا لم يحن، سرت إليها، في داخلي انبثقت قوة غريبة، رغبت أن أكون شبيهتها، استغربن قدومي وسمحت لي عليا بحضور محاكمة قضية وشاية صديقتها عنود بامتلاكها ألبوم صور جنسيّة تحتفظ فيه داخل ملاءتها ولا يفارقها، أضافت بأنّها تعرف شابًا ينتظرها خلف كلية الآداب بعد محاضرة العروض مساء يومي الثلاثاء والخميس. بكل جلال المحكمة جلسنا، أقسمت عنود على القرآن أن تقول الصدق، أضافت أنّها رأت ذلك الشاب يمسك بيديها ويقبلهما، ثم أشارت إلى مكان وجود الألبوم داخل ثيابها السوداء فاندفعت نحوها دون إذن، فتشتها بعنف، أخرجت الألبوم واستغفرت اللّه على فحش صور تظهر أعضاء الرجال مبتسمين، أمسكتني عليا وأبعدتني، وعدتني بقصاص رهيب يشفي غليلنا ويعيد لنا سمعتنا كبنات محتشمات ومجاهدات، لم أستطع الانتظار، خرجت من منزل عليا وأحسست جسدي قذراً بحاجة للاغتسال.

رويت لزهرة وأحبطني عدم اكتراثها بحماسي، استغربت جمودها وولعها برسائل أمها التي اصطحبتها معها، قضت ليالي كاملة تقرأها بحنين لا تريده أن ينتهي. كنت مولعة ببيتنا وأصبحت أكرهه، ساده خمول وصمت وانتظار رجال ماعادوا يأتون أو نسمع عن أخبارهم شيئًا، ساعات قليلة قضاها بكر بيننا كانت أشبه بإنذار أو حلم نتوق إليه، عرفنا أنّه فرّ من بين أيدينا إلى مجهول يجب أن نقبله بحزم وقوّة، اختلى بزهرة، أبعدتنا مريم إلى غرفتها كي لا نسمع أصوات آهاتهما، ابتعدنا

كأطفال أغبياء لا نعرف ماذا يحدث بين زوجين يعرفان أنّه لقاءهما الأخير. قبّل رأسي، طلب منّي هجر غادة والابتعاد عنها، أخبرته عن محاكمة لما التي وصلته تفاصيلها كاملة وأصدر حكم بقص شعرها وإبعادها عن الحلقة، بكت وأقسمت أن لا تعود إلى تبادل ألبومات الصور العارية مع رفيقات ساقطات، وُضعت تحت الرقابة، عنود تراقبها في الجامعة، أختها سمية تراقبها في المنزل والله يراقبها في كل الأمكنة، كما يراقبنا وأحسّه قريبًا منّي، أتحسّس أنفاسه وأهتدي بها، ذكّرتني زهرة بالحجّة رضية وغيابي الطويل عن مجلسها. قلت لنفسي «لم أعد أحبُّها» تذكّرت كم كانت ودودة معي عندما تجلسني بجانبها لأحلم برابعة العدويّة، أعبر البرزخ كقبّرة بيضاء تطير في سماء سوداء. قلت لنفسي كم كنت بلهاء حين اعتقدت أنّنا لا نحتاج إلى الكراهية كي ندخل الجنة، رأيت صورتها من بعيد.. امرأة مسكينة، قلبها ممتلئ بالخوف بعكس الحجّة «سعاد» التي أضاءت أمامي طريق الكراهية ومنحت القسوة معناها، بهرتني عيناها الثابتتان وهما تنظران ببرود إلى محدّثتها.

لم أعرف لماذا بدأت غادة تبتعد عنّي، تتركني فجأة وتذهب مع ندى تجولان في الباحة، عند الانصراف تصعد معها إلى سيّارة ضابط سرايا الموت. انكفأت على دراستي، أريد الهروب من نظرات غادة النادمة حين تقترب منّي أعرف أنّها تريد البكاء والحديث عن تمادي حبيبها في إذلالها، متمنّية الخلاص من طعم رغبتها التي تجعلها مجنونة في ليالي الشتاء الطويلة، تنهض لتكسر كلّ شيء يقع تحت يديها، فازات الورد، الصمديات، وبراويز صور العائلة، بعد ذلك تلملم الزجاج المتناثر

بصمت. أبوها موظف الماليّة المرموق بكى أمام عشيقها الذي سخر منه، طلب منه مغادرة الفرع مهدِّدًا إيّاه بتشويه سمعته ومتَّهمًا ابنته بالفجور، تشفّيت منها حين رأيت وجهها شاحبًا، لا تستطيع الحديث سوى بكلمات قليلة متقطِّعة وغير مترابطة، عادت إليّ والخواء يملأ كيانها، تشعر بالامتنان لأنّني أحييها في الطابور الصباحي أثناء صعودنا إلى الصفوف، كل بنات المدرسة ابتعدن عنها بعد انتشار خبر ذهاب أبيها إلى ذلك الرجل والقصص التي روَّجها رجاله عن ملفاتها السريّة في الشرطة الجنائيّة التي تؤكِّد ذهابها مع تجار الغنم كي تضاجعهم في خاناتهم مقابل نقود قليلة، بحزم أمرتني عليا بالابتعاد عنها نهائياً، لم أشفق عليها حين رأيتها مطرودة من المدرسة وتائهة النظرات، فقدت بريقها، لا أكترث حين تقبِّلني أو أتشمم رائحة عطرها حين تقترب منِّي، فكّرت بأن تخلّصنا ممن نحبّهم، يشبه تحوُّلنا إلى يباس يقودنا إلى قوتنا التي ننتظر تحوُّلها إلى كراهية بهيجة.

رأيت مستقبلي أمامي واضحًا، إحساسي بالقوّة جعل من حضوري مباركات المواليد الجدد لعائلات صديقة أو لاحتفالاتهم الصغيرة هبة أقدِّمها لهم، أتدخل بصرامة تتقبَّلها مريم، أحدِّد أيّ نوع من الهدايا يجب أن نحمل معنا، أغلب الهدايا كانت مصاحف مذهبة الحواشي، أطلب منهنّ حين يتقبّلن الهدية أن يقبِّلنه ويضعنه على جباههن وقلوبهن خاشعة، أسير في أرض الحوش كضابط يتفقد عساكره، آمر رضوان بلهجة جافة أن لا يخرج من غرفته ليلاً، يطيعني بصمت ويهمهم بكلمات غير مفهومة، أخمِّن أنّه يتحسّر على صورتي القديمة حين كنت رفيقته أتآمر معه، أشاركه إنشاد المدائح النبويّة، تمنّيت لو كان مبصراً كي

يرى صورتي الجديدة ويؤمن أنّ ما تركته ورائي شيئًا باهتًا لا تحتاج إليه أيّة امرأة تريد أن تصبح أميرة لجماعتها، ترمي بثقلها على الأشياء وتنسج خرافتها كي ترويها الأخريات كسيرة جديّرة بالإضافة والتقديس.

لم يعجبني صمت زهرة ونظراتها إلى خطواتي الثقيلة كي تليق بمهابة تملّكتني بعد إبلاغي قرار تعييني أميرة الطالبات، تهدّج صوت الحجّة «سعاد» وهي تقرأ القرار وتباركه، معدّدةً خصالي وشدّة ولائي لجماعتي التي أقسمت أن أمنحها حياتي كي تخوض معركتها وتمحي الكفر من على وجه الأرض، البنات باركنني ببرود واتهامات خفيّة بأنّ بكر هو السبب في منحي الإمارة.

قبل أن أصبح أميرة امتنعت عن اجتماعات الجماعة لشهرين، غرقت في دراستي، صمّمت أن أحقّق حلم خالاتي، وأمي الحزينة لم تصدّق أنّ حسام بخير رغم الرسالة التي حملتها منه، طلب منها أن تصلّي من أجله، وصف أبي بالرجل الكبير وبأنّني أملهم جميعًا وأخي الصغير همام بالعصفور النقي الروح، أحببت خطه المنظّم المتناسق، «اشتقت له» قلت لمريم فهزّت برأسها وعادت لقراءة سورة يوسف كأنّها تكمل ما بدأته منذ أربعين عامًا دون انقطاع، بالنبرة نفسها ترفع الفاعل بوقار يليق بالنص المقدّس، رأيت حسام مرتين، وافق عليهما بكر بعد تأكّده من صلابتي وسماعه أخبار قسوتي وتشدّدي ومطالبتي بقتل الكفّار، أول مرّة قبل أن يغادرنا طلبني إلى قبو المؤونة، أعطاني رزمة أوراق مغلقة لتوصيلها إلى الحجّة سعاد، أبلغني بالموعد المحدّد أمام سينما أوبرا في الثالثة تمامًا، طلب منّي حجز بطاقتين والتظاهر بأنّنا شاب وفتاة هربا من المدرسة ليختلسا

نظرات حب ولمسات أيد خفيفة تجعل وعد الزواج أكثر أملاً، بالغت في التمويه، وضعت أحمر شِفاه فاقع، كدمية لا تعرف من أسرار الأنوثة شيئًا، كان قلبي يخفق بقوة وأنا واقفة أمام باب السينما أنتظره، وقتها عرفت أنّ أخي لم يكشف بعد للمخابرات؛ الحيطة استدعت إخفاءه بشكل مبالغ فيه. نظرت إلى ساعتي، فقدت الأمل، كدت أمزّق البطاقتين وأمشي حين تقدَّم منِّي شاب ونظر في عينيَّ حتى أحسست أنّه اخترقهما من فوق الحجاب، ابتسم لي، عرفته من صوته حين اعتذر عن التأخير، كشاب يريد التخلُّص من حبيبة تلاحقه وهي مصمِّمة على الزواج منه، أمسك بذراعي ودخلنا إلى السينما شبه الخالية، جلسنا بعيدين عن مشاهدين قليلين يشاهدون بملل سبارتاكوس يحرِّر عبيد روما ويقودهم لحرق قصور أسيادهم، وددت تقبيله واحتضانه إلا أنَّني اكتفيت بكفيه بين يدي وحرارتهما، فكّرت كم كبر فجأة، اكتسب وجهه صرامة بقيت متعلِّقة بها لسنوات طويلة، لم يخبرني شيئًا، استمع بانتباه إلى وصفي لأحوال أمي وأبي وأخي وخالاتي، تساءلت لماذا أنا بعيدة عنهم إلى درجة أنّني لا أستطيع رواية تفاصيل أكثر مما يعرف، كما لا أستطيع إجابته على أسئلة محدّدة حول همام إن كان ما زال يعتقد أن الأسماك التي يبيعها أبي نقطفها من الأشجار كحبّات الليمون، يفتح يديه الصغيرتين وينتظر هطولها كالمطر. ضحكنا بخفر، حدَّثته عن اجتماعاتنا وأسهبت في توصيف فتيات حلقتنا غير متناسية إظهار بطولاتي واقتراحات الكراهية التي أغرسها في عقولهن حين أقف متحدثة عن أعدائنا أبناء الطوائف الأخرى، أعرف وجه حسام حين ينتابه الرضا، تلتمع عيناه فيبدو كشاب رومانسي يكاد يبكي حزنًا على عصفور ذبحه أمامه صيّاد غليظ القلب، رأيته راضيًا، تركني دون أن يجيبني عن أسئلتي، اكتفى بإخباري

أنّه يسافر كثيراً دون أن يترك أي مجال للاستفسار، أعطاني نقوداً لأمي وغادرني منعطفاً إلى حواري «بستان كل آب» دون أن يودِّعني.

وحدة فظيعة انتابتني، توقفت شهوة الكلام، غرقت في صمت لم يخرجني منه تفكيري بزهرة التي تتجاهل كلماتي أحياناً، لم تأبه حين أخبرتها أنّني كنت في مشوار مهم، فضولها لم يتجاوز كلمتين قالتهما ببرود «اللّه يهنيك»، جلست قرب مروة كي تكملا فرد الباذنجان اليابس، سألت مروة عن تَقلبات زهرة فأجابت بكلمات مقتضبة ومؤنبة بشكل باطني أنّني تغيَّرت وأنّهنّ يراعونني لاقتراب مواعيد امتحاناتي، دافعت بشراسة عن تغييراتي، مبدية أسفي أنّهنّ لا يشاركنني الإحساس بروعة قتل أبناء الطائفة الأخرى وتمجيد المجاهدين ثم هرعت إلى غرفتي، أخرجت آخر رسالة بعثها عبد اللّه إليَّ بشكل شخصي، وصفني فيها بالمجاهدة الصغيرة، أكملت قراءة سطور يخبرني فيها بذهابه إلى أفغانستان لنصرة أخواننا الذين يتعرَّضون لمهانة الشيوعيين السوفييت كتأكيد على مكانتي، مروة كعادتها لم تكترث، عادت للحديث عن تبلة المحشي والبهارات الزائدة التي تفسد طعمه، «أحتاج إلى الهدوء قليلاً» قلت لنفسي، رتبت غرفتي لتحضير الامتحانات والانقطاع عن كل شيء، مريم سهرت قربي ليالي طويلة، أخرجت مفرشاً من الحرير الخالص مزيّناً بزهور حمراء وصفراء مريحة للنظر؛ قالت إنّه من بقايا جهاز صفاء، وضعته فوق طاولتي، المفرش أكسبها ألواناً زاهية لم تفرحني، أضفتُ إلى كتب حسام هوامش جديدة، حاورته كما لو أنّنا نشرب قهوتنا بهدوء، نشتم أعمامنا ونضحك، أتى عمر لمساعدتي مرتين في مادتي الديانة واللغة العربيّة، أحياناً يحنُّ إلى أحكام التجويد، يستعرضها أمامي، كديكين في

حلبة صراع ننفش ريشنا، مريم تفتخر بمعرفتنا، أبالغ أحيانًا في سرد معلومات من خارج الكتاب للفت أنظار زهرة الصامتة كحجر متجاهلة حماسنا، تدخّل رضوان لحسم خلافنا حول إعراب كلمة «فحومل» في معلّقة امرئ القيس، رددنا أبياتها وعربناها كجهابذة في سوق عكاظ. صحبة عمر تجعل الأيام حلوة، سهلة، غير متكلّفة، بعد رحيله أعود إلى كراهيتي كي أؤكّد لهم جميعًا أنّني كبرت ولا أخجل من اختلافي عن خالاتي المتسامحات، قريبة من بكر الذي آمنت أنّه المهدي المنتظر، شعرت بفخر أنّه خالي، في اليوم الأخير للامتحان رأيت غادة تسير بمفردها، فردت شعرها غير المعتنى به، ترتجف، قدّرت أنّه قلق الامتحان وقلة النوم، فاجأتني حين أخرجت مسدّس ماكاروف من حقيبتها وقالت بلامبالاة إنّ حبيبها ضابط المخابرات الكبير أعادها إليه مخبرة تنتظر أمام باب مكتب مساعده كي تقدّم له التقارير دون أن تراه، فتبثه فيها أشواقها ورغباتها، تذكّره في آخر التقرير المهور بخاتم «سرّي للغاية» بحميمية لقاءاتهما فيمزّقها ويصفها بالمجنونة. قالت لا أستطيع العيش بدونه، مضت دون أن تلوّح لي، في الليلة نفسها انتحرت بطلقة في رأسها تاركة رسالة قصيرة لأهلها تخبرهم فيها أنّها تحبّهم، وتحسّ بنفسها كأنّها زائدة دودية يجب استئصالها، ولا تريد أن تصبح مخبرة، وأكملت بأنّها ليست عذراء وملوّثة، أسقطت جنينًا في غرفة مظلمة كان من حقّه أن يعيش.

دفنتُ غادة على عجل كوباء يجب التخلّص منه، جلست في غرفتها، رأيتُ الألوان الورديّة وصور شخصيات ميكي ماوس المولعة بها كطفلة لا تريد أن تكبر أو تغادرها الضحكة، بكين رفيقات أعرفهن واحتضنّ أمها، إلا أنا جمدت، أنظر إلى عزاء الفضيحة، مؤنبة نفسي

وموقنة أنّها ستدخل النار، لن ترحمها شفاعة رسولنا.. في اليوم الثالث ذهبت إلى قبرها، جلست عند حافته وبكيت ساعات طويلة، حدثتها وبكيت مستعيدة ابتسامتها ورائحة رقبتها، جلست في غرفتي ولم أغادرها، أغلقت الباب بالمفتاح واضطجعت على السرير وحيدة، أمي تأتي كل يوم، تنتظر بكر، تروي ما كتبه حسام مبتعدة عن ذكر النقود التي بعثها معي، خبأتها في خزانتها بعد أن بكت وقبّلتها باحثةً عن رائحة أصابعه، أؤنبها على ضعفها، أبدو كأمها وتبدو كابنتي التي تستنجد حتى لا أتركها وحدها، جميعنا نساء ننتظر أخبار حسام وبكر الذي لم يعد أبداً إلى الظهور في أي مكان نعرفه. بعد خروج ذلك الضابط الذي كان ضيف وليمتنا من منزله، صلّى الصبح في الجامع وقرأ سوراً من القرآن، في الليل طلب من حاجبه قهوة ثقيلة، شربها بهدوء وخرج من غرفة الضابط المناوب لينتقي سبعة عشر شابًا من طلاب الكلية الذين سيصبحون ضباطًا بعد أشهر قليلة، ببرود شديد صفّهم على الحائط وأعدمهم بطلقات بندقيته السريعة الطلقات كمن يؤدّي دوراً متقنًا في فيلم، تخرج الأشباح من أوكارها لتطير فوق المدينة لا يعرف حتى المخرج أين ستحطّ في النهاية، ترك جثثهم تتخبّط بالدم وأضلاعهم ورؤوسهم متناثرة على الجدران الكابية، رمى سترته العسكريّة واحتفظ بالنسر النحاسي في جيب بنطاله الكاكي ثم خرج من البوّابة مع شركائه الذين انتقاهم ليحرسوا باب الكلية العسكريّة، وصلوا جميعًا إلى منزل في أطراف حلب، استقبلهم الرجال بالتكبير والمباركة لفتح كلّ هذه العزاءات في بيوت الطائفة الأخرى، لم يعرف أحد لماذا مات هؤلاء الذين انحدروا من الجبال بطموح وحيوية لا تحدّ، إلا أنا المحتفية بالكراهية.

كادت مريم أن تفقد النطق وهي ترى الجنود ورجال المخابرات يهبطون من السطح إلى أرض الحوش شاهرين بنادقهم، مقتحمين الغرف والأقبية، باحثين عن حسام وبكر، حشرونا في غرفة رضوان الذي حاول دفعهم، شتمهم مذكِّرًا إيّاهم بمكانة جدّي وأنّ هذا منزل تقطنه نساء وحيدات، دفعه أحدهم ورأيته يضع حذاءه المدني على رقبته شاتمًا جدّي وسلالته واصفًا إيّانا بالعاهرات، أكثر من ستين مسلَّحًا استباحوا بهستيرية الغرف والأسرَّة، فتحوا الخزائن، كسروا الأقفال، بعثروا الصور والأوراق، فردوا السجاجيد الغالية الثمن في الزوايا لتفوح منها رائحة النفتلين، لم يكن لديهم وقت ليتأمَّلوا نقوشها بدهشة، استدعانا الضابط إلى غرفة مريم واحدة تلو الأخرى، فكَّرت وأنا أنظر إلى عينيه بأنّ الكراهية ستجعلني متماسكة غير آبهة برذاذ اللعاب المتطاير من فمه وهو يتوعّد بتقطيع يديّ وفقء عينيّ إن لم أرشدهم إلى بكر وحسام، زهرة اتكأت على صدري متناسية برود علاقتنا في الأشهر القليلة الماضية، أحسست بخوفها وفكّرت «أنّهم لا يعرفون أسرار بيوتنا ولا مداخل المدينة». كنت أكثرهن تماسكًا، كأنّي أمتحن كراهيتي، مريم ترحمت على القتلى، لم تصدّق أنّ بكر هو الذي يقود القتلة متعلِّقة بأمل أن يكون كابوسًا سيزاح قريبًا لنعود إلى أماننا الذي فقدناه.

احتلُّوا منزل بكر شبه المهجور، سكنه أربعة عساكر، لعبوا الشدّة محاولين طرد خوفهم، انتظروه كي يدخل شركهم، أخبرتنا أمي أنَّهم أمسكوا أبي من شاربيه، مرَّغوا وجهه بأحذيتهم الثقيلة وأنّه ما زال صامتًا، هجر بسطة سمكه ولم ينم منذ ثلاثة أيام، رأيته جالسًا على الأرض، ثيابه

قذرة، وأخي همام محشوراً في زاوية الغرفة خائفًا، كلّمته لم يسمعني، أصمّ، ضائعًا، يبحث عن معنى ماحدث، اصطحبوه ثلاث مرات إلى الفرع، شتموه، استخفوا برجولته، نام ليلة على الأرض العارية في زنزانة رطبة وتفوح من صحن ألمنيوم كبير في وسطها رائحة الخراء والبول، لم ينزعج منها قدر انزعاجه من بصاق حارسه الذي لم يكف طوال الليل عن رفسه وشتم نسائه، احتمل الضرب بالكرابيج الرباعيّة واقتلاع الأظافر بالكماشات، متذكّرًا صور رجال عذّبهم بالطريقة نفسه أيام عبد الحميد السراج، كأنّه يتحرّر من ذكرياته الأليمة ويكفّر عن ذنوب جثمت على صدره سنوات طويلة، جلست قربه كهرّة تريد لعق جروحه التي أخفاها حتى عن أمي. الجميع فقد توازنه، خالاتي وأمي غرقن في الصلاة وقراءة القرآن، كنّ يحتجن إلى عمر الذي أتى إلى دارنا، تفاهمنا بالنظرات، كل شيء دخل في نفق مظلم كنت أنتظره بفارغ الصبر، خفت من موت أمي بسكتة قلبيّة، صمت أبي عذّبني، أشفقت عليه للحظة، كدت أتعاطف مع صور القتلى، أتمنّى لو أنّ بكر بقي تاجر سجّاد يفاخر العائلات الأخرى بأملاكه، يمتدح العائلة كأيّ رجل يلتقط من بين سخافات الحياة اليوميّة متعًا زائلة، كدت أنفجر ضاحكة ونحن محاصرون في غرفة رضوان التي نبش الجنود صناديقها، دلقوا زجاجات عطره على الأرض فكدنا نختنق. . مشهد ساخر أن نختنق برائحة العطر، رضوان يشتم اللّه ثم يستغفره محاولاً إقناع الجنود أنّه يرتكب الموبقات مدّعياً التهتك، نكشته مريم وطلبت منه السكوت خائفة أن يدلّهم على مكان الخزانة السريّة التي أخفينا فيها مسدس حسام ذات يوم، فيما بعد بدأت أخفي فيها أوراقي ومناشيرنا غير آبهة بتحذيرات زهرة التي استعادت قوتها دفعة واحدة،

ساعدت الجميع على الإيمان بأنّ بكر وحسام وجماعتهما اصطفاهم الله ليعيدوا للإسلام كلمته وألقه، مستعيدين سيرة بلال الحبشي الذي عذبه القرشيون في حر الصحراء ولم يستكن لجحيمهم. تمثل مسرحية: رضوان يظن نفسه بلال الحبشي ومريم أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، أنا أحببت دور فاطمة الزهراء فاستعدت سيرتها، أندفع في مجلس الحجّة سعاد، أطلب إعادة تنظيم الحلقات وتوزيع المهام موبّخة فتاة طرحت سؤالاً عن حرمة قتل أبناء الطائفة الأخرى والحزبيين، اعتبرَتهم أبرياء مستشهدة بالقرآن الذي نهانا عن قتل النفس التي حرّم الله قتلها، استغربت البنات قوّة العبارات التي وصفت فيها القتلى بالكفّار، تهدًّجت كلماتي حين وصفت إخواننا بالمجاهدين الأبطال، كأنني في حفل خطابي حماسي، تبرًّعت بحمل السلاح وقتال الكفّار متذكِّرة كلمات حسام المخطوطة على هوامش كتاب الكيمياء وتمنّيه شهادة رجاها بكلّ ما يملك من عنفوان الشباب، أخذت القسم الأكبر من المناشير التي يجب توزيعها على كل المدينة وفيها تعلن جماعتنا عن بداية معركتنا مع الحزب الكافر، تخاطب الشعب بأبّهة تليق برجال عاهدوا الله فصدقوا، أخفيت المناشير تحت ثيابي وأمامي تسير إحدى الأخوات، تراقب المنعطفات وأنا أدسّ المناشير من تحت أبواب منازل غريبة، أجعل سكانها يرتجفون ومن ثم يفكِّرون أنّ الخوف الذي سكنهم ماهو إلا وهم من الممكن انتزاعه، كما وددت لو قرعت الأبواب وأخبرتهم أنّي أبشِّر بالرايات الخضر تكتسح البلاد.

من الصعب رؤية مدينة من وراء غبش ملاءة وجه وتحبها. تبدو حلب لي غامضة، قاسية، أتوعد الفتيات السافرات في قلبي، أتخيّل نفسي

أحاكمهن، أرش وجوههن بماء الأسيد، أشوّههن دون رحمة، أضرب على أصابعهن الرقيقة كي لا يمسكن أيدي الرجال ويضحكن حين يأكلن البوظة ويسرن متمهلات، فكّرت لا بدّ أنّهنّ يذهبن إلى البيوت مع الرجال كي يمارسن الجنس المحرم ويبصقن على الزواج مستهترات بعفافهن، جنود سرايا الموت ملأوا المدينة، أثاروا الذعر بأجسامهم القوية وبنادقهم السريعة الطلقات واستهتارهم بموت حاصرهم بغتة في أحياء المدينة القديمة الضيقة، الأوامر تأتي إلينا بشكل يومي، فنخترق أزقّتها كالهواء، أحيانًا نشعر بأنّنا نطير، ندخل إلى كل البيوت، النساء يصلين من أجل رجالنا، يبكين حين يتخيّلن الخطر الذي يحيط بنا، نجمع التبرعات، نوصل الرسائل، نوزع المناشير، لا نرى وجوه الخارجين في الليل الساكن كي يهاجموا فروع المخابرات ومقرات الحزب الذي هرب أغلب عناصره إلى قراهم البعيدة، كل يوم نحسّ بأنّنا اقتربنا من حجنا الأخير، حيث روح رسول الله سيخرج لاستقبالنا مباركًا قوتنا وبذراعيه النقيتين سيسلمنا مفاتيح الجنة.

كلما ازداد رعب المدينة ازددت يقينًا أنّ الكراهية صنعت منّي امرأة صلبة غير تلك الفتاة الخجولة التي تقف في العتبة خائفة من الوحدة واليتم، شهران في صيف لا ينسى، عنفواني وصل إلى آخره بعد إعدام مجموعة من خيرة شبابنا كما وصفهم خالي في صلاة الغائب التي أقيمت على أرواحهم، تناقلنا كلماتهم الجريئة في المحكمة وعلى شاشة التلفزيون وهم يفصحون عن قسوتهم وصلابتهم، كنّا نحسدهم، سيصلون إلى الجنة قبلنا، جرأتهم أثارت تعاطف سكّان المدينة وهم يعلنون فساد الحكومة، أقامت بيوت كثيرة صلاة الغائب على أرواحهم وتعالت التكبيرات لحظة إعدامهم، دفنوا جثثهم دون مشيعين، أمي غرقت في دوّامة ندب وحزن حين رأت أصدقاء حسام

الذين وضعت لهم طعام الإفطار ومازحتهم يذهبون إلى المشنقة خائفة من مصير مماثل لمدللها، منعتها الكوابيس من النوم، رأيتها عجوزاً ممتلئة بالدموع والتمتمات غير الكاملة، لم يكن لديها وقت لتبتهج بأنّي واحدة من أفضل عشر طالبات في حلب، سأصبح طبيبة تفاخر فيّ جاراتها وأبناء عمومتي الذين كانوا لا يجرأون على قراءة المناشير كما امتنعوا عن الصلاة في الجوامع، أكبرهم أطلق شعره كمطرب بيتلز ووضع الأقراط في أذنيه للتخلّص من تهمة قرابته لحسام حين توقفه إحدى الدوريات، اخترت طريقة غريبة للاحتفال بنجاحي، أسّست حلقة جدّيدة في منزل امرأة مطلّقة تعلّم الفتيات الخياطة والتطريز، نوافذه المفتوحة تبعد الشبهات عن تردُّدي مع بناتي كما أصبحت أسميهن إلى عملنا صباحًا وعودتنا مساءً كأيّة عاملات ينتظرن الانصراف ليغمزن بائعي الدكاكين والمكوجية، كما يحاول سائقو التكسي وجنود الدوريات التحرّش بهن فيضحكن ثم يهربن.

في منزلنا لبست ثوبًا أبيض كانت صفاء قد نسيته، طلبت من رضوان إحضار الحلويات، صففت الصحون على الطاولة وجميعهن يراقبنني، أنشد رضوان قصيدة مديح في تفوُّقي، تليق بطبيبة، تناولنا الحلويات، قبلنني مباركات وأنا أخفي المفاجأة، أشرت لمريم أن تصرف رضوان بعد أن تحمّس راغبًا باستعادة تلك الصورة حين كنّا نساء يقودنا أعمى، كأنّه اشتاق إلى مكانة غطاها الغبار، قدّمت زهرة القهوة بعد انصراف رضوان إلى غرفته، وقفت على حوض البركة الحجري، فاتحة ذراعي معلنة رغبتي أن أموت شهيدة، أضفت أريد الشهادة، أنا الأميرة، كررتها «أنا الآن أميرة» ثم نزلت وسحبت ثوبي خلفي، نظرن إليَّ، سرت إلى غرفتي ثم التفتُّ إليهن، كان الذهول في عيونهن.. وقبل أن أغيب كأنّي رأيتهن ينحنين محييات الأميرة.

الفصل الثاني

فراشات محنطة

الفراشات أنقذت مروة التي انتظرت صفاء ولم تأت، اشتاقت إليها في ليالي هطول جنود سرايا الموت شبه اليومي من السماء فوق نباتاتها، مستعرضين شارات الجماجم على صدورهم، منزعجين من احتقارنا لهم لمهاجمتهم منزل نساء يحرسهن أعمى، وانتظارهم مطلوبين تبخروا فجأة في سماء المدينة، اقتلعوا شجيرة الجوري وردها المفضل، كمجنونة ركضت بين الغرف، مختنقة بدموعها تبحث عن مأوى في المكان اللزج كبزّاقة كبيرة.

أول فراشة التقطتها ذات جناحين مرقّشين باللونين البني والعسلي، ذكرتها بحمّام عرسها، أغرقتها النساء بالبيلون والحناء والصابون المعطّر، نتفن الشعر من جسدها بالعقيدة، مسحنه بأيديهن وتأكّدن من نعومة جلدها، أحبت أن تطير بخفّة فراشة أغرمت بها وحنّطتها بمساعدة رضوان الذي تحمّس للفكرة، ضحك حين وصفت له عينيها الذابلتين وفمها الذي شبهته بفم صفاء الصغير، قبّلته كمغرمة لم تنسَ طعم التحام الشفتين بقوة توقظ المسامات، فيصبح الجسد كحصان تلقّى طعنة قاتلة فاشرأب ليمنع روحه من الصعود ثم همد بارداً باستسلام الموتى.

استهجنت مريم تجميد الفراشات على ألواح خشبيَّة يغري منظر أجنحتها المفرودة باستسلام وثبات بالتفكير بالموت بعد أن أصبح حدثًا عادياً يشبه ثمرة دراق متعفِّنة مرمية على رصيف، فقد مهابته وتحوَّل إلى حكاية يوميَّة يرويها رواة محترفون عاد لهم حماسهم كي يسردوا قصصًا جدّيدة عن جنود سرايا الموت والفرقة العسكريَّة التي نقلت من الجبهة بدباباتها ومدافعها لتطوّق حلب، نظرات الجنود خائفة، ضائعة، يحسُّون بأنَّهم قادمون إلى موت مجاني من أجل حزبيين هربوا إلى منازلهم وطلاّب مدارس متباهين بمسدساتهم وبدلاتهم المموهة بعد عودتهم من معسكرات أقيمت على عجل كي يصبحوا مظليين، يستأثر الكسالى منهم بأفضل المقاعد في الجامعات التي تحولت إلى ثكنات وأمكنة لاستعراض عسكري يقوم به مراهقون حزبيون لا تهمهم استقالة أساتذة محترمين أصبح وجودهم غير مرغوب فيه، هاجر معظمهم والباقون أغلقوا أبواب منازلهم في وجه الطاعون المقبل، اكتفوا بالتحديق في بلاط صالونات منازلهم متذكِّرين ماضيهم الجليل الذي أصبح مؤكَّدًا أنّه لن يعود أبدًا، تناثروا في الشوارع بين الدبابات والجنود يرثون المدينة التي أحبوها، محاولين اقناع المتحاربين بالاستماع إليهم، باحثين عن صديقهم أستاذ الشعر الإنكليزي الذي تجاوز السبعين من عمره ولم يحتمل رؤية أحد أحفاده يتبختر ببزته المموهة كديك حبش ويرفس بقدمه مؤلفات شكسبير، أنزل صورة T.S.ELIOT من على الجدار، علّق مكانها صورة قائد سرايا الموت رافعًا قبضته في الهواء كقاطع طريق محترف، بينما حفيده الآخر الذي يعشق الكيمياء ويبشِّر بمستقبل باهر وضع الأحزمة الناسفة حول خصره باحثًا عن طرائده مثل خفافيش الليل، أستاذ الشعر

الإنكليزي يبحث عن حفيديه في أمكنة لا مرئية، يخرج في السادسة صباحًا إلى الشوارع، يلقي على الناس بلكنة إسكتلندية قصائد عزرا باوند، يروي نتفًا من سيرة أوديب، كهارب من أزقّة مدينة طيبة، يثير شفقة معاوني الباصات في كراج الانطلاق الذي استقرّ فيه ليلاً لينام بين صناديق البضائع، حين يمرّ به تلاميذه يتحسَّرون على أيام ألقه، حين كان سببًا في عشقهم للغة شكسبير وأحرفها الصوتيّة مصمِّمًا على موسيقيتها، مستشهداً بنصوص لاتينيّة مهملة في مكتبات كمبريدج كان مولعًا بها ولا تفارقه رائحة ورقها الأصفر العتيق كلون الفراشة التي التقطتها مروة من حقول الفستق وأغرمت بنعاسها واسترخائها، فردت لها مكانًا مميَّزًا في صناديقها الخشبيّة المعدّة كتوابيت مرئية، حنَّطتها باحتفاء، أسمتها الملكة محذِّرة رضوان من المساس بها وبمكانتها التي منحتها إيّاه.

مروة أصبحت غريبة عنّا لا نعرفها، هدوؤها مثقل بوقار بارد تحوَّل فجأة إلى عبث محموم ورغبة بالمغامرة، تخرج مع رضوان إلى الشوارع والحدائق والحقول القريبة باحثة عن الفراشات، مهملة ثيابها، تاركةً تقاليد نساء العائلة في التحدُّث ببطء ودون انفعال، كقروية تستخدم ألفاظًا نابية وتشتم دون إحساس بالذنب أو المهانة، نراقبها كل يوم وتنتابنا الدهشة، تخفي مريم مخاوفها من فضيحة لا أحد ينقذنا منها سوى صفاء التي تعرف كيف تحوّلها إلى امرأة مطيعة دون أحلام مجنونة.

لم أكترث لمروة، مقتنعةً بأنّه سيكون لدينا المزيد من الوقت للابتهاج بتفاصيل الحياة التافهة وتداخل أصواتنا وضحكاتنا في الغرف العالية السقوف، تأفّفتُ من طلبات مريم المتكرِّرة بإبلاغ بكر بأنّ مروة قد

جُنَّت ويجب التدخُّل لإنقاذها، معتقدة بأنّني أستطيع الوصول إلى مخابئه الكثيرة التي جعلت من اختفائه أسطورة تنسج في بيوت حلب، أصبح شبحًا مرعبًا يتغلغل في الهواء، قادرًا على السير في الشوارع ومصافحة أنصاره الكثيرين. في إمارتي كدت أصاب بانهيار عصبي من كثرة طلبات تنظيم فتيات قادرات على خياطة ملابس وتوزيع مناشير وجمع تبرعات، أخريات عرضن أجسادهن لتفجيرها في تجمُّعات جنود سرايا الموت والانتقام منهم لسحلهم سبع جثث لإخوتنا بعد أن اشتبكوا معهم أكثر من أربع ساعات، لم ينم الحلبيون الذين أرعبهم مشهد عربات الجند تسحل الجثث المربوطة بجنازير حديديّة، أشاحوا بعيونهم عن القسوة التي أبكت عليا، أقسمت على القرآن أنّها لم تعد تحتمل، تريد الشهادة والانتقام لعيون كانت ناعسة ذات يوم.

بارك بكر حماسنا ورفض طلب عليا التي تلت قرار تكليفي بتنظيم طلبة كلية الطب التي دخلتها دون زغاريد أمي التي أصبحت امرأة هرمة تتحدَّث عن الموت، تثيرها كوابيس مزعجة يتراءى فيها حسام معلّقًا على حبل مشنقة أو جثة مسحولة على الإسفلت الخشن، أحيانًا عريسًا ملفوفًا بكفن، أبي ازداد صمتًا ومللاً من استدعائه الدائم إلى فروع المخابرات لسؤاله عن ابن لم يره منذ خمسة شهور. لم يعد يأبه لشيء، لم يكن متحمِّسًا لدائرة الكراهية التي أحاطتني كسوار في معصم، قابلني ببرود وتمتم كلمات تشتم بكرًا، مستنكرًا حمّى الطائفية التي ستودي بنا إلى الكارثة كما قال، ممتدحًا أصدقاءه من أبناء الطائفة الأخرى التي أصبح إلغاؤها جزءًا من أحلامنا وقتل أيّ فرد منها مشروعًا، لم أعد أسمع

صوت أبي، اعتبرت حديثه عن فقرائهم وأريحيتهم في جبالهم تماديًا لا يليق بأب أنتمي إليه وأحمل اسمه، اعتبرته كافرًا ومرتدًا، حزنت في قرارة نفسي حين تخيّلته سيذهب إلى جهنّم، لن يتذوّق عصائر الجنة وينام قرير العين في سهوبها، طلبت له المغفرة، صلّيت من أجل هدايته، لم أحزن حين أنزل حقيبته التنكيّة القديمة، لملم ثيابًا قليلة وسافر إلى بيروت للخلاص من جنوننا وفتنتنا كما سمّاها بشكل صريح، فقدت صورته العذبة ملامحها في ذاكرتي، أصبح رجلاً جبانًا لا يليق به الانتماء إليّ.

من ينتمي إلى الآخر، فكّرت وأنا في طريقي للقاء حسام الذي سعيت إليه، اشتقت إليه، رغبت برؤية الوجه الآخر لعائلتي، اصطحبني إلى مطعم أرمني وجلسنا كعشيقين، أحببت هذا الدور، ولهي بأخي، حبيبي، رفيقي، قائدي، تأمّلت عينيه العسليتين بشغف، مسحت بيدي على وجهه، تحسّست مساماته، أحسست بخوفه الذي لفحني، شاردًا لا يستمع إليّ وأنا أخبره بندمي على أبي وخوفي على أمي التي اضطرت لإغلاق منزلها والعيش معنا في بيت جدّي، كأنّنا في اجتماعنا نطرد الذعر والخوف. كان يتلفّت بحذر، لم يستمع إلى كلماتي التي وصفت فيها انتصاراتنا، أمسك بيدي فجأة وطلب منّي الانسحاب من الجماعة والانشغال بدراستي. بكلمات قليلة اعترف بندمه على تورّطه بالقتل، أحسست بشوقه للاسترخاء تحت شجرة الليمون ورؤية أمي منشغلة بتقطيع الفاصولياء والنميمة على الجيران، كان يعرف الكثير من الأشياء السريّة عن خلافات القيادة حول قائمة الاغتيالات المعدّة، كان يشرب قهوته ويده ترتجف، زائغ النظرات، سألني عن همام ولم ينتظر جوابي بل

لملم أشياءه وغادرني دون أن يودِّعني، كلمات قليلة قالها بعصبيّة عن رغبته بالهروب والذهاب إلى مكّة ليكفِّر عن ذنوبه بقتل مدنيين أبرياء من الطائفة الأخرى، تعبيره الذي ردَّده أكثر من مرة أخافني، بقيت وحيدة، بكيت كفتاة مهجورة تستحق تعاطف الزبائن القليلين ونادل المطعم الذي لم يحرجني، من الصعب أن تكتشف فجأة أنّك خاوٍ، ظلّك ثقيل على الأرض، كل ما حولك حامض يغرق أحلامك وتبدو صدئًا في عيون الآخرين، عادت صورة أبي بملامحها الواضحة قوية إلى درجة جعلتني أهذي طوال الليل بأنّ عائلتنا لا ينقذها سوى انتصار سريع يعيد الهدوء إلى مروة، يلمّ شملنا مرة أخرى لنجلس إلى مائدة الغداء وتفرد مريم ملاعق الفضة متمهِّلة كأيّة سيِّدة تمتلك يقينًا أنّ كلّ شيء على ما يرام، جميعنا نحتاج إلى صورة العائلة المسترخية، أحسست بالتفاهة، كرهت دروس الكيمياء الحيوية ومبالغة الطلاب في إظهار وقار مبكر، طلبت إعادتي إلى حلقتي وإعفائي من حلقة الكلية التي أذهب إليها كلّ صباح خائفة من اعتقالي أو سماع خبر قتل حسام أو بكر. فكّرت بمصيرنا، لأول مرّة أفكِّر أنّ القتلى سيمدون أظافرهم ويقتلعون عيوننا، شجعتني الحجّة سعاد على نسيان هواجسي، لم أستطع الاعتراف لأحد أنّ ندم حسام قد هزّني وأوقفني في برزخ الكراهية، كي أستعيد أحلام الأنثى وأنظر بعينين مفتوحتين إلى أمي التي استسلمت إلى قدر لم يأتِ بعد، كلّما سمعت أصوات الرصاص تنفجر بالبكاء وتلطم على صدرها، تهدّئها مريم وتقرأ التعاويذ بصوت رخيم فتبدو لي ضعيفة، تنسج حبال الأمل في الهواء وتتعلّق بها كطفل وجد أرجوحة وسط بيت فجّره الديناميت فغدا ركامًا.

أصبحت أقلّ فخراً بانتمائي إلى حسام، لم آبه بصورة العائلة المحطَّمة، منزل أهلي احتلّه الجنود، بعثروا كل ما فيه من ذكريات، ناموا على مخدّات طفولتي وتركوا علب السردين مرمية على البلاط تنشر روائح كريهة مختلطة بروائح بولهم، ضحكاتهم الماجنة ضرورية ليطردوا خوفهم من رصاص لا يعرفون من أين سيأتيهم ويراكمهم جثثًا في توابيت.

الجثث المتساقطة كحبات التوت من الطرفين جعلت الهواء ثقيلاً، مشبعًا بخوف من فوضى المجهول، البلاد التي تنتظر حسم هذه المعركة في أهمّ مدنها سعت للبحث عن انتماء، المشهد أكثر سواداً وتعقيداً، أصبح العيش المشترك ذكريات وحنينًا يمارسه الناس بحذر، بالغنا في تفاؤلنا بالقتل الذي مارسناه، لم يعد بالإمكان التراجع، أصبح الحقد عنقود عنب ناضج يتدلّى من دالية متروكة للعابرين، أرى حلب من خلف غطاء الوجه الأسود فتبدو لي مكانًا لائقًا للبحث عن الكراهية، أمتدحها فتنتابني رعشة لذيذة كأنّ أياد رقيقة تدغدغ جسدي وتخرجني من حالة اللامبالاة وكآبة نساء منزلنا وخوفهن إلى عالم أراه في أحلامي ناصعًا كأردية الملائكة، الذين رسمتهم مقاتلين يحملون البنادق ويطلقون الرصاص على جنود سرايا الموت الذين ازدادوا عنفًا وهستيريا، وبدا رصاصهم طائشًا في الكثير من الأحيان يطلقونه على خفافيش من هلام لا تمسك.

مبكرًا أتى عمر من سفره، على وجهه آثار كدمات تعافت، بقي تحت عينيه ذلك الأثر الحزين لرجل محبط، لم يقل إنّه اعتقل وعُذِّب لشهرين متواصلين كي يدلّهم على مكان بكر الذي لا يعرفه، لم تشفع له علاقاته القوية مع ضباط كبار وتجّار متنفذين وسمعة جاهد كي تكون

فضائحية أكثر مما يجب، جميعنا نحتاج إلى عمر قلت لنفسي وأنا أدقّق في شفتيه المتلعثمتين، يطمئن مريم أنّ الكدمات نتيجة سقوطه من على حصان، يأمر أمي بترتيب حوائجها للسفر إلى بيروت مع أخي همام، لم يستمع إلى مبرِّرات بقائها وانتظارها لحسام ومدرسة أخي، لم يسمح لمريم بمؤازرتها، لم يكترث لمروة وخروجها مع رضوان إلى شوارع المدينة محاولين التقاط الفراشات من بين الدبابات وخيام الجنود الذين ظنوهما مجنونين يجب الاحتراس منهما في البداية ثم تداولوا مع رضوان أحاديث غريبة أول الأمر، رأوها فيما بعد مثيرة وضرورية لطرافتها، تجعلهم يفكّرون ولو للحظة بنسيان الموت، أقنع أحد ضباطهم ببيعه عطراً خاصًا للإثارة الجنسيّة، انفرد به بعيدًا عن مروة الواقفة، متأمِّلة ما يحدث في المدينة كأنّها ضمن استديو سينمائي، أذهلتها قوة حضور الخوف والموت متجاورين مع الرغبة بالضحك، متداخلين لدرجة يصعب الفصل بينهما، رضوان عدَّد مزايا عطره المركَّب للضابط الذي أعجبته طرافته، دفع له سلفًا ثمن زجاجة صغيرة انشغل رضوان طوال الليل بتركيبها، ملأها بزجاجة زيت خروع فارغة وأقنعه أنَّ بقايا الرائحة الغريبة هي من ضمن تركيبة العطر ثم تركه مسرعًا للحاق بسيِّدته كما وصف مروة للضابط، معدِّدًا مزايا وهمية لعائلة أخرى تعمل في صناعة النسيج، خائفًا من اكتشاف أنّ الباحثة عن الفراشات هي أخت بكر، لم يستمع عمر لسيرة العطر الذي باعه رضوان، طلب منّا مساعدة أمي على ترتيب حقائبها، في صباح اليوم التالي أتت سيارة أجرة لبنانيّة حملت أمي وأخي، استعجل رحيلهما كأنّه يحميهما من خطر قادم، ولحق بهما إلى بيروت بعد أيّام لم نره خلالها.

رحيل أمي أشعرني براحة كبيرة، لم أعد خائفة من قلبها الجبان، كاد يغمى عليها عندما سمعت بمداهمة البيت السري الذي يقيم فيه حسام الذي استطاع الفرار عبر أسطحة المنازل المجاورة، لا يبعد عنا أكثر من حارتين ضيقتين، خرجت أمي إلى الشوارع باحثةً عن وجهه، أنَّبت نفسها على عدم إحساسها بقرب أنفاسه إلى درجة تستطيع احتضانه كي تُشفى من أشواقها، عادت منهكة، فاقدةً توازنها، اقترب الخوف كثيراً ففقدنا الرغبة بالنميمة، أصبحنا غريبات يعشن في منزل واحد دون نظام وهدف واحد، الاطمئنان كل صباح أنّ بكر وحسام لم يموتا ولم يصب أحد منّا بسكتة قلبية أو جنون بدا قريبًا منّا أكثر من فراشات مروة اللواتي احتللن ربع قبو المؤونة، جعلن الضابط المكلّف بتفتيش منزلنا يعتقد أنّه دخل مكانًا مسكونًا بالأرواح، لم يصدّق أنّ هذه المرأة الكئيبة هي التي جمعت كلّ هذه الألوان وثبّتتْها على ألواح خشبية ضمن صناديق يغطيها زجاج غالٍ، أقفاله مذهّبة وبرّاقة تشبه النجمة والنسر المعلق على كتف الضابط الذي تحسّس الجمجمة الموضوعة على بذلته المموهة.

صمته وثبات مروة أمام فراشاتها أثارني، تملّكني رعب أن أكتشف كم تحتاج مروة إلى رجل ينظر في عينيها بثبات وقوة تزلزل جسدها حتى لو كان عدواً كهذا الضابط الذي كان لطيفًا، متمنيًا لو يهبط حسام ورفاقه من السماء كي يبعثر دماغهم برصاصه، خطرت لي فكرة انتزاع قلبه ورميه في قطرميز الباذنجان المخلّل المركون في الزاوية المعتّمة، حاولت إكمال الفكرة بجمع قلوب جنوده وتخليلها، تخيّلت ربما تمارس شغفها باختراع أنواع جديدة من المخلّلات، ضحكت مطمئنة إلى قوة الكراهية

في قلبي، أثنى الضابط على مروة ومنع جنوده من تحطيم صناديقها، لم تستمع لتأنيبي الشديد، شكرته بكلمات رقيقة ودعت له بالعمر المديد والشباب الدائم، صافحته قبل أن يغادرنا، أقسمت لمريم وزهرة أنّه احتفظ بيدها للحظة طويلة وتحسّسها بأصابعه، انزعجت زهرة من إصراري على تحطيم الفراشات وحرمان مروة من الخروج، هدأتني مريم وطلبت منّي مساعدتها في إعادة ترتيب الغرف التي نكشها الجنود وإعادة الأشياء إلى مكانها في حركة أتقناها من كثرة ما تردَّدوا إلى منزلنا ومنزل خالي سليم ومنازل أقرباء جدّي ومحلاّته، غير مصدِّقين أنّ بكر وحسام لا يختبئان في أحد الأنفاق التي قيل إنَّ الوصول إليها لا يتمّ إلا عبر أنفاق منازل فسيحة تمتلكها عائلات متشبِّثة بأنسابها، أغلقت مروة باب غرفتها في وجهي وسمعت زهرة تتمتم بأنّني أصبحت لا أُحتمل.

رسائل صفاء وعبد اللّه توقفت، سافر عبد اللّه إلى أفغانستان وانشغل بتوزيع التبرُّعات ودعم المجاهدين الذين يقاومون السوفييت، صورته في ذهني تقترب من بهاء الصحابة الذين رسمت ملامحهم كنسور قويّة تنحدّر من أعشاشها في الجبال كي تمزِّق أكباد الأعداء وتنهشها. أصبحت صفاء وزينة أختين وظلّين، تفاهمتا على اقتسام عبد اللّه، تركتا مشاعر الغيرة لتخرجا إلى الأسواق معًا، أثار ضحكهما المشترك استغراب النساء جليسات زينة المستمعات بشغف إلى سيرة سيف بن ذي يزن، صفاء تصبّ القهوة المرّة وتدور على الضيوف، في رسالة أخيرة وصلت منها قبل أعياد الميلاد أخبرتنا بأنّها حامل، دمعت عينا مريم، ابتسمت زهرة واعتبرته فأل خير، ثم أخبرتنا ببرود أنّ أمها ستصل إلى حلب

الأسبوع المقبل وستستقبلها في منزلنا، مريم رحّبت بضيفة زهرة، تحتاج إلى ضيوف يعيدون الحرارة إلى جدراننا ويشغلوننا عن أحاديث الموت وانتظاره، غضبتُ من الاستعدادات لاستقبالها وتدنيسها منزلنا، متجاهلين الضابط الذي عاد مرّة أخرى، أتى خصيصًا لمشاهدة مروة التي التمعت عيناها بالفرح والرغبة، صافحته غير مكترثة بغضبي، تبادل معها كلمات قليلة لم أسمعها، هزّت برأسها ثم وقف أمام فراشاتها، تأمّل الفراشة الصفراء التي طلب ملامستها، فتحت مروة له الغطاء الزجاجي وطلبت منه التأني، ثم خرج مع جنوده القلائل، دون أن يقلبوا كعادتهم خزائننا والصور في ألبوماتنا العتيقة هازئين من نظرات جدّي المتكبِّرة مقلدًا هتلر الذي كان من أشدّ المعجبين به رغم احتقاره للعرب.

كتبت رسالةً لبكر، بالغت في توصيف حالة مروة مع ضابط سرايا الموت، طلبت منه التدخُّل لإنقاذ سمعتنا، ومنع دخول وصال إلى منزلنا، كان يجب ترك الرسالة قرب حنفية ماء مهملة في باب النصر كما أتت التعليمات. في اليوم التالي قرع باب منزلنا شاب صغير، طلب رؤية مريم لأمر ضروري، أخبرها قرار بكر بمنع خروج مروة من المنزل نهائياً إلا برفقتها، غادر مسرعًا دون أن يجيب عن أسئلتنا حول صحته وأوضاعه، بكت مروة وبصقت في وجهي شاتمة أبي، أصبنا بالذهول لإصرار مروة على الخروج وحيدة للبحث عن الفراشات، تساءلت في سرِّي هل أنا كريهة لأنني منعت مروة من حب أعدائنا؟ عادت صورتها القديمة كامرأة حالمة، باكيةً على كتف الحجّة رضية حين تصل في إنشادها إلى رابعة العدوية وقيامها الليل بين يديْ حبيبها، تجاهلتها في اجتماعنا لشرب قهوة

الصباح قبل ذهابي إلى الكلّية رغم تدخُّل مريم وغمزها لزهرة كي تقنعني أنّها بمثابة أمي، خرجت من المنزل حزينة، تضيق الشوارع أمام خطواتي، شاردةً أراقب الدبابات التي أحسستها تجثم فوق صدري، الدوريات مكثّفة عند كل زاوية، خيّل إليّ أنّهم يطوّقون المدينة فعلاً ولا بد سيمسكون بكلّ مجاهدينا، سينهون هذا الحلم الذي اكتسب لونًا حاداً ومذاقًا لا يمكن نسيانه.

حلب في ذلك الشتاء أرخت عليّ بثقل حضورها، حرّضتني على إعادة ترتيب مشاعري نحو شهدائنا وفكّرت كم هو صعب أن تعشق امرأة رجالاً لا تعرفهم وميتين.

في اليوم التالي قتلوا الدكتور عبد الكريم الدالي أستاذ الفيزياء في كلية العلوم، رأيته ممدّدًا وصدره متفجّر، لم يُعرف قاتله، ضاع دمه بيننا وبين قائد سرايا الموت، استنكرت جماعتنا قتله وتبرّأت منه، في ذلك اليوم انتشر المظلّيون، فتّشوا بدقّة كلّ الطلاب قبل الدخول إلى كليّاتهم، مئات الجنود تغلغلوا في الشوارع القريبة، كسروا أغصان الأشجار بعصبيّة، أوقفوا الناس وصلبوهم على الجدران، حين اندلع صوت الرصاص في مناطق قريبة بدت حلب مدينة تحترق، سمحوا للنساء بالخروج، فسرت متمهّلة كأنّ الرصاص مقطوعة موسيقيّة أدمنت الاستماع إليها، الجنود يطلقون الرصاص في الهواء بهستيريا، يشبهون ضفادع تورّطت في دخول نفق أظلم فجأة ففقدت رشدها وضاعت في المتاهات.

وصلت إلى منزل حلقتي ولم أجد أحدًا، تابعت طريقي خائفة من كشف حلقتنا المفصولة عن باقي الحلقات، تابعة إلى قيادة الجماعة مباشرة، وصلت منهكة إلى غرفتي، ارتميت على السرير وغفوت، استيقظت فجراً، مريم جالسة إلى جواري تضع الكمادات على جبيني كي تخفِّف من حرارتي، أخبرتني أنّني هذيت بأسماء لا تعرف منها إلا أبي وحسام، نهضت بهدوء ولم أجد مكانًا مريحًا أكثر من جلوسي أمام فراشات مروة، شربت كأس الزهورات الساخن، تركتني مريم لوحدتي بعد أن غطتني بشال صوفي سميك، غصت بالمقعد الجلدي نفسه الذي كانت مروة تجلس فيه لساعات طويلة متأمِّلة الفراشات المصفوفة على الجدار، تأمّلتها طويلاً، استوقفتني الفراشة البيضاء المنقّطة بالأسود والبني، كنت أبحث عن سرّ صمت الضابط، أجيب عن تساؤلي الذي أرَّقني: أهي الفراشات أم ابتسامة مروة الهادئة وشفتاها الممتلئتان إغراءً كصدرها الكبير الذي لم تعد تكترث بستره كاملاً، كما نفعل نحن حين نخيط ثيابنا لنبدو كفقمات سوداوات لا تكشف عوراتها، كلّ جسدنا عورات، كل جزء فينا من أظافر القدمين حتى شعر الرأس، كادت الفراشات أن تسلبني قوّتي برقّتها وثباتها.

أنقذتني الدورة الشهريّة من هواجسي، أتت حادّة، ثقيلة وقبل يومين من موعدها، تفهَّمتني مريم واحتملت عصبيتي حين أصررت على الخروج مبكرة، اشتقت إلى الحجّة سعاد، أحتاج إلى قوتها، في طريقي إلى منزلها حاولت التقليل من خوفي، اشتريت مامونية وخبزًا ساخنًا كأرملة تتسوّق إفطار أطفالها، فوجئت بوجهها الشاحب وقلقها، أخبرتني

أنّنا خسرنا أكثر من عشرة مجاهدين في اليوم السابق، داهموا منزلاً في الحميديّة وقتلوا أربعة من خلية أبي النور كانوا يستعدّون للمغادرة بعد كشف مخبأهم في حي السكري بالمصادفة، فقتل ثلاثة من إخواننا بالإضافة إلى مستودع أسلحة كامل خلف سوق النحّاسين، أصبت بالفزع، سردت لي أسماء القتلى، كنت أسمع ببعضها وأحسست بأنّها لم تقل كل ما لديها من معلومات، سألتها بشكل مباشر عن حسام وبكر، فقالت لي «حسام جُرح واعتُقل»، أصبت بدوار وارتميت على الكنبة، أحسست بأنّ قلبي قد توقف عن الخفقان، مجرد تخيُّلي أنّ حسام سيواجه طرق التعذيب الوحشية بجسده النحيل يصيبني بالجنون. وحيدة الآن، ضعيفة إلى درجة أنّ هبّة ريح تقتلعني، لم أسمع صوت الحجّة سعاد تطلب منّي التماسك والصلاة من أجله وأجل الآلاف المحشورين في السجن الصحراوي وأقبية فروع المخابرات النتنة المثقلة بروائح الدم والبراز، منتظرين موتًا شبه محقّق، حذّرتني الحجّة سعاد من استهتاري وضعفي، لم أعد بحاجة لسماع أي شيء، قلت لنفسي أحتاج إلى الصمت فصمتت.

خرجت مروة للقاء نذير المنصوري ضابط سرايا الموت ولم أكترث، مريم حائرة، تضرب كفيها على ركبتيها كأنّها تنتظر كارثة، أحضرت سليم، الزبد يخرج من فمها، تنثر كلماتها القوية في وجه مروة التي ستدمّر سمعة العائلة كما قالت، سليم يسبّح بمسبحة ذات الـ ٩٩٩ حبة ويستغفر الله دون أن يرفع نظره في وجوهنا، اكتفى بترديد «ولا ترموا المحصنّات..» أكثر من مرّة، وجه مروة جامد، ببرود قالت «أحبه»، كل شيء تهاوى، تطايرت أحلامنا كنثار قش، صمتنا جميعًا

كأنّنا أموات، أحسسنا بحاجتنا إلى رجل يقودنا من يدنا إلى طوق نجاة لم نعد ندري من سيرميه لنا كي لا نتلاشى.

عمر استقر في بيروت، لم يعد يحتمل تقاسم الانتماء مع بكر الذي أصبح اسم عائلته شبهة تستوجب دفع الثمن القاسي، جلال ابن سليم عسكري الخدمة الإلزامية نُزعت أظافره في التحقيق، نُقل إلى قطعة عسكرية قرب مطار التنف في الصحراء حيث العقارب تتسلّق أعمدة الخيام، تستوطن مخازن البنادق الفارغة، يحكمها ضابط شبه مجنون يظنّ نفسه ستالين، يُخرج الجنود من خيامهم ويطالبهم بمدّ سكة حديد في الصحراء تصل إلى برلين، يضحك بهستيريا حين يراهم ينظرون إلى بعضهم بعضًا ويبدأون في رصف أحجار قليلة حصلوا عليها من أطراف المعسكر البعيدة حين أمرهم بالبحث عن الكمأة فقضوا ثلاثة أيام يفتشون الصحراء، ينكشون أعشابها بحثًا عن تلك الثمرة اللذيذة التي تنضجها الرعود وتكبر حرة في باطن الأرض، من لا يجد الكمأة عليه أن يملأ حقيبته بالحجارة، يجمع الكمأة كبيدر صغير ويبيعها في سوق الهال، كما يبيع الإجازات لجنود يحسُّون بأنّ الصبر هو الحل الوحيد كي لا يقتلوه ويفرُّوا عبر حدود العراق، بعد ستة أشهر عاد جلال في إجازة قصيرة ذابلاً، يتحدث كلمات متقطّعة لا تشكّل جملة، بكى في حضن أمه واصفًا آلامه حين يجعلهم ذلك الآمر يسيرون على الشوك لأنّ صوتهم كان ضعيفًا في ترديد نشيد الحزب، في أيام الصيف القائظ يدهن أجسادهم بالمربى ويتركهم ممدَّدين تحت الشمس مستمتعًا بحروقهم وإغماءاتهم المتكرِّرة، منتقمًا على طريقته الخاصّة ممن نفاه إلى هذا

المعسكر القاحل بعد تاريخ عسكري مشرّف، خاض خلاله حرب ١٩٧٣ بحماس كبير ولمع نجمه كضابط شجاع لا يهاب الموت، أعطب رتل دبابات إسرائيليّة في معركة شهيرة قرب سعسع واضطرّها للانسحاب. الوسام الذي عُلق على صدره لم يحمه من دسائس الضباط الذين خافوا من نجوميّته، اتّهموه في حصار تل الزعتر بتهريب الفلسطينيين من بوابة المخيّم الجنوبيّة ومنع ذبحهم، أعدّت له محاكمة عسكريّة على عجل، أذهلته التقارير المزوّرة وجعلته يعدِّد البيوت التي دمّرتها دباباته والقتلى الذين جعلهم أشلاءً، نصحه صديقه الذي كتب التقرير بأن يظهر ولاءً أكبر وتمنَّى له السعادة في تلك القطعة العسكريّة المنفية، لم يعد ذلك الضابط مولعًا بالبحوث العسكريّة حالمًا بتطوير دبابات T٦٢، قلّد ضباطًا يعرفهم، أظهر ولاءً صوتيّاً لا محدوداً، أقام علاقات قوية مع ضباط المخابرات، قدَّم لهم الهدايا، دعاهم إلى رحلات صيد مثيرة وترك لهم الغزلان التي يطردها عساكره أمامهم، يطلق طلقات طائشة بعيداً عنها كي يستمتعوا بمهارات لا يمتلكونها، يسألهم في نهاية الدعوة متى ينهون منفاه، يَعدونه، يقبِّلونه شاكرين له أفكاره المبتكرة لقضاء أيام عطل لا تُنسى، كاَن ترفيعه إلى رتبة عقيد بداية فأله من أنّ سنواته الثلاث في هذا المنفى ستنتهي تاركًا هؤلاء المشاغبين وقلقه الدائم من أن يتمادى أحدهم فيقتله. سليم نصح ابنه جلال بالصبر، لم يشاركه شتم بكر بل عاد إلى زاوية غرفته التي أعدت للقاء دراويش آخرين ما عادوا يأتون لتلاوة الأذكار خوف اتهامهم بالإرهاب، تفرّقوا ينشدون أذكارهم فرادى بعد أن نتف أحد ضبّاط سرايا الموت الكبار ذقن إمام الطريقة شعرة شعرة وهو يذكره بأنّهم لن يقتلوه كي يعرف رحمتهم، أغلب الدراويش حلقوا

ذقونهم، وجوههم لم تعد مباركة تشع نوراً إلهياً، اتّخذ جلال قراره وعاد محمَّلاً بالخمور إلى العقيد، بدا سلوكه الجدّيد غريبًا أول الأمر سرعان ما استقرّ في ذهن العقيد حين حدَّثه عن عمر الآبق صاحب الفضائح الشهيرة في حلب، شاتمًا بكر وتنظيمه، ممتنعًا عن الصلاة التي كان يمارسها سرآ، اعترف جلال لنفسه بأنّ مذاق الخمر جعل من ليل معسكر الأشغال الشّاقة بهيجًا، تذكَّر وجه عمر، أقسم أن يعيد سيرته ويتفوَّق عليه في مجونه، مستعيداً أسئلة الحياة والانتماء والدين مرّة أخرى، انفصل عن رفاقه المجندين في الخيمة، مقتربًا من العقيد الذي عيَّنه حاجبًا لديه، يُعدّ له المائدة من حسابه مستذكراً خبرات الطبخ الذي كانت أمّه تجيده، اكتشف هواية جدّيدة في هذا العراء، صمّ أذنيه لأول مرّة حين أسمعه رفاقه الجنود ما أشيع عن علاقة جنسيّة بينه وبين العقيد، وصفوا له وضعية جلوسه في حضنه وصوته الناعم المتأوّه، لم يستمع أحد إلى بكائه بعد الإجازات الكثيرة التي مُنحت له ليعود من حلب محمَّلاً بالفستق الحلبي وعلب الويسكي الفاخر والبسط والمرتديلا الحلبية، مستعيداً دروس سوق المدينة الذي تربى فيه منذ تركه المدرسة وعمره ثلاث عشرة سنة، ليتعلّم البراغماتية والانحناء أمام العاصفة مفكراً بأنّ مصيره متوقّف على الخروج من خدمة العلم غير مخبول أو حاقد على شركائه المقبلين الذين سيكون العقيد أهمهم، بدأ يروي له سيرته كصديقين في ليالي الشتاء الماطرة التي يخيِّم الصمت فيها على المعسكر فيبدو كمقبرة.

حاولت طوال الليل طرد صورة حسام وهو بين أيديهم، كفرخ بط صغير بين أنياب نمر جائع، فكَّرت بأنّ اعترافه قد يودي بكوارث للتنظيم

لا أحد يستطيع تخيُّلها أو حتى مجرد التفكير بها، مروة بقيت في أرض الحوش وحيدة رغم البرد الشديد، جالسة على كرسي قش كأنّها تنتظر حبيبها أو تفكر في مصيرها، مريم طلبت من رضوان بصرامة مراقبة الباب الذي أقفلته، وضعت المفتاح في عبِّها كي تستطيع النوم مطمئنة إلى أن الأسوار العالية والباب المقفول يمنعانها من الهروب إليه رغم طلب زهرة بترك مروة لها، فهي نديمة لياليها وحافظة أسرارها، غفت زهرة ولم تأتِ مروة إلى سريرها، في الصباح وجدناها نائمة على طرّاحة قطن مهملة قرب فراشاتها تحتضن نهديها، أصابعها زرقاء من شدة البرد، رضوان امتنع عن الخروج من غرفته متحاشيًا غضبنا وانفعالنا المفاجئ، وصفنا لرفاقه العميان بالنساء المجنونات اللواتي فقدن رغبة الضحك، تذكر صرامة جدّتي المهيبة، ساخرًا من مريم التي تقلّدها فتبدو كدمية تحطّمت مفاصلها بين أيدي أطفال مدلّلين، تمتمت مريم بكلمات غاضبة، لم تشفق على مروة المجمَّدة من البرد.

مع قهوة الصباح وبهدوء أخبرتهن باعتقال حسام، لم أترك لهن فرصة كي أرى الفزع في عيونهن، غادرت إلى الكلّية التي تعطّلت دروسها لتشييع جثمان الدكتور عبد الكريم الدالي الذي اعتبروه شهيدًا، سرت في الجنّازة متشفِّية وإن كانت سيرته لا تسمح بهذا التشفِّي، كنت بحاجة ماسّة إلى استعادة كراهيتي وسط هذه الجموع التي تهتف بموتنا، وراء تابوت محمول على أكف طلاّب وجوههم محتقنة، يشتمون قتلة أستاذهم الذي ترك انطباعًا محببًا لدى جميع من التقاه، حاولت البحث عن مبرر قتله، أقنعت نفسي ببيان جماعتنا إلا أنّني لم أتعاطف مع موته،

أصرّ الطلاّب على وداعه حتى بوابات حلب، ساروا صاعدين أتوستراد الفرقان، رأيت جيرانه يبكونه بحرقة. عُرف الدكتور عبد الكريم الدالي بكلماته اللاذعة بحقّ السلطة، خاصّة سرايا الموت التي وصفها بالفصيل الطائفي والنازي، كما وصف جماعتنا بالأوصاف نفسها، لم يخفِ امتعاضه من القسوة التي عوملت بها المدينة التي درس في جامعتها حين أتى من قريته القريبة من جبلة أواخر الستينات ليستأجر غرفة فقيرة في حي السريان، وينسج مع رفاقه الثلاثة قصة تفوُّق أغرت الباريسيين بتبني مشاريعهم التي لا تنتهي، إلا أنّه فضَّل العودة مع أدهم صديقه الحلبي تاركين رفيقيهما يعملان في مختبرات باريس السرّية ليصبحا فرنسيين يلثغان بالراء ويكتبان إلى العائدين ساخرين من عشقهما لحلب ووطنيتهما البلهاء، بعد سنوات بدأا يبثانهما حنينهما الدائم إلى أيام قلي البطاطا واقتسام صحون الفاصولياء في مطعم العجمي الذي يرتاده طلاّب عرب فقراء اختلطوا معهم، فلتوا كزعران في الشوارع منشدين قصائد وأغاني حلبية، مكدّسين ذكرياتهم الحارة، يصفون حلب بطريقة سرد فاتنة تجعل رفاقهم الأجانب يحلمون بزيارة الشوارع المثقلة برائحة أشجار السرو التي تختلط فيها أنفاس العرب والأكراد والتركمان والآشوريين والأرمن لتؤلف نفيراً واحداً، يصفون أبنيتها بدقّة وزخارف بوابات منازلها الحجرية، لا يقبلون مقارنتها بقينّا لتفوُّقها بسوقها الذي صمَّمه رجل وصفوه بالعبقري ليبقى أبداً شاهداً على تداخل الأشياء في فضائها، احتمل بصمت عرقلة مشاريعه العلمية والضغوط عليه كي ينتسب إلى الحزب، تحوَّل رفضه أول الأمر إلى سخرية، حين بدأت حلب تغرق في حمى القتل أعلن موقفه علانيّة أمام طلاّبه الذين حثّهم على رفض عسف

الطرفين، مهاجمًا استهتار الطلاب الحزبيين، واضطرت إدارة الجامعة لتسوية جعلت من محاضراته استثناءً لعدم سماحه بدخول الطلاّب المظليين بلباسهم العسكري وأسلحتهم إلى القاعة، لا يجرأون على مواجهته، امتنع عن تسليم أحد الطلاّب المطلوبين اليساريين، طرد دورية المخابرات من القاعة، مما أدّى إلى إفلات الطالب وهروبه من النوافذ الصغيرة، كادت سيرته أن تصبح أسطورة في الجامعة، وانتشرت في المدينة بعد رفضه الحماية التي اقترحها عليه أحد ضبّاط المخابرات ورفض مغادرة منزله المستأجر في حي باب الحديد المشهور بتعصبه. قلت يجب منع التعاطف، الكراهية هي سلاحنا الكبير التي تجعل الأغلبية تدافع عن طائفتها ضد الأقلية الحاكمة رغم أنّها تضمّ الكثير من المسؤولين الذين بنوا النظام منتمين إلى الأكثرية وأياديهم ملطّخة بالفساد والدم، لم أقترب من السيارة التي وُضع فيها النعش، الطلاّب يبكونه كأب وأخ وصديق متذكرين روعة محاضراته التي كانت لا تخلو من مرح وحرية، تشجّع على السفور ونبذ الطائفية التي هي في النهاية ـ كما يقول ـ العفن الذي سيقودنا لخنق أرواحنا، ممتدحًا الفيزياء التي يعشقها والتي ترشدنا برأيه إلى التفكير العلمي الذي نحتاجه، عُرف عنه وجوده مع طلاّبه في المسارح ودور السينما وبعد التخرج احتفظ الكثيرون منهم بصداقته، كانت تأتيه رسائلهم من كل دول العالم تستشيره في الكثير من مسائل الحب والبحوث بالإضافة إلى دعوته لأعراسهم.

نظرت إلى صورته التي رفعها طلابه أمام النعش، تأمّلت عينيه العسليتين، أشحت بنظري كي لا أقع في غرام ميت آخر اعتبرته عدواً

لي، ابتعدت عن الحشد، سرت بمفردي باكيةً على حسام وخائفة على مصيري، عدت لمنزل حلقتي ووجدته مغلقًا أيضًا، ارتبكت وتابعت طريقي مسرعة، أحسست بالخوف من اكتشافه، لم أجرؤ على استخدام مفتاحي، فالأباجورات المغلقة كانت إشارة بيننا للخطر وعدم الاقتراب، قلت للحجّة سعاد أريد معرفة مصير منزل حلقتي، لم تجبني، أمرتني بالبقاء بعيدًا عن أي نشاط أو اجتماع حاليًا وأسرَّت إليَّ رغبة بكر بابتعادي عن التنظيم، وسفري إلى بيروت كي أكون قريبة من أمي التي انهارت حين رأت حسام في المنام معلّقًا بست مشانق دفعة واحدة، كذّبت الحجّة سعاد عليّ، لم تقل لي إنّ حسام قد اعتُقِل بعد لقائي معه بيومين في اشتباك باب الأحمر الذي رواه سكّان الحي برعب يقترب من الخرافة، عن أربعة شبّان صغار كانوا ينصبون كمينًا لسيّارة ضابط كبير في سرايا الموت يرتاد منزل صديقه الحلبي أحيانًا، استهتارهم في منطقة يعتبرونها موالية لهم بالكامل جعلت أمر تطويقهم في غاية السهولة، هرب حسام عبر المنازل والأسطحة إلى مقبرة باب الحديد المعلّقة، بعد ساعتين نفدت ذخيرته القليلة، استسلم بعد أن جرح في صدره وفقد الوعي تمامًا.

ذهبت إلى المقبرة القريبة راكضة أبحث عن نقاط دمه التي جُبِلت مع التراب، جلست قرب شواهد قبور غريبة، وصف لي الحارس فزع حسام ومحاولته قتل نفسه كي لا يقع في أيديهم، أشار إلى شاهدة قبر شظاها الرصاص استسلم حسام قربها، كان دمه متناثرًا على قطعة منها، حملتها معي كأيقونة حرصت عليها، وضعتها على طاولتي، أحطتها بتقديس يليق بها، حذَّرت الجميع من لمسها دون إخبارهم أنّ دم حسام في بيتنا، في

المشفى العسكري تمدَّد حسام على سريره مكبَّل اليدين، يحرسه أربعة عناصر مخابرات وأياديهم على زناد بنادقهم، حاول قتل نفسه مرة أخرى، منعه الأطباء وتركوه مخدّرًا سبعة أيام، رفاقه لم يستطيعوا التسلل إلى غرفته المعزولة، يئسوا بعد ترحيله إلى فرع المخابرات العسكرية لتبدأ رحلته مع السياط ورعب التعذيب الوحشي لانتزاع اعترافاته والكثير من الأسرار التي يعرفها عن بكر ومستودعات الأسلحة ورجال القيادة العصيين، تبدّوا في صور غامضة كأنّهم طيور أو خلدان تحفر الأرض وتختفي رغم عماها.

أعياد ميلاد عام ١٩٨١ مضت، مسيحيو حلب قرعوا أجراس كنائسهم باستحياء وبصمت صلّوا، حلب أصبحت مدينة المآتم، في كل زاوية تنتشر رائحة الموت، مُنع التجول ليلاً وحوصرت المدينة، منع الدخول إليها والخروج منها لخمسة عشر يومًا، كانت كافية لتفتش كل بيوتها، لم يُترك درج خزانة لم يفتح، استباح أسرارها أربعون ألف جندي من سرايا الموت والقوات الخاصّة بالإضافة إلى الفرقة العسكرية الكاملة التي تحاصرها من كل الأطراف، سئم سكّان قصر المهاجرين الرئاسي في العاصمة، اقترب الخطر كثيرًا من رئيس الجمهورية، بدا وجهه في التلفزيون متعبًا، يخطب بحماس في جموع حزبه كل يوم، طلب من قادته العسكريين حسم هذه المعركة التي لم يكن يظنّ أحد أنّها ستكون قويّة إلى هذه الدرجة، اشتعال المدن الأخرى يرعبهم، حماة المدينة الصغيرة أصبحت ساحة حرب لم تتوقّف، كانت تحلم باستعادة زعامة طائفتنا، ترفع القرآن فوق السيف، مغاورها وبيوتها القديمة، بساتينها وضفاف نهرها حوصرت أيضًا، الحمويون يحصون موتاهم، لم يعودوا للتنزه في سهوب الغاب وجبال مصياف أيام العطل.

الحصار فرصة لترتيب منزلنا قلت لنفسي، لتأمل كل ما حولي، أصبحت كسولة أغرق في النوم حتى الظهيرة، فكَّرت بأمي التي قرَّرنا إخفاء خبر اعتقال حسام عنها، الجنود فتّشوا منزلنا ثلاث مرات، اعتدنا عليهم، يفتح لهم رضوان الباب ويقودهم إلى الغرف يقلِّبون الأسرَّة، يجسُّون بأياديهم صوف الفرش ويفتحون الخزائن، يقلِّبون ثيابنا وصورنا وينزلون إلى قبو المؤونة، يفتحون أكياس البرغل والفريكة والعدس المجروش، تفوح رائحة الخل قوية حين يصرُّون على فتح قطرميزات المخلّل ثم يخرجون لنعود إلى عزلتنا، نساء حزينات، وحيدات فقدن أمانهن ولذّة العيش، حركتنا في أرض الحوش منفصلات تنذر بكوارث أكبر، انتظارها يثقل أرواحنا ويشدّنا إلى تلمُّس أجسادنا المعطوبة التي تخلَّت عن الانفلات في فضاء الحمَّام وسط رغوة الصابون المعطّر الفوّاح فأصبحت قديدًا يابسًا، ذات مرّة قلت لزهرة أصبحنا قبيحات، لم ترد زهرة، بقيت تنتظر أمها التي أجَّلت سفرها، مريم تتثاقل وتنقّي العدس، للمرة الرابعة مريم تطلب من رضوان أن يقلب كيس العدس على شادر ممدود في القبو، تنقّي العدس وتراقب مروة الجالسة أمام فراشاتها صامتة.

خرجتُ في اليوم العاشر للحصار، كأنّي لا أعرف حلب، أصوات الرصاص وقذائف الهاون في الليالي لم ينقطع، آثار الدمار في بيوت باب النصر وباب الحديد والجلوم، استعجلتني الحجّة سعاد بالرحيل وطلبت منّي الامتناع عن زيارتها، الأمور ليست على ما يُرام، المعركة النهائيَّة التي كنّا ننتظرها مع الحصار شرّدت القيادة وعادت الخلافات حادّة حول النفير العام، أكملت طريقي إلى الكلّيّة المهجورة، فكَّرت بمصير الجثث

والضفادع وفئران المخابر التي تنتظر التشريح غارقة في الكلوروفورم، ذلك الضب الحزين الذي ارتجفت يداي وأنا أشقّ بطنه لأستخرج أحشاءه وأطفئ عينيه للأبد، انتزعت فخذيه بقسوة وبحثت عن الدم الذي غطى أحلامي الأخيرة، أتاني حسام حاملاً كفنه يلوّح به ضاحكًا، استيقظت خائفةً، أخرجت كتبه وأعدت تقليبها، تمعّنت بخطه الهادئ وعباراته قوية تمجّد شهداء لا يغتسلون كي يشهد عليهم دمهم، تكرّر الحلم وازداد فزعي مع استحالة معرفة مصيره، اتّسعت الصورة، حسام ضمن حشد أعرف أغلب وجوهه التي كانت مسطّحة بدون ملامح، همهماتهم تتعالى بنشيد غير مفهوم المعاني يشبه تراتيل السريانيين القدماء، تموت الدلالات في أحلامي وتصبح لغزًا لا يمكن السيطرة عليه، غابت طيور السنونو ومروج الجنة، تغلغل الحصار في جلودنا، نشمّ روائح الجنود، نجلس قرب النافورة الصامتة نتبادل النظرات، ونحاول جميعنا اختلاق ذكريات باهتة، يبدِّدها خوفنا ويحيلنا إلى كائنات تشبه السحليات، أدّعي الشجاعة وأخرج من غرفة مريم كي أستمتع بضوء القمر الذي يطلّ من بين الغيوم كئيبًا غير مكترث بالمدينة الصامتة وليالي منع التجوُّل فيها، التي شبّهها بالجنّة الموؤودة شاعر عُرف بميوله اللوطية، أصرّ على الاحتفال بعيد ميلاده الستين على الأدراج الخارجيّة للقلعة مع أصدقائه وعشيقه الذي التقطه ذات يوم من مركز الميرا حيث يعمل حمّالاً، غازله جهرًا بقصيدة شاعت لقوّة تعابيرها، فرجمته المدينة التي خلّد آلامها بنشيد طويل من البحر الكامل مقلّدًا المعلقات العشر، استهلّها بوصف تاريخي، نادبًا أيام الحمدانيين معرِّجًا على وصف كتفي حبيبه العريضين وفحولته، مشبّهًا جنود سرايا الموت بمصّاصي الدماء والمدينة برقبة غلام هارب من بلاط

هارون الرشيد بثياب عباسية شفّافة أتقن أحد خيّاطي قسطل الحرامي صنعها لزبائن محدودين، كان الشاعر أبرزهم وأكرمهم في سبيل إرضاء حبيبه الذي نسي صحون شوربة العدس وملمس «الغمزوية» الخشن، منتشيًا بالاسترخاء في المنزل الواسع ذي الشبابيك الزرقاء كزوج عاطل عن العمل ومترف، شاعت أبيات القصيدة بين الناس الذين لم يعودوا لرجمه بالحجارة حين يعبر بأناقته وخطاه النسائيّة من أمام مقاهي الرجال في باب الفرج، الذين ينتظرون ساعات طويلة خدم المطاعم المجاورة كي يأتوهم بصحون اللحمة المغشوشة كي يوبّخوهم بصوت عال سرعان ما يختفي عند مرور جنود دوريات راجلة يتفحّصون الجميع وأياديهم على أزندة رشاشاتهم خائفين.

أتجاهل مروة التي جدلت شعرها بملاقط على شكل فراشات ملوّنة، مستهترة بغطاء الرأس المحتشم، تدخّن جهرًا، تجلس في غرفتها قرب النافذة وتراقب السماء، تنتظرها أن تمطر فراشات كالتي علّقتها على جدار القبو فغطّته، وظلّلت سريرها الذي نقلته إلى تلك الزاوية الرطبة قرب قلائد الباميا وأكياس اللوبياء والبندورة المجفّفة مبلّلة بدموعها مخدة الصوف التي غلّفتها بعناية بوجه مطرّز بخيوط صوف على الطريقة اليزيديّة التي تحتفي بأئمة لالش حفَظة النصوص، كنّا نكفّر أصحابها رغم إقامة صلواتهم في الظلام وبصمت في قرى عفرين البعيدة.

مروة لا تبتسم إلاّ بحضور زهرة التي تغطّي ولديها، تفصفصان البزر المقلي مضطجعتين على السرير، أتمنّى اقترابي منهما ومشاركتهما الثرثرة التي اشتقت إليها بعد انقطاع الاتصال مع بنات مجموعتي مما زاد

من عزلتي وأحسست بأنّه لا قيمة لانفعالاتي، خائفة من النوم وحيدة، غير راغبة بتحطيم صورتي كمجاهدة قويّة لا تكترث بتفاهات حياة لا تليق بي، حسام كان حاضراً في كل تفاصيلها، تندبه مريم فتبكي مروة وزهرة، تتحجَّر الدموع في قلبي لتنفجر في سريري، فقدتُ رغبة رسم أحلامي كما فقدتُ أشياء كثيرة كانت تجلب لي السعادة، كقراءة الكتب أو التعاطف مع رضوان حين أحسّ به وحيدًا، نادمًا على حراسته لنساء لا يقدِّرن وجود رجل بمواهب غريبة وكثير المرح بينهن، بحثت عن الحجّة سعاد، وجدتها بعد ثلاثة أيام ترتجف خوفًا جالسة في ثياب الصلاة، الأخبار القادمة من حماة حول العصيان الذي بدأ يثير الخوف من قسوة القتل وتدمير المدينة الصغيرة، اقتربت المعركة من نهايتها، اعتقدنا أنّ شبابنا سيخوضونها لسنوات، عائلات قليلة استطاعت الهرب نحو البادية، وصُفَّت جثث قتلى في الشوارع لا تجد من يدفنها، النفير العام الذي دعت له أصوات مؤذنين منهكين كان إعلانًا حاسمًا لمعركة انتظرها الجميع، اختلط المقاتلون بالناس الذين أخرجوا أسلحتهم من آبار المنازل المهجورة والمخابئ كي يدافعوا عن حياتهم ضد هذا الرصاص المجنون الذي لم يعد يعرف أحد مصدره، آلاف الجنود قرأوا الفاتحة على أرواحهم، اندفعوا في مدينة صغيرة ضيِّقة الشوارع ومحاصرة بمئات الدبابات تمنع خروج الطير وتخنقه، ستروي الأجيال القادمة أن ما حدث جنون كان من الممكن تجنُّبه لتمنح فرصة الحياة لأطفال يعشقون القفز إلى نهر العاصي من فوق النواعير الخشبيّة، التي كان صوتها هو الحقيقة الوحيدة لحنين دائم إلى حزن لم يعد يسأل أحد عن سببه، الأمهات الثكالى أقسمن أن لا يخلعن ثيابهن السوداء، سيبقين في حداد دائم إلى

موت القتلة، كثيرات مزّقن ثيابهن في حالة هذيان، خرجن إلى الشوارع شبه عاريات يندبن المدينة وأبناءهن بقصائد رثاء تبكي الصخر، كما قالت «خديجة المفتي» التي استطاعت الهرب بمساعدة ضابط مظلي كان يبكي ويدوس رتبته العسكريّة بحذائه قبل أن يقتله رفاقه، الذين خافوا أن يقتلهم في الليل حين يعودون للتزوُّد بالذخائر، صمتنا أنا والحجّة سعاد، نستمع إلى خديجة، انتظرنا أن تنهي بكاءها الذي لم تنهه كلماتنا المواسية، وقفتْ وأعلنت انسحابها من الجماعة، في الصباح لملمت ثيابها القليلة في صرةً واختفت كقطعة ملح رُميت في نهر جارف.

مروة لم تكترث لحماسي بحرق كلّ بيوت الطائفة الأخرى، ضحكت بسخرية وخرجت من المنزل دون أن تلتفت لتسمع رجاءات مريم التي فقدت السيطرة حتى على مفاتيح المنزل، حاولت إقناع رضوان بحراستها، استكانت وجلست على درج غرفتها، صمتت كمومياء تنتظر الدفن في قفص زجاجي تفوح منه رائحة الكحول. عادت مروة مساءً مبتهجة، تردِّد بصوت عال مقطعًا من أغنية «يا مسهرني» لأم كلثوم، أغلقت باب القبو، أطفأت الضَوء ونامت مع فراشاتها، زهرة أقنعت مريم بتأجيل حسابها حتى الصباح، خرجت مرة أخرى تاركةً الباب وراءها مفتوحًا وفراشها لم يرتّب، بعد صلاة العشاء جلست على الكنبة وقالت بهدوء بأنّها رأت حبيبها وبأنهما سيتزوجان، ثم نهضت، التفتت إلينا وقالت «سأترك لكنّ الجنّة» وأضافت «أحب جهنم».

كلّ شيء انهار فجأة، المصيبة أكبر من أن تحتملها نساء عاجزات، أصبح رجالهن مشاريع موتى، لا يهمّ كثيراً إن كانوا شهداء أو جيفًا يحوم

حول أنوفها الذباب، زهرة تحدّثت بهدوء الليل بأكمله مع مروة التي بالغت في توصيف رائحة يديه وصدره، وبجرأة أكبر أسهبت في التغزُّل بفحولته التي أعادت إلى جسدها طعمًا اعتقدت نسيانه للأبد، اهتمّت بإعادة الرشاقة إلى جسدها الذي استعاد حيويّته، أصبحت حركتها في أرض الحوش مثيرة ومغناجة، تسير بدلال وتنظر إلى ساعتها مرات كثيرة كأنّها على موعد عاجل، تكرَّر خروجها المباغت وحيدة غير مهتمّة بخوفنا وسمعتنا، ينتظرها نذير المنصوري أمام دوار باب الحديد، بجرأة تصعد إلى سيارته لتنطلق إلى منزل مجهول أعدَّ فيه سرير على عجل لقضاء وقت قصير ولذة عابرة، زهرة كانت تنتظِر المصيبة، استسلمت بصمت، متشاغلة عنا جميعًا بالحديث عن زيارة أمها التي أُجِّلت أكثر من مرة، مريم استنجدت برجال غائبين وانفجر غضبها لحظة دخول مروة متهتّكة وشبه مخمورة تغني كأيّة فتاة بار رخيصة، خلعت حذاءها وسارت على البلاط حافية، خلعت مانطوها وغطاء رأسها الأسود وبقيت في فستان شفاف يبرز كل أعضائها، النهدين بحلمتيهما النابقتين كحبتي كرز، العجيزة المدورة، البطن الناعم، والساقين المسكوبتين، منتوفتي الشعر ولامعتين، كراقصة في استعراض داعر أربكنا، أحسست بأنّ كل شيء يتهدَّم، كرهت عجزي، تمنَّيت مغادرة هذا الخواء والفراغ العاصف الذي زادته أمطار تلك الليلة قوّة ووحشة، فكّرت بالكتابة إلى بكر، قدَّرت أنّه قد يكون مقتولاً أو معتقلاً وإن كان حيّاً لا يهمّ سوى الحفاظ على حياته، آلاف الشباب اعتقلوا، رفاق في الجماعة، أصدقاء متعاطفون، أناس لاعلاقة لهم، فتحت سجون جدّيدة وأصبحنا شبهة، العلاقة معنا قد تكلِّف الشخص حياته، زهرة تدخَّلت بقسوة، صفعت مروة ثم اقتادتها

إلى غرفتها، احتضنتها لتبكي على صدرها كأنّهما تمثّلان مشهداً سينمائياً متقنًا، استمعت إلى هواجسها وهي تردّد بأنّها تحبه حتى لو ذُبحت بالسكّين، لا تستطيع فراقه، مريم لم تنم، أعادت قراءة سورة يوسف عشر مرّات، صلّت الفجر خمس مرّات وغرقت في سكون غريب، لم تنهض لاستقبال ثلاثة شبّان رأيتهم يدخلون وراء رضوان ويتفحّصون ساعة الكهرباء ثم يطلبون مقابلة مريم على انفراد لترشدهم بعد كلمات قليلة إلى مروة التي لم تستيقظ بعد، طلبت من زهرة عدم التدخُّل، عرفت أنّهم رسل بكر لإيقاف هذه المهزلة التي كادت أن تدمّر سمعتنا، حملها شابان والثالث وقف بجانب الباب مشهراً سلاحه، بحركة سريعة أغلقا فمها ثم ربطاها إلى رجل سريرها، الذي تزوّجت عليه جدّتي وذاقت متع الهوى قبل أن تستبدله بسرير نحاسي ورثته مريم لروعة زخرفته بأشكال نبات مكرّرة وتعاويذ ما شاء اللّه المكررة بخط كوفي متقن، رُبطت مروة بالسلاسل من قدمها إلى السرير، شتمتهم وبكت حين أخبرها أحد الشابين أنّ عشيقها نذير المنصوري اغتيل صباح هذا اليوم، أضافوا أن من سيفكُّ هذه السلاسل أقسم بكر أن يقتله بألف طلقة، غادروا بسرعة، أحدهم قبّل يد مريم الراضية، تاركة مروة تجرّ بهياج سلاسلها التي صمّمها بكر بما يسمح بوصولها إلى الحمّام للاغتسال وقضاء حاجاتها والجلوس قرب النافذة كسجينة، خطر لي بأنّها لن ترى القمر من نافذتها الصغيرة التي يظلّلها سقف التراس المطلّ على الغرفة العلوية، وتحجب شجرة الليمون التي لم نعد ننتظر ثمارها كي نقتسمها بما يوحي بخفّة سعادة اكتشفنا وهمها ولا نستطيع تصديق أنّ كلّ ما يحدث من الممكن تخيُّله.

في سريرتنا حسدنا صفاء لخلاصها من اكتئاب منزلنا الذي أصبح يشبه قارورة خل، قاومت مروة، اعتقدتها ستحطِّم سلاسل الحديد، ثم همدت فجأةً كلبوة انتُزعت منها البراري وألفت عبث الأطفال في حديقة حيوان، امتنعت عن التحدُّث إلى مريم أو حتى الردّ عليها بتحية الصباح، أصبحنا غير موجودين بالنسبة إليها، أحسست بنظرات احتقارها تنفذ إلى جسدي كسهام حارة، تربكني وأحاول الدخول إلى دائرة أحلامها. ثلاثة أيام فتحت المدينة أبوابها ثكلى، بعد الحصار انسحبت الدبابات إلى حقول الفستق، الحزن والخوف في عيون الناس الذين اعتادوا خفض رؤوسهم أذلأَء كدجاج لا يهمُّه إلا العودة إلى قنِّه آخر الليل سالمًا، عبث الرصاص جعل رجالها مجوَّفين بلا أحلام، فقد تنظيمنا الاتصال فيما بينه، أصبحت اجتماعات رجال القيادة مختصرة، سريعة، غير مؤكّدة، يعلو فيها تبادل الاتهامات ولا يستطيع أحد أن ينظر في عيني الآخر برضى، كما كانوا يفعلون قبل عام حين كانت لحظات اقترابهم من أدراج القصر الجمهوري مؤكَّدة.

آلاف الجثث تبخَّرت في هواء حماة مشبّعة برائحة النهر، قوائم آلاف المعتقلين المرمية على طاولة الاجتماع أحبطت قادتنا، نهض بكر وأعلن انسحابه من القيادة، غادر فورًا بجواز سفر مزوَّر إلى الأردن ومنها إلى لندن التي وصلها ليلاً، وسط ضبابها أراد السير بهدوء على جسر بيركلي والبكاء على ضفاف نهر التيمز، كأيّ رجل لا يريد الالتفات إلى الوراء كي لا يتذكّر مئات الشباب الصغار يقسمون على القرآن ويخرجون للبحث عن دروب الجنة والموت المحقَّق.

اشتاقت مروة لفراشاتها، أعادت بهدوء ترتيبهم في غرفتها، يظنّ من يراها أنّها أحبت قيودها وبحركة مرحة أثارت مريم طلبت من رضوان إحضار ألوان أكريليك، بدأت تلوّنهم، تضحك زهرة من تعليقاتها على رسوم أثارت شوقي لصورتي القديمة حين كنت لا أمتدح الكراهية وأرسم أحلامي بخبث طفولي، اقتربت منّي مروة، جلست قربها، حدّثتها عن جمال شفتيها وفراشاتها وشوقي لأخوالي، كأيّة فتاة مطيعة ومتعاطفة مع حالتها، حاولت فكّ قيودها لم أستطع، مروة غير مكترثة كأنّها لا تسمعني، تكمل تلوين زهرة عباد شمس على قيد معصمها، مبتهجة باللّون الأصفر الغامق وبالتفاصيل غير المتقنة كرسوم أطفال في انفلاشها خارج المعنى المقصود. أصبحتُ أتلفّتُ خائفةً حين أسير في الشوارع بعد اختفاء الحجّة سعاد وانكشاف أمر مجموعتنا، اقتربت من هناء حين رأيتها خارجة من مختبر الكيمياء فتجاهلتني تمامًا، كأنّها تقول لي ابتعدي عنّي لا أعرفك ثم اقتربت منّي وأخبرتني باعتقال عليا والبحث عن الحجّة سعاد، أحسست بسخونة القيود في يدي، لم أستطع الاتصال مع أي شخص يوصل رسالة لبكر، بقيت وحيدة، أخرج صباحًا من المنزل، أسير في الشوارع مجلّلة بالسواد، مطرودة كسمكة سعت إلى الشاطئ وحين وصلت لم تعد تستطيع العودة إلى حنان الأشنيات وأعشاب البحر، تركت الكلّية وأنّبتُ نفسي على استهتاري برائحة المريول الأبيض الذي أبهج أمي وخالاتي حين ارتديته لأول مرّة وخرجت من الغرفة فاردة ذراعيّ متخذة هيئة طبيبة، أمسكت بيد أمي لأفحص نبضها بحركة مبالغ في دلالها مما أثار ضحكات كنّا نحتاجها كي نؤمن أنّ ما هو قادم ليس شديد السواد كثيابنا.

الجميع انشغل بوصال التي وصلت متأخرة إلى حلب، زهرة احتضنتها بحرارة ابنة تحتاج إلى أمها التائبة، وصال ارتدت فستانًا طويلاً محتشمًا وغطاء رأس شرقي، أنيقة وجادّة في توبتها وسعيها المحموم للذهاب إلى مكة، احتفلت مريم بضيفتنا بتثاقل أول الأمر ثم بحماس، بدأت الروح تعود إلى منزلنا، حركة وضحكات وروائح طعام منبعث من المطبخ، قيود مروة أثارت وصال، طلبت لها المغفرة التي لم تأت من أحد حتى من عمر الذي أتى كعابر سبيل ثم عاد مسرعًا إلى بيروت ومنها إلى بلدان أخرى، فقدنا أثره، أصبح متوجّسًا وخائفًا من الموت، أغلق الدكاكين وأخبرنا أنّ أبي غرق في شرب الخمر وصيد السمك والصمت.

وصال فخورة بزهرة، بقوّتها وإيمانها العميق بأنّ الله الذي يسكن قلبها يطرد الخوف وخفافيش الليل عن حياتها، المرأتان استرختا في جلسات كثيرة، تعاتبتا وضحكتا ثم خرجتا إلى الأسواق برفقة مريم ورضوان، متجاهلتين وجودي وطلبي بعدم استقبال امرأة داعرة في منزلنا. صرخت مريم بعنف في وجهي أن أخاف الله وألتفت كي أرى القبح داخلي، تلك الليلة أحسست بأنّني متقيحة، أحتاج إلى الجلوس وحيدة والبكاء على صورتي الضائعة كفتاة تحبّ الحياة والتسامح، سمعت مريم نشيجي العالي واحتضنتني بمودة أم، فكّرت كم أنا بحاجة إلى التعاطف، اصطحبتني إلى الحمّام، تركنا مروة مكبّلة دون أي إحساس بالذنب أو الشفقة بعد أن استفسرت عن نذير من جنود سرايا الموت الذين ما زالوا يداهمون منزلنا باستمرار، يقلّبون الأشياء ويذهبون كعابرين في محطة قطار مهجورة، ابتسمت مروة حين أخبروها أنّ نذير لم يمت

وجروحه ليست خطرة، طلبت منهم إيصال رسالتها إليه بأنّها مقيدة بسبب عشقهما، تحمَّس الضابط الصغير الذي فوجئ بامرأة محاطة بالفراشات المحنَّطة ومقيَّدة بسلاسل إلى سرير حديدي ثقيل لا يمكن لجاموس أن يحرِّكه من مكانه، بعد يومين عاد إلى منزلنا مع جنديين ودخل مباشرةً إلى غرفة مروة، أعطاها رسالة مختومة وخرج دون أن يعيد السؤال الغبي نفسه عمّا يحتويه البئر المهجور والمغلق بغطاء حديدي خوف تسرُّب العقارب والأفاعي من شقوقه، نظر إليها باحترام وصافحها بقوة تليق بزوجة ضابط أعلى رتبة منه ويحظى بدلال القائد، لم نستطع انتزاع الرسالة منها، زهرة الوحيدة التي تعرف كلّ شيء وتحفظ أسرار صديقتها، متجاهلة أسئلة مريم ومتحدِّثة بحماس عن اقتراح اصطحاب وصال إلى الحمَّام.

عرفت لأول مرة ماذا يعني أن تكون الأنثى فاتنة إلى درجة تجعل النساء يعبرن أمام مقصورتنا ليتجسّسن على النهد الذابل، يتخيّلن شكله قبل أربعين عامًا حين كان يشبه ثمار الجنّة، دلكت وصال جسد مريم بخبرة امرأة عبرها رجال كثيرون وتأوّهت بين أيديهم، أيقظت جسدها الميت، غافية كأنّها تستذكر ابن السمرقندي وتشتهيه، تتخيَّل يديه وصدره، نادمة على عمر ضاع، الماء الساخن ورائحة الغار جعلت من وصال امرأة تستعيد سيرتها وتلقي بكلمات إنكليزيّة فاحشة كنت أفهمها، أبتسم محاولةً جذب اهتمامها والتقرُّب مرة أخرى من زهرة التي لم تعلّق على الحبوب القليلة النافرة كدمامل في جسدي، تمنعني من التعرِّي أمام النساء خوف سخريتهن رغم روعة نهديَّ الصلبين اللذين منعت تفتحهما بقسوة الحمالات المصنوعة من قماش جاف وخشن يليق بعجائز، استغربنا أريحيتنا، لم نتبادل النظرات كي

لا نكتشف أنّ استرخاءنا عابر فيفسد ضحكاتنا التي أسرفنا فيها بشكل متعمَّد، حاولنا تناسي الكابوس، مستعيدات أمجاداً لم نكن نعرف وقتها كم هي ضرورية لاستمرارنا في العيش وتعاطي تفاهات الحياة، مشوارنا كنساء يقودهن أعمى مساء كل خميس أصبح الآن مستحيلاً، القيام به يستدعي الاحتفال، تحلُّقنا جميعًا حول طاولة الغداء يوم الجمعة أصبح معجزة لا نعرف متى ستعود كما هو نومنا في أسرّتنا هانئين، خرجت من المقصورة أبحث عن خطوات الطفلة التي كنت والأروقة التي ضعت فيها، لم ألحظ هناء حين اقتربت مني وهمست بضرورة اجتماعنا محدِّدة المكان والزمان بدقّة مع تحذير من الغياب، غادرتني فبدونا كامرأتين تتبادلان شفرات الحلاقة لإزالة الشعر الزائد، كدت أختنق وغرقت في بخار الماء الساخن، لا أريد لأحد أن يرى رعبي من قضبان السجن الذي بدأت أحسّ طعم عفونته تحت لسانيَ كحقيقة، أتخيَّل طعم الأصفاد وأتذكر مروة التي قضيت ليلة بجانبها وطلبت منّي بحزم المغادرة وتركها لانتظارها، راقبتها واعتقدت للحظة أنّها تآلفت مع قيودها، لم يعد طعم الجنزير الصدئ يزعجها، تسير ببطء في غرفتها وتمعن النظر بالسماء من النافذة، في الأيام المقمرة تجلس لساعات طويلة تراقب عبور القمر كسفينة شراعية بيضاء تمخر الأفق، صمتها إعلان احتقار لنا نحسّ به حين نسمع ضحكاتها تتعالى مع وصال التي أحبتها وشاركتها غرفتها، تغني لها في الليل أغاني «Frank Sinatra»، تطلب منها إعادة «If you go away» بعد أن ترجمتها لها، توقفت طويلاً عند مقطع حفظته عن ظهر قلب مما جعل وصال تفرط ضحكًا وهي تمط الأحرف لتبدو مرحة كأرنبة.

وصال تستمع جيِّدًا، تتكلَّم بتهذيب امرأة لا تريد إفساد حياة ابنتها ولا تريد رفع الكلفة معنا، سرعان ما اندمجت في أحلامنا ورغباتنا، بدأت تروي لمريم سيرتها محاولةً رسم صورة امرأة مظلومة، وحيدة، اشتهاها آلاف الرجال من خان قرطبة إلى لندن ونيويورك التي وصلتها على ظهر باخرة شحن مرافقة لأحد البحّارة الإسبان، جعلتها عيناه الذابلتان تصدّقه أنّه يبحث عنها منذ ألف عام، بكاؤه أمام باب منزلها مرة وانحناؤه على قدميها يقبلهما أيقظا أحلامها المجنونة بالتشرُّد على شواطئ الأطلنطي، والعيش مع رجل يعيد لها طعم أيامها الأولى مع خليل الذي اعترفت بأنّها أحبته وبكته في ليالي حرمانها الطويلة من زهرة، حين بدأت تصلها الرسائل فيما بعد أيقنت أنّها خسرت حلمها بمنزل دافئ تقضي فيه شيخوختها وسط ضجيج حفيديها اللذين ألفاها، لم يعودا يبكيان حين تقترب منهما، تداعبهما وتمسح مخاطهما، تأملاها بغرابة، حين وصلتْ إلى بيت جدّي فتحت حقائبها ووزّعت هداياها كأيّة جدّة عائدة من سفر بعيد، كانت بحاجة إلى إخراج ألبوم صورها المخملي مشيرة إلى صور أمهما حين كانت طفلة، كي يعرفا أنّها جدّتهما وليست امرأة عابرة في حياتهما، تبادلا نظرات طويلة مع زهرة واندفعا بعد وقت قصير نحوها بطيش أسعدها، أصبحت حصانًا يركبانه وهرّة تموء وتلحس أقدامهما، تجلسهما بجانبها إلى المائدة، تعلّمهما الإمساك بالشوكة والسكين بطريقة مترفعة وتناول الطعام ببرود على الطريقة الإنكليزيّة، أثار إصرارها على ارتدائهما ربطة العنق وقبولهما السريع لرسن الحصان كما أسموها استغراب مريم التي أحسَّت بغيرة من قدرة وصال على جعل حفيديها ينشدان وراءها ككورس أغانٍ إنكليزيّة، أحسَّت بخطر تفاهمها مع زهرة

على إنقاذ الولدين من هذا الجحيم، وتأمين مستقبلهما بعيداً عن رائحة الموت التي هطلت فوق المدينة كمطر لا يريد التوقُّف إلا بعد إغراقها.

زهرة يائسة، استسلمت لأحلام راودتها بطيشٍ مختلف، استيقظت فيها رغبة ترتيب حياتها من جديد بعيداً عن بكر وطموحاته التي صدّقتها ذات يوم حين كانت تضطجع بجانبه على السرير بعد صبابات محمومة جعلت منها امرأة صامتة، تستمع إلى صوته الهامس حين يتحدّث بثقة عن دولة الإسلام المقبلة حيث كل شيء سينضح طهراً ويشعشع كبلّلور، الإثنان تراءت لهما الأحلام قريبة إلى درجة أن رائحتها قد سكنت أصابعهما الغارقة في مهابات اللمس والتشهي الذي تمنيا أن لا ينتهي.

احتملت زهرة من أجل ذكرياتها وأحلامها مع بكر الذهاب مكبّلة إلى فروع المخابرات أكثر من عشرين مرّة، كلماتهم الفاجرة وصفتها بزوجة الخائن الداعرة، احتملت عذاب الضرب بالكبال الرباعية حتى تشقق ظهرها، مطمئنة لعدم معرفتها بأمكنة بكر الجدّيدة ولون مخداته وشراشفه التي لم تعد تقلقها كثيراً، بعد أن شاهدت قسوة عناصر المخابرات وغيظهم من إفلاته من الكمائن التي أعدوها له كطير جارح يستطيع اختراق الحجب، أدركت أنّ عودتهما إلى شرب قهوتهما الصباحية بصمت حلم قد انتهى إلى مجهول، أفصحت لمريم عن حاجتها إلى وصال التي تستطيع تأمين مستقبل ولديها، عاد إليها أمل الإحساس بطعم الطمأنينة حين سلّمها أحد مبعوثي بكر رسالة مكتوبة على عجل «أنا خارج البلاد، اشتقت إليك وإلى الأولاد. . .» احتضنت الرسالة واسترخت باطمئنان، خلافاته مع القيادة وصلت إلى طريق مسدود،

اتّهم الجميع بترك حماة لوحدها تعلن الجهاد المقدّس، أحسّت في كلماته بندم لم يفصح عنه سوى بالصمت، الذي رافقه قبل أن يستعيد في لندن مكانته كمتحدِّث بارع وسياسي محنّك يدين له آلاف الشبّان بالولاء.

ضحكت زهرة كأنّها تتلقى هدية من السماء، في ذهابها الأخير إلى فرع المخابرات لم تشتمهم ولم يعذبوها، اكتفوا بنظرات احتقار لها حين جلست بهدوء في مكتب المحقِّق وهو يعلمها بمنعها من السفر، هزّت برأسها وعرفت من استرخائه أنّه منتصر، لا بد من الاعتراف بأنّ المعركة قد اقتربت من نهايتها، يجب إعادة ترتيب يومياتها كامرأة متزوِّجة من رجل فرَّ من موت أكيد، احتفت مريم برسالة بكر بنوبة بكاء شديدة أمام صورة حسام الغارق في متاهات معتقله الصحراوي، الذي اقتيد إليه مع الآلاف من رفاقه ليُحشروا في زنازين قديمة ورطبة، لا يستطيع أحد تمييز الفصول ولا تعاقب الليل والنهار فيها.

المنزل الرحب ضاق، قلت لنفسي بأنّ بكر قد تركني رغم إلحاحه عليَّ بالذهاب إلى بيروت واللِّحاق بأمي وأبي الذي لم يعد يستمع إلى الأخبار التي تلتقطها أمي وتسردها له بعد عودته من الصيد فجراً، تجاهل كلماتها كأنّها تحادث غريبًا، يضطجع في سريره ويذهب في نوم عميق، خائب الآمال، حين يستيقظ يرتدي ملابسه على عجل ويخرج إلى كرسي في خمّارة أصبح لا يفارقها مستعيداً أيام الشباب اللاهي، حين كان يضحك كثور ويباري رفاقه في احتساء زجاجات العرق بعد عودتهم من مرافقة عبد الحميد السرّاج في مشاويره الليليّة، همت في الشوارع تاركة قدميّ تقرع الإسفلت بخفر المهزومين، لم أكن أظنّ أنّ للفاجعة هذا

الطعم، لم أعد أعرف الأمكنة، كضائعة تحتاج إلى الكراهية كي تتوازن قليلاً وتدرك أنّ عمرها ليس ماءً سُفح على بلاط بارد وتبخر في الهواء، مروة شعرت بي أعبر كغريبة في أرض الحوش مستسلمة لقدرٍ أحسسته يهرب منِّي، تركني لأطير في الهواء كريشة لا تجد جناحًا تنتظم به، نظرات مروة إليَّ تجعلني قطعة خشبيّة غارقة في بحر هائج، لم أجرؤ على النظر إلى قيودها التي لم تصدأ، لم تحاول أيٌّ منّا التفكير في تحطيمها ومروة تعذبنا بصمتها، تجاهلتنا، تأكل من يد وصال وتمسح الغبار عن فراشاتها، متجاهلة رجاءات رضوان أن تعود لكورسه بعدما اعتقد بأنّ الإنشاد ينقذها وينقذ منزلنا من العفن الذي بدأنا نحسّ بطعمه تحت ألسنتنا، رضوان يترحَّم على أيام صفاء وجدّي الذي كان لا يغادر المنزل قبل أن يطمئن عليه، الآن لا أحد يكترث به، لم تعد مريم تنتبه إلى ملابسه التي اتسخت وبدا كمتشرِّد أكثر منه خادم لعائلة حافظت على صورته نظيفًا، معطّرًا، كي يدافع بشراسة عن أسياده، رأيته جالسًا قرب البحرة، شردت نظراته مع طيور السنونو، يصغي إلى زقزقتها وهي تعبر السماء، لم ينهض كعادته كي يبشِّرنا بقدوم الربيع مبكراً، اكتفى بالإصغاء إلى الصمت الذي سرعان ما خيَّم فوق الأبواب، التي لم تعد تُفتح وتثير ضجيجًا بصريرها الدائم الذي اشتقنا إليه كي نحسّ بأنّنا لا نعيش في مقبرة.

طلبتِ مريم مساعدة وصال في إقناع مروة بإحضار رجل يفكّ قيودها التي استعذبتها، بدأت بتأليف أغنية تمجِّدها وتصوِّر عذاباتها، مما اضطرّها لتنشد مع رضوان ككورس في فرقة خياليّة تنشد لجمهور أصم مقابل أن ينشد لها ملحمتها، حاول رضوان استعادة طعم المرح إلا أنَّ

كلماته الأولى بدت باردة، حزينة، تركت انطباعًا أنّ صوته بدأ يشيخ وما تبقّى منه لا يكفيه كي يقود نساء العائلة، صوته متحشرج ويخطئ في المقامات، جاملته مروة، أثنت عليه مشجِّعة أن يتابع تأليف ملحمة العاشقة التي كبلتها قبيلتها وحرست أوهامها كي لا تتسرب من شقوق الخيمة فتفسد كل بنات القبيلة.

خرج رضوان من المنزل باحثًا عن أصدقائه، وجد أغلبهم قد حلقوا ذقونهم كديوك منتوفة الريش، أغلبهم ارتدى بدلة ووضع ربطة عنق، الخوف في عيونهم وحركتهم البطيئة تشي بأنّ الجوامع لم تعد آمنة لأعمالهم وأذكارهم وموالدهم المرتجلة، الخطأ الذي قتل ثلاثة منهم برصاص طائش أفسد عليهم متعة أنّهم عميان، حاول إقناعهم بالعودة إلى الإنشاد، استمع بصبر إلى قصائد رثائهم لأصدقائهم التي استهلّوها بمديح الرئيس، واختتموها بالتفجّع على ثلاثة مؤمنين قتلهم الكفّار الذين حوّلوا الإسلام إلى دين للقتل، «لقد انتهى كل شيء» قال رضوان لنفسه وهو يغادر الجامع الأمويّ مخترقًا سوق المدينة، متوقِّفًا أمام دكاكين جدّي التي صدأت أقفالها وانتهت أمجادها. جلس قرب الدكّان على الأرض علّه يسمع أنين خليل أو ضحكات عمر أو خطوات جدّي، حاول استدعاء دمعته إلا أن الأصوات من حوله أنذرته بأنّ كل شيء قد انتهى.

عاد من الطريق نفسه الذي رافق فيه جدّي للمرّة الأخيرة، دار حول القلعة، دخل إلى غرفته، ثم أخرج كل صناديقه إلى أرض الحوش، بدأ بفتحها وتكسير زجاجات العطر التي فاحت روائحه في فضاء الحوش، اختلطت مع عويل مريم التي استطاعت إمساكه وفكّرت أنّها المرة

الأولى التي تمسك رجلاً بهذه القوة، أدركت بأنّ رغباتها قد ماتت فعلاً، لم يستمر إصرارها طويلاً، ترك رضوان ما تبقّى من زجاجاته، عاد إلى غرفته ولم يخرج لوداع وصال التي احتفظت بزجاجة تشمَّمت فيها رائحة غريبة تشابه وروداً بريّة نادرة، كان قد غطّى خليل عنقها بقلائدها حين تراءت لهما الموصل في ذلك اليوم الذي أصبح بعيداً، وإن كان الاثنان لم يستطيعا نسيان طعم فجره، ورود تشبه الجوري، روائحها العطريّة دائمة حتى بعد الذبول، أبدت مريم كرمًا قدرته وصال وهي تحاول البحث لها عن سجّادة صغيرة كتذكار أرادت حمله معها إلى لندن، أهدتها سجادة بكر وسط رضى شعّ من وجه زهرة التي تفاهمت في اليوم الأخير مع أمها على الكثير من الأشياء التي لم تفصحا عنها، «أصبح لهما أسرار» قلت لمريم التي بدأت تستيقظ وحيدة، تشرب قهوتها وتصلي، تطبخ طعامًا لرجال لا يأتون، يحمله رضوان بصمت في اليوم التالي ليوزّعه على عائلات فقيرة يعرف الطريق إلى منازلها جيداً ولا يتمهّل لسماع كلمات امتنانهم، يتأفّف من هذه المهمّة ولا يتكلم، يرمي بقطع اللحم المطبوخ على أبواب المنازل الفقيرة ثم يقرع الباب ويتابع طريقه دون اكتراث.

اشتاقت مريم إلى مشاحناته، توجّست شرّاً من صمته، رأت الخوف من الموت في تقاطيع يديه اللتين بدأتا ترتجفان وهما تبحثان عن كأس الشاي، حين يجلس بأمر من مريم إلى جانب البحرة في محاولاتها استعادة تقاليد وطقوس تفتخر بها أمام وصال التي علّمت حفيديها بضعة جمل إنكليزيّة، أيقظت فيهما ترفّعهما البارد الذي سيلازمهما طوال حياتهما، منتمين إلى وصال أكثر من مريم التي لم تعد تهمّها الخسارات.

بحثت عن أخبار حسام الذي يحتاجنا جميعًا، كثرت لقاءات النساء في المدينة ليتبادلن أيّة أخبار قادمة من المعتقلات التي تمدَّد فيها أولادهن وأزواجهن موقنين أن أعمارهم قد تنتهي بين هذه الجدران، فاعتادوا روائحها وأدمنوا حفلات التعذيب الشامت التي كانوا ينهضون إليها كأنّهم ذاهبون للعب كرة القدم دون اعتراض أو نقاش.

غابت أحلامي مرة أخرى، استدرجتها كرف حمام، حاولت النوم مبكّرة، جلست في سريري كبوذية أتأمَّل سجّادتي المعلّقة على الجدار، أنام كجثة تحاول طرد القلق وبعد غفوتها لا تستطيع النهوض، كأنّ شللاً أصابني، خاوية لا تنقذني كراهيتي التي ازدادت، لم يعد لضجيجي أيّ معنى، تأمّلت مروة التي وصلتها رسالة أخرى وأخفتها عن الجميع، حتى عن زهرة التي بدأت تذهب يوميّاً للاعتناء بصحة خليل، الذي لم يعد يستطيع الخروج إلى المرحاض بعد الجلطة التي أصابته وجعلته طريح الفراش يسأل كلّما استيقظ من غفوته عن جدّي، وفي لحظات هذيانه يشتم اللّه ويعدِّد أوصاف وصال مشبهًا فرجها بجوز الهند، في لحظات صحوه يبكي ويبصق في وجه زوجته التي تتركه دون طعام عقابًا له على ذكرى وصال، ازدادت مشاحناتها مع زهرة التي استأذنت مريم لنقله إلى منزلنا ليموت فيه، اقترحت مبيته في غرفة رضوان الذي تحمَّس لصديقه، لطالما أعجب بسيرته خاصةً انتزاعه وصال من جدّي الذي بقيت ذكراها غصة في حلقه، لم يستطع نسيانها أو المجاهرة بها.

رضوان استثار بمرح خليل فروى له السيرة أكثر من عشر مرات بالمفردات نفسها والجمل الدقيقة نفسها، مريم لم تكترث وصمتت،

تذكَّرت أنّ خليل ليس هرمًا إلى درجة انتظار موته، إصرار مروة ومؤازرتها لصديقتها جعل موافقة مريم أكيدة محاولة مراضاة مروة التي بدأت تخرج من صمتها متمسّكة بقيودها تنفيذاً لوصية بكر وإكرامًا لهيبته كما خمّنا، لم نكن نعرف سر زيارات جنود سرايا الموت شبه اليوميّة لنا، يلقون نظرة عجلى على أشيائنا ويمكثون مع مروة لحظات ثم يخرجون، تبدو بعدها سعيدة كأنّها تودّع أصدقاء حميمين، بدأت تشارك مريم شرب القهوة ولا تمانع من تقشير البصل ودقّ الثوم ومساعدتها في تحضير محشي الباذنجان، إكرامًا لحضور خليل الذي كان مولعًا به إلى درجة أنّه عدَّد ستة عشر نوعًا منه لزوجته، التي لم تجاره ولعه ولم تأسف على الروائح النتنة التي ملأت غرفته.

بكى رضوان حين أتى خليل على حمّالة، فاحت روائح عطر مسح بها جسد صديقه وقاسمه غرفته بمودّة طمعًا بكسر وحدته، عناية زهرة تذكره بصفاء التي بدت في رسائلها إليه متعلّقة به إلى حدّ الوله، راسلته منفرداً بعد تشكّيه بأنّنا نهمله، وعدها بتأليف كتاب لها ينظِّم أبياته من درر الكلام، امتدح زوجها عبد اللّه الذي ازدادت سفرياته إلى أفغانستان وأميركا في مهام وصفها لصفاء بالسريّة، تواجده مع الأمير في مجلسه وأحاديثهما المنفردة جعلتها تتباهى به وبنظرات الإعجاب، حين يصفونه بالمجاهد في سبيل نصرة الإسلام لطرد السوفييت الكفّار وتحطيم جبروتهم الذي حكم شعبًا مسلمًا بالحديد والنار، فُتحت مضافات الأمراء أمام عبد اللّه، وأصبح وجوده فخراً للمضافة ملمّحًا لهم بأرقام التبرُّعات التي تغدق من أقرانهم، في تنافس محموم لشرائهم الجنّة، سفيراً فوق العادة للبت في

الكثير من الأمور غير متناسيًا صداقته مع بكر الذي عرج إليه في لندن، قضى معه ثلاث ليال لم يخرجا خلالها من غرفته في الفندق، استعرضا بهدوء كلّ ما حدث، حاول إقناعه بالسفر معه إلى أفغانستان إلا أنّ بكر ما زال غير قادرٍ على نسيان صور إخوانه الذين تناثروا قطعًا، تبخّروا في الهواء لتهطل دماءهم كهباب فحم فوق مدينته الحبيبة كما أسماها بكر، الذي لم يستطع النظر في عيني عبد الله الهادئ، محاولاً امتصاص نقمة بكر على إخوانه في القيادة لتأجيلهم إعلان النفير العام الذي اعتقده بكر كافيًا للقضاء على السلطة وقوّة جنود سرايا الموت وحسم المعركة.

في الليلة الثانية تركه عبد الله يهذي ويكرّر ما اعتقده أنّهم لم يستطيعوا استيعاب آلاف المتطوّعين الشباب، الذين آمنوا بيقين الدولة الإسلاميّة، مضيفًا بأسى أنّهم كانوا ألعوبة في يد رؤساء الدول المجاورة الذين ساوموا عليهم وباعوهم، لم يتكلّم عبد الله واستغرب هشاشته كرجل سياسة. في اليوم الثالث أصابت بكر حمّى شديدة، استدعي طبيب على عجل، أمره بالراحة التامة وعدم الانفعال، طمأن عبد الله الذي جلس في الطائرة المتّجهة إلى واشنطن، أثناء عبوره المحيط نظر من النافذة ورأى الظلام يهبط فاسترخى وفكّر بحلم قديم، كان يراوده حين كان مع بكر يجوبان البلاد بحثًا عن السجّادة التي حلم بها الأمير، لا بدّ من إقناع الأميركيين بضرورة إنشاء جيش إسلامي موحّد يحرّر كلّ البلاد العربيّة الواقعة تحت النفوذ الشيوعي وطرد السوفييت من أفغانستان. لم ينم لكنّه أغمض عينيه، استحضر صورة صفاء التي أعادت له قوة حضور الأنثى في حياته بعد انشغال زينة بأولادها، ومسابقات الشعر النبطي،

ورحلات الصيد مع أخوالها تارة والأميرات تارة أخرى، تاركة أولادها لصفاء التي هيمنت عليهم، أدخلتهم دائرة اهتمامها فأصبحوا ينادونها ماما، تستعذب الكلمة ثم تضع يدها على بطنها المنتفخ وتتذكَّر وحامها على البلح، تخرج معهم إلى الأسواق، تمازحهم دون اكتراث، السعادة التي أمسكت بها صفاء لم تكتمل، تجلس ساعات طويلة تفكّر في مصيرنا الذي دخل في نفق مظلم لا نهاية له، اشتاقت إلى رضوان ونميمتها مع مروة، حادثت عبد اللّه بعد وصوله إلى واشنطن، طمأنها على بكر وغازلها بكلمات غير محتشمة، شعر عبد اللّه بنشاط غريب رغم عدم إغفائه ولو للحظة، الماء الساخن والقهوة القوية أعادت له صفاء الذهن، رتب أوراقه وجلس منتظرًا المقابلة الموعودة.

بعد ست ساعات قرع باب غرفته في الفندق المتواضع الذي أُمر بالنزول فيه، ودخل رجل خمسيني يتحدَّث العربية بطلاقة، قدّم نفسه على أنّه مبعوث الوكالة، اطمأنّ على صحته بكلمات قليلة وطلب منه الاسترخاء حتى المساء، غادره فغط في نوم عميق مستغربًا كل هذه الاحتياطات، أدرك أنّ تاريخه وماضيه يعني لهم الكثير من سؤال المبعوث عن مدى علاقته بالمسؤولين الروس ورفاقه في عدن، بهدوء نزل من الفندق ليلاً، أعطى العنوان إلى سائق تكسي أجرة وأحسّ بملل شديد ينتابه، فك ربطة عنقه وأحسّ بضرورة عودته إلى الرياض، لم يخب حدسه حين جلس إلى طرف الطاولة وأمامه فيليب أندرسن الذي يمتلك وجه قاتل محترف، بارد النظرات، قليل الانفعال، عرض عليه الانضمام إلى فريق التجسّس ومنحه ميزة اختيار الأمكنة التي يرغب بالعمل فيها من

موسكو حتى الرياض، أخرج ملفًا بمئة وثمانين صفحة سمح له بتصفحه ووجد أمامه سيرة حياته كاملة، ضحك واقترح بيعه هذا الملف لمساعدته في كتابة مذكراته، لم تعجب فيليب أندرسن لهجة عبد اللّه الساخرة المهدِّدة بالعودة فوراً إلى الرياض والبحث عن شركاء آخرين. نهض غاضبًا، بكلمات قاطعة أفهم فيليب أندرسن أنّه رجل سياسة وليس مرتزقًا، مؤمنًا بضرورة قتال الكفّار وإخراجهم من أفغانستان، ساخراً من طريقة الأميركان في فهم الأمور كما لو أنَّها فطور سريع على شاطئ بحر يعجّ بالسيّاح العجائز، غادره مكتفياً بتحيته ودون استئذان، كان فيليب يراه من نافذة الشقّة وهو يضع يديه في جيوبه، يصفِّر كأيّ رجل طائش يتأمَّل واجهات المحلاّت، ثم يتناول عشاءه في مطعم منعزل بانتظار تلميذه صالح الذي ربّاه في الحزب، رشَّحه إلى كل البعثات الممكنة حتى أصبح رجلاً مهمّاً يحاول إقناع الأميركان برفع التمثيل الدبلوماسي مع عدن، جلس الاثنان وبهدوء سأله عبد اللّه «لماذا خنتني؟» أبعد كأس الويسكي مع الصودا وطلب قطعة دجاج وصحن سلطة روسيّة، تنحنح صالح وقال كلامًا غير مترابط ساردًا تاريخ النزاع في الحزب، عبد اللّه تناول طعامه بهدوء وفكَّر أنّه تلميذ جيد وغارق في متاهة الكلام، صمتُ عبد اللّه لم ينقطع إلا حين فاجأه صالح بدعوة رفاقه القدامى للعودة إلى اليمن، أخرج رسالة موقّعة من رئيس المخابرات رفيقه القديم الذي قاسمه غرفته في موسكو لأربع سنوات، أمسك بالرسالة ومزَّقها بهدوء ثم نهض وبصق في وجهه، غادر مسرعًا تاركًا تلميذه القديم غير مصدّق تحوُّلات معلمه الذي علمه الدبلوماسية والابتسام في وجه الأعداء والبحث عن نقاط الضعف في عيونهم، مسح صالح البصقة بهدوء، أكمل شرب الويسكي كأنّ ما

حدث تقليد شعبي للتحية خاص ببلاد بعيدة، ندم على إخبار عدن بموعدهما، أنّب نفسه واستعاد أعذب لحظات حياته حين التقاه عبد اللّه للمرة الأولى في أحد الاجتماعات الحزبيّة، استطاع فوراً قراءة موهبته كرجل دولة يتقن الديماغوجيا والهرب من قول الحقيقة، خرج من المطعم كئيبًا، ترك سيّارته وسار في شارع مزدحم زائغ النظرات، تذكَّر نقاشاتهما التي كانت تستمر حتى الصباح، بلل بصقة معلمه يؤلمه، تذكَّر حين أرسله لدراسة الحقوق في جامعة دمشق محمّلاً برسائل توصية قويّة لمسؤولين سوريين، كان يلاعبهم طاولة الزهر ويعلمهم أصول مضغ القات، عيَّنه ضمن ملاك وزارة الخارجية منبِّهًا الجميع إلى موهبته، حين كان يسير الاثنان في شوارع عدن وحيدين يتذكَّران ليالي دمشق حين يحلّ عبد اللّه ضيفًا طارئًا ليوم أو يومين، حينها كانا يفلتان كشابين أزعرين في حارات باب توما، يراقبان دماثة الشوام في التهرُّب من سؤال يحرجهم، أحسّ صالح بالاختناقِ وحسم أمره برفع تقرير طويل يوحي فيه باغتيال عبد اللّه، الذي يبيع أسرار الحزب للأميركان مقابل تزويد المقاتلين العرب بالسلاح ليقاتلوا حكومة أفغانستان الحليفة.

حين عاد عبد اللّه إلى غرفته متأخِّرًا وجد فيليب ينتظره في الغرفة المجاورة، بدأ الاثنان تفاهمًا عميقًا تحوَّل إلى صداقة كلّفت فيليب أندرسن فيما بعد جميع طموحاته في الترقِّي إلى رئاسة وكالة المخابرات المركزيّة، بهدوء سهرا حتى الصباح، حددا مستلزمات المجاهدين، تفهم فيليب الحاجة إلى المعلومات والسلاح، أربعة أيام قضاها عبد اللّه في واشنطن كانت كفيلة أن يعترف فيليب بخطورة هذا الرجل محترمًا دقته، أفكاره، أناقته ومعرفته الواسعة، وولعه بالقطع الأثرية.

لم يستغرب عبد الله حين وجد صفاء في المطار تنتظره مع سائقها وأولاده الذين أثاروا ضجيجًا كبيراً وطالبوه بالهدايا، أمسك بيدها في السيارة وتسرَّبت أشواقهما إلى دمائهما، أحست من نبضه أنّ كلّ شيء على ما يرام، لم تحتج صفاء في الليل إلى وقت طويل لإقناعه بسفرها إلى حلب وولادة طفلها هناك.

كم كنّا نحتاجها، نسمة باردة في قيظ طويل هبت علينا صفاء، ضاحكة، حارّة، منفعلة بنا، بادلتنا الأشواق، رضوان يراقب كلّ شيء من أمام باب غرفته منتظراً سؤالها عنه الذي لم يتأخَّر، ورأت ابتسامته حزينة، رجلاً محطَّمًا كأنّها لا تعرفه، حين رأت خليل مرمياً على سرير أُعدَّ على عجل بدا لها المشهد غرائبياً، أن تصبح دارنا مكانًا للاستشفاء وخروج الموتى بتوابيت. . لم تحتج إلى وقت طويل كي تفهم كلّ شيء، خاب أملها بأن تكون الأوضاع أقل سوءاً حين شاهدت مروة محتفية بقيودها، منتظرة فراشاتها أن ينهضن من سباتهن ويحرِّرنها كما قالت ساخرة وهي تعرض رسومها التي بهتت ألوانها، توزَّعنا صفاء بيننا بعدما أحسّت بغربتنا، تناولت الشاي مع خليل ورضوان في غرفته، سمعنا ضحكات عالية وإنشاد رضوان الذي لم نسمعه منذ وقت طويل، استعاد فرحه، عاد ذلك الأخرق الذي يحب اللعب والعطور ونظم القصائد مستميتًا كي يترك أثراً وراءه يخلده، بعد أن خصاه العيش في منزل نساء يقودهن إلى مسراتهن القليلة المتكرِّرة، فكنَّ سيِّدات وكان خادمًا أحيانًا وفرداً من العائلة أحيانًا أخرى، أحسّت بندمه على ضياع عمره معنا، رغم محاولاته المتكرِّرة كي يجمع حوائجه في صرَّة ويغادرنا دون أن يقول لأحد وداعًا، كان يعود بعد يومين أو ثلاثة نادمًا.

من الصعب أن تكون وحيداً كما من الصعب أن تكون الوحدة قدراً أبديّاً يتلبّسك كوشم على ذراعك، عناية زهرة ووجود صفاء أبهج رضوان وأعاده إلى موائدنا خجولاً، مشبعًا بأمل شيخوخة لائقة، لم تفلح صفاء في إقناع مروة بالجلوس معنا، كما لم تنفع دموع مريم الصادقة بحرقتها وهي تستجديّها أن تغفر قسوتنا، نتبادل أدوار الكراهية التي تذوقت طعمها الشديد في نظراتها إليّ ولمريم، التي بدت بيننا كأمّ كبيرة، فقدت بريق الفتاة التي لم تحتفل بعيد ميلادها الخمسين ولم تطفئ شموعًا في حياتها، كبرت عجيزتها وانتهى قلقها، مسترخية بعد نوبات عصبية كادت أن تودي بها إلى الجنون، حين تنتابها تخرج ليلاً إلى أرض الحوش، تغفو على كرسي الخيزران الكبير، تكره سريرها الذي يوجعها بأحلام يقظة، يعود ابن السمرقندي بابتسامته الهادئة ورائحة عطره كذكرى بعيدة، تختلط صورته مع رجال آخرين أظن رضوان أحدهم حين يقف أمام باب غرفته ليلاً يسترق السمع إلى الطيور ويبتسم، أو حين يتوضّأ فيسهو عن أعضائه التي رأتها مريم مرة متدلية تنبئ عن فحولة معطلة، غضبت يومها ولم تستطع الحركة لئلا يكتشف وجودها، ذهلت وهي ترى رجلاً لمرّة وحيدة يغسل أعضاءه، يحتفي بها بأصابعه ويبتسم، كانت سنة عصيبة رأينا فيها مريم تستغفر اللّه وتستجديّ موت شهوتها، تصاب بالدوار حين تفكّر للحظة لماذا لم تتزوّج وتغرق في الملذات، حين نظر إليها تعود إلى رشدها وتحمد اللّه أنّها لم تتذوّق طعم الرجال القاتل الذي يحوّل بنات العائلات الشريفة إلى عاهرات إن غاب عنهن مذاقه، أصبحت أحاديثها مع صفاء مملّة فاحتملتها بمحبّة كبيرة وتقدير للأخت

الكبيرة، التي بدأت تتصرَّف كأمّ لجميع أولاد العائلة وكجدّة ذهبت أحلامها بالقوة، أصبحت تشبه الحلزون في انزلاقه الهادئ المستسلم.

قضت صفاء ليلة في غرفتي وأسعدني حبّها، أعادت إليّ توازني، تحادثنا كأيّة صديقتين، لم أمانع حين فتحت خزانة ثيابي، أنَّبتني على إهمال جسدي، رمت أثوابي الخشنة التي تشبه ثياب مريم، أخرجت من حقيبتها زجاجتي عطر احتفظتُ بهما ولم أستخدمهما إلا بعد زمن طويل، سألتها عن عبد الله فأجابت باقتضاب، عادت إليّ، تفهمت قلقي وخوفي من اعتقال لازمني لأسابيع، ثم لم يعد إليّ كأنَّه لا يهمّني بعد أخبار التعذيب الذي يتعرَّض له الآلاف من شبابنا، كسر الأعضاء والجماجم والموت والذهاب إلى نهايات المجهول، تساوت لديَّ احتمالات الموت والحياة، امتلكت قوة غريبة، لا أدري كم ساعدتني لترتيب ذاتي وقلقي، خفت هواجسي، ازدادت كراهيتي لجنود سرايا الموت المزهوين كطواويس ملوَّنة، رأيت شاحنة عسكرية كبيرة تعبر شارع بارون وتعرض ست جثث لمجاهدينا وعسكريّاً من سرايا الموت يبتسم مشيراً بإصبعه إلى العيون المنطفئة، وراءها عربة ب م ب تسحل جثة مربوطة بكبل فولاذي تتمزَّق على إسفلت الشارع الخشن، بينما سائقها يمازح صديقه المسترخي غير خائف من الطلقات المفاجئة، اطمأنوا إلى نصرهم وهزيمتنا، أصبحت حركتهم في المدينة أكثر ثقة، أكثر طيشًا وإحساسًا بالنجاة من الموت الذي خيَّم فوق رؤوسهم إلى درجة خافوا أن يهطل المطر رصاصًا وأكفانًا.

هدأت مروة، عادت إلى صمتها ثم أغلقت الباب والنافذة بعد أن تلقّت الرسالة الأخيرة، لم تفتح الباب لأحد مكتفية بحبّات التمر القليلة

وإبريق الماء، في اليوم الثالث أتى نذير يتكئ على عكّازه، يعرج قليلاً مصطحبًا معه شيخًا وشاهدين وثلاثة عساكر، فتحت مروة باب غرفتها وأعدّت نفسها على عجلٍ كعروس، تبادلا الابتسامات، حطّم أحد العساكر قيدها بمنشار حديدي وجلسوا جميعًا في باحة الدار، بدأ الشيخ بإعداد مراسم الزواج، مريم تضرب رأسها بحذاء، تولول ثم تنحني على قدمي نذير راجية أن لا يفتح قناة دماء ستغرق الجميع، صفاء أخذت مريم من يدها وأعادتها إلى غرفتها، حاولت أن تفهم ما يجري، أخرج نذير من جيبه ثلاث عشرة رسالة حب بعثت بها مروة إليه ورد بمثلها، كان لطيفًا وهو يحاول شرح رغبتهما بالزواج رغم اختلاف الطوائف، لم أستطع احتمال المشهد، تمنّيت لو أنّني أمتلك مسدسًا أو بندقية لانتقمت من مروة التي كانت تبتسم، لم تمانع حين مدّ يده إلى حجابها وخلعه، لوّحت بشعرها الطويل كغجرية وتناثرت منه رائحة عطر طيبة، تمّت المراسم على عجل، حمل أحد العساكر حقيبتها الصغيرة، لوّحت لنا مروة وخرجت من باب الدار متلكئة كعروس دون أن تودّع أحدًا منّا وسط ذهولنا، الذي ابتعدت عنه زهرة التي لم تحاول أن تفسّر لنا ما حدث، لملمت القيود التي بقيت مربوطة في السرير لتضعها في خزانة مروة الفارغة والمفتوحة الأبواب، اصطحبت مروة معها صورة جدّي وسجّادتها الصغيرة والقليل من الثياب، تاركةً الباقي كومة فوق السرير شاهداً على هجرها حياتنا للأبد.

مريم خرجت كمجنونة من الدار على عجل، لحقت بها، رضوان لم يستطع تداركنا، خطواتها السريعة أخافتني، دخلت إلى منزل سليم ووجدته جالسًا في غرفته الداخلية العارية من الأثاث ما عدا بساطًا ومخدتين، حوله

اصطفّت مباخر وأقمشة خضراء تدلّت على الجدران المبقّعة، دستة من نسخ القرآن بجميع الأحجام تكدّست فوق طاولة واطئة، كأنّ الدار مهجورة، لم ترد مريم على ترحيب أم جلال التي بدت لي مخبولة تهزّ برأسها وتدعو اللّه أن يحفظ الجميع بينما أولادها جلسوا كالمشرّدين يتقاسمون الخبز الأسمر وصحون شوربة مرتدين أروابًا من القماش الخشن، كأنّي لا أعرفهم، تغيَّرت ملامح منزل خالي الكبير سليم كثيرًا، أمسكت مريم بقميصه المزرَّر، هزّته باكية ورجته أن يفعل شيئًا لحماية عرضه وهو يقلِّب يديه كأيّ مخبول لا يسمع ما يُقال، كأنَّ سيلاً من حجارة أولاد أشقياء هاجمته في طريق مسدود، اكتفى بالدّعاء ووضع يديه فوق رأسه هاربًا حتى من الدفاع عن نفسه، بكت مريم وروت له خطف مروة، وصفتها بالفاجرة التي يجب ذبحها والخائنة التي ذهبت إلى الطائفة الأخرى، لا أعرف مريم حين تغضب، سليم يستمع إلى خطاب ثقيل ابتعد عن مفرداته كثيرًا، مريم أمسكت بالقرآن الذي عاد للقراءة فيه، انتزعته منه وقذفت به إلى الجدار صارخة به أن ينهض ويعود إلى دنياه ليرى ماذا حلّ بنا، جمد الدم في عروقي، بكى سليم وهو يلملم صفحات القرآن المتناثرة، يقبّلها واصفًا مريم بالكافرة والمجنونة، أخافتني نظراته وهو ينظر إلينا كساقطتين ثم يترك لنا الغرفة ليسرع هاربًا إلى الجامع القريب، يتربَّع قرب رأس الولي المدفون في باحته، يندب حظّه متحسِّرًا على مريم التي غلبتها الدنيا، وارتكبت حماقة التفريط بصفحات القرآن كأيّة ملحدة تخلَّت عن الجنّة مقابل سخافات الدنيا.

مريم استعاذت باللّه، هدأت قليلاً وهي تسير في الشارع، اتكأت عليّ وجلسنا بين يدي الشيخ الداغستاني الذي استمع إليها، هزّ برأسه

ووعد بزيارتنا، نحتاج إلى زيارات غرباء نشتكي لهم ضعفنا وكراهيّتنا للطائفة الأخرى التي انتمت إليها مروة تاركة وراءها أوهام فضيلتنا.

أيام طويلة وأنا أفكّر بما حدث كأنّه كابوس أو مزحة ثقيلة، إلا أنّ فراغ غرفة مروة وثيابها التي وزّعتها مريم، كما لو أنّها ماتت، لم يترك مجالاً للشك بأنّه حقيقة كهذا المساء الذي هبط ثقيلاً، حامضًا، منذرًا بكوارث لن تنتهي، مريم تراقب صمت الجميع وعدم اكتراثهم، أخرجت صور مروة القليلة من ألبوم العائلة وأحرقتها، نظرت إليّ مريم بطرف عينها غير راضية، وصفاء أنقذت ما تبقى قبل أن أكمل لذّتي بتحويلها إلى رماد يطفو فوق ماء البحرة لدقائق ثم يتلاشى.

أصبحت كلُّ الأمور متشابهة بالنسبة لمريم، الليل كما النهار، الجوع كما التخمة، الأسود كما الأبيض، استسلمت لقدر تعدّه لنفسها بصمت ودون أيّة مشورة من أحد، تعلّمت لعب دور الصماء ببراعة حين لا يعجبها الكلام، زواج مروة بهذه الطريقة قلب كيانها، جعلها تفكر في الأشياء من جديد، بعد قدوم عمر وضحكته التي لم نسمعها منذ زمن بعيد، أخبرته بالتفاصيل، طبطب على يدها وقال كلامًا أربكنا، سخر من شكوكنا، علمتُ منه بأنّه زارها، تعرَّف إلى زوجها نذير وأصبحا صديقين أدركت أن مريم أصبحت وحيدة، أحلامها بالقوّة انتهت ولم يتبقَّ لها إلا طرد الذباب عن صحون المربى الذي لم يعد أحد يأكله، فتتكدّس قطرميزاته في قبو المؤونة لنوزعه على العابرين.

الأيام الأولى لغياب مروة كانت قاسية، زهرة تمسح قيح أبيها وتساعد صفاء على إعداد ديارتها، عدت إلى العم خليل متعاطفة مع

آلامه، اهتمامي به جعلني أستعيد زهرة صديقة افتقدتها لزمن طويل كنت أحتاجها فيه، رضوان يساعدني على إطعامه، أقرأ له سورة البقرة، أحاول تجويدها ورضوان يهز برأسه مستحسنًا، مشاركًا إياي عن ظهر قلب فنصبح جوقة ترثي رجلاً تحبه ولا تستمع إلى هذياناته التي تقاطع التجويد، كأنّنا نجوّد لأنفسنا وليس إلى روحه التي بتنا ننتظر صعودها من جسده ورفرفتها فوق المدينة، مع أرواح كثيرة تزاحمت في خروجها من الجثث خلال الأشهر الماضية حتى غدت حلب مدينة النحيب والجنازات المختصرة والرثاءات الصامتة، في عيون الأمهات حزن عميق، القتلة على بعد أمتار منهن يتبخترون في ثيابهم العسكريّة ويتباهون.

رأيت بأمّ عيني سمير النيربي الذي هرب من كمين ليلي لإحدى دوريات المخابرات، اشتبك معهم من مكمنه، فرغت جعبته من الرصاص، لم يجد أمامه سوى فرن باب النصر فرمى نفسه في بيت النار، تاركًا الزبائن القليلين يتقيأون، الجنون استبد بالجنود فأفرغوا مخازن رشاشاتهم في جثته التي تفحّمت وسط تكبير المارة باسم اللّه ورعب الجنود الذين طوقوا المنطقة ليمارسوا عبث الانتقام من جثّة متفحّمة، لم يبقَ منها سوى الرماد الأسود الذي تطاير، الفران لم يصدّق ما رأت عيناه حين اندفع سمير النيربي إلى منصّة بيت النار، أصيب بالجنون وداهمته الكوابيس، لأكثر من عام لم يخرج من منزله أبدًا، عاد بعدها إلى قريته يرعى الأغنام ويهرب من الأولاد الذين يدقّون على التنك، يلاحقونه كالقيقان التي تندفع أسرابها نحو حقول البطيخ فتترك ندوبها على جلده الأملس، رأيت أم سمير تسير حافية وسط شوارع المدينة، تشتم الحزبيين

وتنوح ببكاء مر، وراءها أبناؤها وبناتها يرفعون قبضاتهم كأنهم يشيّعون الهواء، منعها الجنود من تحسّس بقاياه فبصقت في وجوههم، لم أجرؤ على الاقتراب منها، أحسست بأنّ الكلام لا قيمة له، تذكّرت وجه سمير النيربي النحيل حين كان يمرّ أمامي في ممرات الكليّة متحاشيًا النظر إليّ أو التلميح إلى انتمائه، حسام التقطه من إحدى المدارس الثانوية وكان يكبره بسنة واحدة فقط، ذهبا معًا إلى المسبح البلدي وأحاله من شاب طائش يلاحق الفتيات الخارجات من مدارسهن، يغازلهن علنًا مستعرضًا سلساله الذهبي، إلى مدافع شرس عن دولة الإسلام وشهيدها، أمه أعلنت العداء لعائلتنا طوال عمرها، أقسمت أن تنتقم منّا ومن جنود سرايا الموت الذين طوقوا منزلها ومنعوها من الخروج إلى شوارع المدينة، تفتح النوافذ كل صباح وتشتم الجميع دون كلل حتى ماتت في نوبة قلبية مفاجئة.

بالغنا جميعًا في العناية بصفاء التي اقتربت ولادتها، ندمت لعودتها كي تلد بيننا، خسرت استرخاءها في منزلها السعودي، مهمومة وخائفة على جنينها، كنا بحاجة إلى حدث مفرح في منزلنا كي نحس بطعم الحياة، أتت دايتنا أكثر من مرّة، فحصت صفاء بطريقتها البدائيّة، لازمتها في أيّامها الأخيرة، متقاسمة مع مريم مهمة تحضير أعشاب اليانسون والزهورات، أطقم الطفل القادم وألبسته المعطّرة التي أبهجني استعراضها أمامي، لازمتها مريم كظلّها، نامت بجانبها على الأرض، مريم تحتاج إلى من تهتمّ به إلى درجة الوله لتنسى كلّ ما حدث.

منذ زمن بعيد لم تلد امرأة في هذا المنزل، اجتمعت القابلة ومريم ونساء أخريات لم أعرفهن، زهرة تأمرني بجلب مناشف ومياه ساخنة،

حين تعالت صرخة الطفل في فضاء الغرفة لم تزغرد أي من النسوة كأنّنا نسينا الزغاريد، البهجة على وجوه الجميع، رضوان يضحك ويتجسَّس على الطفل، حمله واستحسن اسم أمير، عادت إليَّ أحلامي مرّة أخرى، تعلَّقنا به وبالغنا هروبًا من حقائق غرق المدينة في فوضى القتل المتبادل والكراهية والقسوة، استاء الجميع من قتل طبيب شهير كانت عيادته تغصّ بالناس الفقراء، عرف بماركسيّته المتشدِّدة مجاهرًا بعدائه الشديد لحزبنا، قُتل الشيخ جميل المعروف بولائه للسلطة، استغلّ أولاده ذلك ليرثوا المشيخة والنفوذ ويجولوا في البلاد شركاء مسؤولي الفساد، تخوّف الناس من إلصاق أيّة تهمة سياسيَّة قد تودي بأيّ كائن إلى الأقبية، يقضي عمره كلّه دون أن يتجرَّأ أحد حتى على السؤال عنه، عائلته تتبرَّأ منه كي لا تحلّ المصائب على رؤوس أفرادها، عادت إليَّ أحلامي، تفاءلت بوجه الطفل الصغير الذي بدأت أناديه بأميري، تأملت كيف يتفتَّح الكائن، كيف تنمو أصابعه الصغيرة، وجهه، عيناه، قدماه، صفاء التي فقدت الأمل ذات لحظة في أن تكون أمًّا، استرخت محاولة إبلاغ عبد اللّه الضائع في دروب أفغانستان مع متطوِّعين قلائل جمعهم من بلاد عربيَّة مختلفة، وكان لزهدهم في الدنيا أثرٌ كبير في نفوس الأفغان الذين رحّبوا بهم وقاسموهم قطع الخبز اليابس، احترموا حيادهم تجاه كلّ الفصائل المتنازعة على اقتسام البلاد، عبد اللّه لا ينام ليالي طويلة، يؤسس أفواج المتطوِّعين بمساعدة الشيخ نديم السلطي الذي كان حضوره المحترم يمنع الاقتتال بين الفصائل، تخفّى بزي امرأة كي يصل إلى كابول ويدخل إلى ذلك المنزل المتطرِّف في أطراف كابول ليقسم على الخبز مع هؤلاء الرفاق الجدد. في ذلك المنزل المتطرِّف أعلن عبد اللّه لجميع القادة

أنّ المجاهدين العرب سيقفون على الحياد ودورهم تقديم الدعم الذي يحتاجونه لطرد أعدائهم، ولن يطلقوا طلقة واحدة ضدّ أي أفغاني.

كانت أفغانستان منسيّة حتى دخلها السوفييت فذكّروا العالم بها من جديد، الأفغان الذين لا يريدون من هذه الدنيا سوى الطعام لأطفالهم وجدوا أنفسهم في ورطة، أصبحوا مرتزقة الفصائل التي تتنازعها رغبات السيطرة على مزارع الحشيش التي تؤمن أموالاً طائلة، عبد الله وقع في هواها حين شاهد جبالها وكهوفها وسهولها، صمتها المريع اعتبره مناسباً لترتيب ذاته وأفكاره مرة أخرى، بعد أسفار عديدة استخدم كلّ حنكته في إقناع الأميركان أن لا يتركوا هذه البلاد الواسعة لمصيرها المحتوم، لحق به مستر فيليب أندرسن إلى باكستان، تحادثا كصديقين قديمين عن إسلام جدّيد لا يكتفي بالصلوات الخمس، معرّجين على مئات النصوص التي تدعو إلى إقامة دولة الإسلام، في اليوم الأول تناولا العشاء في مطعم شعبي في إسلام أباد كسائحين باحثين عن غرائب المصوغات التقليديّة والحرير الكشميري، يساومان الباعة ويشتريان أشياء لا يحتاجانها؛ وبعد اطمئنانه إلى ولادة صفاء سالمة، فرح كطفل صغير أصرّ على الاحتفال مع فيليب أندرسن بالذهاب إلى أفخر المطاعم وتناول الكبسة السعودية، اتفقا على وصول الأسلحة عن طريق عملاء لم يسمهم.

سنوات وعبد الله وحيد، يبثّ أشواقه لصفاء بقصائد غزلية مكسورة الأوزان ذات جمل غريبة في تركيبها، مقتصرةً على قوافٍ تناسب اسم صفاء التي ودّعناها وبالغنا في كل شيء، ترتيب حقائبها وأشياء الطفل الذي أصبح بالنسبة إلينا ضرورة يجب الاعتياد على غيابها.

بعد رحيل صفاء جلسنا ثلاثتنا، أنا وزهرة ومريم وصمتنا، مريم لم تعد تحسّ بالانتماء إلى أحد، زهرة سئمت، تقوم بحركات اعتيادية، لا تجيب على أسئلتي حول سر نعومة قدميها ونضارة وجهها، لم يعد أمامي إلاّ العودة إلى غرفتي وأحلامي لأرسمها كما يحلو لي، رسمت عبد اللّه معمَّمًا، بيده بندقية يقود جيشًا كبيرًا سيدخل وراءه كابول ويحطّم جيوش الروس في مستنقعات الرمال المتحرّكة، يجعل من أشلائهم جماجم تضمها النساء كأطواق خرز ملوَّن يعلِّقها الأفغان في صدور بيوتهم الطينيّة، أسبوع كامل نتناول إفطارنا بصمت ودون شهية، أذهب إلى الكلّية، أحاول استعادة الوجوه التي كنت أراها في طريقي، الهرم أصاب كل شيء، الشوارع والوجوه والأشجار وأوراق النعي لموتى لم يسمهم أحد شهداء أو حتى قتلى رصاص طائش، أقضي وقتًا طويلاً مع خليل، أستمع إلى هذياناته واصفًا طعم فرج وصال كالبهارات حينًا وكالأناناس حينًا آخر، في الحالين يندم ويبكي أمام صديقه رضوان المبتسم ببلاهة، مستعيدًا ذكريات شباب لا يعرف أحد عنه شيئًا، ذات ليلة سمعت رضوان يحدِّثه عن فتاة خرساء التقاها مرّة في ساحة الجامع الأموي، أقنعها بقدرته على فك عقدة لسانها فتعلّقت به، اصطحبها في مشاوير كثيرة انتهت بهما إلى زواج عرفي كتبه أحد أصدقائه العميان، ومزَّقه بعد ستة أشهر بعد أن تعلَّقت به إلى درجة الوله، تبحث عنه بين كل عميان المدينة الذين لا يفهمون ماذا تقصد بإشاراتها حين تصفه، قال لخليل كانت امرأة فقيرة تعمل في صنع سلال قشّ لا يشتريها أحد فتبادلها بأعشاب كي تنجب ولدًا حتى من رضوان الضرير الذي فرّ قبل أن يتورَّط بأسرة لا يستطيع احتمال كآبتها.

من الصعب البحث دومًا عن خياراتنا التي نريد، بقدر ما كان القدر يفتح مغاراته السرّية أمام عبد اللّه، كان يغلق كل الأبواب على مريم التي لم تنقذها إقامة عمر الطويلة لدينا بعد بحثه عن أمان مفقود، يدور في أرجاء الغرفة ثم يخرج مرتدياً بذلة متراخية، حزينًا وفاقدًا لرغبته بالعبث وإثارة الفضائح، حاول فتح الدكاكين مرّة أخرى بعدما خسر الكثير من أمواله في بيروت مع أناس لم يعرف كيف تورّط معهم في تجارات مختلفة.

كانت بيروت أول الأمر مكانًا مناسبًا لحياة عمر الجدّيدة، إلا أنّ مناخها البحري الخانق برطوبته لم يناسبه، غربته لم تفارقه، فقد أصدقاؤه ضحكاتهم العابثة، قرّر العودة نهائيّاً بعد تأكيد المخابرات له أنّه لن يمسّ بأذى، قدّم الكثير من الهدايا الثمينة لزوجات ضباط متنفذين للصفح عن اسم عائلته، أتى بحقائبه، حاول الاهتمام بنا، مقنعًا مريم بأنّ مروة لم ترتكب جريمة وبأنّ الطائفة الأخرى ليست عدوتنا بل هم أناس يمكن العيش مع طيبتهم، لم تعد زياراته المتكرِّرة لمروة تثير حنق أحد، أصبحت الجسر الذي سيعيدها إلينا، من الصعب أن تتخيَّل نفسك تصافح عدوّك، عمر يفاجئنا دومًا، لا يترك مجالاً للشكّ بأنّ الحياة قصيرة لا تستحقّ أخذها على محمل الجدّ، الشهور الماضية جعلته رجلاً مهمومًا، كأنّ الأمور أفلتت من بين يديه، حصانه مات ولم يجد من يدفنه، نظر بأسى إلى هيكله العظمي الذي تبقى منه بعد أن نهشته الكلاب الشاردة، أخذ جمجمته، نظَّفها بالكحول وجففها بمنقوع اليانسون، فاخر بكأسه الجدّيد أمام ضيوفه الذين اعتادوا غراباته، فتح الدكاكين وهبّت رائحة العت من السجّاد

والنفتلين الذي لم ينس حشو السجادات الفاخرة بكميات كبيرة منه كي يحفظها من الفئران التي لم تجد ما تقضمه سوى سجّادة صغيرة، كان بكر قد التقطها من أحد أسواق أزمير واعتبرها تحفة، روَّج في السوق بأنّها قُدِّمت للسلطان عبد الحميد للصلاة عليها أثناء زيارته لأحد لاعبي الشطرنج الماهرين، رقّعها عمر وأيقن صعوبة ترميمها، انتهت كذبة بكر التي كاد أن يدفع فيها هاوي أنتيكا أكثر من ستة آلاف دولار، ببرود أحرقها عمر، تصاعد الدخان من المحل وجلس بصمت يراقب كلّ ما حوله، انتابه الحنين إلى صباحات السوق، شرب الشاي صباحًا وتبادل أخبار القتل في أحيائها الداخلية التي ضاقت ولم تحمِ سكانها أسوارها العالية.

تركنا عمر إلى مزرعته التي استوطنها جنود سرايا الموت، خرَّبوا كل ما فيها، نزلوا إلى القبو المعد لتخزين النبيذ الفاخر، شربوه دون أن يعرفوا مذاقه من قبل، تركوا الشراشف قذرة ورائحة البطاطا المسلوقة تفوح من المطبخ، تدخَّل لدى ضابط كبير فأخرجهم، أحسّ بإحباط شديد حين رأى بقاياهم وعاد إلى منزله ليعيش منفردًا، لم يستجب لدعوات أصدقاء طيشه لتعود مسرّاتهم باهتة بعد تشرُّد الكثيرين خارج البلاد، لم يجد ملاذًا أفضل من بيتنا، جلس باسترخاء رجل عاد إلى عائلته التي تحتاجه بعد غياب طويل، صباحًا يتناول قهوته ويسأل عن لوازمنا، لم أعتقد يومًا أنّ عمر يهتمّ بأمر البقدونس والجبن فيذهب إلى سوق الهال كي يحضره طازجًا، لا يناقش مريم ببقائه بيننا، كانت تنتظر كل يوم أن يلملم ثيابه وأشياءه ويتركنا مرّة أخرى لمصيرنا وحيدات، نحتمل قرابتنا لكل هؤلاء الذكور الذين حلموا بأدراج القصر الجمهوري فانتهى بهم الأمر إلى التشرُّد والمنافي والسجون.

كلما أتاني حسام في المنام أحسّ بأنّ أموره ليست على ما يرام، يستغيث بي ويسألني عن كتاب الكيمياء، وجهه يشبه سمكة نافقة على شاطئ بعيد فاحت منه الروائح ثم تفسّخ جسده وتلاشى، أجلس في سريري أرسم شجرة نخيل على شاطئ بعيد، كل أصابعي وأقلامي الملوّنة تخذلني، ما أصعب أن تخذلك ألوانك فتغدو أيضًا أسود وأبيض ينتظر السواد وما بينهما لا يعني أيّ شيء، دون ملامح، دون أيّة قسمات، وجه بلا ماضٍ وحاضر ومستقبل، ضياعنا يتجلّى في الأحاديث غير المترابطة، وإهمال فراشات مروة التي غطّى الغبار زجاجها، لم يبقَ لي إلا وراثتها قلت لنفسي، أعدت تنظيفها وترتيبها، حملتها إلى غرفتي وتأمّلتها لأيام طويلة باحثة عن معنى الانتماء إلى الفراشات، زاوجت ألوانها محاولة إكسابها معنىً خاصّاً بي، لم يساعدني رضوان على اصطياد المزيد منها، انشغل بخليل الذي امتلأت أيامه الأخيرة بالهذيان، عمر لم يكترث بغيبوبته كأنّه ينتظر موته كي يتخلّص من جثّته، ويعيد ترتيب كلّ شيء، لم تعجبه هذه الفوضى التي جعلت منزلنا مكانًا لعبور الموتى.

فرحنا بعمر، بصرامة يأمر زهرة ألاّ تبالغ في تدليل ولديها، ومريم ألاّ تترك الأشياء تعبرنا دون حساب، فوجئ بها كأنّه يرى فتاة سمع الكثير عن اهتمامها بالتفاصيل ومبالغتها في سرد سيرة خياليّة لعائلتها، عينا مريم تفقدان لمعانهما حين تبالغ في إعادة ترتيب قصص الأجداد وبطولاتهم التي كانت كأنّها محض افتراضات قامت بنسجها كسجادة، وأمرت بتعليقها على جدران غرف كلّ أبناء العائلة، رآها منهكة، حضورها مملّ، موقنة بأن أي شيء لن يعود إلى مكانه، كامرأة تحب أشياءها عادت من

سفرٍ بعيد لتجد شقّتها، قد عبث بها أولاد أشقياء تسلّلوا من النوافذ وحطموا صمدياتها التي حرصت عليها، كي تكون شاهدة على تأفّفها من الجهل بغية أن تكون محاطة بأشياء تذكِّر الآخرين بمكانتها.

أحسّ عمر بأنّ جملاً غير مترابطة تقولها مريم تجعل من عالمها المفتَّت شاهداً على ماحدث خلال الشهور القادمة. «لم تعد تصدِّق شيئًا» قال لنفسه وهو يتأمَّلها تنهض فجأة، تتركه يتابع شرب قهوته وحيدًا لتحمل الطعام إلى خليل الذي لم يعد يستفيق من غيبوبته إلا نادراً، يبدو فيها رجلاً مختلفًا كأنَّه كان نائمًا بعد سهر طويل، ينظر حوله باستغراب، كأنَّه لأول مرة يرى غرفة رضوان وسريره المبلَّل برائحة عرق جاهدت زهرة كي لا تفوح نتانته في المنزل، انزعجت من عمر الذي رأت في عينيه نظرات استهجان، لم تنفع زياراته المجاملة ومزاحه مع خليل في لحظات صحوه، رغم سماعها ضحكاتهما، ودفعه أجور الأطباء وثمن الأدوية اعتبرتها زهرة صدقة لصانع رافق جدّي لسنوات طويلة وإحسانًا من رجل يريد للمدينة أن تتحدَّث عن قلبه الرقيق، طلبت من مريم السماح لها بنقل خليل إلى أيّ مكان تستأجره وتعيش معه كأيّة ابنة مطيعة ليموت فيه، بعدها تحرق كلَّ أشيائه تاركةً وراءها علب دواء فارغة تثير الغثيان، وتعود إلى ترتيب حياتها من جدّيد كامرأة لرجل مطلوب رأسه ولا أمل له بالجلوس مع أسرته صباحًا لتناول الإفطار مرة أخرى، رضوان هدَّد بالرحيل مع صديقه، تفهَّم عمر بأنّ زهرة ترسل رسالة إليه فتذكر تاريخًا طويلاً من سوء الفهم الصامت بينه وبين زهرة التي لم تعجب يومًا بطريقة حياته، تذكر مشاحناته مع بكر التي كانت تصل إلى حدّ القطيعة بين الاثنين، لا تحلّ إلا بتدخُّل جدّتي الصارم.

بكر الصامت إلى حدّ الضجر، حرصه على أسراره جعله وريث جدّي في صرامته وطريقة تفكيره المنظمة عكس عمر الذي كان ضجيجه يملأ الأمكنة، يحرص على جعل إيقاعه عاليًا وآرائه عابثة حول تفاهة نظام حياتنا المبالغ في إظهار عفتنا، كي يقال كلام طيِّب عنّا في ثرثرات ومجاملات رجال، لا هم لهم سوى تقبيل أيادي المشايخ بمنحهم البركات والمسح على رؤوسهم كقطط أليفة، صراع خفي بينهما لم يحترم فيه عمر فارق السنوات العشر، أرى عمر يجول في أرض الدار وحيدًا تلفحه نسمات ربيع لم نحتف بها كعادتنا في مثل هذه الأوقات بحفلات شواء، كانت تصرّ مريم أن نجعل منها مناسبة لجمع العائلة والتسامح مع عبث الأولاد الصغار بالزهور والورود، منفردة بزوجات إخوتها وأخواتها كسيِّدة حكيمة تسعى كي تصبح الجدّة العذراء، يتغامزن على ثقل حركاتها وتكلُّمها بتفخيم زائد ويضحكن، جميعهن يحببن لها هذا الدور الذي كانت تمارسه كممثّلة بقيت طوال عمرها تلعبه ببراعة ويصفّق لها الجمهور كل ليلة بالحرارة نفسها، ثم يتحدَّثن في الممرات عن تقدُّمها في العمر وانحسار معجبيها الذين كانوا يتزاحمون للوصول إلى غرفتها في الكواليس كي يلتقطوا صورًا معها ويلمسوا أصابعها الرقيقة، تذكر عمر تأنيب بكر له أكثر من مرة أن لا يتدخَّل في حركة الصناع وهم يرتقون خدشًا بسجّادة عجمية لإخفاء عيبها عن أعين الزبائن المعجبين بهذه السجّادة الفريدة، التي فتَّشها جنود سرايا الموت أكثر من عشرين مرّة وهم يبحثون عن بكر، كان يسمِّيها جدّي بالدرَّة، بقيت خمسين عامًا تتجوَّل بين مكانها الفريد في المستودع والحائط الرئيسي للمحلّ الذي تعلّق عليه صور الأجداد التي لا تزاح إلاّ لعرضها، رافضًا بيعها، كان جدّي يبرز

صورتها ممدودة في غرفة نوم شاه إيران محمد رضا بهلوي، تسرَّبت تلك السجّادة من القصر الإمبراطوري بطريقة توحي بأنّ مؤامرة وراء ذلك، كان ينتظر جدّي ومن بعده بكر أن يرسل الشاه أو زوجته المولعة بالأشياء الثمينة استردادها عبر وسطاء، ويحلم بمفاوضات ستكون شاقة على رسل الإمبراطور والإمبراطورة اللذين يحاولان استعادة ذكرى موقع قدميهما كعروسين فخورين بمجدهما، في إحدى مداهمات جنود سرايا الموت لمستودع الدكاكين بحثًا عن أسلحة كتب أحد المخبرين أنّها مدفونة بين طيّات السجاجيد الملفوفة، أمسك بها الجنود، فردوها على أرض المستودع، داستها أحذيتهم، رموا أعقاب سجائرهم التي سارع خليل لإطفائها كنادل يخدمهم أكثر منه رجل يعرف قيمة هذه الدرة، تنفَّس خليل الصعداء بعد مغادرتهم لأنّهم لم يروا في عتمة القبو رسوم الطواويس والبجعات التي تسبح في بحيرة صغيرة محاطة بزخارف دقيقة منتظمة ومتداخلة لأعراق أزهار الياسمين مع وردة غريبة، اقتنع جدّي بأنّها خزامى بريّة، وحاول إقناع أحد الصحافيين الأميركيين بنشر ريبورتاج عنها في إحدى المجلات الأميركيَّة، حين توقف بالصدفة أمام المحل كضائع أو سائح، ترك لأقدامه أن تحمله حيث تريد، الصحافي فهم من كلام جدّي بأنّه أمام تحفة نادرة، هزّ برأسه وخرج غير مكترث، انتشرت الإشاعة في السوق بمحاولة إحدى المجلات الأميركية إجراء ريبورتاج عن هذه السجّادة، وعدم موافقة جدّي الذي اشترط أن تكون صورة الغلاف.

مرّت مئات الصور لبكر أمام عمر في حلم يقظة، تهرَّب من بكر الذي حاول محادثته من لندن وإقناعه بالذهاب إليه، لم ينس معاتبته على

توقيعه تبرئًا منه، بالإضافة إلى المعلومات التي قدَّمها للمحققين حول أصدقائه مما ساعدهم على رسم بورتريه كامل له وجعل من أمر تنكُّره صعبًا، يده اليسرى التي يثنيها عند السلام بحركة لاإراديَّة، والعرج الخفيف جداً في مشيته حين يسرع حمّلها بكر أكثر مما تحتمل، فكَّر عمر «لماذا يطلب منّا جميعًا أن نكون شبيهين به» ولم يندم. طلب في اليوم التالي من زهرة أثناء إفطارنا جميعًا أن تعتبره ضيفًا وتتصرَّف على أنّها صاحبة المنزل، وأقسم إن خرج خليل من هنا سيخرج هو أيضًا، واقترح بأريحية نقله إلى غرفة جدّي التي كان يختلي فيها لوحده حين يقبل رمضان ويتفرّغ كعادته للعبادة كزاهد جالسٍ في مغارة بعيدة مع ربه متخلّياً عن متع الدنيا، كان عمر يغمز إليه ويقول لمريم ساخرًا بأنّه ينتظر الوحي، فهمت مريم كلمات زهرة الشاكرة والمتأثّرة كيتيمة على مائدة الكرماء، تحمَّست مريم لبقاء خليل بيننا متجاوزة عرض عمر لسكن خليل في غرفة جدّي، فهي تعرف كراهية عمر لهذه الغرفة حيث كان يختلي بها بكر مع جدّي حين كان الاثنان يريدان مراجعة حساباتهما، أو التحدُّث في شأن عائلي لا يريدان لأحد أن يسمعه، رأت في نظراته ذلك اللمعان القديم المتحمّس بعد ليلة قضاها وحيداً في أرض الحوش، اضطرب نومه وصور بكر المطارد تلاحقه، أحسّ بمودّة خاصة لماضيه، كأنّه يتفهَّم لأول مرة لماذا البشر يحتاجون إلى ذكرياتهم وماضيهم إلى هذه الدرجة، بدا له الأمر مبهمًا وعصياً على الفهم إلا أنّه لم يناقشه.

في الليل عادت إليّ أحلامي كوابيسَ مزعجة، رأيت جثثًا معلَّقة بمسامير دُقَّت في السماء، تضحك وتتساقط أسنانها كحبّات البرد على

رؤوس مارّة عراة، يختبؤون في مداخل أبنية تشبه التوابيت، استيقظت خائفة، جسدي يرتجف، سمعت جلبة في أرض الحوش وهمهمات، تصاعد نشيج رضوان عاليًا، رأيت زهرة مرتمية بين ذراعي مريم التي تتمتم بآيات قرآنية . . مات العم خليل بعد صلاة الفجر، قضى ليلته الأخيرة يهذي ورضوان عرف أنّ كل شيء قد انتهى، طوى المصحف المفتوح أمامه على سورة الأنفال، وغرق في نشيج أيقظ زهرة وعمر ومريم الذين كبّروا باسم اللّه، عمر هادئ يصرّ على فتح عزاء خليل في منزلنا كأنّه يعتذر عن الجنازة المتواضعة التي لم يشارك فيها سوى أقرباء بعيدين لخليل، الذي دفن بسرعة قبل صلاة الظهر في قبر علّمته زهرة في زحمة قبور مقبرة الصالحين التي غصَّت بقبور جدّيدة لم يجد أصحابها وقتًا كافياً للعناية بشواهدها.

أيام العزاء مثقلة بالواجب والتكلُّف، لم يناقش عمر التفاصيل، ترك لرضوان حرية الخروج للتشرُّد في المدينة ثلاثة أيام بحسب رغبته للبحث عن روح صديقه، هاربًا من رائحة ملأت غرفته، في الليل يعود متعبًا، ثيابه قذرة كأنّه نام على الأدراج أو الأرصفة، يجلس قرب البحرة ويقول لمريم إن كانت تحتاج إلى البقدونس والباذنجان ليحضرها من السوق، فكَّرت أنَّه لا يريد التقاعد، لا يدخل إلى غرفته إلا بعد إغلاق كل أبواب غرفنا وباب غرفتي آخر الأبواب. ذلك المنام الرهيب عاد إليّ بألوان جدّيدة، الوجوه زرقاء وسوداء والعيون أحيانًا حمراء. مرّة أخرى الموتى يسيرون في شارع التلل متنزهين، يأكلون الكاتو، يحملون أكفانهم المبقعة بألوان زاهية مبتسمين، وجوه أعرفها أحياء وأموات ووجوه غريبة كالتي رأيتها ذات يوم إلا أنّني لم أعرف متى وأين حصل ذلك اللقاء،

بكيت بحرقة حين رأيت أمير ابن صفاء يمسك بيدي ويرشدني إلى قبره الواسع وهو يقول ساخراً «أنظري كيف نلعب نحن الأموات».

خيمت الكآبة على وجوه الجميع بعد خروج جنازة خليل وانتهاء العزاء الذي أعِدَّ على عجل، بقيت الكراسي شاغرة وتثاءب الخدم الثلاثة الذين أحضرهم عمر بزيٍّ موحد ورسمي من أحد المكاتب المتخصّصة بتقديم خدمات العزاء، أوصاهم باللباقة، فكَّر في حكمة الموت الذي يجعل من الكائن مشروع هلام ورماد وروحه ضائعة في السماء باحثةً عن مكان صلب تتكئ عليه.

في اليوم الرابع غرقت زهرة في كتابة رسائل طويلة لوصال، أخبرتها فيها بموت أبيها خليل، وصفت أيامه الأخيرة بطريقة مؤثّرة جعلت وصال تبكي بحرقة أيامها الماضية وذكرياتها معه، اعتبرت نفسها مسؤولة عن بؤس أيامه الأخيرة، في الوقت نفسه أحسّت أنّها استعادت زهرة إلى الأبد، ردَّت عليها برسائل طويلة ذكرت فيها خليل بالإسم مترحمة عليه بكلمات متكلِّفة حاولت ألا تكون باردة كمشاعرها نحوه، استعانت بآيات قرآنيَّة وسير صحابة الرسول، تعظ زهرة المحتاجة إلى من يمسح عن عينيها بريق الحزن، ويعيد إلى جسدها حيوية الانتماء إلى أنثى شبقة ورثت كل طرق المتعة، ولم تجاهر بأسرارها فبدت لمن لا يعرفها امرأة باردة لا تتقن إلا تجفيف التين والعناية بتطريز أغطية السرير.

بكر وحده يعرف طعم ذلك اللهيب الذي ينبعث كجمر دائم الاشتعال من حبيبته زهرة، التي لم تنطفئ ذكراها في ليالي لندن ولا في أيام الملاحقة الطويلة في منازل سريّة لم ينم في أيٍّ منها أكثر من خمس

ليالٍ، افتقد روائح عطرها وتمهّلها في خلع ملابسها ليتكشّف صدرها المشدود جامحًا كنهر مجنون، ثم اضطجاعها بقربه هادئة، متمهِّلة، واثقة، راغبة، مشتهاة، كخطيئة تنزلق الخطوات إليها رويدًا رويدًا ثم تغرق في الإثم كلّه لترتسم الجنّة أمامها بطمأنينتها، تحلّق الأرواح في سماواتها كطيور ناصعة البياض لم تعرف أجنحتها يومًا شراك الصيادين، لم يبقَ لبكر إلا الذكريات والجلوس أمام وصال والنظر إليها لساعات طويلة منتظرًا رفّة جفنها الذي يشبه برخامته رفة جفن زهرة.

أول الأمر توجّس الاثنان من علاقة اضطرارية بين حماة وصهر لديه الكثير من التساؤلات حول تاريخها الغامض، المثير وغير المقبول أخلاقيًا بالنسبة له، توتر في أول زيارة لها، فاجأته عنايتها به، اعتبر كرمها مبالغة تريد فيها استرضاءه، كان بكر بالنسبة إلى وصال صورة أساسيَّة في بورتريه عائلتها لن تستطيع تمضية أيامها الأخيرة دون احساسها العميق برضاه، استمعت إليه واستغرب شوقه إلى الكلام فاسترسل في وصف حالته وغربته وقلقه مشيرًا إلى برودة الإنكليز وفقدانه لزهرة، صورتها المقبلة تجسَّدت في حضور وحركات وصال التي لم تخف شيئًا، منحتها التوبة شراسة اليقين، عرفت أنّ ما يجول في رأسه من أوهام يجب أن يتبدَّد لتستطيع دخول منزله والتجول بحريّة معه في شوارع لندن وضواحيها أيام الآحاد، كامرأة هرمة تدلّل عشيقًا تبدو القوة في حركته وعينيه، حدّثته عن زيجاتها من إبراهيم يازلي إلى خليل وجون بحياد، متغاضية عن عشرات العشّاق الذين تركتهم يحنّون إلى طعم قبلاتها حين تريد ترك ذكرى لا تُمحى لرجل تكرهه أو تحبه، أسوأ الرجال بالنسبة إليها

أولئك الذين لا يثيرون غيظها أو حنانها، تدير ظهرها لهم دون ندم أو إحساس عميق بكراهية صورهم المائعة غير المؤثرة، هدنة طويلة أعلنها الاثنان بمباركة زهرة التي بدأت تتصرَّف كامرأة يتيمة، وحيدة، ضجرة من احتمالات بقائها وحيدة دون رجل لزمن طويل، تقبع رهينة ممنوعة من السفر، تدفع ثمن أحلامه التي كانت أحلامها ذات يوم، تحلَّلت من كثافة كراهيتها للطائفة الأخرى، مباركة زواج مروة، محاولة إقناع مريم بمرافقتها لزيارتها، مريم لا تحتاج إلى رجاءات كبيرة بعد ما أصبح القتل في المدينة عشوائيّاً ومجانيّاً وخطأ مقصوداً، أصبحت الشوارع غير آمنة، والقتل المتنفس الوحيد للجنود ورجال جماعتنا المتخبطين في عملياتهم الأخيرة، بعد فشل إعادة الاتصالات بين القيادة والمقاتلين المجهزين لتفجير أنفسهم بأحزمة ناسفة، والانتقام لرفاقهم الذين مثل بجثثهم وسخروا من إيمانهم علنًا، رجال الأمن تعاملوا مع المعتقلين كبشر زائدين، موت أحدهم تحت سياط الجلاّدين وكمّاشات الكهرباء لا يعني أي شيء ولا يستدعي التساؤل، بل يدعو إلى الزفير بورطة الجثّة التي لم يعد تسليمها إلى أهلها يعني أي شيء، فترمى في أيّة حفرة على عجل، يردم فوقها التراب كجيفة تفسخها يثير الملل والقرف، أعيد إلى الموت صفاته الحقيقيَّة، غياب مفاجئ وثبات لجاذبية أرضية تعيد الأجساد إلى حيث منبتها واندماج كامل مع عناصر الطبيعة، أصبح الأحياء منشغلين بالحفاظ على حياتهم أكثر من تبجيل ذكرى الميتين في مدينة كانت تحيط الموت باحترام مبالغ به.

لم تعد الرسائل تكفي صفاء وزهرة لتسترخيا كامرأتين تقضيان وقتًا قصيرًا في منزل أهلهما بعيدًا عن رتابة حياتهما العائلية، آخر رسالة من

عبد الله كانت قصيرة، غريبة ومليئة بالألغاز، يطلب منها العودة إلى منزلها في الرياض فوراً دون أن يخبرها بمكان تواجده، ورغم طابع البريد السعودي وخاتمه قلقت من مخاطبتها بهذه الطريقة، تشاورت مع عمر الذي لم يناقش الأمر، تحاشى ذكر عبد الله كما هي عادته بعد عودته إلينا.

لم يبقَ لمريم إلا تفاصيل صغيرة تحاول كل فترة إعادتها بحماس كبير قبل أن تحسّ بفقدان بريقها نهائيّاً، لتعود مرة أخرى إلى عزلة تخنقها ومصير أحسّت به يقترب مأساويّاً، يذكِّر بالحكايا التي تنسج حول وقوع بطل في الأسر وعذابه قبل أن تأتي الأميرة، تقع في غرامه وتضحي بحياتها كي تنقذه، تبحث عن نهاية لهذا الأسر، عن نافذة تُفتح مرة أخرى ليهبّ الهواء خفيفًا يجرف ظلّ الأشياء الثقيل ويعيد الخفّة إلى الأرواح المتجوّلة بحرية ومرح حقيقي، عادت للاستيقاظ مع أذان الفجر وحيدة تتوضّأ وتصلّي، تعد الإفطار وتوقظنا، ننهض بتثاقل، ببرود نتبادل تحيات الصباح ونجلس إلى المائدة كنزلاء فندق بعيد عن المدينة.

عمر اصطحب صفاء إلى مطار دمشق وتآمرا لزيارة مروة، اصطحبا معهما مريم وزهرة وولديها، مريم قرأت سورة يوسف عن ظهر قلب ودعاء السفر أكثر من مرة كي يحفظهم الله من بطش الدوريات المنتشرة على طول الطريق والتي يثيرها اسم العائلة، فيتمهّل عناصرها في تفتيشهم، يكرّرون الأسئلة نفسها عن قرابتهم مع بكر، أنكر عمر هذه القرابة وسلك طرقًا بين القرى كي يتجاوز حواجز مدينة حماة، كانت فرصة للجميع ليتأمّلوا جبال مصياف، يستنشقوا هواءً نظيفًا ويثرثروا كأنّهم في رحلة، بالغ دليلها في استعراض معارفه مما أثار الضجر في نهاية

الأمر قبل وصولهم متأخِّرين إلى منزل مروة، التي شهقت بدموعها وهي تحتضنهم واحداً تلو الآخر، أطالت عناقهم، شعروا بغربتها وشوقها إلى ذلك المنزل الذي خرجت منه مطرودة دون زغاريد خالاتي الشهيرة، حيث لا يضطررن لاستخدام أصابعهن لإصدار أصوات عالية ملحنة بجمل موسيقيَّة طويلة. كطفلة استمعت إلى تعليقات مريم التي تفقّدت المنزل الصغير المؤلف من غرفتين وصالون في منطقة خُصِّصت لسكن ضباط سرايا الموت، وهزئت من نباح الكلاب في المنطقة المهجورة، أحسّت بغربة مروة وقررت تجاهل سفورها الذي كان غصّة في حلقها لم تستطع إلاّ قولها لعمر الذي ضحك ولم يعلّق، تابع شرب قهوته وانتظار نذير الذي لم يتأخَّر كثيراً عن موعد غداء أعدَّ على عجل، رحَّب بضيوفه وبدت الجلسة رسميَّة وغير مناسبة للحديث عن أحزانه والحصار الذي جعل من مستقبله المهني كضابط طموح ذكرى قديمة، أصبح الخلاص من ورطته كضابط هو ما يشغل باله، تذكَّر بدايات حماسه في الكلية الحربيَّة ثم دورات القفز المظلِّي التي أثبت فيها مقدرة فائقة، كلَّما نظر إلى الأوسمة المركونة في خزانة صغيرة أحسّ بخيبة أمل لم يفهمها رفاقه المندفعين لحماية النظام، وفي أحاديثهم السرية كانت تتردد المهمّة المقدَّسة بحماية طائفتهم المهدّدة، كما كان ينهره قائده ويذكّره بأنّ ما فعله بزواجه من أخت بكر العدو الرئيسي لهم ليس فعل طيش أو نزوة عابرة إنما هو انحياز للضفّة الأخرى. لم يستمع أحد إلى وصفه لوجهها البريء قرب فراشاتها في عصر ذلك اليوم حين التقت نظراتهما وانتشلته من فزعه وحياده تجاه الأشياء، قلقه من الدور الذي رُسم له، لم يقفز في المظلاّت كي يحاصر المدن ويقتل المدنيين، مروة أنقذته وأعطته الإحساس

بالغفران، مسحت برغبتها العميقة روحه المغبّرة بهواء الكراهية، أنعشت حلمه القديم بالعيش خارج الطائفة المقدَّسة، أصوات النساء الأربعة وضحكات صفاء جعلت نذير محرجًا، عرض على عمر التجوُّل في الساعات القليلة المتبقية على سفر صفاء والتسكُّع في مقاهي دمشق، تاركين النساء لشؤونهن وتبادل أشواقهن بحرية.

لم أنتبه إلى أنِّي تُركت وحيدة مع رضوان إلا حين هبط الظلام وتذكّرت بأنَّني لم أتناول غدائي، نهضت مسرعة، دخلت إلى المطبخ ونظرت إلى بقايا الأطعمة المتنوّعة في الصحون، حاولت استحضار حالة الحماس لكن وهن جسدي جعل حركتي ثقيلة وغير متوازنة، ارتميت على الكرسي قرب النافورة وبدأت الوحشة تغزو قلبي، أحسست بهبوطها على الدرابزونات ومزاريب الحجر، فكرت بأنّها المرة الأولى التي أكون فيها وحيدة مع كل هذه الغرف الخاوية والأسرّة الباردة، أقنعت نفسي بأنّني لن أغفر لمروة، ومريم ستعود إلى موقفها السابق. كجرذ خائف جلست دون أن أحرِّك ساكنًا متأملة الليل الذي هبط بلسعة برد خفيفة ومنعشة، جعلتني أدخل إلى غرفتي أتأمّل فراشات مروة بهدوء كأني أبحث عن حقيقة مشاعري تجاهها، محاولة توصيف الانقباض الذي يمسك بقلبي، يحيلني كتلة ثقيلة تدب ببطء على الأرض الصلبة. فكرت لأول مرة بثقل الأشياء وأجسادنا وكثافة أرواحنا إلى درجة تنعدم فيها الخفّة، كأنّي اكتشفت ما أبحث عنه حين رأيت فراشتها ذات الأجنحة السماوية المنقّطة بالأصفر مصلوبة، ثابتة برأسها النابق تستغيث لإنقاذها من صمغ يجمِّدها ويمنعها من الطيران، اقتربت من الفراشة كأنِّي أرى

طيف ابتسامة امرأة صابرة على شفتيها، أكملت التفكير بثقل الأشياء وكثافتها، ثقلنا على الأرض حين نخطو بخطوات متمهلة، ثقل الأشجار حين تحيطنا وثقل الموتى حين يتحرَّرون من أرواحهم الخفيفة فيغدون كيلوغرامات محدَّدة لا تنقص ولا تزيد، ثابتة في تجاويف أرض تعيد ابتلاعهم بينما أرواحهم كالفراشات تجول بحرية. خطر لي أن أخرج الفراشة وأصلّي كي تعود روحها إليها، وتستعيد خفّتها التي تمنع ثقلها أن تحطّ وتجثم على الأرض المنبسطة. اشتقت إلى مروة، قلت لنفسي وتابعت «لن أسامحها» أكملت واختلطت الألوان مرّة أخرى، أحسست بغثيان واختناق إبعاده وعدم التفكير فيه مجرد أكذوبة، كقيح يتجمع داخلنا ولا يجد طريقًا لينسرب أصفر كثيفًا، تاركًا مكانه ليموت بإرادته مستمتعًا بروائحه الكريهة التي تنتشر في الفضاء، وتجعل أجسادنا تشعر بطمأنينة زائفة أنّ كل شيء على ما يرام.

خرجت من غرفتي واقتربت من غرفة رضوان، تمهّلت كي ألتقط حركة أقدامه أو يديه تركّبان عطرًا أو تتحسّسان الأشياء، لم أسمع سوى صوت شخيره، فتحت الباب وفي الظلام رأيته ممدَّدًا على سريره وغارقًا في نوم عميق، أشعلت الكهرباء بهدوء، رأيت جسده النحيل ورأسه الصغير دون قبعته التي أصرّ على عدم تبديلها بعمامة كباقي العميان، عيناه غائرتان وظلّه خفيف كأنّه يطير فلا يزعج الأرض بثقله، أحسست بتعاطف كبير معه وأنَّبت نفسي، كراهيتي منعته من مسامرتي في وحدتي، خطر لي إيقاظه والبكاء بين يديه، أرعبتني فكرة البكاء بين يدي خادم، أغلقت الباب وعدت إلى سريري مثقلة بالكراهية، اقتنعت أنّها

تنقذني من تعاطف سخيف يهدِّد وجود القوة داخلي، ويجعلني ريشة تبحث عن مستقر لها في أرض مائعة دون حدود.

عدت إلى سريري، غرق المنزل في ظلام وسكون اخترقه صوت رصاص قريب جداً، بدأ متقطِّعًا وخفيفًا ثم غزيرًا، أصوات رشاشات وقنابل وصرخات الله أكبر، المعركة قريبة إلى درجة ظننتها تجري في الغرفة المجاورة. فزعت أول الأمر، ثم تماسكت وخرجت إلى أرض الحوش غير خائفة، كان رضوان قلقًا يتخبَّط في مشيته، جمدت مكاني كي لا أثير انتباهه، أردت مراقبته وعدم مساعدته، صرخ باسمي أكثر من مرة ولم أرد، تابع مسيره نحو غرفتي، خائفًا يتحسَّس سريري، وقفت على باب الغرفة وطمأنته «أنا هنا». استرخى قليلاً وكممثل مسرحي يعلن حقيقة يعرفها الجميع، قال «إنّهم يتقاتلون». كان صمتي إشارة فهمها رضوان إلى عدم رغبتي بالحديث، جلس على درج المطبخ كأنّه يختبئ في مكان آمن، صرخات «الله أكبر» ممتعة، تمتمت دون إرادة منِّي بدعاء طويل حفظته حين كنت أجلس قرب الحجّة رضيّة مرتجفة من الوجد، كنت وقتها كل ما أرغب فيه القرب من الله ورابعة العدوية تتراءى في أحلامي امرأة من نور تتسرَّب إلى قلوبنا لتمنحها الطمأنينة، تمتمت بالدعاء واشتدّ القتال، سمعت أصوات الرصاص الغزير وقذائف الآر بي جي، حاولت رسم المشهد وسط زعيق سيّارات الإسعاف المسرعة إلى المكان، قدّرت أنّ القتال في مفرق الشوارع المؤدِّية إلى منزلنا، تخيَّلت أنّني أنتظر أحدًا سيهبط من الأسطح إليّ. لأول مرّة لا يُرفع أذان الصبح، مُنعنا من فتح الأبواب، صمت الرصاص فجرًا ودخل الجنود إلى منزلنا،

قلّبوا كل شيء غاضبين، رفسوا الأبواب، حاول رضوان الاستفسار عمّا يبحثون عنه فنهروه بقسوة ورموه أرضًا، رأيته يرتجف خوفًا وهو يرد على أسئلتهم ويخبرهم بسفر أصحاب المنزل، ولأول مرة سمعته يصف نفسه بخادم الأسرة، ويذكّرهم بأنّ هذا المنزل يخصّ المقدم نذير المنصوري، تبادلوا نظرات مستفسرة فيما بينهم ثم خرجوا غاضبين، متوترين، أياديهم على الزناد مستفزّين، اكتفيت بكراهيتي لهم دون أيّ اعتراض على قذفهم صرر مريم وأشياءنا إلى أرض الحوش بهمجية أحالت المنزل إلى فوضى اختلطت فيها الأشياء، فتّشوا منازل الحارة وبصقوا في وجوه الرجال، ركعوهم على أقدامهم لساعات طويلة لم يجرؤ خلالها أحد على الحركة أو الاعتراض، كانت وجوههم تفصح عن خوف شديد لم يعرفوا الإفصاح عنه أو جعله شديد الوضوح في بحثهم عن أسباب تجعل رجولتهم هدفًا للإهانة لمجرد تواجدهم في محيط معركة، بدأ يجاهر أغلب سكان المدينة بأنّها لا تعنيهم، بعد صلاة الظهر انسحب جنود سرايا الموت من المنطقة وتنفّسنا الصعداء.

خرجت من المنزل تاركة رضوان يرتجف خوفًا، آثار الدماء على حائط المنزل المجاور لحنفية المياه، أناس قليلون تجرّأوا على الوقوف وتفحُّص الخراب وآثار معركة الأمس؛ لم يلحظ أحد دموعي تبلّل غطاء وجهي حين رأيت جندياً من سرايا الموت يوزّع الجريدة المحليّة مجانًا، نشرت صور اثني عشر وجهًا منتفخًا وجثّة متفحّمة تحت عنوان عريض يصفهم بالمجرمين القتلة وصورة لجنود يرفعون شارة النصر، يرقصون حول الجثث والأسلحة التي صُفّت بعناية للتصوير في إشارة إلى مصادرتها

من معركة الأمس، ندمت لأنّي لم ألحظ هذا المنزل من قبل، لم أتوقف مع ذلك الشاب الذي كانت صورته الثالثة إلى اليمين، الحروق على رقبته كأنّها ذبحت بسكين مثلَّم وعلى عجل، كنت أراه مسرعًا، يرفع نظره نحوي بتصميم من يريد تأمُّل تفاصيلي ورؤية عينيَّ من تحت غطاء الوجه، لم أستسغ وقاحته ولم أعرف إلا متأخِّرة أنّه خائف ويريد الاحتماء بي، وجهه الحليق الناعم ولباسه الأنيق دومًا جعلني أظنه صائد نساء.

لم أنم الليلة الثانية، قلقت، تقلَّبت في الفراش، أعددت العشاء دسمًا، بيضًا مقلياً باللحمة وشرائح مخلل الخيار بالإضافة إلى كمية لا بأس بها من جبنة بيضاء اكتفى رضوان بشريحة صغيرة منها، حاولت إطالة مدّة بقائه جالسًا معي إلى مائدة العشاء كي يطرد وحشتي، الملل تسرَّب إلينا وشكَّل حاجزًا ثقيلاً بيننا كأنّنا نستعجل رحيلنا إلى غرفنا والاكتفاء بالتحديق إلى بقايا الذباب على شريط الكهرباء المتدلي بلمبة شاحبة، لم تستمر اللعبة طويلاً، لم يفدني تمدُّدي في السرير مكابرة واستدعائي لصور قديمة من أيام المدرسة الثانوية، كانت وجوه القتلى في الجريدة تجعل من المستحيل الهرب منها، حاصرني وجه الشاب القتيل، استرسلت في حلم يقظة طويل، ركّبته كفيلم سينمائي طويل، تجرّأت على اشتهائه وحاولت طرد صورته قتيلاً، أتيت به إلى سريري ولم أستطع إكمال المشهد كأنّه لا يريد أن يكون إلاّ ميتًا، زاهدًا بكلٍّ ما ينتظره من متع، تقفز صورته وهو ميت لتفسد كل شيء، وتشعرني بالتقزُّز حين أتخيَّل نفسي أضاجع رجلاً ميتًا صباح هذا اليوم ولا أحد يعرف إن دُفنت جثته أم ما زالت في برّادات أحد المشافي.

دومًا أصل متأخِّرة، موتهم يؤنِّب ضميري كأنَّني قاتلتهم لأنَّني تركتهم يذهبون بعيدًا عنِّي، رغم إيماني بأنّهم يعبِّدون الطريق كي نصل إلى دولة الإسلام التي حلمنا بها، كدنا نلمسها كما ألمس برودة هذا الجدار الآن وأرجوه أن ينزاح قليلاً كي لا أختنق كبعوضة في ثقب يؤدي إلى متاهة، أرعبتني فكرة حاجة جسدي إلى الجنس، لمت مريم على تركي وحيدة رغم حماسي لهذه الوحدة، التي اعتقدتها فرصة لترتيب أفكاري بعد انقطاع الجماعة عني لشهرين متواصلين، خمَّنت أنّها أوامر بكر من لندن أو خوف أعضاء القيادة الذين اختلف معهم في تحديد موعد لإنهاء العمليات العسكرية والعودة إلى التفاوض مع الشيخ محمود الحريتاني الرجل الجليل الذي بعثت به السلطات بعد أن قضى الشتاء الماضي مرتديًا ثوب كتان رخيص ومطوقًا رقبته بسبحات كهرمان مشع داعيًا إلى إلقاء السلاح واصفًا جماعتنا بالضلال والخروج عن تعاليم الإسلام بقتل الأبرياء، لم يجد أحد طريقة لإسكاته إلا بقتله تاركًا دمه يضيع بين الطرفين، ليفسح طريق التفاوض أمام الشيخ جميل النيربي الذي عرف بفتاويه التي تبرِّئ السلطة من أفعالها، اعتبرها دفاعًا عن النفس مما أكسبه عداءنا الشديد رغم شعبيته المحصورة في مريديه المستفيدين من نفوذه.

كان الشيخ جميل متحدثًا لبقًا ما زالت تخيِّم عليه في لحظات قليلة ظلال أزهرية قديمة حين كان طالبًا أواخر الخمسينات، يحلم في أروقته الباردة بالجلوس على كرسي الإفتاء قرب الملوك محاولاً محو صورة أبيه الشيخ الذي خرجت حلب في جنازته إجلالاً لزهده ودفاعه عن الحقّ بالإضافة إلى صحبته الطويلة حين كان صبيًا صغيرًا مع عبد الرحمن

الكواكبي، تاركًا وراءه ثلاثة أطفال ينامون في غرفة واحدة على فراش قطن غير مندوف وأغطية خشنة، بينما أولاد المشايخ الآخرين يرثون الطرق والزوايا، تُقبّل أياديهم حين يدخلون إلى الجوامع بالإضافة إلى تجارتهم السرّيّة، كره جميل تلك الصورة الوحيدة المعلقة في صدر الغرفة لآية الكرسي المغلّفة بنايلون سميك، حلم بإطار من الذهب الخالص لصورة والده الذي تحوَّل قبره إلى مزار لنساء يبحثن عن حلول لمشاكل عقمهن وهجر أزواجهن، بحث بصمت في القاهرة عمن يسرُّ له بأحلامه، كاد أن يصل إلى حدّ اليأس، وجد ضالته أخيرًا في أحد أساتذة الفقه الذي أهداه كتاب الأمير لمكيافيللي بعد نقاش طويل حول إلحاد النظم العلمانية في سورية ومصر وحقّ الخلافة، أعجبه نصف الرأي، والحذر قبل الاستماع إلى الرأي الآخر أعجب أستاذ الفقه الذي كان عائدًا من السعودية، حيث تنعَّم لسبع سنوات بعطايا الملك الذي أُعجب بديماغوجيته وفهمه لصراعات الأسرة الحاكمة التي اتقّى رياح خلافاتها بذكاء، تحدَّث الاثنان في باحة الأزهر وسارا في الأماسي على كورنيش النيل مستعيدين حوارات الفقهاء المسلمين حول شرعية السلطة والخلافة، انكبّ على قراءة كتاب الأمير لمكيافيللي بشغف وبإنكليزيّة أتقنها بمجهود شخصي بمساعدة مدام جانيت، المعلمة المسيحية المتقاعدة التي كانت تفكِّر ذات يوم بإشهار إسلامها أمام أبيه، جلست بين يديه باكية، شاكية قلقها الروحي، باحثة عن الغفران الذي لا يستطيع المسيح تخليصها منه، متحمِّسة للتحوُّل إلى الإسلام، هدأت قليلاً وبقيت على مسيحيتها بعد تجريبها حجابًا ثقيلاً أمرها أبو جميل بارتدائه قبل النطق بشهادتين لم تنطق بهما، بقيت امرأة تائبة وبحاجة للمساعدة بالنسبة للشيخ الجليل، شكّلت الجلسات العشر بداية صداقة مع

عائلته ستستمر إلى أزمان طويلة، عرفانًا بالجميل لمن امتصّ قلقها وهدأ من خوفها من النار والجحيم لما ارتكبته من معاص أيام التشرد في أزقة بيروت مع شباب فرنسيين ولبنانيين متهتكين قبل عودتها إلى حلب أواخر أيامها، علّمت أبناء الشيخ أبو جميل الإنكليزيّة دون مقابل، اهتمت بأمورهم ولم يصمد سوى جميل، الذي اعتبر وجوده في منزل امرأة مسيحيّة نظيف ومرتّب بذوق منحة له تستأهل الحفاظ عليها باستعراض ذكائه وطبعه الدمث الذي ينبئ بالكثير فكانت أمًّا ثانية له، بعد سنتين أصبحا يتحدّثان بالإنكليزيّة فيما بينهما ويتباريان بترجمة نصوص الحلاّج المتصوّف العظيم العصية على الترجمة لما تؤديه مفرداته إلى معان مختلفة، استعاد جميل ذكرى تلك الأيام، وأحسّ بشوق لا يقاوم لمدام جانيت وهو منتش باكتشافاته أنّ الاستبداد يحتاج إليه وإلى المشايخ أكثر من مجموعة سياسيين اعتادوا الشجار والتراشق بالكراسي في مبنى برلمان انتهى مع وحدة، هلّلت لها الحشود المندفعة وراء سيّارة جمال عبد الناصر في حي الكلاسة الحلبي مؤلّهة البطل الأسمر الذي سيعيد للأمة أمجادها.

كتب لأستاذ الفقه رسالة طويلة بحبر أخضر صيني وبخط أنيق افتتحها بسم اللّه والصلاة على النبي، وصف له حالة الناس في حلب الذين علّقوا صورة عبد الناصر كمخلّص، شكا له قلّة الاهتمام بفتاويه التي لا يدفع أحد ثمنًا لها، عرج على غلاء المعيشة وحال ولديه الصغيرين اللذين بلغ أكبرهما الخامسة من عمره والصغير دخل عامه الثالث محرومًا من الأحذية الجلديّة، ورجاء تزكيته عند أمراء السعودية كحل مؤقت إلى أن ينتهي هؤلاء الكفرة من هياجهم وتعود سلطة المشايخ إلى مكانتها. ضحك

أستاذ الفقه من كلمات تلميذه الأخيرة، أثار اهتمامه توصيفه لما يحدث بسورية بالرمال المتحركة التي لن يتضح ثباتها قبل أعوام طويلة قد تتجاوز العشرين، أعجبته لهجته المتواطئة والذليلة، فبعث برسالة إلى الديوان الملكي ترجو الاستفادة من علم تلميذه الغزير الشيخ جميل النيربي، كما وصفه بجمل فخمة يستدل من إنشائها على التبنِّي، أيام قليلة كان الاستدعاء يصل إلى الشيخ جميل الذي حزم حقائبه مسرعًا كهارب من جحيم لم يستسغ طعمه، متحمِّسًا لوجوده قرب منابع النفط والإيمان وكرم الأمراء، مستعيداً في ذهنه كلمات أستاذه «ابتسم في حضرة الملوك».

لدى وصوله إلى السعودية أحسّ بأنّ الطريق أمامه طويل للوصول إلى مجلس العطايا الملكيّة، قَبِل تكليفه بتدريس الحديث الشريف في إحدى المدارس الدينيّة المتواضعة في أطراف مكّة، تأمَّل المكان وحزم أمره بالاقتراب من دائرة الضوء، صلى وراء مفتي الديار الإسلاميّة وتبادل معه حديثًا قصيراً، استعرض أمام المفتي معلوماته وفصاحته ثم كتب في الصحافة سلسلة مقالات عن الحجّ وشعائره، نشط في مجالس النقاش متحاشيًا الاصطدام برجال المفتي، قرَّر أخيرًا الانكباب على تأليف كتاب عن الوهّابيّين وإهدائه للملك الذي قرَّر ديوانه استدعاءه أخيرًا، فتح باب ذلك المجلس له، قدَّم النسخة الأولى من كتابه الذي يبرِّئ الوهّابيّين ويرد على حجج أعدائهم، معتمداً على مصادر من سبقوه بتأليف تاريخ الأسرة الحاكمة من باحثين أجانب وعرب وفقهاء، ركَّز على طاعة أولي الأمر، مُنزلاً الملك وأسرته بمنزلة النبي مادحًا أفعالهم بخدمة الحرمين الشريفين.

انتظر مقابلة الملك الذي بعث إليه بعشرة آلاف دولار، لم تُشعره بالرضا، أحسّ أنّه أخطأ حين تسرَّع في استخدام أقصى درجات المديح دفعة واحدة كواحد من الرعية، نكرة دون مؤيِّدين يقبِّلون يده لدى دخوله إلى الجامع أو يصغون إليه حين يتحدَّث بفصاحة، مستعرضًا معلومات تاريخيَّة عن خلافات أئمة الإسلام حول تفسير حديث نبوي، بدا مملاً لهم، خلال سبع سنوات أحسّ أنّه يتآكل في وحدته وسط تلاميذ حفاة يتثاءبون حين يُسهب في شرح الحكمة النبوية في الطهارة، محتقرين ابتسامته الصفراء الدائمة الارتسام على وجهه مقلِّدًا رجالاً صابرين تواطأت الدنيا عليهم، بهتت أحلامه، أحسّ بفراغ مكّة يضيق ويخنق الهواء في صدره. حج للمرة الأخيرة وقرَّر العودة إلى حلب مع الأموال التي جمعها من تقشفه وانتظاره الأعطيات، كأيّ فقير ينتظر صدقة أولياء تلاميذه والأمراء المحليين المهملين في مجالسهم.

أحاط عودته بأساطير الرسائل المستجدّية لبقائه في السعودية التي كان يقرأها أمام مستقبليه في منزله الجديد الواسع. محاضراته في المعهد الإسلامي وخطبه الرنانة بعد هزيمة حزيران حين اضطرّ لصعود المنبر بدلاً من الشيخ عبد الجبّار الذائع الصيت أثناء إحدى غياباته لمرض طارئ، في منتصف الخطبة الشهيرة أحسّ بأنّها فرصته الكبيرة حين قرأ الذهول والخشوع في عيون جميع مصلي الجامع الأموي، استرسل في مهاجمة الفسق والفجور، محمِّلاً مسؤولية الهزيمة لتهتُّك الكفرة في البارات والكازينوهات وألبسة النساء القصيرة. بعدها استدعاه أحد ضباط الأمن، أنَّبه بقسوة على خروجه عن النص معتبراً أنّه تجاوز الخطوط الحمراء في

تحريض الناس ضدّ الحزب الذي أنهكته الخلافات الداخلية، خرج بعد ثلاثة أيام من فرع المخابرات بطلاً تتحدَّث عنه المدينة وتطلب بركاته، يُدعى إلى مجالس كبار العائلات ويأتي إليه تجار كبار لحلّ خلافاتهم.

بعد سنوات قليلة تمكَّن الشيخ جميل من اختراق حاجز دار الإفتاء، معيداً الاعتبار إلى سيرة والده التي اكتشف فيها كنزاً لا ينضب، اهتم بمزاره الذي أقامه أحد أثرياء سوق المدينة كعرفان بالجميل لوقوفه بجانبه، وإنقاذه من الإفلاس حين أقنع شركاءه بالتغاضي عن خسارته في كازينو بيروت أموالاً طائلة، وأعلن توبته على يدي الشيخ جميل أمام المجلس الذي ترقرقت الدموع في عيون بعض جلسائه.

تحدَّث الشيخ جميل إلى أستاذه مطوَّلاً في القاهرة، أدرك الأستاذ أنّ تلميذه لم يعد ذلك الأبله الممتلئ بأحلام صغيرة، أثنى على قراءته للمشهد السياسي المضطرب في سوريا ومصر، لم يطل الأمر حتى كان على رأس وفد من رجال الدين وعلماء حلب يباركون بانقلاب السادس عشر من تشرين الثاني، مهلِّلين للقيادة الجدّيدة المؤمنة متقدِّمين بمطالبهم في بيان مكتوب بإشاعة روح الإسلام ومحاربة الفسق وبناء الجوامع، صلّوا في القصر الجمهوري ثم تناولوا العشاء إلى مائدة الرئيس الذي وعدهم خيراً، كانت صورته إلى جانبه عنواناً لحسم خياره بأنّه وجد أخيراً ما يبحث عنه، الوقوف إلى جانب رجال أقوياء وبحثه في بطون الكتب عن مبررات لأفعالهم، حوادث تاريخيَّة جرى قسر تفسيرها لتتشابه مع صفات بطولة، كان الحكّام الجدد يحتاجونها لينهوا نزاعات رأوها فارغة، ما دامت هي قوانين مكتوبة من الممكن صياغة عكسها وفرضها كأمر واقع.

عمل الشيخ جميل دون كلل، فُتحت له أبواب المتنفذين ليصبح إحدى علامات الإفتاء، مستفيدًا من معارك الكواكبي الذي كان يحدثُه أبوه عنه ويبكي من شدّة الوجد بهذه الشخصيّة التي لم تنحن أمام العواصف، فخسر كلّ شيء حتى جثمانه لم يرتح في مدينته التي أحبّ هواءها الجاف بل رمي بإهمال في إحدى مقابر القاهرة.

بعد سنوات قليلة كان ضبّاط المخابرات يضيفون إلى ملفاته وثائق وصورًا لأبنائه المتهتكين، الذين دخلوا شراك التهريب مع ضباط كبار وتجار لمعوا فجأة في سماء المدينة وفرضوا قوانينهم الجدّيدة، بالإضافة إلى جرد كامل بكل المبالغ التي قدَّمتها السلطة له كهدايا، وثمنًا لخدماته الكبيرة والألقاب التي وزعتها عليه فوصفته بالرجل الجليل والمؤمن، كادت أن ترفعه إلى صفة التقديس بعد ازدياد المندسّين في حاشيته، الإشاعات عن كراماته تحدَّث بها تلاميذه حتى غدت حقائق، حين يسأل عنها يهزّ برأسه وتنهمر دموعه كرجل تقف الرؤيا على باب منزله منتظرًا خروج الغرباء، لتتجلَّى له كرسالة إلهية ترسم خطاه وتبارك الزبد المتناثر من فمه حين يقف خطيبًا في جوامع تقاسمته. اعتبر نفسه وليًا مقبلاً، سار على طريق الآلام حتى وصل إلى تلك العصا التي أمسكها من المنتصف، مخفيًا الكثير من الأسرار عن علاقاته مع ضباط مخابرات، كانوا يفهمونه بطرقهم أن ملفه قد وصل إلى ستمائة صفحة ومن الممكن نشره في أيّة لحظة فلا يبقى أمامه إلا الانحناء أكثر وتقبيل الأرض بين أيديهم.

أدرك منذ أول بيان وزعته جماعتنا معلنة بداية الجهاد أنّ الوضع أصبح معقَّدًا، هذه الأزمة قد تضيّع كل ما بناه، لم يبق أمامه أية فرصة

للصمت أو التراجع، هاجم عمليات الجماعة علنًا وأحاطه حرّاس شخصيون خوفًا من قتله، أصبح وجهًا مألوفًا في التلفزيون الرسمي يعدِّد صفات الرئيس، يمتدح إيمانه ويحاول جاهدًا أن يحافظ على احترام الناس له، حين اختاره رئيس الجمهورية للتفاوض مع الجماعة على إنهاء النزاع حاول التقرُّب من الجماعة في أول جلسة متحدِّثًا عن صلح الحديبية باستفاضة، لم يعرف بأنّ ملفّاً في الجانب الآخر ينتظره وضع أمامه، دُوِّنت كل كلماته وخطبه ووُضعت بقلم بنفسجي خطوط عريضة تحت فتاويه المخالفة للإسلام مع تعليق يصفه بخائن الإسلام، لن ينسى أحد من المجتمعين في البيت الذي اقتيد إليه بعد عصب عينيه، دون احتجاج منه، ذلك الحديث الصريح الذي فاحت منه رائحة المؤامرة والسياسة أكثر من احترام العقيدة، وضع مطالب السلطة على الطاولة أمام رفاق بكر قرأوها بإمعان ولم يحتاجوا لوقت طويل كي يعدِّدوا له أسباب المفاوضات ملمّحين إلى عدم الثقة بالسلطة وإلى قوتهم، حاول جعل الحوار طويلاً كأيّ حوار بين رجال عصابات، ضائعًا في تفاسير الآيات والأحاديث وتأويل الحوادث التاريخيّة التي استشهد بها بكثافة من أيام الخلفاء الراشدين إلى معاوية، ثلاثة أيام قضاها الشيخ جميل بين الأوراق والنقاشات، حاول قدر الإمكان الصمت كي لا يخطئ في جو مشبع برائحة الدم المنبعث من أيدي الطرفين الذين صافحهم، مستعيداً درس أستاذ الفقه وعبارات كاملة من كتاب الأمير الذي بقي كظلّ سرِّي لا يفارقه، أبدى قدرة كبيرة على احتمال إهانة الطرفين له مستعيداً ذكرى عزلته المؤلمة في السعودية.

في اليوم الرابع أبلغه ضابط الاتصال بإنهاء المفاوضات، في الليلة ذاتها بعد هبوط الظلام، وفي ساعات منع التجوُّل الذي استمر لأشهر خرجت السيّارات العسكريّة وحاملات الجند من الثكنات بكثافة غير معهودة لتحاصر أحياء بأكملها، وتداهم ستة وسبعين منزلاً منهم ستة منازل كانت مراكز لاجتماع القيادة ومستودعات أسلحة، استمرت المعارك أكثر من اثنتي عشرة ساعة وبقيت تفاصيلها غامضة، مع انتشار الإشاعات صباحًا وتبادل بيانات صمَّم كل طرف فيها على انتصاره في معركة الأمس، الخسائر المؤلمة جعلت اجتماع قيادة الجماعة المرتجل بعد ثلاثة أيام يركِّز على الانتقام، بعد أيام قليلة دخل أربعة شبان ملثمين إلى دار الشيخ جميل بينما كان يتوضّأ، أمسك أحدهم برقبته والآخر ذبحه بسكين تاركًا جثته قرب مصطبته المخصَّصة لتناول القهوة المسائية قبل خروجه إلى مجلسه، فوجئ أولاده به وقد تخبَّط بدمه، مستائين من موته الصامت الذي لم تعوِّضه الجنازة الضخمة التي اخترقت شارع الخندق وسط حماية الجنود، باستعراض مبالغ به أظهر ولداه قوة نفوذهم، أظهروا برقية رئيس الجمهورية التي تتوعَّد بالانتقام من القتلة المجرمين، بينما في الجانب الآخر كانت قيادة التنظيم تتراشق الاتهامات بقتل رجل لا يمكن وصفه إلا بالبعوضة، أقسم الجميع على القرآن أنّ الجماعة لم تقتله، تلقى أولاده ومريدوه رسالة من التنظيم تستنكر قتله، عباراتها الجافّة والصارمة لا تكنُّ له الاحترام اللائق، أخفى ولده الأكبر الرسالة وبدأ يعدّ العدّة لوراثته بعد ليل طويل قضاه وحيدًا في مزار جدّه، صامتًا وسط الظلام، في الصباح وضع عمامة أبيه المركونة قرب سريره، مستعيدًا معارفه التي ورثها عن أساتذته الجدد في كلية الشريعة، وأبناء

السوق شركائه وأصدقائه؛ كخلد ترك لقدميه حرية الحركة وسط الظلام مدركًا أنّ الزهد صنع الأولياء والقوة صنعت رجال الدولة، دون تباطؤ أفصح عن استعداده لقبض ثمن دم أبيه.

حاولت طوال الليل طرد صورته وسيرته التي أثارتني، من ابن شيخ زاهد إلى رجل سلطة معمّم يبرِّر هيمنة الطائفة الأخرى وظلم طائفتنا، الوحشة خيَّمت على أرض الحوش، لم تنقذني محاولة الجلوس على الدرج ومراقبة النباتات وتمايل أغصان شجرة السرو العملاقة في زاوية الحوش قرب غرفة رضوان، قرَّرت الاغتسال بماء بارد موهمة نفسي بأنّ شهر أيار دومًا يجعلني قلقة كزهرة تنتظر غبار الطلع المتأخِّر، وقفت تحت الدش، أغمضت عيني محاولةً مقاومة برد تغلغل في مساماتي، قطعت أرض الحوش متلفعة ببرنص قديم وجدته ذات يوم مرمياً على كنبة في غرفة مريم، أعجبني لونه الأحمر المخطّط بأزرق فاقع فاحتفظت به، كأية متهتكة لا تخشى عيون المتلصصين خرجت به من الحمّام متراخية للحظات، كحمامة بجناحين من قماش يدغدغها نسيم الصبح ولسعات برودته، اضطجعت على سريري وتحسَّست أعضائي، نهديَّ أول الأمر، شهقت مستغربة خفة أصابعي بانتقالها إلى بطني وعودتها إلى حلمتي خوف إكمال ارتكاب المعصية، استرخى جسدي وأحسست بنعومة اللمس، أغمضت عينيَّ وتركت أصابعي تنسحب إلى عضوي الذي تبلَّل بمجرد ملامسته، انتابتني رعشة المعصية التي هربت منها طويلاً، تابعت متلذِّذة ومتقلِّبة على المخدات الناعمة، لم آبه بالنافذة المفتوحة ولا بصوتي خائفًا ومتقطعًا ثم منسجمًا ولذيذاً، عبرتني صور رجال أموات حلمت بهم وضحكات بنات صفي.

لا أعرف الوقت الذي قضيته حتى أحسست بالوهن ورغبت بنوم لم يبقَ لي سواه لإنقاذي من تأنيب الضمير الذي لازمني، رغم استمراري بلمس أعضائي مستدعية شهوة رعشة أثقلتني ببرودتها بعد قدومها دافقة، حارة، لذيذة، كأنّي أكتشف سحراً يريحني من توتري. استيقظت على وقع خطى رضوان وصوت آذان الظهر، هرعت مسرعة للّحاق بموعدي، فراغ في ركبتي ووجع في مفاصلي، متعبة، قدَّرت أنّ الليلة الغريبة التي مرّت قد أوهنت جسدي، لم أنتظر طويلاً في ساحة الجامعة حتى اقتربت منّي امرأة كبيرة وطلبت مساعدتي في الوصول إلى منزلها، قالت كلمة السرّ الأولى ببرود، ثم وضعت يدها عليّ كأنّها تتعكّز. صعدنا إلى تاكسي عمومي ثم صمتنا، وصلنا إلى شارع هادئ في حي حلب الجديدة، دخلنا إلى شقة أرضية في بناية لم تنته عمليات إكسائها بعد، في صدر الصالون الواسع كانت الحجّة سعاد جالسة قلقة، كنت آخر الواصلات، قبلتني على عجل، طلبت مني عدم خلع الحجاب، بعد دقائق فتح الباب ودخل الأمير شكري، كدت أشهق من المفاجأة، وجهًا لوجه مع الرجل الذي عرف بصلابته وثقته بنفسه. كنّا نسمّيه فيما بيننا بالأمير المؤمن، شعَّت ابتسامته الحزينة، تأمَّلنا بهدوء ثم توقَّف عندي بنظرات طويلة، استفسر على عجل عن مروة وزواجها وموقف أخوالي، غمغمت بكلمات غير مفهومة ومرتبكة ثم استعدت قوتي، فتحدَّثت عن رأيي بأنَّني أعتبرها خارجة عن أعراف الطائفة، خالفت أوامر بكر ونكَّست رأس عائلتنا، هزّ برأسه متفهمًا حماسي.

كان الوقت الذي سيقضيه معنا قليلاً، نظر أكثر من مرة إلى ساعته، بدأ الحديث بعد صمت جميع البنات اللواتي حاولن خلق جو مرح، وهن

يستعرضن آراء الناس في المنازل والشوارع ويشدِّدن على وقوفهم معنا ودعاء الآلاف لنا بالنصر، استغربت التفاؤل الذي استعرضنه بكثير من الثقة وقفزهن عن ذكر حقائق أنّ الخراب الذي حلّ بالمدينة يحمّلنا الناس جزءاً من مسؤوليته، قرَّرت الإفصاح عما في داخلي برسم صورة حقيقية كما بدأت أراها، طلبت الإذن بالكلام، أؤجل دوري إلى ما بعد حديث الأمير الذي افتتحه بآية كنّا نردِّدها يومياً «وأعدوا لهم ما استطعتم. . .» قالها بتفخيم وبهدوء، أخبرنا أنّ المفاوضات لن تعود مع السلطة والنصر قريب وضربات موجعة وجهت إلينا ولم تؤثر في خلخلة التنظيم، ترحَّم على شهدائنا وأثنى على صمود معتقلينا ومعتقلاتنا في السجون رغم وحشية التعذيب، طلب منّا الدعاء لهم، دخل في متاهة اللغة التي لا تفصح إلا عن إنشاء قدّرت أنّه لن يفيدنا بشيء، ولن يجيب عن تساؤلاتنا التي لم نعد ندري من سيجيبنا عنها ويهدِّئ من قلقنا، متوعِّداً السلطة بمفاجآت الانتقام ومحاكمة كل رموز النظام بعد النصر الكبير كما أسماه.

بهتت رغبتي بالكلام الذي سمح لي فيه بإشارة من الأمير إليَّ بالنهوض، نهضت ونظرت إلى البنات الست، الحجّة سعاد شجّعتني بابتسامة خفيفة، تساءلت مباشرة إن كان إبعادي خلال الشهرين الماضيين عن التنظيم له علاقة برغبة بكر أو سفره خارج البلاد، وبهذه الطريقة التي فتحت الباب أمام مخالفيه في القيادة لإثارة إشاعات كثيرة حول اعتراضه على قتل طبيب شهير في عيادته، وهو غارق في الاستماع إلى موسيقى فيفالدي، بعد اتهامه بتسليم أحد جرحانا الذي لجأ إلى عيادته التي لم يجد غيرها أمامه كي يختبئ من مطارديه بعد رشقه لدورية من جنود سرايا

الموت بالرصاص، أسهبت في شرح حال الناس الذين استبد بهم الخوف، ومللهم من انتظار نصر وعدناهم به، وقلت بأنّ الناس بدأوا بكراهيتنا، لم تعد المدينة مكانًا آمنًا لنا، متسائلة عن حجب المعلومات التي أدّت خلال شهر نيسان إلى ضرب عدة منازل بسهولة، عملية تفوح منها رائحة الخيانة، كانت عينا الأمير مثبتة عليّ، تدوران بغضب في محجريهما كأنّهما تبحثان عن سبب لقول حقيقة لا تتناسب مع اجتماع حلقة صغيرة لفتيات لا يفكِّرن إلا في تنفيذ التعليمات والإيمان بسحر قيادتهن وثقتهن بها، قاطعني الأمير بكلمات صارمة بأنّه ليس من شأني الاطلاع على أسرار الجماعة، أثنى على بكر ووصفه بالمجاهد الكبير، ألمح إلى أنّ خروجه هو قرار من القيادة بتكليفه بمهام خارجية، ثم نهض طالبًا بحركة من يده عدم تحرُّكنا من مكاننا، لحقت به الحجّة إلى الباب، أعاد تنكُّره بشوارب ثخينة تجعله يشبه حمَّالي سوق الهال بشرواله الأسود الطويل وبلوزته المقصبة، بالإضافة إلى مسبحة صفراء اللون بحبات كبيرة يسمع صوت طقطقتها بوضوح، تحدّث كلمات قليلة مع الحجّة سعاد، غادر دون أن يلتفت وأنظارنا معلقة به، كانت آهات الإعجاب تنبعث من دعاء البنات له بالسلامة وغض بصر الأعداء عنه وعن رفاقه المجاهدين.

أمرتنا الحجّة سعاد بعدم المغادرة قبل ساعة واقترحت علينا صنع تبولة وقلي بطاطا قبل توزيع المهام المطلوبة منّا، ضحكات البنات في المطبخ وصوت الحجّة سعاد العالي يحاصرني ويذكّرني بأنّني لم أعامل كأميرة، أخذوا تاجي منّي وشعرت بأنّهنّ يعرفن ارتكابي معصية العادة السرية في الليلة الفائتة، دوار أصابني ولم يكن أمامي سوى الاقتراب من

المرأة الستينية، التي اصطحبتني إلى الاجتماع فرأيتها غارقة في التسبيح بمسبحة طويلة وعيناها مغمضتان فيما تكبو بحركة امرأة داهمها النعاس هاربة مما يجري حولها، راقبتها وحاولت رؤية عينيها إلا أنّها استمرّت بتمتمة أدعيتها غير المفهومة، أصوات البنات المرتفعة لا توحي بمكان سري إنما بتحضيرات مجموعة صديقات اجتمعن للذهاب إلى عرس، انزعجت من ترفُّع ليلى التي سميت أميرة بدلاً منّي، قلت للحجّة سعاد إنّ سحب اللقب بهذه الطريقة منّي دون أيّ مبرر يحبطني، سحبتني من يدي ودخلنا إلى غرفة نوم أنيقة توحي بثراء أصحاب الشقّة، أجلستني على السرير وسردت لي تاريخي التنظيمي، اتهمتني بالإهمال مذكِّرة إياي بقدومي إلى منزلها دون موعد، كأنّني في نزهة، طبطبت على كتفي مذكّرة أنّ الألقاب لا أهمية لها، زيادة في الاطمئنان أخبرتني أنّ مناشير ستصلني لتوزيعها في الجامعة في أثناء الامتحانات، فهمت أنّني أستطيع المغادرة مغلقة باب احتجاجي على رفض الأمير شكري بطمأنتي على حسام، واكتفائه بالقول إنّه نقل إلى السجن الصحراوي والقيادة راضية تمامًا وفخورة بصموده، لم يبح بالمعلومات المهمّة التي عرفها أثناء مرافقته لبكر في الأشهر الأخيرة وانتقاله بين المنازل السرّية للعيش وإدارة العمليات، بكلمات حماسية طلب منّي أن أفخر بما قدمناه كعائلة للتنظيم.

كنت آخر المغادرات مصمِّمة على رؤية عيني أم رامز المرأة الستينية تطلب الموت لجنود سرايا الموت للانتقام من قصّ أصابع ابنها السجين وإعطاب ظهره مما جعله نصف مشلول، لم أستطع الانتظار أكثر، تأخُّري عن إخلاء المنزل يعتبر مخالفة قد أحاسب عليها، سرت في الشوارع

وكان المساء يهبط رويدًا رويدًا، ملونًا السماء بألوان لم أرها من قبل، المساحات المفتوحة نحو الغرب تجعل رؤية الغسق الشفيف بألوانه الحمراء الفاتحة وغيوم متأخّرة يشي ثباتها بصيف مبكر، قلت لنفسي بأنّ رؤية هذا المشهد قد تكون فرصة نادرة لي، رفعت غطاء وجهي ولدقائق طويلة نظرت إلى السماء، تذكّرت حسام حين كان يقودني من يدي إلى سطح منزلنا ويشير بيده نحو القمر المكتمل في السماء، مستعرضًا مهارته في حسابات السنة الهجرية التي يؤرِّخ مذ كان طفلاً وظائفه بها، اشتقت إليه وإلى تلك الطفولة البعيدة، قلت لنفسي إنّ الغياب يولد الوهم، تراءت لي صورة أمي بوجهها اللطيف وطبعها المسالم، تمنَّيت لو أن لغرفتنا هذه الإطلالة الرائعة على أفق مفتوح تتبدّى فيه أشجار زيتون وفستق حلبي بعيدة، تحمل الرياح بالتأكيد روائح تفتقها حين يكتمل القمر.

لا أحد حولي، المنطقة مهجورة إلا من بقايا روث وعمال متأخِّرين متعبين يحاولون الوصول إلى موقف الباص، وغبار الحجر الأبيض يجلّل ثيابهم فيضفي عليهم ألوان الخرافة التي رأيتها مرّة في أحلامي لجموع بشرية يجلِّلها البياض، سرت وراء رجل عجوز محتمية به، متخلِّية عن رغبتي بالسير وسط هذه البراري لأصل إلى الأفق منتظرة الهلال الذي سيهلُّ أواخر الليل، أرعبني مشهد دورية مخابرات تستطلع وجوه المنتظرين للباص الذي يتأخَّر في المجيء إلى هذا المكان البعيد.

قدَّرت أن الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف حين فتحت باب المنزل ودخلت، اندفع رضوان نحوي محتجاً على تأخُّري وتركه للقلق، طمأنته بكلمات باردة وعرفت أنّ عمر ومريم سافرا إلى بيروت وزهرة

بقيت في دمشق. وستأخّر عودتهم ليومين آخرين، زفرت غضبًا وتمّنيت لو كنت معهم، ارتميت على سريري وغرقت في نوم منذ أشهر أستجديّه عـميـقًا إلى درجة لم أحسّ بالمطر المتأخر، الذي هطل في الليل وبلّل الفناجين والصحون وكنزة الصوف المرمية على الكرسي قرب النافورة وكتاب «العدل في الإسلام» لسيد قطب كنت أحاول قراءته، تبلّلت صفحاته ولم يعد بالإمكان إنقاذه، قذفت به في سلة الزبالة مع أطعمة فسدت كدّستها لنا مريم قبل سفرها.

رغبت بالطبخ، أبهجت رضوان حركتي في اليوم التالي كسيدة منزل تصنع الطعام لأفراد أسرتها، أعجبتني ملاحظاته، يطلب منّي إضافة قليل من الملح أو البهار بعد أن يتذوّق الفريكة كذوّاقة ينتظر الآخرون رأيه، في اليومين الأخيرين لوحدتنا، عدنا صديقين استعادا حرارة علاقتهما دون عتاب، شكرته من قلبي على مناداته اسمي بصوت عالٍ فهي الطريقة الوحيدة لأحس بالحضور ضمن حيِّز الفراغ الذي بدأت بالهرب منه، طريقة وحيدة لطرد ثقل أشياء محيطة بي تكتم أنفاسي وتجعلني كئيبة إلى درجة أنّني لا أستطيع الحراك، اقترحت عليه الاستفادة من معادلات الكيمياء العضوية في تركيب عطر جديّد يشبه رائحة الحجارة القديمة بعد المطر، ابتسم للفكرة وصمت، وبينما نحن نشرب الشاي مساءً قرب حوض الورد الجوري الأحمر طلبت منه التفكير بمشاركتي في إخراج مسرحية سأحاول كتابتها الليلة نعرضها في استقبال العائدين من بيروت، ضحك ساخرًا وبصوت عميق أخبرني بجمل بطيئة أنّه لم يعد ينتظر شيئًا سوى الموت، رأيت وجهه يتلوَّن ويكمل حديثه دون استئذان

كممثل يتشهّى قول مونولوجه الخاص، وحين صعد إلى خشبة المسرح لم يعد يهمُّه رضا الجمهور ولا تصفيقهم، فاسترسل شاتمًا الناس الأغبياء والمدينة الظالمة التي حوّلت أحلامه إلى ركام ثياب قذرة لا تنقذها سوى نار تحوّلها إلى رماد تضيع ذراته في الفضاء، تسبح باحثة عن أجزائها الأخرى لتشكل غمامة قد تهطل ذات يوم سوداء، تلوّث المارة والنوافذ انتقامًا لسنوات عزلته وصممهم.

تحدَّث عن الموت كمحارب إغريقي يرثي نفسه ويدين تفاهة الحياة، التي أوصلت طموحاته إلى زاوية معتمة تفوح برائحة الجرذان الميتة بعيدًا عن مغامرات حروب حلم بالأمجاد في ساحاتها، تملّكتني الرهبة وصوته ينساب رخيمًا، صافيًا، عميقًا، كأنّي لا أعرفه، كلُّنا لم نعرفه، لم نتحسَّس آلامه أو نلحُّ عليه بالسؤال كي يحدِّثنا، كان خادمًا بالنسبة لنا، سمع كلّ همساتنا، احتفظ بأسرارنا ولم يفضحها، قلق علينا في مرضنا وهمومنا شغلته، شهد ولادتي وقرأ لي آية الكرسي بعد أن وضع في رقبة الطفلة التي كنتها حجابًا لازمني حتى ضاقت به رقبتي، فاحتفظت به أمي في صررها الكثيرة.

استعاد رضوان الطفل الذي كان منذ ستين سنة، في الخامسة من عمره عرف بأنّه أعمى ومختلف عن المبصرين، عائلته صدمت بعماه، فأهملته وتركته متشرِّدًا في شوارع عين العرب، طفلاً بائسًا يجلس قرب حائط الجامع، ويستمع إلى تجويد القرآن المنبعث من حلقة الشيخ بهزاد دون أن يجرؤ على اقتحام ذلك المكان والجلوس تحت شجرة التوت الكبيرة في باحة المسجد العمري، تائهًا يتعثَّر به الآخرون ولا ينتبهون إليه، يؤذيه الصمت والغربة، يحاول استعراض مهاراته وليونة جسده الصغير أمام

الأطفال، فيقوم بحركات بهلوانية، يقفز في الهواء وينقلب ثم يعود واقفًا على قدميه مبتسمًا، يصفِّق له الأولاد، يتركونه لوحدته وضياعه في ليل عين العرب، محتميًا بالحراس الليليين الذين يشفقون عليه فيسمحون له بالنوم على أبواب السوق، يرمون له بقشور البطيخ وبقاياه، وفي الشتاء بما تبقى في صحونهم من برغل ومرقة بامياء يابسة، يسمحون له أحيانًا بالاقتراب منهم وسماع أحاديثهم المملّة التي يتبادلونها وهم ينفثون دخان سجائرهم، في ليالي الشتاء الطويلة كان رضوان يلجأ إلى خان الدواب الوحيد المعد لاستقبال الغرباء قرب السرايا، تشفق عليه زوجة صاحب الخان وتسمح له بالنوم على التبن متدفئًا بأنفاس البغال والحمير المربوطة إلى المعالف، ألفته عين العرب وألفها، يمر من أمام دار أمه ويتمهل لتلتقطه، تبدِّل ثوبه التركال الخشن بثوب آخر لا يمتلك سواه ثم تتركه لمصيره، خائفة من غضب زوجها الذي تزوّجها بعد طلاقها من أبيه الذي مضى يبشّر بيوم القيامة في القرى ومضارب البدو، مستدلاً بمنام ظلّ يرويه لكلّ من صادفه بأنّ الرسول أتاه في ليلة القدر، أمره بالنهوض وإيصال رسالة للمسلمين بالاستعداد لهذا اليوم الجليل معدداً تسع عشرة إشارة عدّدها له الرسول في المنام، أولها ولادة طفل أصابع قدميه تتدلى من خاصرتيه، بالغ الدمامة عقابًا على مضاجعته لزوجته أيام خسوف القمر، تاه في البلاد بعد طلاقه زوجته التي ترك لها أسمالاً بالية وغرفة طينيّة وحمارًا هرمًا كمهر لامرأة متروكة لرجال ينهشونها، يحومون حول منزلها في الليالي الباردة وهي لا تعرف ماذا تفعل في عيون تحاصرها مع طفلها الأعمى، لم تمانع بترك رضوان كي يعيش في بيت جدّه كشرط للرجل الوحيد الذي طلب يدها زوجة ثالثة تنفع في العمل حاصودة في أراضي الملاّكين، خنقته كراهية

العمى في منزل جدّ عجوز يحمل اسمه، فهرب ولم يبقَ أمامه إلا الأزقّة والفلاة، حلم في الليالي المقمرة بأنّه يطير فوق الغيوم كباشق، وكره لقب الخلد الذي يردده الأطفال حين يحاولون إيذاءه، بسخرية كبيرة استعاد رضوان ذكرى سنوات طفولته في عين العرب، تشمّم كل حجارتها ورسم في خياله وجوه الناس فيها، من أصواتهم وروائحهم كان يستدلّ عليهم ويمازحهم، لم يستسلم لبؤسه، أدمن وحدته والسخرية من بلاهة الفلاحين وغلاظتهم، غنّى بالكردية وحفظ سير البدو ورثاءاتهم الطويلة عن ظهر قلب، حاول أن يصبح ندابًا فَطُرِد أكثر من مرة لابتسامته التي كانت توحي بأنّه يسخر من رجال العشائر، داهمته فكرة أن يصبح مبروكًا فادّعى أمام جمع غفير أنّه يستطيع شفاء المشلولين، وحين لم تنهض تلك المرأة التي جلس بجانبها وتمتم بأدعية متهدِّج الصوت ومسح بيده على رأسها، قذفه أبناؤها السبعة بأرجلهم إلى الطريق، تخلّى عن الفكرة مقنعًا نفسه بأنّ الزهد في متع الدنيا غباءٌ لا يتناسب مع أحلامه بملذات لا تنتهي، أيام الصيف ينام في خيم النواطير المهجورة، يأكل من غلال الأرض، يلتقط السنابل وراء الرواجيد، يساوم النساء الخائنات لأزواجهن حين يلتقط أصوات عشاقهن وتوسُّلاتهن من وراء جدران الغرف الطينية، فيدفعن له في الصباح بيضًا ولبنًا وقمحًا يبيعه ويحفظ بكيسه المعلّق برقبته النقود القليلة التي يدّخرها لأمر لم يحسمه بعد، استهوته لعبة السيرك عندما مرّ في عين العرب لأيام فتوسَّل إلى صاحبه أن يجرّبه ويعلِّمه البهلوانيّة واقتياد النمور للقفز ضمن دائرة النار، أعجبت الفكرة صاحب السيرك المغربي المحب للإثارة أن يكون لاعبه أعمى، جرّب معه أكثر من مرّة، كاد الفيل أن يدهسه فتخلى عنه في اليوم الثالث، وطالبه بدفع أجرة الدخول لينضمّ إلى

فريق ساحر يتحدَّث الألمانية ويُخرج النار من فمه وسط دهشة أهالي عين العرب الذين يجلسون لساعات يراقبون الرجل المثقل بالخلاخيل، مجاهراً بكراهية فرنسا، متحدِّياً الجنود بلغة ألمانيّة لا يفهمها أحد إلا أنّ الكلمات القليلة التي يلقيها على مسامع المتجمهرين لها وقع السحر، حاول تعليمه طريقة سحب الإيشاربات من فمه فغصّ بها وكاد أن يختنق، عاد إلى البراري كباشق لا تناسبه الجدران المغلقة، مكتسبًا مهارة النوم على أغصان الأشجار متحاشيًا الرجال الشاذّين الباحثين عن الأطفال لاغتصابهم، تراءت له في الليالي أحلام لم يستطع تفسيرها، شده نداء السفر بعد إحساسه بأنّ روائح عين العرب تسبب له الضيق، بكى أمام زوجة صاحب الخان كي توصي أحد أصحاب العربات، الذي قدّر من صوته الهادئ أنّه لن يتركه وحيدًا في حلب، كي يسمح له بالاضطجاع فوق أكياس الشعير، تحدَّثت مهرا خاتون مع صاحب العربة ودفعت له أجرة نقل رضوان إلى الجامع الأموي في حلب.

في الطريق راقبه صاحب العربة وهو يتبسم، يتنفس القرى ورائحة النهر الذي انتقلا إلى ضفته الأخرى بعبّارة من خشب مهترئ يقودها رجل عجوز مصاب بملل دائم، وجده مسلياً ولم يضجر من أحاديثه الدائمة، كاد أن يتركه معاونًا له، بعد أن سمعه يغني ولساعتين متواصلتين، اصطحبه إلى منزل حميد بائع الأسطوانات الباحث عن مواهب لتشكيل فرقة تنافس كورال المدرسة الرشيديّة، التي يشرف عليها موسيقي سرياني يدّعي بأن منيرة المهدية بعثت له برسول كي يقنعه بتلحين معلّقة عنترة لتنشدها أمام قناصل الدول الأجنبيّة بمناسبة زيارة ملكة بريطانيا للقاهرة. رضوان

استرخى على الكرسي وطلب كأس ماء محلّى بالسكر، أنشد أغنية كردية يحفظها عن ظهر قلب وترجم معانيها بارتباك أمام حميد الذي ضمه إلى فرقة وهمية لم يستطع تجميعها، فاضطر بعد ستة شهور لطرد رضوان الذي كان يتسم، لم يندم رضوان ولم يرجه بالبقاء، لم تعجبه روائح بيته وملّ من سماع شجاره اليومي مع زوجته ذات الصوت الحاد التي كانت تتركه دون طعام، ما زال يتذكّر أيام جلوسه الطويلة في دكان الأسطوانات الصغير مستمعًا إلى أدوار زكريا أحمد التي أغرم بها، وفكّر بأنّ الأقدار قد قادته إلى هذا المكان الضيّق لتكرار سيرة هذا الموسيقار العظيم مثله كما كان يردّد بفخر، حفظ الكثير من الأدوار والموشّحات مصمّمًا أنّ صوته يشبه في بُحّته تلك العذوبة في صوت زكريا أحمد حين يؤدي «أهل الهوى» بشجن مؤلم، احتفظ رضوان ضمن كيسه الذي حمله بهذه الأسطوانة، تركه حميد في باحة الجامع الأموي، تنفّس الصعداء مستكينًا لروائح أحبها، أحسّ أخيرًا بأنّه وجد مكانه المفضّل فاسترخى لأيام قليلة مع عميان رحّبوا به على طريقتهم الساخرة، محاولين إبعاده عن مقاسمتهم أرزاقهم من قراءة الموالد السريعة لنساء يوفين بنذورهن كل يوم جمعة.

أعجبته مقالبهم واندمج معها، لم يحسّ بغربته حين يضطجع آخر الليل على السجّاد الفاخر في زاوية الجامع، ويغرق في نوم عميق بجانب رفاق قلائل يشبهونه في تشرُّده وعدم امتلاكهم سقفًا يؤويهم، سبع سنوات جعلت من رضوان يفاخر بحلبيّته، يبحث عن انتماء جدّيد، مؤلفًا قصصًا غريبة عن عائلته غير الموجودة، وقرابات ادّعاها مع عائلات عريقة بات يعرف أسماءها وأعمالها وحضورها في مدينة ما زالت تفاخر بالانتماء إلى

العائلة وتقدّسها كشرط اجتماعي للعيش والمحافظة على تقاليد بدت لرضوان غريبة في تكلّفها، التزم الصمت محاولاً اختراق شبكة أسرار حياة العميان التي نسجوها بهدوء، عبر سنوات طويلة حول عالمهم، الذي أحسّ بانتمائه أخيراً إليه بعد طفولة مشرّدة مازالت ندوبها تثير لديه الحزن الشديد، وتتملّكه رغبة الهرب من الضجيج بالانزواء وحيداً، كفقمة تبحث عن الموت على شواطئ مجهولة قذفتها الأمواج إليها وضلّت طريقها.

يخرج من الجامع، بعد أن يتركه رفاقه العميان بحجة أنّه صغير، إلى سوق المدينة تثيره الروائح الجديدة والأصوات العالية، توقّف أمام دكان جدّي الذي تأمّله وراقبه وهو يقبّل يد الحاج عبد الغني كي يعلّمه صناعة العطور التي وجدها مثيرة، انتابه إحساس غريب أوصله إلى النشوة، أبدى طرافة أحبها الحاج عبد الغني، سمح له بالجلوس أمام المحل لينشد أغاني زكريا أحمد، ويساعد أحيانًا في تمييز الروائح التي أرشفها في ذاكرته كحلّ وحيد، ليغدو وجوده ضروريًا في المحلّ الصغير الذي تعثّر بقواريره بعد شهرين، فأثار غضب الحاج الذي صفعه فبكى بحرقة وعاد إلى الجامع، لم يغادره لسنة كاملة منتظراً جدّي كلّما أتى للصلاة كي يصافحه، ويحدّثه بعفوية عن آلامه وسيرته، يتوقّف كثيراً عند أحلامه، وفي الأعياد يتقبّل صدقة جدّي، البدلة الجديدة التي يأتيه بها أصبحت ضمن تقاليدهما، أعجبه حديثه السلس ومرحه وأقنع جدّتي بضمه إلى الأسرة كخادم مدّعياً أنّ لا خوف من الأعمى.

حمل رضوان حقيبته الصغيرة ودخل بيت جدّي ليصبح ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها، تمدّد في الغرفة، أصبح خادمًا بصلاحيات لم

تعجب جدّتي، إلا أنّها وافقت عليها كي لا تثير غضب جدّي الذي اطمأن إليه وأصبح نديمه في الليالي الممطرة حين يحسّ بالوحدة وعدم رغبته بقرع باب أحد، وجد ملاذاً في خادمه الذي أصبح صديقه، «كانت مريم في الخامسة من عمرها» قال رضوان وضحك، ثم أكمل مرتشفاً الشاي بالنعناع الذي حضَّرته له كرشوة كي يكمل لي حكاية بدت لي خرافيّة.

انتابتني أفكار موحشة للحظة، وأنا أراه يروي كأنّه سينهض من على هذا الكرسي ليذهب إلى سريره ويموت، خفت عليه، حاولت مقاطعته أكثر من مرة بسؤال أو توريطه بإيراد مزيد من التفاصيل إلاّ أنّه أصيب بالصمم، شرب شايه بصمت ثم نهض وسار إلى غرفته دون أن يتمنّى لي ليلة سعيدة، بتثاقل كان يجرّ خطواته عكس ما توقّعت بأنّه قد أصبح خفيفاً بعد أن رمى بثقل ذكريات طفولته التي حارب فيها ليبقى على قيد الحياة، تذكّرت كلماته التي ردَّدها كثيراً حين سألته إن كان يفتقد لجدّي، قال لي بعبارات متّزنة «بقيت رائحته، أحببت هذا المنزل ورائحته».

الفجر تسلّل وأنا مازلت مشدودة إلى الكرسي الفارغ أمامي، فكرت لا بد أنّه أحب إحدى خالاتي وقدّرت أنّها صفاء التي وصف مولدها وعنايته بها وهي طفلة. استبعدت مريم، أحسست بأنّه يشفق عليها، يعتبرها تعسة ضيّعت عمرها في أوهام كدودة قز نسجت شرنقتها بأناة لتخنقها رائحة جسدها، وعندما حاولت فتح نافذة صغيرة كي تتنفس تداعت جدرانها فلم يبقَ لها إلا البكاء على أطلال الرخاء الأزلي.

مضت الليلة هادئة ولم أسمع صوت الرصاص، غفوت دون قلق الأيام الماضية كقتيلة، استيقظت على جلبة عودة المسافرين الذين يشبهون

كائنًا قضى إجازة وتحلّل من كآبته، مريم اشتاقت إلى أشيائها، وجدتها مبعثرة فأعادت ترتيبها بهمّة، صورها القليلة، ملابسها التي توحي بهرمها المبكر، دف أثري تخرجه حين تأتي الحجّة رضيّة إلى منزلنا وتستبد بها شهوة الإنشاد، سجادتها وصندوقان صغيران مليئان بإكسسوارات بالية كأنّها تخصّ امرأة هجرت الحياة منذ زمن طويل، ماسورة الكحل النحاسيَّة المنقوش عليها بكلمات فارسية اسم أميرة اشتهرت بجمال عينيها السوداوين، وقطع صابون غار صغيرة كانت مريم لا تسرف في استعمالها لاعتقادها بندرته، حلق من خرز درجت موضتها في الخمسينيات بين نساء الطبقة الراقية ثم انتهت بسرعة، مازالت مريم تستعمله كأنها لا تريد تصديق أنّ أيام المسرّات وحرارة تلك الاجتماعات والثرثرات قد انتهت، حدّثتني باستفاضة عن أمي وأبي وأخي، تبالغ لتطمئنني، تسامحت أول الأمر مع مروة وفي الأيام التالية تناثر غضبها دفعة واحدة، استنكرت سفورها وإدمان أبي شرب الخمر وشتمه لأمي وبكر وجماعتنا، ممتدحًا الطائفة الأخرى التي ما زال يتذكر أصدقاءه الذين رافقوه إلى الإسكندرية وعلَّموه صيد السمك «كأنّه يغيظنا ولا يريد رؤيتنا»، قالت مريم وهي تشير بيدها محاولة طرد صورة رحلتها المثقلة بانتهاكات صورتها التي رسمتها لأختيها وصهريها.

عاد الملل إلينا كأنّنا في انتظار حدوث معجزة لتنقذنا من رتابتنا وخوفنا الذي تصاعد بعد الاشتباكات العنيفة التي جرت في ساحة الجلوم، وامتدّت إلى الجميلية البعيدة، فبدت المدينة مشتعلة في وضح النهار، تكوَّرنا جميعًا في القبو صامتين وسط روائح شوربة العدس التي

طبختها مريم، محاولة عدم الاكتراث بما يحدث على بعد أقل من مئتي متر من منزلنا، ثم انفجرت ببكاء حاد معبرة عن ضيقها بمنع التجوُّل وقتل الناس وحملات التفتيش التي نثرت كلّ أسرارها أمام عيون الغرباء.

البكاء أخافني، عادت إليّ هواجسي القلقة بعد أن أبلغني عمر رسالة بكر يطلب انسحابي من التنظيم فأنا مراقبة، لم يحتمل قيامه بدور رجل منزل تقطنه نساء معتوهات، يخالفنه في كل شيء ولا يردن فتح نوافذ الحياة، عاد إلى سيرته الأولى بفضائح لم تعد حلب تكترث لها وسط الدمار والأمهات المرتديات السواد حزنًا على أبنائهن البعيدين في السجون وفي المقابر، من الصعب الشعور بالحياد حين تكون حياتك مهدَّدة، فكرت للحظة بأنّه لم يبقَ لي إلا المضي إلى آخر الطريق بعد إهمالي الكلّية، التي أصبحت مكانًا لإبلاغي بمهام الأيام المقبلة، يتركون لي المناشير في إحدى حاويات القمامة أو تدسّها امرأة تحت معطفي حين أجلس في سيارة السرفيس ثم تغادر في الموقف الآخر، لا تجد وقتًا كي تضغط على يدي متضامنة.

الخوف يقودني إلى اللذة والاستهتار، أفكِّر بصعوبة أن تكون مراقبًا، أحد ما يحصي أنفاسك، خطواتك، يحاول التغلغل في دماغك، مستعرضًا ذكرياتك وصور الذين تحبهم، أرعبتني فكرة أنّهم يستطيعون التجسُّس على أحلامي، انتابتني قشعريرة حين أحسست بأنّني مراقبة فعلاً ومن عدة رجال، ضائعة وسط سلسلتهم، محاصرة بنظراتهم، أحاول النظر في عيونهم بتحدٍ كي لا أسقط مغشيًا عليّ وسط الشارع، أركِّز نظري على بائع حليب خمسيني استوطن مفرق حارتنا منذ شهرين ولم يغادرها،

لم تغشني براءته وصوته الهادئ حين اقتربت منه متفحصة عربته واشتريت منه حليبًا لا نشربه، بدأت أكرهه وأنظر إليه بحقد متمنية موته، كتبت تقريرًا ورفعته لقيادة الجماعة، شتمته فيه وطلبت تصفيته، منتظرة موته المؤجّل، بدأت أنظر إليه كرجل لا يمتلك وقتًا طويلاً كي يرتّب أمور أسرته، وزّعت جزءًا من المناشير في حارات ضيّقة وفارغة أحسست بعبء حملها، مزّقت ما تبقى منها في حاوية القمامة هاربة بعد أن رأيت شابًا شعرت أنّه يتعقّبني، ندمت حين دخل إلى منزله غير مكترث بي.

كلمات عمر أفقدتني الشجاعة، تركتني هشّة كنشافة حبر، أبتلع ريقي حين ينظر إليّ أحد المارة، أحلامي ماتت في صمت مدينة أصبحت تشبه مقبرة كبيرة، فكّرت بأنّ الهرب قد ينقذني من هذه الدوامة، العيش قرب أمي مرّة أخرى ومحاولة إعادة أبي إليّ، بحثت عن عمر كي أبلغه قراري، جلست على درج منزله أنتظره لساعات طويلة متحدية نظرات الجيران التي تشي بتهتّك عمر، ذهبت إلى محلات جدّي وسألت عنه صنّاعه الجدد، لم أجده، تركت له أخبارًا في كل مكان يمكن أن يرتاده، أحسست بالضياع من دونه، هو الوحيد الذي ينقذني، أحتاج من ينهي دوّامتي، يعيد إليّ الهدوء مرّة أخرى كي أستطيع الوقوف على باب غرفتي وتأمّل ذبول الأزهار أواخر الربيع، وامتداح كسل زهرة في نهوضها المتأخّر.

عمر ازداد تهتكًا مع أصدقائه الجدد، تجّار صعدوا فجأة في سوق المدينة بعد احتكارهم الدقيق وتهريبه من مستودعات الدولة للسوق، وتهريب الأدوات المنزليّة والدخان وبيع الوساطات الوهميّة لأمهات ملتاعات على غياب أبنائهن في السجون، وشوقهن لسماع أي خبر

يطمئنهن، يبعن أساورهن وغرف نومهن مقابل قصاصة ورق صغيرة تجعلهن مطمئنات إلى أنّهم أحياء، راجت التجارة وشراكة ضباط سرايا الموت والمخابرات، الذين قبضوا ثمن ولائهم بإطلاق أياديهم في المدينة دون أي حساب، أصبحت البلاد مقاطعة يتحكَّم فيها رجال مافيا يطلقون الرصاص بين عيني أعدائهم ببرود، هاجرت عائلات بأكملها، تركت منازلها أو باعتها بنصف ثمنها هربًا من بطشهم وانعدام الطمأنينة متحسِّرين على مدينتهم التي كانوا ينعمون بمنازلها الرحبة وغنج نسائها أواخر الليل.

الصورة قاتمة تزداد سوادًا، تضيق فسحة الأمل تاركة للغرائز والكراهية فضاء المدينة، الذي تصاعدت فيه أوائل الصيف أصوات الدفوف وحناجر الناس تدعو للابتهال إلى اللّه، صعد الجميع إلى أسطح المنازل لرؤية كسوف القمر الذي أهدى المدينة فرصة نادرة للصراخ وطرد القيح والعفن الذي تغلغل في لحظاتهم، بعد أيام منع التجوُّل والاكتفاء بالجلوس قرب المدافئ وفصفصة البزر بعصبيّة في ليالي الشتاء الطويلة، استعدّت المدينة لإعادة طقوسٍ اندثرت وسط زحمة ضياع داهمها بعد التوسُّع الكبير، الذي شهدته لامتصاص هجرة مئات الآلاف من الريفيين الباحثين عن مكانة لائقة في مكان عريق عشقه الرحالة واحتفظ القناصل بذكرى لا تُنسى عن خصوصيّته وفرادته.

تذكّر الحلبيّون آخر خروج لهم إلى البراري وصعودهم إلى جبل الأنصاري مستجدّين المطر الذي تأخَّر، مضى وقت طويل لم يسمعوا خلاله صوت الدفوف والحناجر المستغيثة بالرحمة، تحمَّسوا لتراخي جنود سرايا الموت الذين لم يشهد أغلبهم خروج مدينة بأكملها تناشد السماء واللّه،

دموع وأمهات زادهن الوجد وجداً فمزقن ثيابهن، تعالت أصوات نحيبهن وسط قرع دفوف وترتيل منشدين استعادت حناجرهم دفء إلقاء الموشحات الدينية، استعدّت مريم طوال النهار بحماس للصعود إلى السطح متزينة وحاملة دفها، لتنشد وسط دموعها التي انهمرت حين تعالت صيحات اللّه أكبر، وانتظمت الدفوف في إيقاع واحد سريع، بدأ القمر كسوفه، تبدلت ألوانه واختلطت، غطّت المدينة باحمرار أقرب إلى البرتقالي في مشهد ساحر انتزعني للحظات من قلقي وجعلني أؤمن بروعة الطبيعة، هذه التراجيديا استمرت إلى ما بعد منتصف الليل بقليل، هدنة التزمها الطرفان احترامًا للحشود المختنقة من ثقل ابتعادها عن تسامح اشتهرت به كعلامة مميَّزة لاختلاط أقوامها بلغاتهم وعاداتهم، مريم نزلت عن السطح امرأة مختلفة، حاملة دفاً لم تتوقَّف عن قرعه، رأيت وجهها من ظلال الليل منفعلاً، أكملت إنشادها فرثت جدّي وجدّتي والمدينة وجسدها وعائلتها بعبارات مؤثِّرة، استدعتهم كي يروا الخراب الذي حلّ بنا، حاولت زهرة إيقاظها ومنعها من الدخول في حالة هستيريا كاملة حين بدأت بالرقص في أرض الحوش، بصوت عالٍ شتمت الزمن الذي جعل منها امرأة مهملة، منادية بكر واصفةً إياه بالحبيب كي يحضر وسليم كي يستيقظ من غفوته وعمر كي يدرج كحجل في أرض الحوش التي اشتاقت إلى وقع خطاهم، لم أقترب منها، أحسست بعدم جدوى إيقاف جسدها الغائب عن الوعي.

لم أتمالك دموعي، شعرت كم نحن مهدَّدات بالتناثر تحت عجلات عربات موت لن تتوقَّف قبل أن تحصد المدينة، الموت الذي فكَّرنا فيه ملياً، حاولنا التقليل من هيبته والاستخفاف به إلى درجة رفع الكلفة

معه، كما بين شخصين التقيا صدفة وقرّرا أن يصبحا أصدقاء، أو كراهيته كعدو خسيس ينتظر أن ندير له ظهرنا ليطعننا، تخيّلت جسدي متحلّلاً من كثافته والدم الجامد في عروقي فقد حرارته، لمست يد مريم المرتجفة، المستسلمة في سريرها لمصير غامض، همدت ببطء، الإرهاق على وجهها وجسدها اختلج وذهبت في نوم عميق.

في الصباح لم تستطع النهوض من سريرها، صوتها خافت وعيناها حزينتان، كسيرتان، بحاجة إلينا جميعًا، تريد نسيان لحظات انفعالاتها الآسرة التي تهتّكت بها كامرأة تودّع أيام الصبا بحرقة، نادمة على حرمان جسدها ونفسها من الملذات، ثلاثة أيام جلسنا حولها، نروي لها الحكايات، لم يبهجها مديحنا أنا وزهرة لصوتها وليونة جسدها، أشاحت بوجهها عنّا متأمّلة الجدار لساعات طويلة، تركّز نظرها في نقطة واحدة ولا تحيد عنها كأنّها في تدريب قاسٍ لاختراق الجدار ورؤية الماورائيّات، في إشارة لنا بمغادرتها رغم امتنانها الذي أحسسناه في بحة صوتها الهادئ، الحنون.

أتى عمر في الصباح الباكر، متعبًا من سهرة طويلة، تنبعث منه روائح خمر قوي، باستهتار لم نعهده كانت بقايا حمرة نسائيّة تبقع قميصه، كل شيء تمّ على عجل، شرب القهوة معنا، استمع إلينا شاردًا وضاعت نصف كلماتنا في عدم انتباهه، لم تكترث مريم لحضوره الذي توقعنا أنّه سيشفيها من كآبتها ووحدتها، على عجل شجّعني على الذهاب إلى بيروت إن كنت أستطيع، أضاف بأنّني ممنوعة من السفر، ترك لنا نقودًا كثيرة، مازح رضوان وعلى عجل غادرنا، كل شيء تمّ على عجل كأنّنا وباء يجب الابتعاد عنه.

من الصعب أن تحتاج إلى عطف لا تجده، نظرت إلى مريم نائمة ساكنة، متمدّدة على سريرها العريض كقتيلة، وجهها متعفّن كامرأة عجوز، تخيَّلتها في ملكوت الجنّة، ترف حولها فراشات مروة التي كساها الغبار ولم تعد تثير اهتمام أحد، فرميت صناديقها في زاوية غرفتي التي أصبحت تشبه مستودع خردة يُؤوي مشرّدي آخر الليل، بكت مروة بحرقة حين رأت إهمالنا لها، ركعت على ركبتيها ومسحت بثوبها الغبار منادية على فراشاتها بأسماء دلع ما زالت تحفظهم عن ظهر قلب.

كم نحن قساة حين نستهين بأشياء الآخرين الحميمة، نتركها لأقدارها غير مبالين بما تعنيه لهم، كنت أعتقد أنّ مروة قد طُردت نهائياً من منزلنا، سيمر الوقت الكافي لنسيانها وطردها من ذاكرتنا، محاولين تجاهل الألم الذي سببته لنا بخروجها عن أعراف الطائفة مع ضابط يتربّص بنا مع رفاقه لقتلنا وتشتيت شملنا، لم آخذ زيارة مريم وعمر وزهرة إليها على محمل الجدّ، لم أكن أعتقد بأنَّها ستعود إلى غرفتها كي تصنع القهوة لزوجها.

دخلت دون استئذان، فتحت باب المنزل بمفتاحها ونذير وراءها يحمل حقيبتها، كان خجلاً لكن حرارة استقبال مريم لهما أذابت الجليد، ليتمدَّد الاثنان في سريرهما ليلاً كأنَّهما عادا من إجازة قصيرة قضياها في الجبال، مروة سامحتني ولم أستطع تجاهل سفورها وثوبها الأزرق الذي لا يغطي الركبتين بكاملهما مع مسحة ماكياج خفيف جعلتها تبدو غريبة عنّي، لا أعرف أين كانت تخبّئ كلّ هذه الثقة، حرمانها الذي انتهى تكشَّف عن امرأة متسامحة وذكيّة، تشفق على عيشتنا وسط حجب

تغطينا، فتثقل أرواحنا لنسير بخوف وبطء كالفقمات، رشاقة خطواتها في أرض الحوش وضحكاتها ذكّرتنا بصفاء، بدت شبيهة بها إلى درجة كبيرة، فكَّرت أنّهما قد تبادلتا أحلامهما كأنّهما تلعبان بمصائرهما برضى.

نذير ترك مروة بعد تلقيه نبأ محاولة اغتيال رئيس الجمهورية، متوترًا قبَّل مروة على خدّها وغادرنا مسرعًا، في الطريق إلى دمشق نهشه القلق، عادت إليه الحكّة القديمة في رقبته التي تنذره بالخطر دومًا، كان لها الفضل في إنقاذه من موت محقق في حرب تشرين حين قُصف موقع كتيبته بعد انسحابه مع جنوده بدقائق، تداعت إلى ذاكرته صور قديمة كان يظنّ أنّها قد بهتت في زحمة الأسئلة التي أعادته إلى سيرته الأولى، تذكّر صورة أبيه الشيخ عبّاس الذي علّمه التسامح الذي كلَّفه غاليًا، ترك مكانه لأئمة آخرين يفتون بالكراهية وضرورة تكاتف الطائفة ضد الطوائف الأخرى والاحتفاظ بالمناصب الأساسيّة كضمانة لبقاء السلطة في أيديهم، تناقل الناس همسًا ما تسرَّب من أسرار مناظرات خاضها الشيخ عباس في دفاعه عن التسامح كحل وحيد لحماية الطائفة والمحافظة على صورتها ناصعة، مستشهدًا بأقوال أئمة كبار وحوادث تاريخيّة، مستعرضًا أمام المشايخ الآخرين معرفته الواسعة بالقرآن والأحاديث، وقاره وشعبيته وقوة عائلته منعت الآخرين من مهاجمته علنًا، إلا أنّ ما قيل سرًا عن مبالغته بتجاهل ظلم الطوائف الأخرى لأبناء الطائفة حين كانوا يقيمون في الجبال عراة، حفاة، جائعين ومحاصرين بالثلوج شتاء.

الخوف لم يجرّه إلى مهاترات كان أحد المشايخ يسعى إليها للتقليل من هيبته، انزوى بصمت في غرفته المطلّة على غابات الصنوبر ومزارع

البرتقال، مدركًا أنّ ما هو مقبل أعظم ولا يستطيع منعه إن انساقت الناس وراء فتاوى الشيخ مضر بقتل الناس لمجرد انتمائهم الطائفي، تذكر نذير صور أبيه التي أتته ضبابيّة، الابتسامة التي لا تفارقه أكسبته قوة هدّأت من قلقه، قال في نفسه «الرئيس لم يصب بأذى على كلّ حال ومرافقه الذي رمى بنفسه فوق القنبلة وتشظّى، ستقبض عائلته الثمن اللائق والنفوذ مكافأة على إخلاصه». وصل مساءً إلى مبنى القيادة، أدرك من وجوه الحراس الذين أدوا له التحية أن الأمور ليست على ما يرام، صعد الدرج الحجري بهدوء، جلس في غرفة سكرتير القائد يقلّب أوراق الروزنامة بملل لأكثر من ساعة بانتظار استدعائه لمقابلة حاول رسم مسارها في ذهنه مرات عديدة، حركة الحرّاس والسكرتارية والضباط في المبنى تنبئ عن عصبية ورد فعل مقبل سيكون أحمق وبحجم الحدث، في الثامنة تمامًا دخل إلى المكتب أربعة ضباط يعرفهم جيِّدًا، حيَّاهم ولاحظ برودهم نحوه، لم يقبّلوه كعادتهم حين يلتقون بعد غياب، فتح السكرتير باب المكتب وأشار لهم بالدخول، كان قائد سرايا الموت بانتظارهم هادئًا وآثار إرهاق حول جفنيه يشير إلى أنّه لم ينم بشكل جيد لأكثر من ليلتين، ما عُرف عن القائد كباحث عن الملذّات تجعل من رؤيته بهذه الحالة شيئًا طبيعياً وليست مؤشرًا على حدث استثنائي إضافةً إلى مزاجه العبثي، الذي كان يفاجئ من حوله بقدرته على ارتكاب الحماقات دون حساب لأيّة عواقب، أشار لهم بالجلوس، وجَّه كلامه المقتضب للضابط الأعلى رتبة، شرح تفاصيل محاولة اغتيال الرئيس ودون تلكؤ قال ببرود «سنهاجم السجن الصحراوي هذه الليلة»، ثم خبط على الطاولة بقبضته «لا تتركوا أيّ واحد منهم تشرق عليه الشمس» وزّع عليه ملفًا خطّ عليها بخط كوفي «عملية

الفراشة النائمة» وفيه مهام الضباط الأربعة الذين صافحهم بقوة مودعًا، وغادر القائد مكتبه من باب سرّي لا يسمح بالخروج منه لأحد سواه.

نذير أصيب بالدوار لهذا القرار الارتجالي بقتل مساجين سياسيين، مهاجمتهم ككلاب في حلبة مغلقة والتلذّذ بسقوطهم كالذباب، المشهد الذي تخيله مثيراً للغثيان، انقبضت معدته، ارتخت ركبتاه وأحسّ بعدم القدرة على المشي، استنشق هواء حي المزة وحسم أمره نهائيّاً مدركًا أنّ الوقت يسبقه، أقل من ساعة وتكون الطائرات في طريقها نحو الصحراء محمّلة بالجنود المدجّجين بالأسلحة كأنّهم في نزهة لاصطياد البط البري أو ملاحقة الغزلان في البادية، وصل بسيّارته إلى أرض المطار، قائد العملية سبقه مع ضباط آخرين والجنود خرجوا من مهاجعهم بعد سماعهم صوت بوق الاجتماع، تقدّم من العقيد الذي تربطه به قرابة بعيدة من طرف أخواله، حيّاه وطلب الإنفراد به لدقائق، أخبره بأنّه لن يستطيع تنفيذ هذه المهمّة ثم مدّ يده إلى رتبته العسكرية انتزعها، وفتح ذراعيه استعداداً لمحاكمة ميدانيّة يستطيعون فيها إعدامه لمخالفته أوامر عسكرية، أبدى استعداده للذهاب إلى أيّ موقع إسرائيلي وتدميره بعملية انتحارية، انزعج العقيد الذي يدرك معنى هذا الرفض خاصة بعد زواجه المثير من مروة الذي جرى الحديث عنه بين ضبّاط كبار كتجاوز لكلّ الحدود وخروج عن الولاء، لم يمهله ليكمل جملة، أعطاه نذير مفتاح سيارته العسكرية وسار على قدميه إلى بوابة الخروج، مبتعداً عن الجنود الذين يصرخون بعبارات الولاء لقائد سرايا الموت، رافعين قبضاتهم في الهواء، ويصعدون إلى الطائرات العشر الجاثمة على أرض المطار في غبش الفجر، الذي بدأ يتسلّل دون استئذان

كنشال خفيف اليد لا يمكن الإمساك به رغم كل الكمائن المنصوبة له، التفت نذير ليرى إقلاع الطائرات بانتظام، لم ينتبه أنّ الدموع غبَّشت رؤية الطريق الضيق أمامه وسط بساتين الصبار، فكَّر للحظة أن يكون قد سمع الأوامر بشكل خاطئ، أو أنّ التفكير في الليلة الماضية أرهقه، فلم يستوعب جيِّداً قدرة هذا الخيال الفنتازي على قتل سجناء عزّل في سجن صحراوي يعتبر خروج أي سجين منه حيّاً معجزة، لا يمكن لأي خيال إعادة سرد ما حدث في زنازينه بحياد دون اتهامه بالمبالغة، القصص الرهيبة التي رواها خارجون قلائل تجعله مكانًا رائعًا لامتحان أقصى طاقة للإنسان على الاحتمال والتكيُّف، تمامًا كما لو أنّه قفص مليء بالنمور الجائعة ورميت لها بإنسان مرهق، جائع ولا قدرة له على رفع يده كي يمسح مخاطه.

وجد نذير نفسه في سيارة أجرة مع ثلاثة ركاب آخرين ينظرون إلى بدلته المموَّهة بخوف، غير قادرين على استيعاب وجوده وحيداً بينهم، صامتًا وغارقًا في شروده الذي فرض صمتًا أطبق على الركاب الخائفين من إزعاجه، تهادت سيارة المرسيدس القديمة بأناة على طريق حلب كتابوت مقفل، حاول الاستغراق في النوم إلا أنّ الكوابيس داهمته، وأحلام اليقظة استفزّته، كاد أن يحدِّث نفسه كرجل مخبول حين حاول تخيُّل ما يحدث في اللحظة نفسها التي نظر فيها إلى ساعته، قدَّر أنّ الطائرات قد حطَّت منذ نصف ساعة في الصحراء قرب بوابة السجن الصحراوي، كخبير في تنفيذ المهام الخاصّة قدَّر أنَّ رفاقه يمتلكون الوقت الطويل كي يتأكَّدوا من صلاحية بنادقهم، فأعداؤهم عبارة عن أكياس آدمية مقيدة بحديد وسلاسل مثبتة إلى الجدران وأهداف محققة.

استيقظت البلاد صباح ذلك اليوم الصيفي الحار على روايات انتشرت بسرعة البرق، أعيد تأليفها آلاف المرّات، فهمت معنى وقوف نذير على باب المنزل مرهقًا وكسيرًا طالبًا من مروة اللحاق به إلى سيارة الأجرة، معتذرًا عن تناول قهوة مريم بابتسامة خجولة، وكلمات غير مفهومة تمتمها بصعوبة بالغة، أضاف أنّه استقال من الجيش وما سيحدث اليوم لن تنساه ذاكرة البلاد بعد ألف عام، كهارب غادر مع مروة التي وضعت يدها الحانية على شعره ووجهه، همست له «خير حبيبي» قبَّل باطن كفها، وأفلت ببكاء حار غير مكترث بدهشة سائق سيارة الأجرة الذي ضرب كفيه ببعضهما، أوقف السيارة ونزل منها ليتركه وحيدًا مع مروة التي كاد أن يشلّ لسانها منظره حيث بدا كطفل صغير، تماسكت مروة ومسحت دموعه، قبَّلته من شفتيه ثم أمرت السائق أن يسرع للحاق بمريض على فراش الموت ينتظرهما كي يجسّا آخر نبض حار قبل أن يبرد جسده ويغادرهما إلى الأبد، أعفته مروة من مهمة الشرح، والهروب من نظرات السائق المتعاطفة بالكلمات القليلة التي أسبغت عليه منظر رجل يبكي على فقدان شخص عزيز ككل البشر، رغم البدلة العسكريّة التي توحي بأنّه رجل من أولئك المنتشرين في البلاد يأمرون وينهون ويستعملون بنادقهم ومسدساتهم لتصفية من يعترض طريقهم دون أيّ حساب، مفتخرين بشهوة القتل التي تجعل أجسادهم تستمني لرؤية الجثث والخوف في عيون الناس، مبتهجين باكتشاف متعة لم يعتقدوا يومًا بروعةٍ تضاهيها سوى استباحة المدن.

انتشرت أخبار نزول الجنود من طائراتهم ببرود ودخولهم إلى زنازين السجن الصحراوي وفتح النار على السجناء الذين تناثرت أدمغتهم

على السقوف، وتكدَّست جثثهم في الممرات كبرتقال عفن مرمي بفوضى في صندوق تسكنه الجرذان مركون في قعر منسي لسفينة عابرة للمحيطات تطوي لحظات إبحارها بملل، ارتفعت الأعلام السوداء على شرفات منازل كثيرة، العويل الصامت انفجر داخلها، أكثر من ٨٠٠ سجين قتلوا خلال أقل من ساعة، حملت البلدوزرات جثثهم إلى مكان سري لترميها في حفرة لا أحد يعرف شكلها وعمقها ورائحتها، من يدخل إلى حلب وحماة يظنّ أنّ عيداً للبكاء قد ابتدأ في ساعات المساء الأولى، بالتأكيد سيتبعه كرنفال يذكّر بطقوس مقتل الحسين التي أثارت الفنانين والمستشرقين وعابري السبيل الغرباء في كربلاء، اندفعت الحجّة سعاد باكية نحوي، احتضنتني قبل أن أدخل، سمعت دعاءها لحسام بالجنة، ماحاولت عدم تصديقه تجسَّد أمامي كحقيقة يجب سماعها بوضوح، لم أستطع تحريك لساني، أحسست بقوة الشلل تتسرَّب إلى أعصابي، هززت رأسي دون تفكير وخرجت هاربة، حين عدت إلى المنزل وجدت أمي قد أعياها البكاء جالسة في أرض الدار، بيدها صورة حسام تقبِّلها، وتنهض لتزغرد وترقص كمجنونة وسط مريم وزهرة وعمر ورضوان الذين شكَّلوا حولها طوقًا لمنع هروبها إلى الشارع إلى أن أُغمي عليها فحملوها إلى السرير.

انطلقنا قبل الفجر في سيارة عمر إلى السجن الصحراوي، سبقتنا جموع الأمهات القادمات من كل المدن ليتشممن روائح أبنائهن، ولا يرغبن تصديق حكاية اعتبرت ملفّقة، الحواجز وبنادق الجنود منعت آلاف البشر الذين ناموا ليلتهم في العراء من الوصول إلى السجن الذي سكن تمامًا بعد نقل الجثث وتنظيفه بخراطيم مياه قوية، كأنّ الجنود قاموا بعمل لا يعدو أكثر

من روتين يتقنون تكراره بشكل جيد، محافظين على عزلتهم بعيداً عن تفاهة المتلصصين، أمي غرقت في صمت، تذكّرنا في منتصف الطريق الصحراوي أنّنا لم نتبادل التحية، لم نشدّ على أيادي بعض كأية أم وبنت التقتا بعد غياب طويل، وضعت يدي بهدوء في كفها المفتوحة وتسرّبت إليَّ برودة غريبة لولا أنّ لعينيها قوة لا تقاوم لظننت أنّها ميتة، لم أستطع النطق بكلمة، وحين وصلنا إلى السجن الصحراوي، كان المشهد خرافياً كأنّه منزوع من أحد الأفلام التي قام صنّاعها بإعادة المجد للخيال فصنعوا عالماً تحسه، تتذوقه لكن لا يمكن أن تصدّق حجم حفلة الإعدام هذه، نساء متشحات بالسواد، يمسكن بصور أزواج وإخوة وأبناء لهن، اصطففن راكعات على ركبهن في أرتال كأنّهنّ يصلين لإله آمنّ به طويلاً، ويبدا الخوف على وجوههن من فقد صورته الرحيمة، فأوغلن في الدعاء أكثر والمطالبة برجالهن، وتكذيب قصة سردت بأساليب مختلفة كأنّها تمرين مطروح على عامة الشعب لتدريبه على السرد، وإحياء تراث الحكايات العربية التي استمتع بها الخلفاء ذات يوم، «نحتاج إلى شهرزاد» قلت لنفسي وأنا أرى أمي تندفع من سيارة عمر التي توقفت، اخترقت جموع نساء يشبهننا، اندفعت نحو مصفحة جنود تغلق الطريق نحو باب السجن البعيد تضربها بكفيها، شاتمة جنود سرايا الموت الذين كانوا ينظرون إليها من مخابئهم داخل العربة واجمين، خائفين من اندفاع كل هذه الحشود نحوهم.

الهستريا تعمُّ المكان، عربات وسيارات ورجال كسيرو النظرات، أطفال لا ينتبه أحد إلى مخاطهم المختلط بالرمل، يجمعون الحجارة وينصبون شواهد صغيرة، ثم يقذفونها بحجارة لتقع في لعبة محاولين

كسر حدّة مللهم، باعة المرطبات والصندويش وجدوها فرصة فاندفعوا من القرية المجاورة، نصبوا على عجل بسطات، وتصاعدت روائح شواء لحم لم يأكله أحد وسلطات أُعدّت على عجل، كما لو أنّ مدينة صغيرة ستنبثق من الرمال، الشمس الحارقة لم تثنِ النساء عن العويل، ريقهن الجاف وشفاههن تشقّقت من آثار العطش، يعاقبن أنفسهن، زهدن بكلّ متع الدنيا، يردن الموت للحاق بأحبتهن، حاولت ترتيب قصص تداولتها النسوة والرجال بحذر في البداية، بعد منتصف النهار تعالى صوت الرواة دون ذكر مصادر معلوماتهم، تخيَّلت حسام جثة باردة محمولاً كالقمامة بالبلدوزرات، مرمياً في مكان ما قد يكون مكشوفًا والكلاب تنهشه، أصابني الغثيان حين رويت قصص الأشخاص الذين بقوا أحياء يحملون أحشاءهم محاولين التشبُّث بالحياة، متخطين جثث إخوتهم المتراكمة في زنازين ضيّقة تعجّ أمتارها العشرة بأكثر من ثمانين سجينًا احتالوا على السياط وأمراض السل والجرب كي يبقوا أحياء، هؤلاء الجرحى لم يستطع أحد البتّ بأمر إنقاذهم بعد مغادرة جنود سرايا الموت بطائراتهم، تنشّقوا هواء الصحراء البارد في رحلة قصيرة لم يسمح وقتها حتى بتناول القهوة، زمن طويل سيمر قبل انكشاف تفاصيل دخولهم وأسماء الضباط الذين أصدروا الأوامر بدم بارد، ستلاحقهم لعنات الجثث التي جعلت ستة جنود شاركوا بالقتل مخبولين يركبون على أحصنة من أعواد الصفصاف، يثيرون الغبار وراءهم في قراهم البعيدة، هاربين أمام أعداء وهميين يطاردونهم، بعد تسريحهم من الجيش وإعادتهم إلى أهاليهم مع أوسمة شرف منحهم إيّاها قائد سرايا الموت الذي استقبل جميع الجنود بعد عودتهم إلى ثكنتهم، ألقى خطابًا امتدح شجاعتهم، ثم كافأهم بنقود

قليلة صرفوها في التهام سندويشات الفلافل قبل عودتهم إلى غرفهم الفقيرة في الأحياء المحيطة بدمشق .

عبر الطريق الصحراوي، في الظلام كنّا واجمين، صامتين، أمي جالسة في المقعد الخلفي قربي وعمر يتحاشى النظر إليها في المرآة، بجانبه جلست مريم مغمضة العينين، بيدها مسبحتها التي لا يسمع سوى صوت طقاتها المتلاحقة والمنتظمة وهمهمتها بأدعية لا أتبينها، الطريق الصحراوي الممل ليلاً وعدم جدوى الكلام جعلنا نصمت، استدعيت صور نساء ثكالى صممن على المكوث أمام بوابة السجن في العراء حتى يتسلّمن جثث رجالهن، مشهد سريالي لا يمكن تكراره، استدعيت الصور وأحسست بأنّ السيارة صندوق مغلق ومتحرّك يضمّنا نحن الأربعة وسط هذا الظلام، رأيت من خلال الضوء الشحيح وجه أمي، تنظر إلى نقطة واحدة لا تحيد عنها، أغمضت عينيّ، قبل وصولنا إلى بوّابة حلب تذكَّرت مرّة أخرى أنّني لم أتبادل معها كلمات العزاء. لم نصدّق أنّ حسام قد أصبح صورة على جدران غرفنا ننظر إليها بحسرة ونشهق متذكرين عينيه الجميلتين وأناقته، تذكَّرت خوفه آخر مرة التقيته فيها، أيقنت أنّه كان يعرف أنّ الموت هو طريقه الوحيد، ولن ينجو منه إذا تأخر النصر الذي أدرك أنّه قد أصبح مستحيلاً، رغبت باحتضان أمي والبكاء في حضنها كأيّة طفلة صغيرة، إلاّ أنّ الدموع تحجرت في عيني، الكراهية استبدّت فيّ حتى آخر مسام، بردت أطرافي، أحسست بشللها وعدم اكتراثي، دخلت في نفق مظلم لا يهمني الخروج منه، «يجب أن أتماسك» قلت لنفسي وأنا أرى أضواء مدخل حلب وتمثال ربة الخصب

والجمال الذي اعتبرناه كفراً، حاولت تأمُّله، بدا لي جميلاً بما يحمله من دلالات أن تحمل الأنثى كل الخصب والجمال، استبعدت فكرة الغرق تحت تأثير أفكار كافرة، مستعيدة يقيني كاملاً، تخيلت حسام في الجنة، بردت أفكاري، مددت أصابعي بهدوء نحو كفّ أمي المفتوحة، تحسّست أصابعها بهدوء، أحسست ببرودتها، تركت لأصابعي حرية الضغط على كفّها، كنت أحتاج إلى مؤازرتها، البرودة سرت إليّ، نظرت إليها وظلال أضواء الشارع الفارغ تُنبئ عن الوقت المتأخر، أمسكت بكفها وضغطت عليها بقوة فتراخت، أعدت المحاولة، بكيت بصمت لا يلحظه أو يهتمّ به أحد، دخلت سيارة عمر إلى شارع منزلنا بعد أن قطعت ساحة الجلوم والدبابات تحتلّ زواياها الأربع، ارتفع صوت بكائي وحين توقفت السيارة لم يصدِّق عمر ومريم حين التفتا إليّ أنّ أمي قد ماتت.

كأنّه حدث عادي، تمّ كلّ شيء بسرعة ما عدا تلك الليلة الرهيبة، طلب عمر من رضوان مساعدته بحمل جثتها إلى غرفة مروة، سجاها على السرير وغطّاها بحرام صوفي، توافد أناس قليلون من بينهم الحجّة رضيّة وخالي سليم الذي كان حيادياً، جلس إلى جانب رأسها، فتح المصحف وقرأ لها سورة البقرة وسوراً قصاراً، قام بتوزيع أجزاء القرآن على مريم والحجّة رضيّة وجارات أسفن عليها بكلمات لم تعد تعني لي شيئًا، كنت في غرفتي، زهرة تحتضنني ونبكي قليلاً ثم نصمت لنعود مرة أخرى إلى البكاء في متوالية لم أدرك سرّها حتى الآن، أسمع همهمات الأصوات المتصاعدة بختمة القرآن كي تهدأ روحها، عمر استدعى صنّاعه صباحًا لمساعدته في تحضيرات الدفن الذي تمّ بسرعة رافضًا انتظار قدوم

أبي وأخي من بيروت، حاولت رفع الحرام الصوفي عن وجهها فلم أستطع، خطفت نظرة إليها حين أتت مروة وحيدة يرافقها عمها الشيخ عبّاس الذي جلس قرب الشيخ الداغستاني في باحة الدار، لم ألحظه إلا بعد عودتهم من المقبرة، موت أمي حدث عادي لا يستأهل الانفعال كثيراً في مدينة فُتح فيها أكثر من ثلاثمئة عزاء في يوم واحد لضحايا السجن الصحراوي، فقد الموت هيبته، دفنوا أمي قرب جدّتي، تُرك مكان شاغر لقبر قدرت أنّه لحسام، أثار احتجاج أبي الذي حضر مساءً وتلقّى التعازي، جلس قرب عمر رغم مشادتهما بأن حسام سيدفن في مقبرة عائلة أبي، اتّهم عمر أبي بأنّه رجل مهمل لأسرته ولا يحقّ له إعطاء الأوامر لأحد، فكَّرت كم هم أغبياء حين يتقاتلون على جثّة غائبة، بعد انتهاء العزاء ترك أبي أخي همام عندنا وعاد إلى بيروت شاتمًا بكر، حمّله مسؤولية قتل ابنه وموت زوجته، أخي لم يفهم ما يحدث حوله، ولا لماذا تحتضنه النساء، يلعبن بشعره ويؤكِّدن معنى يتمه، في لكنته اللبنانية شيء مضحك، لم يتجاوز العشر سنوات، طفلٌ تغريه مشاركة ولدي بكر نصب المراجيح على أغصان شجر الليمون والطيران في الهواء.

صمت كلّ شيء في المنزل ومرّ الصيف كئيبًا، لم نعد نستطيع لملمة المفاجآت والكوارث التي تهبط على رؤوسنا، من السخف ذهابي إلى امتحانات الدورة الأولى، نظرت إلى الكتب كأنّها تخصّ فتاة أخرى لا أعرفها، شجعتني زهرة ومريم على الذهاب ولو لمرة واحدة، فكَّرت بأنّ الخروج من المنزل قد يريحني قليلاً، لا يهمّ المكان المقصود. بعد زيارتنا المتكرِّرة إلى قبر أمي تركت مريم وزهرة وأخي همام يقودهم رضوان

وذهبت إلى الجامع الأموي، جلست وحيدة، انتابني خشوع كدت أنساه، صلّيت دون أن أعد ركعاتي، تمنيت عودة رابعة العدوية إليّ كي تنقذني من بحيرة الحموضة والغثيان التي غرقت فيها أيامًا طويلة، قضيت وقتًا طويلاً أتأمّل نقوش الجامع الأموي وأتشمّم رائحة سجّاده الفاخر، اقتربت منّي امرأة، صلّت بقربي ثم رمت لي بورقة وغادرتني مسرعة دون أن ألحظ وجهها، فتحت الورقة، كانت الكلمات واضحة وقليلة تحذّرني فيها من الذهاب إلى أيّ منزل أعرفه يخصّ نساء الجماعة، وتطلب منّي انتظار التعليمات، بالإضافة إلى كلمات تعزية متأخّرة وجافة، لم يعد يهمني وصف حسام بالشهيد، مزّقت الورقة، رميتها في المرحاض وخرجت من الجامع، تلكأت في الشوارع ورفعت غطاء وجهي الذي رأيته منعكسًا على زجاج أحد محلات الأحذية متعبًا، مرهقًا، كابيًا، فاقدًا لنضارته وحيويته، كلّ شيء ذابل، تحسست جسدي من تحت المعطف، نهداي اسفنجتان جافتان، فقدا إحساسهما بمداعبة أصابعي، مشرّدة عدت إلى المطعم الأرمني، تهالكت على الكرسي نفسه الذي جلس عليه حسام وحاول الابتسام إلا أنه لم يفلح، طلبت طعامًا لم أتناوله، سندويشات جبنة وسجق وكأس شاي ارتشفت منه رشفتين، أبدو لمن راقبني من الزبائن فتاة تمارس الحب في الخفاء ومهجورة، دفعت الحساب، تجاهلت تعاطف كرسون حاول سؤالي إن كنت أنتظر أحدًا، بعد العصر تعبتُ، جلست في كافتيريا أخرى تناولت كأس عصير متجاهلة ضحكات صبايا وشباب متعالية وسط ازدحام الطاولات، أحسست بأنّني غير مرغوب بها، لم أتحرّك وبقيت أعبث بكراسين استغربوا كرمي بطلب كؤوس العصير وعدم شربها وبالبخشيش الذي

تركته لهم، كنت أحتاج إلى مكان مزدحم، استغربت حيادي نحو الشباب المولهين بالصبايا المتدللات، تمنَّيت البقاء خارج المنزل وكرهت جدرانه الباردة، استمتعت بنسيمات الخريف في الحديقة العامة، أردت الذهاب فوراً إلى سريري، هبط الظلام وشوارع الجلوم مقفرة رغم أنّ الساعة لم تتجاوز الثامنة مساءً، حثثت الخطى مسرعة حين أحسست بأنّ هناك من يلاحقني، أخرجت مفتاحي ودخلت إلى المنزل، دورية مخابرات كانت بانتظاري قرب الباب، رأيت رجلين يحتجزان رضوان وأخي وعمر وزهرة ومريم في غرفتي، أمسكني رجل المخابرات بقسوة من ذراعي ووضع القيود في يديّ، دون أن أنبس بكلمة خرجت معهم وعيناي معلَّقتان بالنافذة التي تجمَّعوا فيها، وجه عمر أليف محبَّب، هادئ، وهم من حوله يشدُّون على يديّ، يشجعونني أن لا أموت.

الفصل الثالث

رائحة البهار

يجب اعتياد الحياة دون بهارات قلت لنفسي مصمِّمة أن لا أموت، وأتخلّى عن عاداتي التي أدمنتها، فكّرت لأول مرة بقوة اللحظات الحلوة التي يصبح فقدانها عذابًا لا يَحتمل، تذكّرت تأنيب مريم حين كنت أستنشق البهار كمدمنة مخدّرات، أرفع رأسي منتشية بالطعم الخارق الذي يدغدغني فأسرف به، جميعهن تناسين لذّتي الغريبة، أردت التعلّق بشيء غريب، أسرفت فيه إلى درجة أنّني كنت أرشّه على قطع الجزر وألتهمه بتلذّذ. يجب إعادة ترتيب كل شيء من جديد والعيش في زنزانة ضيّقة، أرضيّتها مشقّقة وباردة تصلح منزلاً لكلبة غير مدلّلة التقطها نبّاش المزابل، رماها مع أسلاك النحاس وعلب البلاستيك، وقشور بطيخ يثير تعفنها غثيانًا وإحساسًا بالإحباط، ثم تناساها قصداً، تبقّع جلدها ونهشتها الفطريات لكنّها لم تعوِ، كنت تلك الكلبة التي انتظر سجّانوها عواءها كي يتلذّذوا بآلامها التي لَن تندمل، ستبقى آثار الكبال الرباعية وملاقط الكهرباء وجمر السجائر المطفأة وشمًا لا تستطيع أشكال الحنّاء المرسومة بعبث إخفاءها عن جسدي، الذي كلّما عرّيته ووقفت أمام المرآة أدركت بأنّ الكراهية جديرة بالامتداح، لتعيش داخلنا تمامًا كما الحب الشديد حين ينمو لحظة بلحظة كي يستقر أخيراً في أرواحنا، لا نريد هجره رغم آلامه.

أكثر من مئة يوم مرت وأنا وحيدة في زنزانتي، أفكّر بالبحر الذي اكتفيت بالنظر إليه، لم أغصّ به وأتعرَّض لأخطار موجه العالي، مرات قليلة رأيته فيها، استغربت حضوره القوي، أحتاج إلى مهابته كي أبعد صورة أمي الميتة وأهرب من نظرات أبي القاسية كأنّه يتَّهمني بقتلها، لاحقني وجهها البارد ينظر في الفراغ، فكَّرت لماذا الموتى يحبُّون الفراغ إلى هذه الدرجة فينتمون إليه ويهجرون الذكريات على عجل كقطار أعمى، تخيَّلتها سابحة في فضاء مفتوح عارية، باحثة عن حسام بصمت مومياء رُميت بيننا لوقت قصير ولم تحتمل ثرثرتنا المتواصلة، تركتنا غير آسفة كي نتعلم معاني صمتها، شغفها بالفضاء الذي اشتاقت إليه حيث يتجوَّل الموتى دون ضوابط في فراغ هو فراغهم، يستنشقون طعم الوقت الذي هو وقتهم، كما يعبثون بذكرياتهم هازئين من قداستها، فتتساقط من مساماتهم كروائح عرق كريهة يجب التخلُّص منها، رسمت مقعدها في الجنّة، وانتابتني شهوة تزيينه بطيور تغرِّد بعذوبة، وأمي تبتسم معتذرة عن صممها.

صورة أمي الميتة، بحر تشهَّيت أعماقه، وزمن فقدته، بدأت تقديره من دوام حرّاسي، أصوات خطواتهم سريعة في ممرّ مظلم تنيره لمبة صفراء تئنُّ من الرطوبة، يبدو ضوؤها الشحيح كإعلان رثاء لعالم غريب لم أستطع تصوُّره حتى تذوَّقت ألمه وعرفت كم الإنسان همجي، مازالت فيه تلك الحيوانية الرهيبة.

في الأيام الأولى لسجني اقتربت من الموت، رأيت ألوانه واضحة الخطوط، مسالمة، هادئة تُدخل الكائن في الملكوت، تقوده إلى ذلك الصراط الممتدّ كخط واضح بين النار والجنّة التي كنت موقنة بأنّها منزلي

الأبدي، مادمت مجاهدة كما أسمتني نشرات جماعتي التي سردت قصصاً طويلة عن إيماني وبطولات لا أذكر أنّني قمت بها، لم تبرق عيناي حين وضع المحقِّق أمامي إحدى النشرات التي نشرت صورتي بجانب صور أخرى لفتيات أعرف أغلبهن، وشباب أحسست بالتعاطف مع أحدهم، نظرت ما أتاحه لي الوقت إلى ضحكته الساخرة، خطر لي للحظة أنَّني أحب الحياة أكثر من لقب الشهيدة الرمز، لم يعد يهمّني شيء سوى خروجي حيّة من بئر الحموضة، طمأنينتي مزيّفة كما هي رغبتي بالشجاعة التي تليق بحبيبة اللّه كما وصفتنا جماعتنا بإنشاء كنت أكرهه، يبعدني عن أشياء بدأت أفكِّر بحقيقتها، كأنّ ما كان ينقصني هو الوقت والوحدة، رغم أنَّني قضيت أغلب سنواتي الماضية وحيدة وسط خالاتي اللواتي تحوَّلن في زنزانتي الضيِّقة إلى بجعات يسبحن في نهر هادئ، ورضوان يقود جوقتهن، يلملم رذاذ أجنحتهن، عاشقًا يكفيه نظر الأعمى إلى هسيسهن، ذات لحظة تبعثرت هذه الصورة، عادت إليَّ اختلاطات الذاكرة، فكَّرت بمخدتي التي استدرجتني إلى آلاف الأحلام التي رسمتها، محاولة طرد خوفي آخر الليل في المنزل الواسع حيث كل ما تركته ورائي من صمت ومساحات متروكة لوقع أقدامنا الباحثة بعبث عن حفيف أرواح أجداد آمنت مريم بسكنهم إلى جانبنا، ثم تناستهم حين أصبحنا صوراً تبكي علينا، تتمسَّك بزهرة وأولاد بكر وأخي كي لا تبقى وحيدة مع العناكب وأنفاس رضوان التي تخاف إعادتها إلى أحلام الصبابات الغائبة، لم أستطع الهروب من وجهها الطيِّب، الحنون إلى درجة الشفقة، هل يمكن لامرأة تفترش سريراً عريضًا وتوقن بأنّ هناءاتها لن تنقضي ثم تستيقظ فجأة لتجد نفسها محاطة بالموت والخرائب، هل تنهض من نومها مرّة أخرى

لتعيد تفاصيل سأمها الذي تحب؟ قبل خروجي من باب الدار لمحت بطرف عيني ذهولها الذي لازمها في الأيام الأخيرة، ردّدت النساء اللواتي شاركنها بتكفين أمي كلّ ما حفظن من أشعار الرثاء التي أنشدتها بصوت ثابت وقويّ، أخرجت من خزانتها قطعة حنّاء مكّية وأرسلت ضفائر أختها الحبيبة إلى القبر مجدولة ومحنّاة، كما أخرجتها جدّتي عروسًا لتمسك بها يد أبي القوية وتقودها إلى متاهات حياة اختارت نهايتها.

خرجت أمي من باب الدار ودخلت مريم في نوبة صمت قدّرت أنّها ستطول ككلّ الأشياء التي اختارتها، لم تجد أمي حلاً أفضل من الموت، كما تساوت لديّ خياراته مع الحياة حين هزئ مني رجال المخابرات ساخرين من عدم قدرتي على صعود درج الفرع، الذي كان يعني للحلبيين مكانًا للرعب والموت المحتّم، وفي أفضل الأحوال العطب، كما يعني رئيسه رمزًا للخراب الذي حلّ بالبلاد، كان يستمتع بسماع نوادره في تعذيب المعتقلين، وتدخّله في كل شؤون المدينة التي كانت ذات يوم بهيّة قبل أن يتلقّاها هدية لخيانته رفاقه في محاولة انقلابية وتسليمهم فردًا فردًا ليذهبوا إلى المشانق في قبو إحدى ثكنات الجيش الرطبة، ليعود وحيدًا، مستأثرًا بكلّ طرق التهريب مع أفراد أسرته الذين تركوا العيش مع الماعز ليتحوّلوا إلى رجال أعمال مقلّدين التجّار فيثير مشهدهم الضحك في الخفاء، وألوان بدلاتهم تثير الشفقة من تداخلها المثير وقلّة ذوقهم.

الصمت أفضل ما نفعله حين نكون وجهًا لوجه مع أعدائنا، آلمتني القيود في يديّ، نخرتني رائحة عفونة قوية انبعثت من زنزانة رمتني إليها أيدٍ قوية بغلاظة، دوار رهيب أوقعني أرضًا، تراءت لي للحظة خاطفة

صورة الموت الذي تحاشيت النظر في عينيه حين تمدَّد بقربي كرجل أستطيع استنشاق أنفاسه، يعابثني فأميل عنه، يتدلّل فأشتمه بصوت داخلي يسمعه جيِّداً لكنّه لا يغادرني، «عليَّ طلب الرحمة» قلت لنفسي، استسلمت لزمن طويل أعرف أنّه سينقضي قبل عودتي إلى أشيائي التي أهملتها فغدت غريبة عنِّي لتعود الآن إليَّ، تعاتبني أغطية السرير الناعمة، غطاء الطاولة المعد خصِّيصاً لطالبة الطب التي كنتها وصديقة رضوان في الإنشاد، سريري الدافئ والسجّادة الصغيرة المعلّقة كأيقونة أبدية، أبعدت التفاصيل كي لا أبكي وأغرق القبو الذي توزَّعت الزنازين على جانبيه، تتسرَّب منها أصوات واهنة تستجدي الهواء وقطرة ماء واحدة قبل أن تفتَّق الجلود المتقيِّحة، ثلاثة أيام ولم يكلمني أحد، ترمي يد لا أرى سوى أصابعها الخشنة بصحن طعام عفن دون بهارات، تختلط الروائح فتحيلني إلى ثمرة برتقال عفنة، ليس لديَّ في هذا المكان سوى ذاكرتي، تمهَّلت في استعراضها مدركة أنّ تركي بهذه الطريقة هو الحل الوحيد كي يختبروا قدرتي على عدم فقداني لعقلي، وطلبي منهم أن يتحدَّثوا إليَّ، أن يشتموني ولا يتركوني في فراغ الأنين، كم هو قاسٍ أن تتمنّى سماع صوت جلاديك كي توقن أنّك لست وحيداً، تذكَّرت مروة وهي تنظر إلينا باحتقار رافعة قيدها دلالة حبّها لنذير، أقسمت في لحظة أن أقبِّل قدمها كي تغفر لي، لازمني هذا القَسَم طويلاً، تخيَّلته آلاف المرّات، ورسمته حتى أصبح لازمة لا أستطيع الفكاك منها أبداً، في اليوم الرابع أو هكذا ظننت اصطحبني رجل من ذراعي إلى غرفة التحقيق معصوبة العينين، كلمات قليلة ثم اقتادوني إلى غرفة أخرى قريبة، باستسلام خروف سيذبح، تمدَّدت على الأرض وانهالت السياط على جسدي،

سبحت في الملكوت المظلم حيث أصوات خشنة تتعالى شاتمة امرأة قتيلة هي أمي ومسبِّحة بحمد قائدها، ألوان سوداء تزداد سواداً، رابعة العدوية ترفرف كطير أبيض، ألحق بها فتحيطني الخفافيش التي تهدل بأجنحة لها شكل السكاكين، أسبح في مرقة الفاصولياء النتنة، تهطل البهارات فوقي، لا أستطيع التقاطها أو شمّ رائحتها، كل ما حولي يجعل من الصمم نعمة إلهية، كلما أمسكت بيد رابعة العدوية أفلتت من يدي الأظافر وتمزَّق جسدي إلى قطع صغيرة ثم تناثر لتتلقّطه ذئاب لا تشبه التي أغرمت بفكّها المتهدّل وعينيها اللئيمتين، في البداية تريد المحافظة على جسدك، ثم على عينيك وأخيراً على تنفُّسك في ملكوت الظلام الذي دخلته حيث للأشياء معانٍ جديدة، غبتُ عن الوعي، لم أحسّ بالأقدام تلكزني في خاصرتي كي تستيقظ جروحي، تنزُّ قيحها الذي ألفته وجرّبت مرّة تذوّقه، يجب أن أحبّه كألمي كي أستطيع البقاء، محتفظة بقدرتي على العودة مرّة أخرى إلى أعضائي التي استسلمت لروعة التشتُّت وترك الالتصاق الأبدي لوقت قصير.

سلافة تغمض عينيها، تلتمع سمرتها النقية في الضوء الشاحب، «مسِّدي لي شعري واجعليني لعبتك» يرنّ صوتها كأنّه قادم من أزمنة لم تمت بعد، أزمنة الخارج التي نحاول تجاهل وجودها لنقيم ممالكنا على جبال ملح وغضار، فاجأتني بطلبها كأنّها تخبرني عن أمنياتي بأحلام يقظة لا تنتهي، اتكأت على ركبتي، استسلمت لأصابعي تفكك يباس فروة رأسها المتيبسة كقندريسة جافة ومهملة، أم ممدوح تستيقظ كعادتها في الليل، تطيل النظر إلى النائمات اللواتي اعتدن تخشيب أجسادهن في

سنتيمترات قليلة، وقتل أنينهن الذي لا يتوقف ورغباتهن في الانفلات على أسرَّة عريضة تتيح لمساماتهن التنفُّس والتقلُّب بحرية في فضاء الذكورة، نظرت إلينا، ابتسمت ثم شاركتني بضفر جدائل لسلافة كي تكتمل اللعبة، اعتدت الصمت وعدم مشاركة بنات تنظيمي جدلهن الدائم حول فتاوى الصلاة في هذه الظروف، محاولات إقناع بنات الأحزاب الأخرى بضرورة العودة إلى اللّه، لذّة الكلام تتفجَّر بين الطرفين تنتهي بتراشق الاتهامات. في الليل يصمتن، يتصاعد أنينهن، تفوح روائح قيح أجسادهن من حفلات تعذيب لم تتوقف، وضعت رأسي على ركبة أم ممدوح وأحببت أن أكون لعبة أيضًا، نحن الاثنتين نحتاج إلى أم، كرَّرنا اللعبة أكثر من مرّة ولم أكترث لتأنيب الحجّة سعاد ووصفها لنا بالشذوذ.

بعد السنة الأولى ابتعد الجلاَّدون عن جلودنا، اعترفنا بكلٍّ ما أرادوه، لم يعد يهمُّنا أيّ شيء، قرّرت ترتيب حياتي الماضية من جديد، أنزلق الآن من رحم أمي لأحبو على بلاط بارد، قرّرت تصديق الكذبة لأعيش باستهتار لم أصدّق أنّني أمتلكه، عبث لم أسمح له بالاقتراب منّي يومًا، ندمت على جدِّيتي المفرطة، اقتنعت أنّني في هذا الجحيم كي أحب خالاتي أكثر، تنازلت طواعية عن مساعدات التنظيم القليلة التي استطاعوا إيصالها لنا رغم كل الحواجز عبر زيارات سجينات جنائيات عبرن لأيام قليلة عالمنا، أضفت العاهرات خاصّة جوّاً حميمًا بكلماتهن البذيئات ولهجتهن المسترسِلَة في وصف زبائنهن، يدركن أنهن عابرات ويبدين أسفًا لأوضاعنا ثم يغادرننا إلى أقسام أخرى مبتهجات فتلعلع الزغاريد، يقبّلنني كصديقات عابرات قد لا يرين الضوء مرّة أخرى، تفاهم غير

مرضٍ بيني وبين الحجّة سعاد أدّى إلى قطيعة ثم إلى تجاهل تام، استعدت فيه حرية الجلوس مع سلافة وأم ممدوح التي أصبحنا نحن الاثنتين ندعوها بأمي. لو أنَّ أحداً قال لي قبل سنتين أنَّ سلافة ستصبح صديقة عمري لأشفقت عليه من هلوساته، بدت أحاديثنا المتواصلة لا نهاية لها، رسمنا سوية خطّ أقدارنا من جديد، تنازلنا طوعًا عن كل ما عشناه لنعيد ترتيب كل شيء، تقاسمنا غرفتي وأنشدنا وراء رضوان موشّحاته ثم أشعلنا قنديل ليلة المولد النبوي، سبحنا عاريتين في بحر اللاذقية ثم تمدَّدنا على الرمل الأبيض منتشيتين بكؤوس العصير تحت نخلة وحيدة على شاطئ سمرة، تهنا في الغابات وضيعتنا الطرق الريفيّة المتعرِّجة، استقبلنا الصباح الساحر وهو يتخلَّل صنوبر جبل النبي يونس، ثم وقفنا أمام محلاّت جدّي كزبونتين تبحثان عن السجّادة التي جلست عليها شهرزاد كي تفتدي بنات جنسها بالحكايات الألف وحكاية، ماذا يعني أن نكون نساء وحيدات في زنزانة ضيِّقة لا تتّسع لمدّ أرجلهن وتقشير الباذنجان؟ فكَّرت للحظة بأنّ كل ما حدث هو لعبة ستنتهي بعد وقت قصير ويذهب الخاسرون إلى منازلهم متحسِّرين، نادبين حظوظهم السيِّئة.

قلت لسلافة بأن تعيد ترتيب حكاية اللعبة وتوقظني حين تصل إلى لحظة تسجيل الهدف، لكزتني واسترخت، ثم غطّت رأسها بالبطانية المثقلة برائحة ضراط مجنّدين وسجناء سبقونا لا نعرف عنهم شيئًا، عرفت أنَّ الليل قد انتصف، ساعة قدوم مضر قد حانت، كلّ يوم سلافة تهجع إلى وحدتها، تصنع من شرشف عتيق بيتًا صغيراً يشبه خيمة أُعدَّت على عجل، تترك شقًا صغيراً لدخوله كما كانت تفعل حين تترك له باب

غرفتها كي يتسلّل بهدوء إلى ذراعيها وسط الظلام، تستعيد كل اللحظات السابقة بشغف امرأة لا تؤمن بأن أشجار التين في منزل أهلها المطلّ على البحر من بعيد قد أصبحت حلمًا وذكرى، أنا قرب سلافة أراقب حركتها، أعيد ترتيب وصول مضر بحركته الصاخبة وعنفوانه ووقع أقدامه الثقيلة، كحارسة أتشاغل عن الأخريات بقضم أظافري والدندنة بصوت خفيض بمقاطع من أغنية أم كلثوم «دارت الأيام» التي حفظتها من كثرة ترديدها أمامي. ماذا يعني اقتسام رجل بين امرأتين، بين سيّدة وخادمة، بين زوجة وعشيقة غير مرئية، كلما فردت سلافة خيمتها أعدتُ تركيب صورة مضر، أتيت به إلى غرفتي في ذلك المنزل الرحب الذي لم يشهد رجلاً غريبًا يضاجع أيّاً من نسائه، ضحكت حين تذكرت عبد اللّه، ينام وحيدًا في غرفة باردة، محاطًا بأبّهة ضيافة تليق بسمعة أجداد تركوا امرأة عانسًا كي تحافظ على أمجادهم، فتأمر بإنزال فراش صوف منتوف يزن خمسة عشر رطلاً، تخرج من خزانة الضيوف شراشف يعاد تعطيرها دومًا، ووسائد لا تذكّرني إلا باستعراض ديوك حبش منفوشة الريش أمام جمهور أعمى، ولحاف أحضر ساتانه من استنبول خصيصًا لضيوف انتظرتهم العائلة طويلاً ولم يأتوا، عبد اللّه يضطجع كضيف محاطًا بالأبّهة، صفاء تتحسّر بجانب مروة، لا تجرؤ على احتضانه خوفًا من مريم التي لا تنام، طوال الليل تدور في أرض الدار كحارسة لفروجنا وأنفاسنا، منعه وقاره من مجاراة غمزات صفاء الشبقة، كان في كل زيارة يضطر لاستئجار منزل كي يغرق في دفء أنوثتها حتى الصباح، فيما بعد أصبح نزيل فنادق فخمة كي لا يثير شبهات أحد فيبدو كرجل أعمال خليجي مثقل بالمشاريع، وبيع الجنّة لمن يريد الجهاد في أفغانستان ضدّ

السوفييت الكفّار، حماسه ورقة تعابيره، تاريخه المثقل بالخيبات والنجاحات جعلتني ذات يوم أشتاق إليه، أتخيَّله أبًا لي أو زوجًا أسهر حتى الصباح كي لا يسرق الليل أنفاسه منِّي، أفكِّر الآن وأنا أحرس خيمة سلافة بعبث تقاسم ذكرى رجل مع صديقة وأم مفترضة كي نخفي أسرارنا عنها، نتلقى تعنيفها بمودّة ونحن نتبادل النظرات كأيّة مذنبتين.

ضيَّعنا عدد أيامنا، استسلمنا باسترخاء، تمدَّد الوقت وحشًا خرافياً على أجسادنا، قالت لي سلافة «إنّها تمطر الآن» ضحكت، أكملت «لا بدّ أنّها تمطر الآن، مضر يمرّ أمام نافذة غرفتي المطفأة ويبكي» أعجبتني صورة الرجل العاشق الذي يبكي تحت المطر وينتظر أن تضاء نافذة حبيبته، بدونا صديقتين التقتا مصادفة في قطار بطيء لم يكفهما الوقت لتتبادلا أخبارهما، فاضطرتا لإعادة سردها مرّات عديدة بشغف من تريدان الوصول إلى أقرب مقهى لتُكملا ما بدأتا به، رسمت لي بإتقان متمهل رموش مضر التي ترفرف بعصبية على عينين سوداوين كطيور سنونو، ثم ضغطت على يدي بعد أن أشحت وجهي جانبًا، اعتذرت برفق وفكَّرت طويلاً بشكل العيون الشبيهة بطيور السنونو. أكملت متأنِّية وبصوت هامس كي لا تسمعنا الأخريات، ازددت شغفًا، كل ما يقال هو لي فقط، يجب المحافظة عليه مثل سرّ لا يعني أحدًا سوانا، بكلمات محدَّدة استعادت قامته الطويلة وطعم شفتيه المنفرجتين كثمرة فريز، امتلاؤهما يوقظ شهوتها للغرق في قبلات ملتهبة ظنت ذات يوم أنّها لن تتوقف، التقيا مصادفة، دخل حياتها وكانت هرة مطمئنة إلى دفء سريرها في الشتاءات القاسية، دافعت عنه أمام محكمة الحزب التي عقدت لمحاسبتها، لم تستسلم

لرجاءات رفاقها وازدراء رفيقاتها اللواتي غضبن من خروجها عن القَسَم الذي تهب نفسها فيه لحزبها السري، طلبت منهم أن يعرفوه رفضوا، طلبوا منها جرّه إلى التنظيم فصمتت، كان الشوق إليه يحرق أضلاعها فتترك له باب غرفتها مفتوحًا غير مبالية بنظرات الجيران المتسائلة، يعبر بهدوء كل ليلة ساحة باب توما، ينعطف باتجاه حمّام البكري نحو ذلك البيت العتيق الذي تتقاسم غرفه أربع طالبات وممرضتان تتناوبان السرير الوحيد ومكان عملهما، تفوح منهما رائحة المرضى وعلب ماكياج رخيص تتزينان به، صامتتان وخجولتان، يتعالى شجارهما كما أفراحهما الصغيرة دون سبب، عكس الطالبات الأربع اللواتي يفردن شعورهن بإهمال ليشبهن سلافة التي تحمل الجرائد تحت إبطها وتحب الرقص الشرقي، تغمض عينيها وتنشد مع مغني اليسار العربي الشيخ إمام الذي كانت أغانيه تدهش فتيات قادمات من القرى البعيدة، يبحثن عن مستقبل كن يظنّنه واضحًا في مدينة لا ترحمهم، فتسلب منهنّ كل البديهيات لتدخلهنّ مدار الأسئلة من جديد. الطالبات الأربع يحرسن الممر المودي إلى غرفتها، يقنعن جانيت صاحبة المنزل التي تنتظر أعياد الميلاد كي ترتدي ثوبها المخمل اللمّاع من بقايا موضة الستينات متشبِّهة بمارلين مونرو، ومردِّدة تراتيل أبيها خوري كنيسة الأجراس الصامتة التي بناها فيليب العربي ثم هدمتها الرياح العاتية. عاد حنا أسبير من البرازيل، رمَّمها بعدما شاهد جانيت تبكي قرب أحجارها المتراكمة، تصلِّي تحت المطر رافضة الاعتراف بأنّ أباها قد مات، اختفى صوته الشجي حين يصعد إلى المنصّة، وينتظر مصلّين لا يأتون، في قرية لم يبقَ فيها إلا سبعة رجال عجائز وأربع نساء يتحرَّكن ببطء، بعدما هاجر أولادهم إلى أميركا اللاتينية، تاركين حكايات مرور الإمبراطور قرب منازلهم للخوري

كي يبشِّر بقيام المسيح ويستعيد أمجاد السوريين الأوائل. اقترب حنا من جانيت، سمع صوت همساتها يتصاعد بترتيل آرامي يتكرَّر كلازمة في مقطوعة موسيقية، شعرها المبلّل يمنحها وسامة وبراءة فتاة ضائعة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، ردَّد وراءها ككورس أرسله الرب ليمجِّد اسمه ويجعل من نبوءة جانيت حكاية تستطيع رويها لكلّ من تلتقيه حتى لو على عجل، تصف حنا وإيمانه وزواجهما الذي بدا أمراً إلهيّاً لكليهما. كل مستأجرات غرف جانيت عبر سنوات طويلة استمعن إلى تفاصيل حياتها في سان باولو، غرقن في أسطورة البيت الذي يستأجرن إحدى غرفه، والذي أهداه حنا العاشق لزوجته الحبيبة قبل أن يموت ويتركها للذكريات، شاهدن فستانها المخمل اللماع، سمعن وقع خطوات صندلها في طريقها إلى الكنيسة القريبة، وتذكيرها الخوري الشاب بأنّها حملته بين ذراعيها حين كان صغيراً ثم تبكي بخشوع مؤمنة وسط اعتياد جميع المصلين؛ لا تقبل الوقوف إلا في الصف الأول، تصالب يديها ثم تغلق عينيها وتتمتم المقطع الآرامي ذاته الذي تتفاءل بكلماته التي ترجمتها ذات صباح لسلافة، فأبدت اهتمامًا بعدما نصحتها الطالبات الأربع بأنّ سماعه وتعليقه على حائط غرفتها يضمن لمضر مروراً آمنًا إلى غرفتها، يسهِّل مهمة رقابتها في الليل وإقناعها بأنّ زائر الليل غير موجود رغم أصوات لذَّة سلافة التي لا تكتمها، وتلتقطها البنات بخجل أول الأمر ثم يتنصَّتن بشغف.

كن يحرسنها تباعًا، الآن أحرس صورة الوهم الذي تبادلناه سويًا كما تبادلنا كلّ شيء طواعية، أربكتني حين استعادت بمرح لحظة ولادتها وحبل سرَّة أمها التي نهضت فرحة بأنها أنثى بعد أربعة ذكور، التفّ حبل

السرّة حول رقبتها، كاد أن يخنقها وسط ذعر النساء اللواتي خلّصنها بصعوبة. وبعد وقوعها في البئر وخروجها دون خدوش، تأكّدت أمها أنّها خُلقت للحياة.. حاولتُ إعادة صورة ولادتي فداهمني وجه أمي الميتة وصمت.

وجوه السجانين لم تعد مقنعة، أصبحت جزءاً من يوميّاتنا، نشتاق إليها أحيانًا كي نشعر بأنّ حياتنا ستستمر خارج القضبان، سنلتقيهم ذات يوم ونحاسبهم على بطشهم، نسألهم «ألن تموتوا مثلنا» نخرج لهم في أحلامهم، ونتغلغل في ذكرياتهم مفسدين لحظات وئامهم، ومحاولة التمتُّع بشيخوخة هادئة يقضونها في لعب طاولة الزهر وحمل أحفادهم على أكتافهم ليعبثوا بذقونهم باسترخاء.. رسمت مع سلافة أقواس محاكم شتى، ارتدينا ألبسة القضاة، أمسكنا بمطرقة المهابة ثم بدأنا بسماعهم «من أين أتيت بلذة الاستمناء على امرأة معلّقة بخطّافات وملاقط الكهرباء تنهش ثدييها» يقول ما يسميه رفاقه بأبي علي «كنت أخدم معلّمي ووطني»؛ تضحكني كلمة الوطن التي يستخدمها الجميع بتبجيل واحترام من جماعتي إلى الجلاّدين.

تدهشني قدرة البحث عن مفهوم مجرَّد وسط عبث المعاني، فكَّرت طويلاً بمعنى الوطن، نحن نريده إسلاميّاً، سلافة وجماعتها تريده ماركسياً، الجلاّدون يريدونه مزارعَ خاصّة لهم، مليئًا بالسجون ليتابعوا استمناءهم ولذة تشبُّثهم بكراسي السلطة، مستفردين بكلِّ شيء وغير آبهين بأحد ماداموا يمتلكون الجيوش والزنازين. قلت لسلافة «كيف تكون البلاد ماركسية» أجابت بحماس فاتر «حمراء ولا ألوان أخرى»، ثم أجبت

نفسي «ونحن نريدها خضراء». البلاد الملوّنة يريدها الجميع ذات لون واحد كأرديّة القضاة الثلاثة الذين وقفتُ أمامهم بعد سنتين من سجني، أصبح حلمي بالبهارات عبثًا غير مستحب أمام الأخريات القلقات على أزواجهن وآبائهن وأطفالهن، لم أعد أبوح به كما أشياء كثيرة كاقتسامي مضر مع سلافة، واضطجاعي إلى جانبه في منزل جانيت.

بعد سنتين من سجني أخرجوني مكبَّلة مع تسعٍ من بنات تنظيمي ليرمونا في سيّارة مغلقة، لم يسمحوا لنا بإلقاء نظرة إلى السماء الملبَّدة بالغيوم، عبرت السيارة المغلقة شوارع دمشق، سمعنا زمامير السيّارات، تبادلت نظرات طويلة مع الحجّة سعاد التي أحسست بخوفها لأول مرّة كما لو كنَّا نتبادل النظرات الأخيرة، أمام باب المحكمة حاولت لمس يدها لأشجعها، منعتني القيود إلاّ أنّها أحسَّت برغبتي فأغمضت عينيها وتمتمت، أحسست برضاها الذي أحتاجه إلى جانب دعوات أم ممدوح التي ودّعتني كما لو كنت تلك الطفلة الذاهبة إلى المدرسة بكلّ أحلامها المقبلة، قبَّلتني وبحركة من يدها رتَّبت ياقة كنزتي الوحيدة التي لامستها أصابع مريم متباركة بي، مدركة معنى خروجي مع كل هؤلاء الغرباء، تشمّمت الكنزة وبحثت عن رائحة أصابعها بعد أن أصبحت هيئتي توحي بأنّني متشرِّدة على أرصفة مدينة غريبة، تغطي القذارة مساماتي، أكره رائحة دورتي الشهرية، لم تعد سراً بل أصبحت علامة إزعاج، الأخريات يبتعدن عني كجيفة منتنة.

كلُّ شيء أُعدّ على عجل، منصّة القضاة لامعة والمكان دافئ، صور الرئيس في كل زاوية كأنّه يتوعَّدنا، القضاة يبدو على وجوههم الملل كما لو أنّهم تركوا فناجين قهوتهم ممتلئة وأتوا ليدفعوا ثمن امتيازاتهم

الكثيرة من الشقق الفاخرة إلى السيارات والأرصدة بكلّ عملات العالم في البنوك، بنات تنظيمي مستسلمات بعدما خسرنا أملنا، في نظراتهن فراغ وبريق منطفئ كأنّه لم يعد يهمُّنا شيء، نسينا رائحة شراشفنا، استسلمنا لفضاء الزنزانة، لم نعد للحلم بالزواج وطيش العائلة على مائدة الإفطار، كانت ملفاتنا على الطاولة توحي بأنّنا مجموعة أوراق خطَّها مخبرون ومحققون تعاقبنا في الإجابة على أسئلتهم الغبية عن أدقّ الأسرار أمام جبروت امتلاكهم للأقلام وصياغة الاتهامات الجاهزة، ابتداء من شرفنا إلى محاولة قلب نظام الحكم.

جميعهم أغرموا بعينيْ سهير، تنظر إليهم كحدأة وتردّد بعنف «نعم أردت قلب نظام الحكم وقتل الطائفة الأخرى عدوتي». بتصميم يغيظهم كانت تمتدح رجولة زوجها الذي كان شابًا يصغرها بثلاث سنوات، فاتن الجمال أثقلت صدره بالحجابات لتبعد عنه شرّ الوقوع في الخطيئة، كان تغزُّلها به أمامهم يغيظهم، لا يستطيعون مقاومة إغراء جسدها المنهك، حتى استبدَّ هواها بكبير المحققين، قلبت فنجان القهوة وبصقت في وجهه بعدما أخبرها منتشيًا بخبر إعدام حبيبها ضمن إحدى الدفعات التي كانت تساق إلى المشانق المنصوبة على عجل في باحة السجن الصحراوي كل صباح، عادت إلى الزنزانة، وقفت كملكة ترثي مملكتها، جامدة العينين، بكلمات مقتضبة قالت «أنا الآن أرملة الشهيد حبيب الله أبو ابني الذي ينمو في أحشائي الآن، أنا أرملة صبحي الجنادي». استراحت الملكة اندفعت صبايا جماعتنا بتأبينه، زغردن وأثرن حماسي، اكتشفت أنّني لا أعرف إكمال زغرودة تهزّ البلاد بأكملها فبكيت كما فعلت الحجّة سعاد،

شاركتها أم ممدوح وكل صبايا الزنزانة واندفعت الماركسيات لتأبين حبيب امرأة متكبِّرة. لم ننم ليلتها، جرّونا واحدة تلو الأخرى إلى ذلك الكرسي الذي أصبحنا نعرف الطريق إليه، لنترك له حرية العبث بجلودنا وأثدائنا وبطوننا لتتفتح جراحنا مرة أخرى قبل أن تندمل. حالة ذعر انتابت الحرّاس حين تعالت من الزنازين المجاورة هتافات رجال كنّا نحسّ بأنفاسهم قريبة من رقابنا؛ «اللّه أكبر» هتف الرجال، اتفاق مبطّن بيننا، كلما هتفوا زغردنا وودّعنا شخصًا نعرفه وكلما زغردنا هتفوا بملء حناجرهم، تلقُّوا السياط والركلات وكلاَّبات الكهرباء بالتناوب، سهير لحقت بنا منذ سبعة شهور، في الأيام الأخيرة أصبح منظرها مثيرًا، امتلأ وجهها بالكلف، أثار وحامها حماسنا وشغلنا جميعنا، كأنّنا نقتسم الطفل القادم، انتقينا لها حبات البطاطا من قصعات الطعام القذر، جففناها كي نقنعها بأنّها قطع دراق ونهدِّئ من وحامها.

أوصت رشا صاحبة الزيارة الوحيدة أهلها على كبب صوف ملوّنة تكفي لصنع طقم للطفل القادم وغطاء، دخلت معركة مع رئيس الفرع الذي كان يراعيها أحيانًا احترامًا لمكانة عائلتها الكبيرة المخذولة بأحلام ابنتها الماركسية، حاولوا إقناعها أكثر من مرّة بالتراجع عن موقفها ليتم إخراجها فورًا من هذا الجحيم، رفضت وهدَّدت أهلها بعدم استقبال زياراتهم إن كانوا يخجلون من كراهيتها لصحون الفضّة التي تفاخر عائلتها بوجودها على طاولة سنديان، صنعها نجّار أغرمت رشا بأحاديثه، يرسم لها شعار المطرقة والمنجل ويغني لها أغاني المقاتلين الأمميين في جبال إسبانيا، يخبرها عن صديقه لوركا الذي قال له بأنّ دماءً عربيّة تجري في

عروقه محييًا شجاعته، كان قريبًا لأمها، حلم مرّة بلقاء بيكاسو كي يخبره عن رغبته بنحت وحش خرافي له ضفيرة غار كالإسكندر المقدوني، ووجه امرأة أندلسية خارجة للتوّ من حانة متهتّكين. سافر مطيع مع بحّارة فرنسيين من ميناء مرسيليا إلى إسبانيا باحثًا عن بيكاسو، لينضمّ بعد وقت قليل إلى الجمهوريين، قاتل من أجل مجد الجمهورية التي اندحرت ليعود مع رفاقه الأمميين إلى باريس، قاسم رجلاً جورجيًا أتى أيضًا بحثًا عن بيكاسو ليشتمه ويقول له بأنّ سلفادور دالي يسرق منه الأضواء ويجاهر بكراهيّته للماركسية، سكن الاثنان في غرفة أمَّنها شيوعيون فرنسيون لرفيقيهما المنهكين من حرب الجمهورية الخاسرة، الاثنان عاشا كما يليق بماركسيين متهتّكين في باريس الأربعينات، لم يمنعهما ولعهما بالفودكا الروسية من البحث عن ثورات بعيدة عن موسكو. تناسى الاثنان بيكاسو وغرقا في تحليلات نظرية لا يسمعها أحد، مكتفين بفرنكات قليلة تأتيهما من تناوبهما على بيع الجرائد؛ بعد عشرين عامًا غادر الاثنان باريس كأنّهما في رحلة لم تستمر أكثر من أيام قليلة، عادا بعدها إلى عائلتيهما اللتين تناستا وجودهما ثم سخَّنت لهما المياه كي يستحما ويخرجا للمقابر لزيارة أعزاء لم ينتظروهما كي يشاركا في تشييعهم، العم مطيع كما تسميه رشا لم تعجبه الطاولة الكبيرة في منزل أهلها الواسع، طلب عدة نجارة لينشغل بقصّ الجذوع وتشكيلها، مردِّدًا أغاني رفاقه القدامى بلغة فرنسية لا يفهمها الفلاّحون المستغربون عزلته، وصبر عباس كرم الدين على عبثه حين تستبد كؤوس العرق برأسه، رشا الطفلة رفيقته، تجلس ساعات طويلة تراقبه يغني، يصنع الطاولة التي أدهشت الجميع وضمنت له غرفة في بستان الليمون قريبًا من أم رشا ابنة خاله، أخذ رشا من يدها، سبحا في بحر

جبلة ودخلا أسواقها متسلّلين، حدّثها عن معارك وهمية وأخبرها عن بلاد بعيدة، كبرت وهي ترعاه ممتنة له ولتصميمه تعليمها كراهية الطوائف معيداً على أسماعها بالفرنسية نشيد الأممية التي تجمع البشر تحت رايتها.

نجحت وساطة رشا، أحضر أهلها لنا الصوف والأسياخ، انهمكنا جميعًا بطفلنا القادم، أسياخ الصوف وثوب الصغير حدّدت التسميات، قالت ما لم نجرؤ على البوح به، كأنّنا جميعًا اشتقنا إلى بيوتنا وطفولتنا وكرهنا عميلات رئيس الفرع اللواتي يتجسّسن علينا، ببساطة قالت رشا لهدى بأنّها لا يحق لها الاقتراب من طفلنا، وفعلت الحجّة الشيء نفسه مع إحدى بنات تنظيمنا، امتلكنا جرأة عزلهما لتصبحا كجيفتين تتمنيان الهروب الذي لم يطل كثيراً لتنقل الاثنتان إلى سجن النساء المركزي، المكان الذي كنّا ننتظر جميعنا ترحيلنا إليه للخلاص من رائحة خراء سجّانينا وجلاّدينا التي يجبروننا على تنظيفها ويبالغون في نشرها على جدران المرحاض وسقفه لإذلالنا.

جميعنا تناوبنا على أسياخ الصوف، صنعنا كنزتين وغطاء ملونًا لطفلنا المقبل الذي قاسمتنا سهير به طواعية، كنّا نحتاجه فعلاً للتخفيف من وطأة الأحكام وابتعاد حلمنا بالخروج من هذا المكان. ألفت يومياتي، دخلت عامي الثالث دون أوهام، استرخيت مطالبة بحقّي في حصة من الكنزة وقبّلت يد الحجّة سعاد ورأسها كي تسامحني على برودة نظراتي، واقترابي من سلافة وعدم المشاركة بجلسات الدعاء وحفظ القرآن التي كانت تعقدها كل مساء، رفضت بعض البنات أعذاري، اتّهمنني بالتخلّي عن أحلام جماعتنا وعدم اهتمامي لما يحدث لرجالنا من تنكيل

وإعدامات، صورة أخي حسام وأمي كانتا مرتسمتين أمامي وأنا أدافع عن نفسي، لديّ حنين جارف للبكاء على حضن يشبه حضنها وإعادة كل شيء إلى براءته الأولى وألوانه التي كانت ذات يوم واضحة، ابتسمت الحجّة سعاد، منعت البنات من مضايقتي بإسماعي مفردات عابرة تلمّح إلى انتمائي إلى الطائفة الأخرى، شاتمات مروة وزوجها وسلالتي التي لم ينجُ منها إلاّ بكر، قلت لسلافة «هل سيأتي ابننا طويلاً أم قصيراً»، استرسلت متابعة أداء دور اللعبة «هل حقّاً كل ما مضى كان وهمًا وما يأتي سيكون وهمًا أكبر». راقبنا سهير التي بدأت آلام مخاضها، استيقظنا جميعًا: اثنتان وعشرون سجينة، بدأنا بدقّ الباب بكل ما نملك من قوّة نعلن تمسّكنا بحياة طفلنا القادم، هرع الحرّاس وأياديهم على زناد مسدساتهم وبنادقهم جاهزة لإطلاق النار، أم ممدوح مددت سهير، أمرت البنات بإحاطتها بسياج من البطانيات، تعالت أصوات رشا مطالبة بإحضار سيّارة إسعاف، بربرت بكلمات غاضبة، ثم خرجت معهم للتفاوض، سهير تقاوم الاختناق، تلتقط ذرات الهواء القليلة وتجاهد كي لا تموت، عادت رشا مسرعة، نقلت سهير إلى غرفة الحرَّاس ورافقتها أربع نساء عدا رشا التي تحمَّست كقائدة لنا، كانت أصوات المساجين في الزنازين الملاصقة ترتفع بدعاء غريب لم أسمعه من قبل، أصواتهم شجية نحتاجها لتهدئة قلقنا وخوفنا، كلمات الدعاء كأنّها منزوعة من تهليل الحجّاج في طوافهم الأسطوري حول الكعبة، صوت عذب ينشد أبياتًا والجوقة تردِّد وراءه بصوت فيه تحد لحرّاس مرتبكين وقفوا على باب الممرّ المؤدِّي إلى الطابق الأرضي، الحيرةَ استبدّت بهم كأنّ طفلنا قلب كل قوانينهم والصمت خيَّم عليهم للحظات كان إشارة تعاطف نادرة، أحبُّوا إرسالها في غياب

معلّمهم الذي حضر متأخراً بينما كانت أصوات طفلنا تملأ الكون صراخًا، زغردت أم ممدوح التي قامت بدور القابلة ساعدتها ليلى وتهامة الخرساء بمهارة اعتادت عليها في مدينة لا تكشف نساؤها عوراتهن لأطبّاء ذكور.

وصلتنا إشارة أم ممدوح واهنة من الطابق الأعلى، تبادلنا ابتسامات حذرة، الساعات الثلاث طويلة، مليئة بالأمل الذي فقدناه، رتّل المساجين آيات من سورة مريم، أرسلوا تهاني لم نسمعها مرددين اسم رفيقهم الذي رميت جثته في حفرة أُعدّت على عجل مع جثث كثيرة، ستظهر بقاياها ذات يوم وتحمل أكفانها لتلاحق ذلك القاضي المولع بتوقيع أحكام الإعدام بسهولة من يبول، والجلاّدين الذين تكاسلوا بإحضار حبال ومنصات خشبيّة فقاموا بتبديلها بخيوط نايلون تضغط على الرقبة فتقطع جوزتها، لتتناثر قطرات الدم وتغيب الأصوات المكتومة.

رئيس الفرع لم تعجبه تجاوزات الضّابط المناوب، بصق في وجه رشا، اتهمها بموالاة طائفتنا وتخلّيها عن أبناء طائفتها، نقلها إلى الزنزانة الانفراديّة بعد حفلة تعذيب وكانت رشا تصرخ متألّمة، تبصق على جلاّديها وتشتمهم، أم ممدوح بكت، قبّلت حذاء رئيس الفرع كي يسمح لها بالجلوس بجانب سهير التي غرقت في آلامها، وفرحة استعادة صورة حبيبها بطفلنا الذكر الذي تناقلناه بين أذرعنا، قبّلناه بشهية بعدما أفردنا مكانًا لسهير التي لم يسمح لها بالبقاء خارج الزنزانة، كنّا نحمل الطفل بالتناوب كي يبقى قريبًا من شبك الطاقة الصغيرة المطلّة على الممر الضيّق المشبع برائحة العفونة والبول المنبعث من المرحاض المجاور، كأنّنا نستجدي له الهواء ونبعد عنه خطر الاختناق.

من الصعب إعادة رسم لون عينيْ طفلنا الذي أجَّل كل مللنا ونقاشاتنا، التي جعلتها ظلال المكان الكئيبة تبدو أقرب إلى تبادل شتائم تنذر بكراهية ستزيد من ألمنا، لم نتوقّع وجودنا كأضداد وأعداء أيديولوجييِّن في مكان واحد، نضطرّ فيه لاقتسام الهواء وقطع الخبز اليابس والألم، انتمينا إلى طفل سهير في لحظة أحسسنا فيها جميعًا بتفاهة الكلام وقوة الحياة، أعدت للحظات ترتيب كلّ شيء، راقبت نفسي وكراهيتي التي كنت أحبُّها، تذكَّرت وجه أبي المنفعل، كلماته العنيفة المدافعة عن الطائفة الأخرى مطالبًا بعدم تحميلها مسؤولية اضطهاد طائفتنا، مستشهدًا بعشرات الأمثلة عن جلاّدين ورجال دولة فاسدين ينتمون إلى مدينتنا وطائفتنا، وأمثلة معاكسة لرجال من الطائفة الأخرى دفعوا أعمارهم لقول كلمة حقّ، كان يريد إنقاذي أم إنقاذ البلاد التي لم يستطع رؤيتها إلاّ ملوّنة تتّسع للجميع.

استعدت أبي فجأة، تمنَّيت لو أراه للحظة واحدة، لم أفهم معنى رحيله إلى بيروت، معنى صوته الذي ضاع وسط ضجيجنا وغمرة انفعالاتنا. الذكريات أغرقتني وأبعدتني عن طفلنا الذي بدأ يكبر يومًا بعد يوم، صوت زقزقته وأول تصفيق له أحالنا إلى مجنونات بغرامه، قبَّلنا قدمه وتخلَّينا عن كلّ شيء من أجل رؤيته يحبو ويشعبط بيديه، انتظرنا أيّة حركة جديدة منه لنتبادلها بغزل لم ينضب.

عادت رشا من الزنزانة الانفرادية بعد سبعة أيام، هجمت باكية على يديه الصغيرتين تقبِّلهما كأنها لا ترانا، سمحوا لسهير بنصف ساعة تنفُّس يومية تقضيها في حراسة جنود مرتشين دفعنا لهم نقودنا القليلة كي

يؤمنوا لنا علب حليب بخمسة أضعاف ثمنها، الزيارات القليلة لبعض الجنائيات العابرات أيضًا كانت تؤمّن أطعمة تنازلنا عنها لسهير كي تستطيع إرضاعه، تفتقت أذهاننا عن أساليب غريبة لمنع اقتراب الموت من ذيل ثوبه الذي ألبسناه إياه في احتفال مرح، ألقينا فيه كلمات مرتجلة، أغلبها ساخر، غنّت له ثناء من بنات جماعتنا قصيدة «القلب يعشق كل جميل» بصوت عذب أدهشنا، ردّدنا وراءها بخفوت خوف اقتراب الحرّاس وجرنا مرّة أخرى إلى الغرفة الرهيبة التي أدمت السياط المعلّقة على جدرانها العارية أجسادنا، أصبح لدينا مغنّية تحفظ المعلّقات، تردّد أغاني قديمة لمحمد خيري ونجاح سلام وأم كلثوم بإحساس يجعلنا نصدّق للحظات بأنّنا خارج هذه الجدران المقيتة، نحلّق منتشيات مع ثناء التي تخلّت عن خجلها دفعة واحدة، انضمت لتصبح أختنا الأخرى، أصبحنا بنات أم ممدوح كما أسميننا البنات لسنوات طويلة قبل أن تتركنا وتخرج بعد ثلاث سنوات، بعد أن روت لكل العابرات سيرة حماة المدينة التي دُمِّرت ورُميت الجثث في شوارعها لتتعفّن.

كنّا نحتاج طفلنا لنحتمل أكثر، ونكتشف كم هو رائع أن تراقب كائنًا ينمو في زنزانة بمرح وتحدٍ، لا يستطيع جلادونا فهمه. في الأيام الأولى انتظروا موته طوعًا، فيما بعد نظروا إليه ككائن غريب، لم يستطيعوا الصمت فباحوا لزوجاتهم بسره في ليالي القلق، حاولوا توصيفه فلم يفلحوا، قلت لنفسي «من الروعة أن يكون لكائن اثنتان وعشرون أمّاً»، فهمت سلافة هواجسي، أعادت سيرة مضر من البداية مانعة استحضار صورة أمي الميتة متأبطة يد حسام وأبي يقودهما إلى مكان

غريب، رأيت فيه قبو منزلنا و ظلال المساء تتسلّل إليه بهدوء يجب الحفاظ عليه بأمر من مريم لنشرب القهوة مع أرواح الأجداد الساكنة فينا، لم أتساءل كثيراً، أريد الجلوس هناك أراقب فراشات مروة، أتشمّم رائحة البهارات التي عذّبني غيابها، أحلتها إلى سرّ لم أروه لأحد ليبقى لي ما أهمس به لنفسي، لم أتنازل عن روعة الافتتان بطعمها، محاولة تشبيهها بحرقة ومرارة وجودي هنا في هذه الزنزانة، كدت أسأل سلافة عن الشبه بين البهارات وجدران المكان الضيق الذي يذكّرك بأنّهم يريدون تحويلك إلى جرذ نتن ويقتلون إنسانيتك.

خطر لي في سنتي الثالثة هاجس الموت للحظة، ثم أرعبني حين تمددت مريضة بالجدري الذي أكّد طبيب الفرع عدم عدواه رغم إحساسي بنظرات شريكاتي الخائفات من انتقال العدوى لهن، رجوت الطبيب نقلي إلى غرفة العزل، أبديت استعدادي للابتعاد عن أصواتهن التي تطرد وحشتي، لكزني بقدمه، رمى إليّ بحبوب رفضت تناولها في محاولة لقتل نفسي.

أم ممدوح أمرتني بصرامة أم بالتماسك وطرد وساوسي.. يا لوساوسي التي عرّتني أمام ذاتي، أريد العودة إلى ممرّ كلية الطب وارتداء الثوب الأبيض، أستهتر مع رفيقاتي في شوارع حلب التي حاصرتني صورتها فأعدت ترتيبها من جديد، في أيام الحمّى اختلطت الصور وتداخلت، اكتشفت روعة الاستسلام لأحلام يقظة طويلة لا أريدها أن تنتهي، رغبتُ بطفل يشبه طفلنا، أردت الهرب من إحساسنا الكاذب بانتمائه إلينا، طفلنا في الحقيقة ليس طفلنا، وأم ممدوح أمنا التي تنظر إلينا

بتأنيب حين تقرصني سلافة ونضحك بصوت عالٍ كي نحتشم ليست أمّنا، مضر حبيب سلافة لا يقف باكيًا تحت شبّاكي مستجديًا أن أفتحه وأرمي بنفسي بين ذراعيه كي يعتصر شفتي بقوة تجعلني امرأة مجنونة.

الكراهية التي دافعت عنها كحقيقة وحيدة تكسَّرت تمامًا، أعادتني إلى الأسئلة الأولى حول حقيقة الانتماء ووجودي، كائن مادي يسبح في فراغ من هلام، حياتي مجموعة استعارات من آخرين، ما أصعب أن تكون حياتك مجموعة استعارات غير حقيقيّة، قضيت كل هذا الزمن تؤمن بما يريده الآخرون لك أن تؤمن به، اختاروا لك اسمًا يجب أن تحبُّه وتدافع عن وجوده، كما اختاروا لك إلهًا تعبده وتقتل من يخالفك الرأي بجماله، تحمل عصاك، تهشّها بأوامر إلهيّة على رؤوس الذين أسميتهم بالكفرة، فيما بعد يخرج الرصاص جوقات ليصبح الموت حقيقة، قطارٌ بطيء يسير في السهول خربًا، عجلاته تئنّ بألم، تتقدم لتحمل موتى ينتظرون الدفن بعيون فارغة تنظر إلى السماء كما لو كانت حلمًا وصورة أخيرة لأماني لم تكتمل، السائق الأعمى يلفحه الهواء البارد، يعيد ترتيب محطاته كما يشتهي الموتى الذين يشيرون له بروائحهم ليتوقف، وبأريحيّة من جاء إليهم يشدّ الحبال، يطلق صافرة قويّة من بوق القطار تحية لكائنات زائلة، ينزل إلى المروج ويفتِّش بين العشب عن جثث تراكمت ككواديس عدس في أراض نسيها فلاحوها تحت المطر فتعفَّنت، يحمل السائق الأعمى الجثث التي ثقلت بخفة ومهارة، يصفُّها على أرضية العربات الحديدية الباردة، الموتى لا يهمّهم تزويقات الأحياء، يصعد وحيدًا ويسير القطار غير مرئي، صفحة وجه سائقه الأعمى المبتسم

تلفحها نسمات باردة، تلهب خياله فيرسم صور الجثث المكدّسة في العربة الخلفية، يتسلّل إلى أحلامهم كأنّه ضمانتهم الوحيدة كي لا يبعثروها في أزقة باردة كأكياس ورق فارغة مصنوعة على عجل وزواياها ثُبّتت بغراء رخيص. رأيت القطار يخترق بهدوء غير محسوس شوارع مدينة أعرفها، اعتقدتها حلب، كانت حلب فعلاً بأزقّتها الضيّقة وساحاتها التي امتلأت بالدبابات والجنود والجثث، لم يبال أحد بتوقف هذا الكائن الرهيب الذي ينزل منه رجل عجوز وأعمى، يأخذ حمولته ويغادر بصمت دون أن ينبس بسؤال واحد، لا يتذمّر من ثقل الحمولة، كانت جثّة حسام تتململ باحثة عمن يدغدغها لتضحك، وصل القطار إلى أمكنة قريبة من نواعير مدينة تشبه حماة تراها أم ممدوح فتصرخ «إنّها حماة»، تطلب من السائق الأعمى التوقُّف قليلاً كي تفتّش عن وجوه أبنائها وجيرانها ومن تركتهم لخفة الطيور الجارحة التي استخفّت بآلاف الجثث، ظنّتها كمينًا للإيقاع بمناقيرها الذكيّة في شراك أبناء المدن وخبثهم، تمهّل السائق الأعمى، شرب الشاي مع جنود ودّعوا حياتهم أيضًا على مفارق شوارع تودي إلى فناءات سريّة لا يعرفها إلا ساكنوها، توقّف وقتًا طويلاً، تشهّى المزيد من الجثث، اعتقدت بأنّ القطار قد وصل إليّ، رأيت أضواءه صفراء تئنُّ كعناكب، أبتهج كمن يريد رؤية السهول واستنشاق الهواء النظيف والذهاب خلف الخرفان البيضاء التي تحرس الجنّة، تطلق موسيقى ثغائها كموسيقى إلهية لا يصل إليها بشر ملوّثون بحب السحب والافتتان بملذّات الندى، أنا المجدورة أخاف أن أصبح سائقة القطار حين أدخل بغيبوبتي، تتشابك الصور وظلامي يحاصرني، يجعلني للحظات عمياء فأستسلم تمامًا، أقول لسلافة «أين يدك؟» تمد

يدها، أتحسسها لدقائق ويغمرني دفء غريب يتغلغل فيّ، يعيدني إلى الرؤية مغبَّشة أول الأمر ثم واضحة كوهم تبدَّد، ثلاثة أشهر وأنا المجدورة مستمتعة بلعبة الهذيان الذي أهداني لطفولتي البعيدة، وأعاد رسم كل ما عشته متداخلاً مع أحلامي التي لم أكن أجرؤ على البوح بها، تخيَّلت نفسي عارية ومضطجعة فوق مرج أخضر، أعدت رسم رجال عابرين يغتصبونني وعشاقًا أريدهم ألاّ يرحلوا ويتركوني لوحدتي، استعدت صورة غادة التي حاولت الهروب منها دومًا، وإقناع نفسي أن قبرها المزدان بالنرجس دومًا، يتَّكئ على شاهدته اليمنى أب حزين كاف كي ترحل حرارة أنفاسها وغليان جسدها الفتيّ الذي ضاقت به كلّ مشدّات الصدر، فتبدّى صلبًا كمعجزة تجعلنا نخجل من محاولة قتل حلماتنا الصارخة كفتنة لا تجد من يشعلها، تنظر النسوة إليّ بشفقة، يبربرن باستعاراتي التي أثقلني وهمها، تَرَكَ الجدري آثاره على وجهي كإحدى علامات مروري في هذا المكان الذي دمغنا جميعًا بقوة رائحته ووطأته الثقيلة، التي جعلتنا نتشاجر حول قشور تفاحة، نشدّ شعورنا كنساء طبيعيات يتقاتلن على أسباب الحياة، كم تغيَّرت صورنا خلال السنوات الماضية؟ وكم هزئنا من أنفسنا؟ حملنا ادعاءات التعالي في أحلامنا التي نقَّيناها من كل ما اعتقدناه شوائب لا يجوز الاختلاط بها، أردنا البقاء كدرَّاق يانع، الجفاف وصل إلى أعماقنا، جاهدنا كي نخفيه عن نظرات بعضنا بعضًا المحكومة بأمتار قليلة دون أفق، نهضت من استلقائي الطويل مؤمنة أنّ ما حدث كنت أحتاجه، خجلت من وجهي التي حاولت سلافة إقناعي أنّه مازال جميلاً بسمرته الرائقة، لن تشوِّهه ندبات بسيطة، فكَّرت كم هو تافه التفكير في هذا المكان بتقاطيع خدودي الغائرة، كلُّ ما فيّ

أصبح شاحبًا وما حولي مملاً، ما هربت منه تملّكني، لم أعد أنظر إلى طفلنا وأصفّق بحرارة حين يحاول الوقوف على قدميه ويفرفح بيديه كقط يحاول التقاط كرة طائرة بالهواء، الهواء لم يعد يكفيني، قلبي أسمع دقاته ترنّ في أذنيّ خبط مطارق قوية أو تكّات ساعة بعقارب ضخمة في مدينة مهجورة، أشتهي التدخين، أطلب سيجارة من ليندا السجينة التي لا تكلّم أحداً، تتّهم حزبها العراقي بالتخلّي عنها، تمتلك قدرة مذهلة على ترك الآخرين إلى شؤونهم، تبقى صامتة تنقل نظراتها بين سجينتين تحاولان إقناع بعضهما بامتلاك جماعتها للحقيقة عبر سجالات مكرورة تستعاد يومياً، أحاديث مريضات يشمتن بداخلهن ويفرحن لأن أمراض جيرانهن على السرير المجاور ستودي إلى موت محقّق، فيتحسّسن أجسادهن شاكرات نصيبهن الذي لم يجعلهن أسيرات الموت القادم، مللت النقاشات التي شاركت بها بصوت منخفض سرعان ما ضاع وسط الضجيج العالي لليقين، الشيء الوحيد الذي اتفقنا عليه هو أنّ جهلنا بالطوائف الأخرى كان سببًا لما حدث من انفعال، لم يعدن يحاسبنني على صداقتي مع سلافة، حاولن الاقتراب منها والاتكاء على كتفها حين تنشد ثناء المقطع الأخير من أغنية أم كلثوم «جدّدت حبّك ليه»، بأريحيّة يقاسمنها الشاي البارد الذي تمّ الاحتفاظ به من وجبة الظهيرة لسهر الليل الطويل كضفائر شعرنا الذي تبلّد واستطال كما لو كنّا متشرّدات لا يجدن نهرًا لينظّفنه، يجدّلنه كي يقدّمنه كأيّة نساء لرجالهن الذين يتشهّونه طويلاً، ما أصعب أن تكوني امرأة في سجن كهذا وكلّ حراسك رجال تسمعين وقع أقدامهم في الممرّ، تشمين روائحهم وتثيرك الرغبات، ثم تتذكّرين أنهم أعداء رفسوكِ بأقدامهم الغليظة، طلبوا لكِ الموت كي

يتفرغوا للعب الشدّة باسترخاء يحتاجه الجنود بين وقت وآخر كي يشعروا أنّ كل شيء على ما يرام. ما أصعب أن تكون المرأة أنثى ووحيدة لا ينتظرها أحد، ولا مستقبل تنسج لحظاته كما نسجنا أثواب طفلنا أكثر من مرّة منتظرات قدومه، كأنّنا مضطرات كي نتأكّد من سلامة عقلنا بأنّنا لا نتوهَّم وجوده في هذا المكان، كنّا ننهي صنع الكنزة كل يومين ثم نعود لكرِّها، نصنع طابات الصوف مرّة أخرى لنتناوب على أسياخ الصوف، بجديّة ومبالغة نعتني بكلّ قطبة، نخاف نهاية أوهامنا وأحلامنا اللذيذة كما لو أنّها هبطت علينا من سماء رحيمة، ضاقت الكنزتان على جسد طفلنا، عدنا لحماسنا وأخرجنا أسياخ الصوف، أعدنا دمج كلّ الألوان وصنعنا كنزة فضفاضة طوينا أكمامها وياقتها، بدا فيها طفلنا على حقيقته، يتيم بكنزة واحدة قدَّمها له محسنون عابرون. في الزيارات القليلة لبعض السجينات كان الحرّاس يصادرون الأثواب الملوّنة التي تنتقيها أم رشا بعناية من محلات مشهورة، متعاطفة مع هذا اليتيم الذي كان له أب يريد قتل أبناء الطائفة الأخرى فأعدمه قاضٍ دائم النعاس والتأفُّف من كلّ شيء، يخبر قائد سرايا الموت الذي أعجبته لعبة الطوائف عن أعواد المشانق، أمتعته سلطته المتنامية بعد كل هذه الجثث التي خلَّفها وراءهم جنوده المنتمون إلى طائفته، الذين أقنعهم بأنّ البلاد لهم فصالوا كإنكشاريين حاملين شعاراتهم على بزّاتهم التي تمثِّل جمجمة رجل ميت. قائد سرايا الموت كان يرفس باب مجلس الوزراء، يدخل ليخبط طاولة الجوز العتيق بيده مطالبًا بحصته من البلاد، يوقّع الوزراء الخائفون على أوامره دون نقاش، أدركوا أنّ المهابة التي يتمتّعون بها هي جزء من مهابته فتماهى بعضهم بصورته، وغادر بعضهم الآخر إلى جزر منعزلة ليكتبوا

مذكراتهم ويشتموه بعد تنازلهم له عن أكثر من نصف أموال الدولة، ليجمعها في بنوك أوروبيّة وأميركيّة تواطأت معه تحت شهوة المال الغزير الذي تكدَّس ثمنًا لقتله جماعتنا، وقصفه سجناء معزولين، وتدمير مدينة تحب أكل غزل البنات وحلاوة الجبن أكثر من الموت. كبرت أسطورة القائد الذي علّق أنصاره صوره التي يبدو فيها رجلاً قوياً يحب الحياة، يبتسم رافعًا قبضته في الهواء كمحررٍ للقدس وليس كرجل عصابات استباح البلاد مع ضباطه، مستأثرًا بالنصيب الأكبر من كلّ شيء كولد مدلّل يتحاشى الكل أذاه كي لا يفسد السهرة، التي بدوا فيها جميعًا كرفاق درب وأصدقاء طفولة اجتمعوا كي يحتفلوا بقتلهم مدير المدرسة وسرقة كرات السلة من غرفة الرياضة، القائد أصبح رمز جماعته التي بدأت تثقل البلاد بوطأتها، تسرَّبت فضائحه النسائيّة واختطافه بنات كنّ يمررن في الشوارع آمنات، إذا وقع نظر حراسه على قاماتهن الممشوقة كغزالات مبتهجات بهواء البراري، جرُّوهن إلى منازله المنتشرة في أحياء دمشق الراقية، يقفلون الأبواب عليهن، تهتك أعراضهن ويرمين ككلبات في شوارع فقيرة متروكات لمصير مجهول يواجهنه وحيدات، فضائحه المالية نشرتها صحفٌ أجنبيّة فمُنعت من دخول البلاد، عوقب من يقرأها بأحكام غريبة، تصفيات مشبوهة لشركاء تجار حاولوا الاقتراب منه ومقاسمته الغنائم، من لم يسعفه حظه بالهروب خارج البلاد بأمواله وطالب بحسابات الدفاتر جرت تصفيته بدم بارد، أحد شركائه رُمي من الطابق السابع إلى بلاط الرصيف البارد، أقيمت له في اليوم التالي جنازةٌ فخمة تقدَّمها إكليل ورد كبير باسم قائد سرايا الموت، قدَّم العزاء لأولاده وشكروه بتهذيب متخلّين عن دم أبيهم، ناكرين إشاعات تصفيته ومحيلين

موته إلى مجرّد اختلال توازن، تمامًا كما يحدث لأيّ رجلٍ من العامة واقف على ترأس منزله في الطابق السابع ينتظر اكتمال القمر.

وقف نذير أمامه، أسبل يديه وانتظر رصاصةً قد تأتيه من وراء الستائر المسدلة في المكتب الفخم والبعيد عن المدينة، دون أن ينظر إليه سأله مباشرةً «ألم نكن في صفٍ واحد ذات يوم» أجاب نذير باقتضاب «نعم»، تابع القائد استجوابه الذي جعله رفاقياً «لماذا خنتني»، تململ نذير محاولاً انتقاء كلمات مناسبة لا تثير غضبه «لم أخنك سيدي، حاولت التنبيه إلى شرفنا العسكري بعدم الهجوم على مساجين عُزّل»، لحظة الصمت بدت طويلةً قبل أن ينهض القائد من وراء طاولته وينظر إليه مباشرةً «ألا تعتقد أنّهم مجرمون ويريدون قتل طائفتنا»؛ رنّت كلمات طائفتنا كقطعة نرد متدحرجة، تداعت إلى ذاكرته مئات الصور القديمة حين كان الاثنان تلميذين صغيرين يحملان حقائبهما ببراءة، يحاولان الاحتماء من أمطار الشتاء الغزيرة بمعطفٍ مشمّع، يضحكان كأيّ صديقين يواجهان احتمالات خطر السيول وتدحرجهما إلى أعماق الوادي السحيق على يمينهما، صورةٌ مثاليّة ليستجمع شجاعته دفعةً واحدة ويقول بكلماتٍ واضحة «إلى أين تريد الذهاب بالبلاد؟»، ثم أردف مناديًا إيّاه باسمه الشخصي دون ألقاب «لماذا تريد تدمير الطائفة وتحميلها جرائم لم ترتكبها؟ افعل ما شئت واترك الطائفة جانبًا، فأنت ستُهرّب أموالك وفقراؤها سيدفعون الأثمان الباهظة»، بدا القائد هادئًا وهو يتحسّس مسدّسه ثم ينهي اللقاء بإشارة من يده لمرافقه الذي دخل وطلب من نذير الرحيل، قبل مغادرته باب القيادة طلب منه ضابطٌ صغير ناداه بسيدي أن

يسلّم سيارته للمرآب ومنزله خلال ساعات بانتظار تعليمات القائد، أحسّ نذير بضيق يجثم فوق صدره سرعان ما تناساه وهو يفتح صندوق السيارة ليرى دهشة الضابط الصغير فابتسم له، حمل صناديق الفراشات الملوّنة بحرصٍ وبهجة إلى شاحنة صغيرة استأجرها لتنطلق به إلى منزله الذي لم يعد منزله، طمأن مروةَ على عجل، ولملم أغراضًا قليلة تاركًا وراءه كل بذلاته العسكريّة كمن يترك رسالةً لصديق طفولته الذي غرق في بحر دماء ستخنقه روائحه، مورثًا عائلته آلاف العيون الفارغة والأجساد المثقوبة بالرصاص التي ستلاحقهم لعنتها إلى الأبد.

في الطريق إلى قريته كانت مروة تفرك يديه محاولةً كسر حدّة الصمت المخيِّم كنذير شؤم لا يُحتمل، ضجيجهما آخر الليل أيقظ الشيخ عبّاس الذي اختلى بنذير لوقتٍ قصير بينما مروة وأخته ترتّبان الأغراض في غرفته التي بدت بحاجة لتجديد أثاثها، الشيء الوحيد الذي كان يغيظ القائد عدم قدرته على استخدام مسدّسه ورميه بالرصاص، خوفًا من محبة الجنود والضبّاط الصغار له مما سيجعله شهيدًا ورمزًا، وخوفًا من انشقاق في الطائفة جاهد القائد كي يتحاشاه في محاولته إزاحة الرئيس والجلوس مكانه، بعدما ثبّت أركان الحكم وتوضّحت صورة المستقبل الذي يريده للبلاد.

ورقةٌ صغيرةٌ ممهورةٌ بخاتم قيادة الأركان أعفته من كل مهامه، خصّصت له راتبًا تقاعدياً كموظف لم يعد يحتمله أحد، أوصلها ضابطٌ صغير حيّاهُ للمرّة الأخيرة وغادر مسرعًا دون أن يجيب على أيّ سؤال، كانت الورقة التي مزّقها كافيةً كي يطوي صفحة أحلامه ويتحدّث عن

مواعيد رشّ أشجار البرتقال بالمبيدات، بحماسٍ يتناول إفطاره قبل الفجر كأيّ فلاّحٍ لديه الكثير ليفعله في أراضٍ تنتظر العمل بعدما تركها أبناء الشيخ عبّاس الثلاثة إلى المدن البعيدة. حين رأيته في أول زيارةٍ لي مع مريم ومروة وعمر بدت هيئته مختلفة عن صورة ذلك الضابط الذي أسرته فراشات امرأة أحبّها وحرّرها من قيود بكر، أكثر طيبةً ضحكته وهو يشجّعني على الابتسام والعودة إلى كلّيتي التي لم أعد أفكّر فيها إلا كحُلمٍ غامض كأنّه لم يحدث في الحقيقة، نحن الاثنين خسرنا أحلامنا، أعدنا ترتيبها كما لو كانت خيوط سجّادةٍ لم يكتمل نسجها.

فكّرت بهشاشة أحلامنا وأنا في سيّارة السجن التي نقلتنا إلى سجن النساء بعد أربع سنواتٍ من وجودنا في زنزانة الفرع، منظرنا يثير الشفقة، ابتهجنا بسجننا الجديد الذي سيُسمح لنا فيه بالتنفس لساعتين يومياً والنظر إلى السماء كصورة مشتهاة عن خلاصنا الذي لم نعد ننشغل به، بحثنا عن تفاصيل تبهجنا في جحيمٍ ألفناه، أصبح جزءاً منّا إلى درجة كدنا ندوخ ونحن نسمع أصوات ضجيج السيّارات وزماميرها في الشارع الذي تخترقه سيّارة مغلقة تحمل كلابًا لا تنبح، سبقتني سلافة بأسبوعين إلى السجن الجديد، ارتميت على صدرها وبكيت بحرارة المشتاقة إلى جزء من روحها، كانت مشرقة الوجه، أكثر نظافةً ومرحًا، المكان فسيح ومن الزنازين نستطيع التنفّس، الهواء يمرّ من خلال القضبان المفتوحة، يبعدنا عن شبح الاختناق، توزّعنا على مهاجعنا، حجزت لي سلافة مكانًا بقربها، لأول مرّة منذ أربع سنوات مددت جسدي بحريةٍ واستطعت التقلب أكثر من مرّة قبل أن أغط في نومٍ عميق.

المكان الذي حلمنا به كان سجنًا أيضًا، أبواب حديديّة مصفّحة، أسوار مرتفعة يتوزّعها حراسٌ معلّقون في الهواء كندوب خراب لا تحترم ذوق الوالي العثماني الذي بناه خارج دمشق وسط بساتين الخوخ كمكان لممارسة متعة اللقاء مع زوجته الشركسية كل ليلة خميس، كان خائفًا عليها من حسد العين لشدّة جمالها الذي دمّر حياة تاجرٍ دمشقي تزوّجها وشكا لصديقه الوالي من نزواتها، كما يسرّ صديقٌ لصديق استمع الوالي لصديقه المخمور، يصف شموخ نهديها كفرس تشبّ فوق الحرائق، تمادى في الوصف حتى اكتملت صورة المرأة التي تأمر الخدم بصوت ناعم بإدخال صواني الكنافة لضيوف زوجها، لم يفكّر الوالي حين رآها لأول مرة عندما طلبت رؤيته لتشتكي كأيّة امرأة صاحبة حاجة لوالٍ عُرف بأريحيته مع سكان مدينته وبنسبه العريق وصداقته مع زوجها، لم يفكر بالكلام الذي قالته، تعلّقت نظراته بخصرها الدقيق ونهديها المستورين بثوب مغلق عند الرقبة التي لاح بياضها، حاول غضّ نظره والسماع لطلبها الذي فاجأه، ببساطة قالت: «أريد الطلاق من محيي الدين»، وأكملت «إنّه لا يشبعني والقاضي صديقه لم يقابلني ويستمع إلى شكواي»! تأملها بهدوء، فرك ذقنه ثم سألها أن تتزوّجه، كأنّها حكايةٌ من حكايا شهرزاد. . عادت بعد ثلاثة أيام قضاها الوالي سهران ومكتئبًا، طلبت تطليقها ومنح أخيها قرية «دادين» مهرًا، ورتبةً عسكريةً تضمن له خدمة الباب العالي وحماية عائلتها التي هاجرت قبل خمسين عامًا من قرية تبعد مسير عشرين ساعة على البغال في الجبال عن «نالتشك». الاثنان كما لو كانا يتمّان صفقة غريبة ستجعل من محيي الدين قاطع طريق ومدمن خمر، أقسم أن يقتلهما بعدما طلّقها القاضي غيابياً تحت تهديد حراب الأخ الذي غادر مستودع

حبوب محيي الدين ليرتدي بذلة ضابط انكشاري ويتسلّم صكوك ملكية قرية «دادين» مهراً لأخته التي ما زالت على ذمّة رجل آخر، نسي محيي الدين قسمه ومات برصاص بندقية طائشة على طريق بستان عائلته في قرية الزبداني. كلُّ شيء تمّ كما خطط له الوالي الذي رافق القاضي في حجّه ليكفّرا عن ذنبهما، في الطريق كانا راضيين بعدما تحدّثا بأريحية شريكين وقفا على أبواب الكعبة ليشكرا الله على نعَمه، طلبا المغفرة وعادا إلى الشام طاهريْن. القاضي الذي رأى الشركسية لمرة واحدة أثناء طوافهما أشار على واليه بإخفائها عن الأعين، عرّفه إلى معمار كان يقف كل صباح أمام الجامع الأموي يشير بيديه إلى البوابة العريضة والمئذنة المربعة، ينتقد مهندس الوليد بن عبد الملك على خطئه بجعل الجامع الأموي مستطيلاً، متهمًا إيّاه بعدم قراءة فيثاغورث، معدِّدًا مزايا الدائرة كشكل هندسي يليق بهذا المكان المقدّس.

جلس أبو هند أمام الوالي دون تكلّف، ثرثر متشكيّاً من ترحيل المعماريين الشوام العظماء إلى الآستانة كي يبقى صنّاع جَهَلة لا يعرفون الفرق بين الحجر الأبيض والأصفر، استمع الوالي إلى ثرثرته كضرورة لإقناعه بتصميم قصر لرجل يحب امرأة لدرجة الولَه ويخاف عليها من هواء الصيف، لم يعترض الوالي على الدائرة التي بَجَّلها ووافق على كل شروطه. خلَّد أبو هند نظريته وعمل دون كلل ثلاث سنوات لينتقل الوالي مع زوجته الشركسية التي أيقظت فيه كل أحاسيس الندم على عمره، الذي قضاه بعيدًا عن تهتُّك الجسد وملذّاته مكتفياً من الدنيا بجمع المال وترك سيرة عطرة لأبنائه السبعة الذين لم يناقشوا واليهم بحقِّه

الشرعي. ليالي الوالي والشركسية باحت الخادمات بأسرارها لروّاة المدينة لينسجوا حكاية بأسماء مستعارة عن رجل وقور، ضيَّعت امرأة شركسية هيبته قبل أن تنتحر قرب نافورة الماء تاركة وراءها رسالة قصيرة تخبره فيها بأنّ محبّته لم تعشِّش في قلبها، ولم تعد تستطيع احتمال التمدُّد في مكان بديع صمَّمه رجل أخرق كسجن وليس قصرًا لعاشقيْن.

أكمل الرواة الحكاية، قالوا إنّها عشقت ابنه الذي راودها عن نفسها بتحريض من أمه التي هجرها الوالي، ولم يشفع لها نفوذ أهلها المحتكرين لعدة تجارات، أهمّها القمردين الذي يحضّره الشاميون من مشمش الغوطة ويرسلونه إلى آخر الدنيا كي ينثروا عبق الشام في جهات الأرض، أضاف الرواة عن هجر الوالي لقصر أبي هند كما سُمّي في مدوّناتهم الصفراء التي تروي قصصًا عن مكاننا الذي فرحنا برطوبته. أعدنا رسمه في خيالنا، أصبحنا كصاحبته الشركسية التي تركته لنا لنحسد أنفسنا على نعمة الخلاص من مزاج رئيس الفرع الذي كان كأنه يبكي لمغادرتنا زنازينه ونحن ما زلنا نتنفّس، استرخينا في الأيام الأولى لأنّ حرّاسنا من الشرطة أكثر تعاطفًا مع أنوثتنا.

ماذا يعني أن تألف مكانًا وتشتاق للعودة إليه؟ فكَّرت بغرفتي حين خرجت إلى متاهتي للبحث عن نافورة ذرفت الشركسية دمها على حوافها لتختلط مع المياه المنسابة، لتؤكِّد رخاء عيش لم يعجب امرأة لم تنسَ حلْمها بالخروج حرّة إلى البساتين القريبة مع رفيقات لم تعرفهن، كلهنّ أغلقن الأبواب عليها خوفًا من قوة إيمانها بالحياة التي هجرتها مسرّاتها، لم أستطع استعادة قوة أحلامي، كنت أرسمها تأكيدًا على شغفي

بالعيش، قلت لسلافة «المسرّات هجرتني وأحلامي أصبحت باهتة»، نبهتها إلى نسياننا لمضر، هزّت برأسها وقالت «لا أستطيع نسيانه، لكنّه بالتأكيد نسيني وهجرني إلى امرأة أخرى». فهمت بأن الرسائل التي استطعنا تأمين كتابتها على ورق الرصاص لعلب التبغ لم تصل إليه بعدما استطاعت تهريبها في أول زيارة لأهلها، مضر بدون عنوان، ضائع في أمكنة لم تعد موجودة بالنسبة إليه، وهي كل ما تملكه سلافة كي تتكئ على حلمٍ لا يمكن أن يبهت. تلك الغرفة الفقيرة، الأنيقة إلى أقصى حدودٍ يمنحها الفقراء لفتاة أخاطت ستائر من خيشٍ رخيص، لوَّنته كي يكتسبَ مهابة الستارة، مفرَش الطاولة التي جلس صباحًا إليها كي يشرب قهوته بتأنّي رجلٍ معبود من امرأة تضحك من قلبها، بأريحية تتمدَّد إلى جانبه لتدفن أحلامها في صدره، تكرَّرت زيارات أهلها الذين يحملون الأطعمة، رشوا الشرطة رغم فقرهم كي يُدخلوا لنا بيجامات قطن نسينا طعم نعومتها على أجسادنا التي اعتقدنا بأنّه لن يعود لها الإحساس برجال حتى لو كانوا مفترضين، حاولت أختها طمأنتها أنها ستجده وتحضر رسائله معها في المرّة القادمة، إلحاحها المتواصل أزعج أختها، فقالت لها بكلمات قليلة وسريعة بأنه رفض استلام الرسائل، أنكر معرفته بها، أضافت بأنّه تزوّج ابنة ضابط مخابرات، لاحقته وقادته إلى مصيرٍ مختلف، وبدأ يعمل في التهريب ضمن قافلة أبيها.

سلافة ليست المرأة الوحيدة المهجورة، زوج ثناء بعث لها بورقة الطلاق، لم ينتظرها لتخرج رغم عدم احتجاجها على زواجه بامرأة تصغره بعشرين عامًا، ألبسها أساورها وطرد كل روائحها من منزل كانت تنتظر

عودتها إليه كما يليق بامرأة منتظرة. كرهنا الزيارات التي سُمح بها كل ثلاثة أشهر مرّة، ومرّة كل شهر للماركسيات، عاد الخارج إلينا وانتزع منا أوهامنا دون أن يمنحنا روعة الانشغال بالهموم الصغيرة، مريم لم تغب عن زياراتي، أصبحت هرمةً، متعبةً لا تفصح عن كل شيء، أعرفها حين تصطنع زيفًا لا تستطيع إكماله حتى النهاية، كنت أحتاجها بمفردها كي تطمئنني عن رضوان الذي فوجئت بحضوره القوي داخلي كأنّه صورتي العابثة في الحياة التي أهملتها، أغرقتني بالثياب التي سرق السجّانون أغلبها والأطعمة التي عملت بتحضيرها أيّامًا طويلة، تبّلتها بكلِّ أنواع البهارات التي عادت إليَّ فأعادتني إلى لذة طعم حادّ يخرش بلعومي، أبتهج وأستعيد ماضٍ لا أريد له أن يموت كي لا أحس بيتمي الحقيقي، أعود إلى الاستعارات كحلٍّ لعدم جلوسي على حجر بارد لنافورةٍ لم تعد موجودة، والانتحار الذي قاومته بعد تناسيّ لطيور الجنّة المرفرفة فوق رأسي كما كانت تذكّرنا الحجّة سعاد التي وجدتنا جميعًا مندمجات مع شريكاتنا في الهواء الفاسد، ماركسيات وجنائيات مستمتعاتٍ بأغانٍ متهمات بالدعارة.

تأخّر أبي في زيارته، كنت أحتاج رؤيته من خلال الشَبَك والنظر بجرأة لأول مرّة في عينيه الحزينتين، ابتسم لي مشجّعًا، حاول الوصول إلى أصابعي ليلمسها ويمدّني بحرارة الانتماء إليه، نسيت كلَّ ما أردت قوله وحفظته خمس سنوات، استعدته بابتسامةٍ انفرجت عنها شفتاه الرقيقتان، نسيت كلمات مريم وهي تصفه بمدمنٍ خمر أراد الزواج من أرمنيةٍ في بيروت بعد بنت الأصول أمي كما قالت، فأضحكتني. فوجئت بضحكتي التي فهمتها مزيم بأنّني موافقة على صورته الجديدة، كدت أسأله

عنها وأطلب منه أن يصطحبها معه، لم يكرِّر زيارته ولم أعتب عليه، سهرت ليلتها حتى الفجر وأضحكت البنات بحركاتٍ مسرحية مقلدةً مدير السجن الذي ينادينا يا بناتي حين يكون رائق المزاج، وبالقحبات حين يتعكَّر مزاجه، ويصبح وجهه شبيهًا ببطيخة صفراء معفَّنة. نعم كنت فرحة بزيارة أبي، يجب الاعتراف بأنّني أحبه وأنتمي إليه.

ساءت أحوال سلافة النفسية، شاردةً طول الوقت، لا تنتبه إلى الأصوات ولا تسمعها، لم أتركها، تشاجرت مع من حاولن السخرية منها، دافعت عن صديقتي، قمت بالنيابة عنها بأعمال الجلي والخدمة الموزّعة علينا بالتساوي، في الليل استمعت إلى أنينها وهذيانها باسم مضرّ، أحسستها فتاتي الصغيرة التي أرعبها العالم الخارجي الذي تشوَّقت إليه فأصيبت بنوبة بُكم قبل أن تعود إلى انكسارها، بعد ثلاثة أشهر لم تعد تذكر اسم مضرّ كأنّها هي التي هجرته، نبّهتها إلى أزهار شجرة الخوخ، الشاهدة الوحيدة على ذاكرة المكان، قالت لي «نعم أزهرت، قلت لك ستزهر» ثم أغلقت أزرار جاكيت الصوف محتميةً من نسمة ربيعيّة باردة جعلتنا جميعًا متفائلات، لا ندري لماذا نتفاءل بالربيع الذي يعني لنا أزهار شجرة وحيدة في باحة سجننا الصغير، كل ربيع نقطف أزهار الخوخ، لا نستطيع الانتظار كي تثمر، نحمل الأزهار إلى مهاجعنا ونبحث عن مزهرية مصطنعة كي نحتفي ككل الإناث بالورد، كي نثبت لأنفسنا بأنّنا نتقن الانتظار.

أيامنا الأولى في السجن الجديد فقدت بهجتها، لم تعد تعنينا ساعات التنفّس والزيارات المملّة، استجدينا صورة الخارج واعتنينا

بتفاصيل حياة تركناها مرمية بإهمال، نريد العودة إلى شغفها الساكن فينا، عدنا جميعًا لأحلامنا كحلٍّ لخروجنا من ورطة الأمنيات الكاذبة بعفو ننتظره في كلّ مناسبات السلطة وحزبها، نتداوله كحقيقة لابد من حدوثها، ننساها فيما بعد ولا نعود نصدّقها بعدما اصطحبوا تهامة الخرساء إلى حبل المشنقة التي نصبت في باحة السجن، أجبرونا على رؤيتها متدلية، في عينيها نظرة عتاب وأسف، صدمنا مشهدها وجعلنا نفكِّر مرّة أخرى بمصيرنا، طلبوا إعادة محاكمتها بعدما اتّهموها بنسف عربة جنود مدرّعة في شوارع حماه وإقرار الطبيب بأنها تدّعي البكم للتهرُّب من مسؤوليتها. قاسمتنا تهامة الفراش والأحلام وجثتها المعلّقة كقنديل ذكَّرتنا بأنّنا نشبهها، جثثًا معلَّقة في الهواء.

تهامة لم تكن خلال السنوات الماضية سوى فتاة أصيبت بالبكم بعدما حملت جثث إخوتها الثلاثة، خرجت في الشوارع تبحث لهم عن مترين مربعين من الأرض كي تدفنهم فيها، منظرها كما وصفته أم ممدوح يذكِّر بممثلة تؤدّي دورًا تراجيديّاً على مسرح مهجور، الرصاص حاصرها من كل الجهات ولم يمنعها من التقدُّم وسطه والذهاب في كل مشوار مع جثة أحدهم، كأنّها تؤدِّي دورًا رسمه مخرج بارع مغرم بالمشاهد الإغريقية التي تمجِّد الحياة وسط الدمار، دفنت الثلاثة على ضفاف نهر العاصي، صلّت عليهم وحين رفعت صوتها بقراءة الفاتحة اكتشفت بأنّها مصابة بالبكم الذي لم يضايقها بعدما قضت ليلتيها الماضيتين مع جثثهم وصوت الرصاص، بينما المروحيات تحوم في سماء المدينة ويهطل منها المظليّون كمطر متكبر.

أصبحت تهامة جثّة أذهلنا مرورها بيننا كنسمة لم نحسّ بوجودها، تهزّ رأسها حين ترى أم ممدوح قد انتابها الحنين لوصف المذبحة والبكاء على أطلال مدينتها التي لا تريد شيئًا سوى تنفّس هوائها قبل الموت، استعادت بهجة الرثاء، حاولت الاندفاع نحوها واحتضان جثّتها مذكرة إيّانا بأنّ المصير نفسه ينتظرنا. من الصعب أن ترى من كنت تدعوها إلى ترف القهوة في هذا المكان بالأمس معلّقة على أعواد مشنقة كي ترهبنا صورتها للأبد. قلت لسلافة بأنّهم يبحثون عن ضحية ليُرهبونا، لم ترد سلافة، لم تستجب لصلاة الجماعة على روحها، أمَّتنا الحجّة سعاد، نحتاج إلى إمام لتكون صلاتنا مهيبة، ونبدو مشيِّعات محترمات للتي توزعنا بطانياتها وثوبها الذي تركته لها مدمنة مخدّرات مرَّت بعالمنا ذات يوم.

بدأ طفلنا يمشي، يتبختر مع رشا التي حافظت على تبنِّيه، يلثغ بمفردات السجن، اعتاد المكان إلى درجة أنّه يستطيع إكمال بقية حياته دون أيّ إحساس بالندم، فكَّرت بامتيازه علينا وأنا أتأمَّله محاولة البحث عن أي شبه بينه وبين حسام أو مضر لأتولَّه به كرشا التي تفكُّ حفّاضاته، تنشغل بملاحقته بين المهاجع كي لا يضيع مقنعة نفسها بوهم ضياعه في هذا المكان الذي لم تعد الأمسيات فيه تعني لنا إلا سأمًا لا يمكن احتماله، شجرة الخوخ فقدت بريقها، بدت بائسة وجرباء، المشاجرات بيننا أصبحت ملح صباحاتنا، نريد نسيان صورنا جميعها، أفضل طريقة للاحتمال أن تنسى ذكرياتك، تترك كل ماضيك وراء الباب، قلت لنفسي محاولة الاستعداد لفقد سلافة التي أمروها بالاستعداد لإطلاق سراحها، كلّ شيء يتمّ هنا دون إنذار، الموت والولادة والحرية والمشاجرات والبكاء والرقص الذي

استهوانا مرّة فغرقنا به، ورحنا نتفنّن بإظهار مفاتننا على إيقاع الطناجر وصوت ثناء التي استعادت قدود حلب وأغاني نسائها السرية، التي حاول المستشرقون عبر قرون نبشها فبدت عصية وغامضة. الاحتفال أيضًا دون سبب، لا يوقفه احتجاج بعض سجينات جماعتنا اللواتي غرقن من جديد بحفظ القرآن وتسميعه للمرّة الخامسة، وتداوله كتابًا وحيدًا سمح به مدير السجن ذات صباح كان فيه فرحًا كطفل بولادة أول أحفاده.

في الصباح تمّ استدعاؤنا إلى الباحة، قرأ رجل أمن لائحة بأسماء اللواتي سيتم ترحيلهن للفرع لإطلاق سراحهن، انتابتنا حالة فوضى المشاعر، فكّرت بلحظة دعوتنا لإلقاء نظرة على جثّة تهامة المعلّقة قرب شجرة الخوخ، كنّا جميعًا مذهولات وفرحات في أعماقنا بأنّ الجثّة المعلّقة ليست لجسدنا الذي مازال رغم كلّ شيء يتنفّس ويتألم من رشح مفاجئ، ضمّت قائمة البنات الطليقات التسع، ثلاثة من بنات تنظيمنا اللواتي كل ذنبهن أنّهنّ أخوات رجال مطلوبين استطاعوا الفرار خارج البلاد، بكت البنات الطليقات، تجمّد لساني ولم أستطع الاندماج بجوقة الزغاريد التي اشتعلت بحماس، والحرّاس المتسامحون استعجلوا البنات اللواتي لم نستطع وداعهن كما يجب لرفيقات ألم وليالي عذاب نريد جميعًا نسيانها والعودة مرّة أخرى إلى تفاصيلنا التافهة، احتضنت سلافة دون أن أنظر إلى عينيها المصوّبتين نحوي كسهام جارحة، الخارجات تركن لنا كل الأغراض التي لا نحتاجها قدر حاجتنا لإكمال السيرة سويًا، لوّحت البنات لنا، حامت الكآبة فوقنا، حقيقة اعتدنا عليها بعد خروج أية سجينة، حاولت الغرق بالنوم بعدما أيقنت أنّني وحيدة وأحتاج إلى الشفقة.

زيارة صفاء المفاجئة أنقذتني من الكآبة، عاصفة عطر هبّت صديقة ليالّي، وزّعت نقودًا كثيرة على الحرّاس ليغضّوا أبصارهم عنّا، مريم جلست قريبة منا، انشغلت بمسبحتها الطويلة، فكّرت بأنّها تشبه جدّتي، أرادت تذكيري بأنّني لم أعد تلك الطفلة الصغيرة، خمس وعشرون سنة كافية لأحسّ بانتمائي إلى عالم النساء بكل ما يحمله من مباهج وأحزان، صفاء لم تترك مجالاً للغرق بدموع معدّة سلفًا، تأملتُ سمنتها ووجهها المسترخي كملكة خارجة من إحدى لوحات عصر النهضة، أناقتها تليق بأميرة، أجلس إلى جانبها، روائح السجن تفوح من جسدي، خادمة يتيمة التقطتها من على رصيف مغبرّ، ولست رفيقة الليالي الفوّاحة برائحة النوافير وروعة الاستلقاء على البلاط الندي في قيظ الصيف. دندنات حريم عشن ليحافظن على ماضٍ متروك لهنّ كصندوق تكسّرت أقفاله الصدئة، اندلق وهمه أفاعي ميتةً وفاحت روائحها الخانقة في الفضاء، دسّت بين الثياب ورقة صغيرة، استعرضت صور إبنها أمير الواقف على كرسي عابسًا، يحمل بندقيةً بلاستيكيةً ويرمي طلقاته على أهداف وهميّة، جو من المرح أثارته صفاء، قصدت أن تصبح مهرجتي لدقائق، لاحظت نظراتها الخاطفة إلى صفحة وجهي متأمّلة شحوبي الشديد وارتباكي من نسيان طعم عالم الآدميين المثقل باللحظات المكرّرة الضرورية لفتنة العيش، أقنعت الحرّاس الذين لم يروا أميرة في حياتهم بأنّها تلك القادمة من عالم ألف ليلة وليلة تنثر العطايا، تدفع ثمن فنجان قهوة قدموه لها مبلغًا يعادل راتب مدير السجن لمدة شهر، تحادثنا وامتدّت الزيارة الخاصة التي لم أحلم بها أكثر من ساعتين تشمّمت خلالهما رائحة عطورها، لفحتني حرارة يديها اللتين لم تتركا يدي لحظة واحدة، استعدت دلالها لي

حين كنت طفلة، ترحَّمتْ على أمي وأشارت بأنّ عبد اللّه يتذكرني، يدعو اللّه كي يفكّ أسري، غامزة ومشيرة إلى رسالته التي أخفيتها في صدري، من الصعب اختصار ست سنوات خلال ساعتين، قبل نهاية الزيارة طلبت منها رؤية أخي ورضوان الذي روت لي صفاء فرحه بحضورها، بصوت منخفض وصفت غيظ مريم من علاقتها الحارّة معه، ربيتها تزداد كما وحدتها، بقيت أسبوعًا كاملاً أستحضر ضحكاتها ودموعها الصادقة حين ودّعتني، تشممتني كما لو أنّها لن تراني مرةً أخرى، لم تقل لي بأنّها مهمومة والوقت الملكي القصير أكذوبة جرى ترتيبها كي أنام مطمئنة، أستعجل ما تبقى لي من وقت لأعود إلى جوقة الإنشاد وراء رضوان، تركت صفاء لي نقودًا كثيرة أعطيتها للحجّة سعاد التي باركتني وأعارتني المصحف لساعة إضافية كل يوم، في الليل كنت آخر الداخلات إلى المرحاض، خائفة فتحت الورقة الرقيقة والمطوية بعناية من يتقن العمل السري، بدأت أقرأ كلمات عبد اللّه المكتوبة خصِّيصًا لي «ابنتي العزيزة الصابرة أدامها اللّه. إعلمي بأنّني أحس بالفخر حين أتذكّرك وأتحدَّث عنك في مجالس المجاهدين، ولتعلمي يا ابنتي بأنّني مع مجاهدينا في أفغانستان المؤمنة سننتقم لآلامك وآلام كل المسلمين. باركك اللّه».

بدون توقيع.

بلهفة كبيرة أعدت قراءتها مرّة أخرى، متجاهلة القرع على باب المرحاض الذي ازداد عنفًا، أخفيتها تحت ثيابي وخرجت دون أن أنتبه إلى صفرة وجهي كما أخبرتني الحجّة سعاد محاولة جرّي إلى حلقة البنات حافظات القرآن، «أحتاج إلى وحدتي لأعيد ترتيب كلمات عبد اللّه». لم

أفهم معنى مغامرته بإرسال رسالة تحتوي معلومات عن سفره إلى أفغانستان لفتاة سجينة، ذُعرت وعدت إلى المرحاض مدَّعيةً إصابتي بمغص شديد، تخلّت البنات لي عن دورهن، أغلقت الباب ومزّقت الرسالة نتفًا صغيرة، رميتها في الحفرة وسكبت الماء، لم أرتح إلا بعد زوال آخر نتفةٍ وذهابها مع المياه القذرة، انتابني شعور غريب في تلك الليلة، أنَّبت نفسي بقسوة على تفريطي بكلمات رجل رقيق كعبد الله، لم ينس مواساتي وتشجيعي لأحتمل وطء جبال الظلم التي أحملها على كاهلي، كما حاول تركيب مشهدي في مكان مهجور تملؤه روائح سجينات مللن من نسج أقدارهن، زمنهن متوقف. يجثم بثقله كماموس من الصعب زحزحته، أيام رتيبة لم يعد طفلنا ينقذها بتجواله في الزنازين باحثًا عن دلال أمهاته الاثنتين والعشرين اللواتي زغردن لقدومه، حتى رشا أصبحت عصبية، لم تعد تحتمل بكاءه ليلاً، سهير ضعيفة أمام احتجاجنا على صراخ الطفل المدلَّل الذي يطلقه كنعوصة فأر متقطّعة مستجديًا الحرّاس بالسماح له بالصعود إلى أغصان شجرة الخوخ الوحيدة.

فكَّرت بعبد الله والغبار يغطيه في دروب أفغانستان، حاملاً المؤن على بغال جرباء وحمير تسير متمهّلة في الجبال الوعرة، محمّلة بالأدوية والأغذية والنقود لتوزيعها على المجاهدين الذين خرجوا إلى الجبال والكهوف لإسقاط الحكومة الشيوعية، التي دفع إليها الروس بجنودهم للدفاع عنها. . عبد الله وجد قضية جديدة تجعله يسهر الليالي ليخطَّ ببراعة سيرة الأفغان العرب الذين توافدوا إلى مدينة بيشاور الغريبة بشوارعها المتربة وعصف رياحها؛ أهلها الفقراء راضون بوجودهم خارج

الزمن، مكتفون بالكسل الذي يتيح لهم التمدُّد باسترخاء لذيذ والاستمتاع بكؤوس شاي ثقيل، بينما المسجِّل المغبر المعلَّق في زاوية المقهى يبثُّ أغاني للمرّة الألف، تتحدَّث عن الفراق والهجر والفتاة التي لا تترك حصانها ليسقيه الرعاة العشّاق ويخطفونه كي تلحق بهم.

كل شيء في بيشاور يوحي بأنّها مكان مثالي لإنزال أحمال تبرّعات مسلمين اعتبروا قضية الأفغان قضيتهم، هزَّتهم كلمات الشيخ نديم السلطي أثناء موسم الحج إلى مكّة، الحجّاج الأفغان لن ينسوا طوال حياتهم مشهد إخوانهم في مكّة يتدافعون نحوهم ليتباركوا بجهادهم، ملايين الدولارات رماها الحجّاج في الصناديق الخشبية الخضراء، ملايين كثيرة انتزعها الشيخ نديم السلطي بحضوره الآسر في مجالس أمراء كانوا يتركون له صدر مجالسهم ليباركها ملبِّين طلباته، بإشارة منه تنتقل فوراً لمحاسبيهم الذين يوصلون تبرُّعاتهم إلى المكان الذي يأمر به.

ذات يوم خريفي وصل عبد اللّه إلى بيشاور من إسلام آباد، متعبًا من الطريق الطويل بعد ليلة طويلة قضاها مع صديقه المستر فيليب أندرسن في فندق فاخر تشعّ أضواؤه صافية، الناظر من طابقه العشرين إلى منازل إسلام آباد الغارقة في صمتها في مثل ذلك الوقت من الليل، تمنحه إحساسًا بالأمان رغم أنّ حركة الصباح في الأسواق تشوِّش هذا الإحساس وترمي به إلى حدود الهاوية.

تخلّى الاثنان عن المجاملات، أصبحا شبه صديقين تنبع عدم الثقة ببعضهما من ضرورة مهامهما، التي لم تمنعهما من تبادل الهدايا الصغيرة كزجاجات العطر الفاخر والكرافات الحريريّة المصمّمة خصيصًا لرجال

يتذوّقون طعم العيش على حد الخطر الذي أغرما به، تلك الليلة كانت طويلة، جدول أعمالهما ممتلئ إلى درجة أنهما لم يستطيعا تناول عشائهما إلا بعد صلاة الصبح التي أدّاها عبد اللّه بخشوع كبير لفت انتباه المستر فيليب أندرسن، الذي لم يستطع الإجابة عن سؤال جنرالاته عمّا إذا كان هذا الكائن المشوب تاريخه بماضٍ ماركسي ونزعات غيفارية، وحاضره بحلم طرد رفاقه القدامى من كابول مرتزقًا أم عميلاً من طراز نادر للمخابرات الروسية، صورته مثيرة وهو يرفع سبابته بالشهادة، ينهض على عجل عارضًا بلهجة مازحة وبإنكليزيّة صافية، لم يعد يستعملها إلا نادرًا على المستر فيليب أندرسن، إشهار إسلامه. تناول الاثنان إفطارهما بعد اتفاقهما على طرق إيصال الأسلحة إلى المجاهدين الأفغان في جبال قندهار التي اشتراها عبد اللّه من تجّار أميركان كانوا يتجوَّلون في بارات الفندق بألبسة جينز وتيشرتات قطن خفيفة، مستفسرين عن سوق السجّاد والطرق إلى كشمير كسيّاح نموذجيين، رشَّحهم المستر فيليب أندرسن لإتمام الصفقة وقبض العمولات المحوَّلة إلى بنوك أميركية، تجوَّل عبد اللّه في أسواق إسلام آباد قبل أن يسترخي في المقعد الخلفي لسيّارة أجرة بجانب شاب ملتحٍ حاول بيعه شحرورًا يغنِّي باللغة العربيّة، أعجبته حركة الشاب المبتهج برجل عربي من مكّة، فحص الشحرور، ساومه على الثلاثة دولارات التي طلبها ولم يتنازل عنها، اشترى عبد اللّه الشحرور، أطلقه من نافذة السيّارة المسرعة على الطريق المليء بالحفر، وسط استغراب الشاب الباكستاني الذي أخبره بأنه سيموت بعد أمتار قليلة، روى له قصصًا عن الشحارير التي تلد بالأقفاص ويشتريها

السائحون ليطلقوها في الفضاء لتموت، كان يحتاج رفيقًا لرحلته يسمي له الأمكنة ويحدِّثه دون توقّف كي لا يداهمه النعاس.

كان الشيخ نديم السلطي ينتظره في مضافته التي تناثر على طراحاتها متطوِّعون وصلوا عصرًا من الجزائر ومصر والسعودية، بينهم فتى صغير لم يتجاوز عمره السبعة عشر عامًا، تفحصه عبد اللّه وهو يمدّ يده بأدب إلى قطعة اللحم المسلوق أمامه، لم يستغرب حضور فتى يرتدي الجينز، شعره طويل كرفاقه الذين تركهم للهوهم في مقاهي بعيدة. الشيخ نديم السلطي قدّمه له بفخر «وسيم الحلواني ابن جراح الأعصاب المصري سمير الحلواني الشهير»، هزّ برأسه مبتسمًا وصافح الفتى بحرارة من يريد تشجيعه على الغوص في بحر مضطرب لأول مرّة: «أعرفك جيِّدًا يا بني». تركه للمفاجأة وتابع طريقه إلى الغرفة المخصّصة لإقامته. في صباح اليوم التالي لم ينتظره الشيخ نديم السلطي لإكمال شرب قهوته التي أُعدت بهيل كثيف لعلاج صداع شديد لازمه طول الليل، جاهر بمخاوفه وضيقه من طريقة عبد اللّه اليمني بمعالجة الأمور وتوزيع أموال المساعدات على شراء السلاح وتوزيعه على الفصائل الأفغانية بطريقة غير عادلة.

بعد سنوات سيستند عبد اللّه على ذراع وسيم الحلواني الذي نمت لحيته كثة فزادته وسامة ورضا، يسير الاثنان في جنازة الشيخ نديم السلطي، يتذكَّر ذلك الصباح وانفعال الشيخ الذي أتى لتقديم مساعدات لأيتام وأرامل الأفغان الفقراء لا كي يحارب معهم، فصوته الذي لعلع في فضاء المسجد الحرام كي يجمع الأموال لشراء غذاء لأطفال يموتون

جوعًا، وشراء صوف لنساء فقيرات ذهب أزواجهن إلى الجبال أو اقتادتهم مخابرات نجيب الله إلى معتقلات كابول وموسكو، لا لتأجيج الحرب بين الفصائل.

لم يستمع عبد الله جيِّدًا ذلك الصباح إلى رجل أحبّه، احترمه، وكان يضحك من قلبه حين يروي له طرائف النساء الروسيات اللواتي عرفهن، بالإضافة إلى إطلاق زينة اسم نديم على ابنهما الصغير الذي باركه الشيخ بحمله على كتفيه، طاف به الكعبة حاجّاً وسط غيرة أبناء الأمراء والأميرات اللواتي كن ينظرن إلى زينة التي لم تخف سعادتها يومها، كما لم تخفِ حزنها الشديد على موت هذا الرجل الجَليل، رثته بقصيدة نبطية بقيت مجهولة المؤلف كي لا تضطر لرثاء أمراء يموتون كل يوم بعد تزايد أعداد أفراد العائلة المالكة إلى درجة ضاقت بهم القصور. أنشدت القصيدة في مجالس الأميرات اللواتي حاولن إقناعها بكتابتها أو السماح بتسجيلها لإسماعها لأزواجهم الأمراء الذين استبدّ بهم الفضول لسماع ما يُبكي الحجر، كما كانت الأميرات تؤكِّدن محاولات التقاط بضعة أبيات، إلى أن صدر أمر ملكي لزينة بتدوينها، كتبتها بخط رقعي بسيط وزينتها ثم كتبت اسمها تحتها بخط صغير، أهدتها للملك الذي أكرمها بفرس طلبته من الإسطبلات الملكية، أغرمت به حين رأته في سباق الخيول السنوي في صحراء نجد.

صفاء وصفت الحصان لعمر بكثير من المبالغة، أيقظت حنينه إلى الأحصنة ليغرق في اليوم التالي بنسيان لازمه في الأشهر الثلاثة، بعد رحيل صفاء إلى أفغانستان لتلحق بزوجها والمقاتلين العرب الذين تحوّلوا

من منقذين للفقراء ورسل محبة إلى طرف في الصراع، حملوا السلاح حالمين بالخلافة الإسلامية تشعّ مرّة أخرى من وسط سهول مترامية، مزروعة بخشخاش تلتمع أوراقه تحت شمس الربيع وتنذر بخراب مقبل. صفاء لم تقل لي إنّها راحلة في زيارتها الوحيدة، بدأت أستعيد كلمات الرسالة التي ذابت مع المياه الآسنة، ليالٍ طويلة حاصرني فيها عبد اللّه بوجهه البشوش دائمًا، المطمئن إلى يقينه الذي وجده أمامه مرميّاً فالتقطه وأغلق أصابع يده عليه كطفل لا يريد التخلي عن قطعة شوكولا غالية فاعتصرها حتى ذابت وتبدّدت. عبد اللّه أوصل صفاء بسيارته إلى مطار الرياض، أوصاها بانتظار رسالة ستصلها وتحدِّد لها مكان إقامتهما المقبلة، أعطاها رسالة إليَّ، قبَّل الأولاد، كأنّه يراهم لآخر مرة مع نقود تكفيها العيش كأميرة في أيّ مكان من العالم. الجميع قلق من وصول صفاء المفاجئ وحيدة إلى حلب، لم تنتظر أحدًا ليصطحبها من مطار دمشق إلى حلب، استأجرت سيارة خاصّة، وفكَّرت بأنّها تحتاج إلى مسافة الطريق لتعيد التفكير بمستقبلها ومستقبل ولدها الغامض، بعدما حسمت زينة الأمور ورفضت مغادرة القصر الصغير الذي تقاسمته مع صفاء كرفيقتين، جمعتهما مصيبة حب رجل خلق كي يبحث عن حلم لم يعرف مرّة واحدة أن يصوغه بمفردات واضحة. بكى بحرقة بعد عودته من جنازة الشيخ نديم السلطي، الذي قال له: «يجب أن تعرف إلى أين أنت ذاهب قبل خروجك من المنزل و تعرف رفيق طريقك وتحتاط لأمره»، ملمِّحًا لعلاقته الوطيدة مع المستر فيليب أندرسن الذي قاده إلى علاقة أخرى مع أحد السفراء الأميركيين في المنطقة، كان يأتي للاجتماع معه ساعات قليلة، يغادر بعد أن يبلغه تحيات الرئيس الأميركي ليبلغها إلى

رفاقه وفخره بإنجازاتهم بطرد الروس والشيوعيين من كابول، ثم يبلغه بلهجة قاطعة أوامره بشأن الفصائل الأفغانية التي يحقّ لها اقتسام النصر، لم يخطر لهم بأنّ المتطوِّعين العرب أيضًا أصبحت لهم حصّة في البلاد، يراوغ السفير بالإجابة على أسئلة حول موقفهم من دولة إسلاميّة متشدِّدة، يبدي السفير حماسًا سرعان ما يتراجع عنه مطالبًا بعدم تصفية كلّ الفصائل المتحاربة، استجمع كل خبرات ماضيه الذي أحسّه مثقلاً بوجوه لا حصر لها ودسائس كادت تودي به إلى الموت أكثر من مرة.

استعاد أحاديثه مع بكر في تجوالهما العبثي كي يلتقطا ما يعيد للأمير دفء رحم أمه، تذكَّر أحاديثهما حول السلطة وبريقها، استعاد وجه الشيخ السلطي يودّعه كصديق غير مرغوب به، نظراته تشي بخوف مبطَّن على حياته ودخوله في نفق لم يختره إنما دُفع إليه، أعيد مرة أخرى إلى دهاليز السياسة المعتمة التي هرب من روائحها الخانقة.. نظر للمرّة الأخيرة إلى الشيخ الجليل الذي خرج لوداعه، طلب منه أن يعطيه وسيم الحلواني ليرافقه، وعده أن لا يخذله، بسرعة تمّت استشارة وسيم الذي بدا مثل فتاة خجولة تسلِّم مصيرها لأولياء أمرها.. خرج الإثنان من مضافة الشيخ السلطي للمرّة الأخيرة، كانت قافلة بغال تنتظرهما على مشارف المدينة، يقودها رجل أفغاني معمَّم، صامت ويعرف مهامه جيِّدًا.. عبروا الحدود ليلاً، في الظلام كان عبد اللّه يخبر وسيم بصداقته مع أبيه الجراح العالمي الذي قاسمه لثلاث سنوات المقعد الدراسي في المدرسة الإنكليزية، كان وسيم مندهشًا من حضور سيرة العائلة، التي هرب من رخائها بكلّ ماضيها في هذا المكان الموحش الذي لا تجد الذئاب

فيه شيئًا تأكله سوى جرائها، حضرت ألفت هانم ابنة الباشا وأربعة حراس نوبيين ينتظرونها أمام باب مدرستها ليرافقوها في طريق عودتها، وعبد الله يحمي ظهر صديقه سمير الذي ينتظرها كي يشير لها بأصابعه الولهانة، «كان يشبهك تمامًا» قال عبد اللّه بإنكليزيّة صافية، نظر إلى الفتى الذي كان يتحاشى النظر في عيني عبد اللّه إجلالاً واحترامًا لاسمه، الذي تردَّد كثيرًا في الأيام الأخيرة داعية ومجاهدًا يتقن ألاعيب الكفّار، مقالاته التي تحرِّض على الجهاد في أفغانستان طبعتها جماعة إسلامية في مصر ووزَّعتها بكثافة، كانت السبب بهجر وسيم لشرب البيرة وملاحقة بنات العائلات اللواتي تشتكي أمهاتهن من طيشه وبذاءة لسانه، أدرك بأنّ معلّمه يختبر لغته الإنكليزية فردَّ بكلمات قليلة تطمئنه إلى إتقانها بشكل لا يقل عن أي إنكليزي لولعه الخاص باللغات، طلب منه إكمال السيرة التي انتظر أن يخبره إيّاها والده صاحبها الأصلي، المشغول بجمع النقود من كل دول العالم لتصرفها ألفت هانم في تسوُّق أحذية راكمتها بجنون مثير للدهشة، حتى اعتقد كلّ من يعرفها بأنّ البشر بالنسبة إليها عبارة عن أحذية. ليالي طويلة قضاها عبد اللّه مع سكرتيره الجديد ورفيقه في الجهاد يحدِّثه عن ماضيه كأنّه وجد أخيرًا من يأتمنه على سيرته، ليخطها بعد الموت الذي أحسّ بقربه منه إلى درجة أنّه يتنفّسه كل لحظة. الاثنان اجتمعا على الشغف بماضيهما والرغبة بإعادة سرده دون شهود.

الصور التي رسمتها وسط عفونة الزنزانة سرعان ما انمحت، الشمس التي حاولت تناسيها كما حاولت السجينات حاصرتنا من جديد، جعلتنا نساء كئيبات نميل إلى الصمت، اتفقنا أخيرًا على شيء

مشترك بيننا، نأكل بصمت، ننهض بهدوء إلى فراشنا بعد أن نتأكد من أن القمل لم يستوطن قطنه، ونطمئن إلى أن أجسادنا المحرومة مازالت تحلم كأجساد أية نساء بالشهوات السبع.

انقضى الشتاء السابع، السابع رقمنا المقدّس الذي ذكره قرآننا بإجلال، أشياء كثيرة تغيَّرت، المكان الذي تماهينا معه، وأقنعنا أنفسنا بأنّه ليس سجنًا، عادت صورته المرعبة مع تعيين ضابط جديد مديرًا جديدًا هوايته تعليق الأوسمة على صدره وشتمنا، مولعٌ بكلاب الصيد التي يتجوَّل كلّ ليلة في زنازيننا بصحبتها، يدلّلها بفجور ضاحكًا كممثِّل غبي وجد مسرحًا لاستعراض كل قهر الكواليس، نحن مبولته التي لا يتركها تجف، ينام في السجن، لا يغادره إلا لمراجعة قادته الذين يستدعونه ليتقاسم الجميع الرشاوى والأموال التي سلبت منّا ومن عائلاتنا، كل شيء أصبح بثمن كأنّنا في سوق مفتوحة، الجنائيات اللواتي اعتدن على دفع الرشاوى يرمون لنا بفتات طعامهم الذي يحضره رجال قوّادون وشركاء في جرائم تهريب وقتل من أفخر مطاعم دمشق في أوقات محدَّدة، بالإضافة إلى الألبسة الفاخرة التي يرتدينها لإغراء السجانين ومديرهم الذي يشاركهن شرب الشاي والتجسُّس علينا نحن النساء المعزولات منذ سنوات طويلة، نتبادل النظرات، أحيانًا نضحك من أم نضال العاهرة الخمسينية التي زارت هذا المكان أكثر من خمس عشرة مرّة وخرجت منه، كانت ترتدي قميص برلون طويلاً تفوح منها رائحة عطر رخيص، علَّمتنا قوانين السجن تحاشي إدمان أي شيء عابر، تنهض أم نضال وتطلب إذن مقابلة المدير، تتبختر شاتمة البلاد التي لا تقدِّر مواهبها

متوعّدة لامرأة اسمها أسمهان بِشَقِّها نصفين، تعود أم نضال شبه مخمورة وآثار حشيش لايخفى على مدمنات المخدرات اللواتي يخبرننا بالكمية والنوع الذي تناولته، تبدي تجاهنا كرمًا لامتناهيًا لا نستغربه من امرأة تبدو وحشة وتبكي كطفل صغير لخدش يصيب إصبع إحدانا.

«الربيع باهت هذه السنة» قلت لسهير ونحن نتجوّل في الباحة الصغيرة بملل من يعرف عدد النمل في خدوش مكان، لم ترد كعادتها في ساعة التنفّس، لم يبقَ لي صديقة غيرها بعد خروج سلافة التي أتت لزيارتي، بعدما دفعت مبلغًا لزوجة مدير السجن كي يسمح لها برؤيتي خمس دقائق فقط بحجّة أنّها تراجع أمانات السجن، التقيتها في مكتبه، نبهّني إلى سرية الزيارة وعدم قانونيتها، ضحكت من خوفه الذي أحاله إلى رجل يتحدّث بالقوانين. رأيت وجهها من طرف الباب المفتوح، خشيت أن يكونوا أعادوا اعتقالها، ضمّتني بين ذراعيها وبكينا ثم غادرتها مدفوعة بقسوة، لم نقل لبعضنا بعضًا سوى كلمات قليلة أعدتها أكثر من ألف مرّة، فتحت الصرة الصغيرة التي سمحوا لي بالاحتفاظ بها، فردت الفستان الأزرق البسيط في تفصيلته مما يوحي بأنّها قد خاطته لي بنفسها، نقلت لي إحدى بنات جماعتي أمر الحجّة سعاد بعدم ارتدائه، لم أناقشها كعادتي في الأيام الأخيرة، في الصرة الصغيرة فتحت كيسًا صغيرًا لم ألحظه أول الأمر فهبّت رائحة بهارات عرفت أنّها من مطبخنا، رتّبت الكلمات القليلة التي قالتها لي، عرفت أنّها زارتني في منزلنا، نامت في سريري كما أوصيتها على عجل، وقفت وراء رضوان تنشد الموشحات كفتاة الكورس التي كنتها ذات يوم.

في الليل أرتدي الفستان الأزرق، أندسّ تحت البطّانيات كي لا يرى الحراس فتحته التي تظهر ثدييَّ، لم تعترض الحجّة سعاد، كان شبه اتفاق ضمني بيننا حافظنا عليه بصمت واحترمناه، لا تأمرني إلا عبر وسيطة ولا تتدخل بتفاصيل علاقاتي مع الجنائيات، اللواتي أمتعنني بحكاياتهن عن بطولات قد تكون وهميّة إلا أنّني أصدِّقها بشغف، أضحك من قلبي لطرافتها، مازلت أذكر سناء المتّهمة بتهريب حشيش عبر حدود لبنان، أقنعتنا بأنّها لبنانيّة والبنت الوحيدة لصائغ ألماس شهير يمتلك سلسلة محلاّت أشهرها محله في شارع الحمرا ببيروت، كانت كنيته تشبه كنيتها، «يجب أن نصدِّق الأكاذيب كي لا نموت» قلت لنفسي وأنا أرقب السقف الذي راقبته آلاف المرّات، لم أعثر على نجمتي التي تخيَّلتها معلَّقة في رطوبة كلسه العتيق، محاولة إقناع نفسي بأنّني أنام مكان السرير الذي أهدت الشركسيَة على ديباجه روعة بياض جسدها وصلابة نهديها الفتيين إلى الوالي العاشق، تحسَّست الثوب الذي ارتديته على جسدي العاري دون ثياب داخليّة، رغبت بأن لا يمرّ الربيع الكئيب دون أن يرمّدني غبار الطلع الذي لا يصلنا من شجرة خوخ هرمة، تافهة بوحدتها ومسكينة تستجدي تاريخًا أعزل، مساماتي ألهبها النسيج، كدت أصاب بجنون الشهوة، استعرت وجوه الرجال الذين رأيتهم بمن فيهم رضوان وطلاب كلية الطب والسجَّانون، بكيت من حرقة الشهوة، كم أنا بائسة، كم نحن بائسات وهذا الربيع بطيء في رحيله، قلت لنفسي «من الصعب قتل شهوة امرأة»، تخيَّلت سلافة نائمة في سريري، تحتضنني ونحن الاثنتين نتقاسم مضر، نغفر له هجرنا، نعود للعبة الاستعارات اللذيذة التي أبهجتنا ذات يوم منذ وقت طويل لم أعد أتذكَّره، كأنّني لأول مرة

أصبحت معنية بترتيب ذاكرة السجن، استدعاؤها أرحم من استعادة وجوه من المستحيل الوصول إليها، قوة المكان تجعلنا نشعر بعجزنا أمام وطأة تتغلغل في جلودنا، تسكننا دون استئذان، كراهية لا نستطيع التخلّص منها أو حب لا نستطيع عيشه.

طفلنا كبر، نادانا بأسمائنا، علّمناه القراءة والكتابة وكلمات إنكليزيّة يبهجنا بترديدها، يقف أمامنا ويشير بيديه كخطيب في حشود غير موجودة يريد خطف أضواء مظلمة.

كنت أقل السجينات شغفًا بألعابه، أنضم أحيانًا إلى سهير، نخيط له ثوبًا من بقايا أقمشة مهملة، نجعل غرزات الإبرة دقيقة كي لا يبدو متسولاً، أو على صورته الحقيقية يتيمًا يستجدي عطف أمهاته اللواتي مللن من ثغاءاته كجدي وحيد، جميعنا نبحث عن صورة تنجدنا من إحساسنا بالوقت الثقيل، أعمارنا تتدحرج كحبّات رمان مفروط مبعثرة، يجب أن نبدو شجاعات لا نخاف التعذيب ولا قهر الجدران الضيِّقة كي لا تدمّرنا نظرات رفيقاتنا التي تتهمنا بالتخاذل، هذه النظرات القاسية التي لا ترحم تجعلنا نتمنى الموت، تعرّي ضعفنا الذي نخفيه تميمة مقدّسة، فكَّرت بما أتاحه وقت نثرناه كرمل لا قيمة له. هؤلاء الجلاّدون الذين نسمع ضحكاتهم الصاخبة، وهم يعودون إلى منازلهم مساءً حاملين الخضار والخبز لأولادهم كأيّ أناس عاديين، فكَّرت بأولئك القتلى من الجانبين الذين سقطوا لتعيش فكرة.

دلال الفتاة الماركسية دفعتها رفيقاتها للحجاب والصلاة وراء الحجّة سعاد بخشوع لتدافع عن انهيارها في التحقيق وإرشاد المخبرين إلى

أرشيف الحزب، كانت تذكّرني بدلال ابنة جماعتي التي استطاعت الهرب إلى السعودية، قاطعها حزبها بقسوة، عقدت محكمة عاجلة، مجرَّدة من كلّ حقوق الدفاع الأساسية لتبدو مجرّد تسلية وعبث، محاكمة دلال من قبل حزبها لم تختلف عن محاكمتنا لسوزان التي رمت بنفسها، تمسَّكت بحذاء رئيس الفرع ليفرج عنها، كتبت أكثر من ألف رسالة لرئيس البلاد كي يعفو عنها وينقذها من حكمنا بعزلها نهائيّاً، ومضايقتها حتى في سلبها الحق بالتغوُّط في المرحاض، تبكي وتستجدي رحمة جماعتنا التي ازدادت قسوتها، عزلتها عن مائدتنا مثل كلبة جرباء، كم هو قاس أن يكون وجودك ضمن جماعة ضمانتك لتنفّس هواء فاسد في زنازين لا تسمح لساكنيها بمدّ الجسم على بلاط بارد، لم أجرؤ على مواساة سوزان اللطيفة أو الاقتراب منها بعد هذه السنوات الطويلة أو الاعتذار منها على جلوسي قاضية بجانب الحجّة سعاد، ببرود وقعنا حكم سجنها داخل السجن، حرمناها من حمل طفلنا، الأكذوبة التي صدّقناها بشغف لندافع بوجوده عن أنوثتنا وخصوبتنا كنساء.

السجن يعلِّمك قوانين بقائك حيّاً، في خفة الوزن وانعدام الرؤية يصبح للحياة قيمة مختلفة لا يعرفها إلاّ من تذوَّق طعم حرمانه من النظر بحرية إلى الشمس والركض للاحتماء بجدار من مطر مباغت، العادات التافهة في الخارج تكتسب معاني جديدة، الموت يعيد الغياب إلى معناه الأصلي، في تلك الظلمة تموت المجازات التي نحتمي بها لنبصق بقوّة على أعدائنا، «الحياة مجاز صعب» قلت لنفسي، أضفت «كالحب والخيانة والعبث في حقل خس»، ضحكت لذكرى الخس الذي لم أره

منذ سبع سنوات ، اشتقت لطراوته وتخيّلته يذوب تحت لساني مرشوشًا بالبهار .

كان الخسّ في منزلنا مرادفًا لصفاء كما الفراشات أصبحت هي مروة، صفاء تغسل أوراقه الغضّة وتتلذّذ بقضمها فتشبه أرنبًا أو امرأة تبحث عن إشارات الذكورة في أشياء لا تخطر على بال، كنت أضحك حين تؤنّبها مريم بجديّة ، انضممت إليها ، راقبتها تمسك الخسة من قرمتها ، تنفضها من الماء كأنّها تمسك بعضو رجل ولا تتركه حتى يروي يباسها ، بحثت عن الغرابة كي تقاوم ما يشبه قدرًا استطاعت الإفلات منه لتعيش حياة ليست أقل غرابة ، من حلب إلى السعودية وأخيرًا إلى أفغانستان الأرض التي تعني الموت أو الجنون ، الأميرة التي زارت السجن لوقت قصير أحسّت بأنّ ما تبقى منّي هو بقايا أنثى ترفض الذوبان كقطعة سكر بهتت حلاوتها ، شدّت على يدي وذهبت إلى مصير مجهول .

تلبَّستني فكرة القدر ، أُحسّ براحة كبيرة ، ذلك المركب الخرافي سيحملني إلى مصيري ، حين تفلت مصائرنا من أيدينا لا يبقى أمامنا إلا هذا الاختناق الذي أحسست بلذته ، أوغلت أكثر باحثة عنه كي أستسلم بكامل إرادتي ، أضع نفسي في طريقه ، صدفة عمياء ترانا ولا نراها ، «تعبت يا أمي تعبت» تخيَّلتها جالسة أمامي صامتة ، مبتسمة بحياء تنظّف بقايا سمك بسطة أبي تقليه لنا قبل أن يتعفَّن ، أنا وأخواي كرهنا السمك ، حاولنا الهرب من رائحة كفّي أبي الزنختين ، ندَّعي أنا وحسام مضغه كأيّ ولدين مهذبين ، بينما همام يقلّبه بحماس ويأكل بنهم يثير استغرابنا ، نسيت أن أسأله في زيارته الأولى حين اصطحبه عمر الذي ضحك حين

عانقت همام بحرارة مبالغ بها، أردت إخفاء دهشتي من رؤيته شابًا بشوارب رفيعة تنمو باستحياء، إنّه الحقيقة الوحيدة في حياتي، لا يحتاج ألقابًا مخادعة ليمنحني إحساسًا بالأمان، إنّه أخي دون استعارات، احتفظت بصورته التي سمحوا لي باصطحابها معي إلى زنزانتي، تناقلتها السجينات، سمعت تعليقاتهن بمرح من يمتلك حقيقة هذا الوجه الوسيم الذي يتشهّين شفاهه الرقيقة.

في سنتي السابعة واقتراب مدة حكمي من الانتهاء فكّرت بحقيقة خروجي من هذا المكان، «من الصعب أن أعود إلى غرفتي». . فكّرت وأنا في فراشي مستلقية، مستسلمة لخوف نما داخلي كنبات طفيلي كما أرادوا له، تذكّرت جولات التعذيب في الفرع والقيح والدمامل، والقمل داهمنا كغازٍ نخاف من الإفصاح عن وجوده في مخادعنا، الجدري عاد إليّ ثلاث مرات، جعلني كلبة جرباء يخشى الجميع الاقتراب منها، لاوقت للعتاب هنا كما لا وقت للحياة، يجب الحفاظ على أجسادنا سليمة قد نحتاجها يومًا، نتنفّس ونطمئن إلى صلاحية الرئة وبأنّ شراييننا مازالت تهدر بدم نسمع خريره كشلاّل، لا أحد مثل السجين يستطيع الاقتراب من أعضائه كما من أحلامه، حاجتنا إلى التعاطف تجعلنا نمتدح سجّانين يتغاضون عن أشياء صغيرة كالتمهل بالدخول إلى المهاجع أو الضحك بصوت عال، تجعلنا نسامح ما كنّا نفترضه من أعداء في الخارج، تصبح تلك العداوة لا قيمة لها، نتذكّرها ونشكر السجن الذي جعل صورنا القديمة جميلة، بحثت عن سجينة لأحدّثها عن أحلام كنت أرسمها في دفاتر أخذوها منّي مع أوراق، كنت أخطّ عليها أحاديث نبوية

ومقتطفات من كتب سيد قطب والغزالي وفتاوى ابن باز التي صدّقتها كما صدّقت كذبة الكراهية وامتدحتها.

تنتظم الحياة مثل حبّات مسبحة حين نعتادها، نألف دقائقها وأفعالها المكرّرة، نهرب من مللها كي نعود للبحث عن طعم انتظام العادات ومتعتها، سكون خيَّم على مهجعنا في هذه الليلة الباردة المنذرة بشتاء مبكِّر، صوت المطر يصل إليّ، جالسة في الظلام أراقب شخير رفيقاتي وأحصي أنفاسهن لأطمئن بأنّي لست وحيدة، شريكاتي يشاركنني المصير نفسه، أعرف عادات نومهن وكل تقلباتهن، ليال كثيرة قضيتها وحيدة، أستجدي إغماضة جفوني، أستدرج النوم كمتسوِّلة كما أستجدي استيقاظ إحداهن وجلوسها في الفراش كي أقول لها بأنّني سأكون هذا الشتاء في غرفتي، أنظر إلى حبال المطر وأتذكر بأنّنا كنّا ننهض صباحًا كقطيع ماعز أعدّ الحرّاس علفه ولم ينتبهوا إلى شعره المتساقط من عفونة المغاور، أحيانًا أتأخر في النوم، أسمع صوت الجلبة حولي التي تمنحني شعورًا لذيذًا، أصوات التفقد اليومي أكثر الأفعال عبثية في مكان محصور ومحاط بالحرّاس والأبواب الحديديّة، يعدوننا أحيانًا ويكتفون بأرقامنا، أحيانًا يوقفوننا ليتأكّدوا من وجودنا، واحدة واحدة ننسلّ إلى الجدار الآخر وننتظر مزاج السجّان الذي لا نعرف إلى أين سيودي بنا، مدير السجن يسير أمامنا مزدهيًا برجولته وشاربيه المقصوصين بعناية، يتبختر أمام نساء ماتت شهواتهن واكتست جلودهن بالقشب، ساعات طويلة والجنرال يتفقَّد التفقّد الذي يتكرَّر كما لو أنهم خائفون من وحدتهم أيضًا، ويحتاجوننا لنسلّيهم بما تبقّى من انتصاب نهودنا وشعورنا المغطاة بأسمال، المساعد لا

يترك مناسبة إلا ويحدثّنا عن الأخلاق، يقف كخطيب وجد منبراً، يشتمنا ثم يصفنا بالقحبات كأنّه يرحِّب بجمهور شغوف بما سيقوله، بصوت هادئ يمتدح نفسه وقائده وحزبه وإسلامه ثم يبدأ بوعظنا كضّالآت، ترقُّ كلماته فيصفنا بأخواته وبناته، يضرب أمثلة للهداية والأخلاق من تربيته المنزلية المحترمة لبناته الأربع اللواتي أصبحنا نعرف أسماءهن وأسماء أزواجهن، لون شعرهن ورائحة العطر الذي يحبونه، تلكزني سلافة ساخرة، تهمس لي حين يلتفت «إسأليه عن ابنته مني»، أبتسم وأستسلم مراقبة كرشه ومحاولته إخفاء صلعته بشكل كريه، كم من الرجال عبرونا في زنازيننا دون استئذان، من الصعب دخول أي شخص إلى غرفة نوم امرأة دون إذن، كم كنّا مستباحات، يتجسَّس علينا المجنّدون المكبوتون، نسمع صوت استمنائهم قرب أبواب الزنازين، خوفنا من الاغتصاب جعلنا نحتاط حتى أثناء وجودنا في المرحاض، لازمنا هذا الخوف طويلاً فتمنينا لو أغلقنا فروجنا بأقفال من حديد كي نحفظ ما تبقّى لنا.

الليل الذي أصفه ينسحب ببطء وأنا شاردة، في رأسي تتداخل المنولوجات، تختلط الصور والأحاديث، خالاتي وأخوالي، أمي وأبي وأخي حسام الذي لم أتوقف عن رؤيته متهاديًا نحوي ساخراً من الموت، أيام الاعتقال الأولى، ومفاجأة أنّنا نستطيع العيش في جحر مليء بالديدان والعفونة، سلافة وبنات جماعتي أبدى بعضهن بطولة نادرة واستخفافًا بالموت، اعتقدت للحظة أنّ قوة الإيمان داخلهن تستطيع هدم الجدران الإسمنتية وكسر أقفال الحديد، ينثرننا تحت ضوء الشمس غزالات خلقن للركض نحو النهر ليتراشقن بالماء العذب، كُسرت رِجل بثينة مرّتين،

اقتلعوا عينها، قطعوا إصبعها ولم تعترف بمخبأ المطبعة التي كانت تشرف عليها، ثلاث سنوات في الزنزانة الانفرادية قريبة منّا كنّا نسمع صوتها الذي يشتمهم، كم كان وجودها قربنا ضرورة لنحسّ في الأيام الأولى بأنّ ألمنا لا معنى له، نسمع أنينها كلبوة جريحة تصرخ بعد ذهاب الخدر من أعضائها واستيقاظها من غيبوبات لم نعد نستطيع إحصاءها. ألحقوها بنا بعد سنتين في سجن النساء، استقبلناها بقبلات وزغاريد وأغنية طلع البدر علينا، ابتسمت منهكة وممتنّة للماركسيات اللواتي قدَّرن شجاعتها فأنشدن نشيدنا، رددنا لهنّ الجميل والتعاطف بمشاركتهن حين نقلوا هيلانة فتاتهم الصغيرة القد، ذات الوجه الناحل كأرنب التي لم تترك فرعًا إلا ونقلوها إليه على أمل فكّ عقدة لسانها التي لم تتوقف عن الصراخ بكلمة واحدة فقط «كلاب وكلاب وخونة»، صلابة المرأة تحرج الجلاّدين فيحيلونها إلى ذكورتهم، كانوا ينادون هيلانة بأبي علي، يتحاشونها رغم أنّها في قفص، قوّة الحقد في قلبها أرعبتهم وجعلتهم نادمين على عدم إلحاقها بمواسم الإعدام التي حصدت آلاف الرجال والنساء، لا أحد يعرف أين ذهبت كل هذه الجثث، هيلانة وبثينة محكومتان بالسجن عشرين عامًا، مسترخيتان في جلستهما، اختارت الاثنتان زاوية، بقرب بعضهما تنامان بعد أن تتشاجرا حول الله وماركس ولينين والجنس والأطفال والأغاني.

الاثنتان تحتفلان باختلافهما على طريقتهما، العزلة الطويلة في الزنازين الانفراديّة جعلت منهما شرستين، تستهينان بآلامنا العابرة، نحن لا ندافع عن أنفسنا أمام هجومهما على دلالنا، كما تصفان رغبتنا بالعودة إلى منازلنا أو بدفاع بعضنا عن اللواتي لم يحتملن التعذيب فاعترفن بكل ما

يعرفنه. كم هو قاس حين يأتي من يطالبك بثمن بطولة ولا تجد شيئًا تدفعه سوى الإذعان لرأي تعرف أنّ السجن حوّله إلى باطل. اقتربت من بثينة أول الأمر ثم كرهتها، لم أستطع احتمال تشهيرها بخالي بكر ووصفه بالخائن، احترمتها لإغاظتها جلادنا وكرهتُ سلوكها المتعجرف وخوف الحجّة سعاد منها، الآن أراها تغطّ في نوم مضطرب وتحاول طرد حشرة عن أرنبة أنفها، تتقلّب كأيّة امرأة قلقة، حين كانت في الانفرادية بعيدة عنّا كانت أسطورة، رُويت خرافات عن جرأتها بالعمل أثناء المعارك، تُتلى لها كلمات أصبحت مأثورة بين أفراد جماعتنا التي رفعتها إلى مرتبة الوليات اللواتي يجب التبارك بسيرتهن.. ما أصعب أن ترى أسطورتك تتنفّس ككلّ النساء وتقاتل من أجل قطعة خبز إضافية والقليل من مرقة فاصولياء طافحة بذباب ميت، الإهانات تصنع كائن الكراهية وتطلقه في فضاء العبث.

احتفلت وحيدة، دون ضجيج بعيد ميلادي السادس والعشرين، البنات اللواتي يعرفن هذا التاريخ اقتربن منّي، عايدنني بحنان صديقات سيودعنني بعد عشرة أيام لأعود إلى عالمي الذي تركته كأنّني خرجت لشراء باقة بقدونس ولم أعد، أعددن على عجل شمعة خبأنها لكل أعياد الميلاد، شمعة واحدة وقعت منذ سنتين بين أيدينا أوصت رشا عليها للاحتفال بعيد ميلاد طفلنا الرابع، أتت بكاتو التهمنا قطعه الصغيرة بشهوة وغنينا لطفلنا، ساعدناه بإطفاء الشمعة وهو ينظر إلينا بدهشة من يكتشف أن إطفاء شمعة يحتاج لكلّ هذا الضجيج والصراخ، خرجت رشا وبقيت شمعتها ذكرى لنا، نشعلها لثوان لتطفئها امرأة يجب أن تحسّ بأنّها قد كبرت سنة، تمنّينا بصوت عال حريتنا.. ماذا تتمنّى السجينة؟

أطفأت الشمعة، صفَّقت بعض البنات وقبّلنني، أم ممدوح احتضنتني وبكت، أنا بنتها التي لم تعد للجلوس معها إلى الطعام بعدما تشاجرنا أنا وبثينة على دور الحمَّام، قبَّلت يديها، طمأنتها بأنّ العشرة أيام المتبقية لن أتركها فيها، سأعود ابنة لها.

عشرة أيام نذرت فيها الصيام والصلاة خمسين ركعة كل يوم، استغربت بنات جماعتي خشوعي بعد قطعي الصلاة ثلاث سنوات، دافعت عني أم ممدوح حين علَّقت بثينة أنّ اللّه لا يتقبل صلاة الكافرات، «أستطيع الصمت عشرة أيام» قلت لنفسي، قلقة من تغيير رأيهم واحتفاظهم بي للمرة الثانية في الفرع كما حدث مع الكثيرات اللواتي عدن إلى جحيم الانتظار اليومي لإخلاء سبيلهن، سلَّمت أمري للّه وتأمَّلت السجينات اللواتي رافقنني رحلة الجحيم هذه، الحجَّة سعاد ابتكرت طريقة فريدة لعدّ أيامها، كل يوم تقطب قطبة بخيط أسود في ثوبها الوحيد الذي لا تخلعه إلا للغسيل كل ثلاثة أشهر مرة، تعد القطب يومياً، تضحك البنات حين تحاول إحداهن مساعدتها وتنقص يومين أو ثلاثة، تعود الحجَّة سعاد للعد كأنّها تهزأ من الزمن المعلَّق في طرف ثوبها، قطب خيط أسود ليشهد على بؤسها في هذا المكان وتخليها عن ولعها بأثواب الحرير والجوخ المرشوش كامرأة تحب الأناقة والنظافة، استسلامها لقذارة ثوبها أثارتنا، فهمنا بأنّها استسلمت لموت اعتقدته قادمًا لا محالة.

بعد خروجنا من السجن بسنتين كنت أقرع باب منزلها في حي السبيل، كدت لا أعرفها من فرط الأناقة، ملأت ذراعيها بأساور من الذهب الخالص كعادة الحلبيات بالتفاخر بما يملكن، ببشاشة احتضنتني ثم

قبّلت سلافة بحرارة. كانت البنات خريجات قصر الوالي، كما أسمينا السجن، يتحرّكن بحرارة إناث اشتقن للهو وللموائد الفاخرة، قبّلتهن جميعًا، التقطت انزعاجهن من سفوري الذي لم يعلّقن عليه.. كانت المرة الأخيرة التي أراها فيها قبل أن أسمع بأنّها أحاطت نفسها بأبهة المجاهدات ومضت تبيع تاريخها لأسر تجّار متعاطفين مع جماعتنا، دخلت في سجالات مع أم ممدوح في حماه التي حاولت التقليل من هيبة الحجَّة سعاد، يومها ضحكنا بحريتنا سعيدات بأطباق الكبب والأطعمة التي صنعتها نساء ماهرات، مكانتي كطالبة طب وسطوة أخوالي في سوق السجّاد منعت المحاكمة التي كنت أتوقَّعها من الحجَّة سعاد التي لم يبق لها سوى الماضي، أحسست بأنّي أحبّها حين رأيت ثوب السجن المدروز عليه علامات شقائها معلّقًا في صدر الصالون تميمة مقدّسة وشاهداً على خروج جلادينا من جلودنا كوحوش لن نغفر لهم.

قضيت الأيام العشرة المتبقية قلقة، الصيام أراحني وجعلني أبدو خفيفة، كما يليق بامرأة خارجة من الجحيم إلى تفاصيلها التي تنتظرها بشغف كما اعتقدت، أغراضي القليلة تركتها لمن يرغب، طلبت من أم ممدوح توزيعها، أغمضت عينيّ حالمة بطيران لا ينتهي، أرى فيه الأنهار والبلاد من علٍ وأصعد إلى الجبال بخفة فراشة، أحوم حول منزل مروة لتلتقطني قبل أن أكشف لها أنّني تلك الصغيرة التي عادت إلى دفاترها كي تُجلس ابن مروة الذي احتفظت بصورته بين ثيابي، تركتها لليلى بعدما رأيتَها تندفع وتقبّله كأنّه حقيقة طفلها، الذي تركته لأم عجوز وشبه ضريرة تعيش في منزل هدمت قذائف الهاون أسواره وحائط غرفة نوم

العريس والعروس ليلى التي خرجت لصنع قهوة زوجها، عادت ورأته أشلاء. نام طفلنا في حضني ليلة، حكيت له قصصًا حاولت تذكّرها عن ذلك الثعلب الذي لا يعرف ما هو ولا كيف شكله، لم يحب سوى حكايات رشا التي حاولنا تقليدها بروي يجذبه ولم نستطع، كانت تقول له جاء الثعلب أبو علي وقال للكلب أبي منذر، يضحك طفلنا ويتخيَّل الحكاية مجسّدة أمامه بسجانين يعرفهم جيِّدًا كما يعرفونه، عرضت أخذ طفلنا معي كما فعل كل من أطلق سراحهن، سهير لم توافق كأنّها تريد شاهدًا إضافيّاً في حكاية أصبح شهودها أكثر من الجمهور الذي يأتي كل ليلة ليستمع نتفًا من خرافة اختلط الخيال بواقعها.

الليلة الأخيرة لم أنم، خفت أن يسقط اسمي سهوًا، عمر ومريم مرابطان أمام باب السجن منذ الفجر، لم يريا منِّي سوى يد تلوِّح من سيارة مغلقة نقلتني إلى الفرع بعدما قبَّلت الجميع وبكينا كما لم نبك من قبل، أطلقنا الزغاريد التي أسميناها بالإحدى وعشرين طلقة تحية لضيف القصر الكبير ساخرات من لهجة مذيع إذاعة دمشق الثوريّة، خرجت مع الحارس الذي جاء لاستلامي ونقلي إلى الفرع، في الممر كانت الزغاريد تتعالى ويدي تلوِّح لهن، أراها من غبش دموعي كفزّاعة اعتادت طرد الخفافيش، وقّعت أوراقًا لم أقرأها، لم أصافح الجلاّدين الذين كانت نظراتهم تتفحَّص حجم الكراهية التي حملتها معي وخبّأتها في داخلي، صعدت إلى سيّارة بيجو ستيشن، بخفة أدخلت يديّ في القيود التي مدّها لي عنصر مخابرات رفض رجائي بالتوقف لثانية لألمس يد مريم وأطمئنها، رأيت السماء وأصابني دوار، السيارة اخترقت ساحة باب مصلّى في طريقها لفرع الأمن

العسكري، رؤية الحياة تمضي بهذه البساطة أصابني بدوار، رغبت بالتقيؤ، لم أستطع فهم شعوري هذا، من المرآة رأيت سيّارة عمر ومريم تمدّ رأسها من النافذة كأنّها تريد قول شيء ولا تستطيع الانتظار أكثر.

حرّاس الفرع والمحقّقون والضبّاط كبروا سبع سنين ونصف وأنا كبرت سبعة قرون ونصف، رأيت الشيب يغزو شعر المساعد أبو جميل الذي رحَّب بي على طريقته بالسخرية من رغبتي بالخروج من السجن، الرجل الذي كان يجاهر بطائفيته ممتدحًا مجزرة السجن الصحراوي أمامنا بعبارات متشفية بجماعتنا، كم تذكَّرته وأنا أرتِّب أعدائي الجدد، الضابط الذي وقع بهوى سهير أصيب بسرطان الرئة، الخبر الذي زغردنا له جميعنا، سهير رقصت حاملة طفلها على ذراعها.. رأيته واهنًا ولئيمًا كما كان، نظرت إليه بشفقة، كدت أركله بقدمي، لا أحتاج إلى من يدلّني على الممر المؤدّي إلى الزنزانة، كأنّني أعود إلى منزل أعرفه جيِّدًا، انتظرت صامتة أربعة أشهر أخرى، نقَّيت خلالها الحصى من قصعة البرغل بمهارة أتقنّاها جميعًا، قبل أن يستدعوني ويقودوني إلى غرفة رئيس الفرع الذي تحسّنت صحته قليلاً بعدما أوفدته الحكومة إلى المشافي الفرنسيّة، قال لي اجلسي فجلست متناسية حلم خروجي، قال كلامًا كثيراً عن عطف القائد الرحيم، هززت برأسي، أكمل أمنياته أن تكون السنوات الماضية قد أرشدتني إلى الطريق القويم، وأقنعتني أنّ جماعتي مجرمة، وهم وطنيون لا همَّ لهم سوى المحافظة على البلاد. لم أفتح فمي بكلمة، حين نهض وسلَّمني ورقة إخلاء سبيلي مدَّ يده ليصافحني، فمددت يدي كي أنقل له سمَّ كراهيتي وأصافح يد عدوّ نظرت في عينيه وعرفت بأنّه ميت.

الفصل الرابع

السماء تمطر عسلا

رأيت السماء تمطر عسلاً، أغرق شوارع المدينة التي دخلتها غريبة أحمل أسمال امرأة تبحث عن مسرح، لتقصّ حكاية تراجيديّة عن نساء خرجن من بواباتها مقيَّدات ومرميات فوق مقاعد سيّارة باردة ذات يوم، وعدن غريبات في مقعد باص مهمل تنبعث من مسجلته أغان ريفيّة، يبحثن عن ذكريات لم يتبقَّ منها ما يشير إلى أنّهنّ وُلدن في هذا المكان، الذي كان مدينة ذات يوم قبل أن يتحوَّل إلى خرائب تعجّ بأشباح فقدت ملامحها، فاختلطت مع أموات متروكين لاستجرار ذكرياتهم العابرة.

مريم عارية تقطع ساحة باب الحديد، وراءها جوقة الحجّة رضية حاملات الدفوف، لا يراهنَّ أحد، فيبتهجن ويعبّئن العسل المتساقط من السماء في جرار يحملنها إلى موائد لم تُنصب منذ أزمنة بعيدة، حلَّقن فوق المدينة طيور أبابيل في مناقيرهن حجارة ملوَّنة باحثات عن غائبين تبخَّروا، دخلت إلى غرفتي التي أغلقتها مريم، لم تسمح لأحد بالدخول إليها، دفاتري كما هي مفتوحة على الطاولة، ثوب النوم مرمي على السرير، حَلَقي على الكمودينة، مرآتي تحت السجّادة المعلّقة في صدر الغرفة، الغبار غطّى كلّ شيء، أسمع أنين الغرفة المهجورة، فكَّرت بالمكان حين نهجره، كيف يتحوَّل في ذاكرتنا إلى خرافة، لم تصدِّق مريم

أنّني سأغيب كل هذه السنوات، اكتسبت أشيائي بعدًا رمزيًا، أصبحت مجموعة أشياء في غرفة مغلقة، لا يجوز الحديث عني بصفة الغائب، يكفي مريم ما فقدته من أحبّة اختلطت مصائرهم بأقدار خلخلت كلّ النظام والنهايات التي أُعدت عبر زمن طويل على عجل لتشابهها.

سبعة أيام لم أنم، أتت جموع كبيرة لتسلّم عليّ، تطمئنّ أنّ عقلي لم يذهب ولم أصبح مجنونة تغطّ بمخاطها.. قبّلت نساءً لا أعرفهن، جاملت أطفالاً أنتظر رحيلهم كي أنفرد بأبي الذي أمسكني من يدي مطمئنًا إلى صوت دمه الذي يجري في عروقي، قبل أن يغادرنا مع زوجته اللبنانيّة التي كانت غريبة وسطنا، حاولت لعب دور أمي، التعب لم يسمح لي بأن أقترب منها، وأقول لها بأنّ لشعرها رائحة البابونج الذي لا أحبّه، في لكنتها اللبنانيّة ما يشير إلى تكلّف لطيف لم أمانع أن أحبه، قبّلتها بحرارة أزعجت مريم الغاضبة من اصطحابه لها إلى منزلنا، أريد لأبي العيش كما يحلو له، عدم انتظار صورنا على الجدار من النزول والتمدُّد قربه كي يحسّ بأنّه ليس وحيدًا، أمي وحسام وأنا مجرّد صور بالنسبة لرجل قاده مصيره إلى ترك ماضٍ عاشه ممتعضًا وصامتًا، مستسلمًا كأنه ينتظر موتًا لم يأت، مارينا زوجته الجديدة بدت خجولة وهي تدخل بيتنا، مرتبكة ولطيفة، رقيقة وفي وجهها ما يشير إلى بؤسها.

في الأيام الأولى لازمني رضوان ساعات طويلة، تجاعيد وجهه تنبئ عن سنوات عمره التي تجاوزت السبعين، حركته الفرحة بعودتي لا تخفي قلقًا أحسسته حين كان يتمتم بدعاءات غريبة يلقيها ببطء، يمسح على رأسي، يباركني، استسلمت لرغباتهم جميعًا، لم أناقش أيّ

طلب، ممتنّة لعودتي إليهم جميعًا، أدور في المكان الذي أحسسته غريبًا لأول وهلة، الأبواب عتيقة مما يوحي بكآبتها، أولاد أخوالي كبروا في غفلة عنّي، فوجئت بحضورهم وحركتهم، نظراتهم إليَّ تشعرني بغربتي عنهم، يمدُّون أياديهم مصافحين، مرحِّبين بالفتاة التي كانت تلاعبهم وتحميهم من عقوبة أفعالهم الشيطانيّة وتكسيرهم لأحواض الزرع، ذاهبين في طيشهم إلى نهاياته، كيف أنتمي إلى كل هؤلاء الأشخاص الذين كبروا في غفلة عنّي، اشتقت إلى زهرة التي ملأت صور ولديها جداراً كاملاً في غرفة مريم، مروة اندسّت بجانبي في سريري، احتضنتني ولعبت بشعري مستعيدة لحظات طفولتي، دفؤها قربي اختصر كلمات العتاب واعتذاري الذي أعددته لسنوات طويلة كمنولوج أحتاجه لرمي ثقل كلماته عن كاهلي، كلّ شيء يذكّرني بأنّني قضيت وقتًا طويلاً وكبرت، لم أعد تلك الفتاة التي كنت، يدا مريم تجعَّدتا ومشْيتها تثاقلت، الشيب منح عمر وقاراً وهدوءاً لم أتخيَّله، صورته القَديمة لم يبق منها سوى نتاتيف صغيرة ومبعثرة، ضحكته الصاخبة اختفت ولمعان عينيه أوحى بصورة الرجل المطمئن الجديدة، عودته لفتح دكاكين السجاد وتخلّيه عن أحلامه المجنونة بتأسيس إمبراطورية مالية جعلته أقرب إلى صورة جدي القديمة، متّزن وبعقلية الدكنجي يحسب الأرباح والخسائر، لا يغامر بطيش، يحني رأسه كي تمرّ العواصف، ولعه بالأحصنة اتخذ صفة التجارة الرابحة التي لا يعرف أسرارها الكثيرون، أهداني حصانًا صغيراً وهو يعرض لي مجموعته التي يفاخر بها، يشرح لي أوصاف الأحصنة النادرة في إسطبل مزرعته التي انتقل للعيش فيها تاركًا المدينة غير آسف على صخبها الذي عاشه كما ينبغي

لرجل مولع بالحياة إلى حدّ الجنون، قلت له وأنا أعيد الهدية له، لا أريد ما يربطني إلى مكان ثابت، هزّ برأسه، عرف تمامًا بأن الأمكنة قد فقدت بريقها بالنسبة لي، ولن تهدأ روحي في مكان، حاولت إخفاء يأسي الذي جعلني شاردة أرد على الأسئلة ببرود، غالبًا لا تكتمل إجاباتي أو لا أريد الدفاع عن رغباتي، السجينات رفيقات الليالي الموحشة اللواتي سبقنني بالخروج أتين لزيارتي، ضحكن بمرارة من ينسى أيامًا لن تُنسى مهما حاولن السخرية منها.

ما تبقّى لي منهن سلافة التي دخلت معي إلى غرفتي التي فتحتها لنا مريم بعد أسبوع من خروجي وانتهاء الولائم التي أعادت للمنزل صورة قديمة جاهدت مريم كي ترممها ولا تتركها ناقصة، صورة العائلة المنشغلة بترتيب أمور الأحفاد ورثة المجد الزائل، النساء يتحدثن وهنّ ينقّين حبّات الفريكة من الزيوان والقشر، يتابعن الثرثرة بأصوات غير مسموعة عن شؤون منازلهن وأزواجهن، كانت جدتي في ذلك الماضي تدور بينهن وتصدر تعليماتها للجميع، يطيعونها لحظة المائدة ثم يتناسون كلّ شيء بعد عودتهم إلى منازلهم؛ الآن مريم لا تستمع إلى أحد، نسيت الدور الذي حلمت به كسيدة لمنزل كبير يجب المحافظة على روائح إرثه، أنا وسلافة واقفتان على عتبة غرفة أسهبت في وصفها لها ليالي طويلة، نفضت أحد دفاتر الرسم الذي رسمت فيه أحلامي ولم يصادروه، لم أستطع احتمال أن توقف مريم زمني كلّ هذه السنوات، كأنّ ما هو مطلوب منّي شرب القهوة صباحًا والذهاب إلى كليّة الطب كأيّة طالبة عادية تحلم بمستقبل باهر ينتظرها.

فكّرت بهجر الغرفة والانتقال إلى غرفة زهرة التي تركت للريح حرية العبث بستائرها بعد سفرها إلى لندن، «كم هي صعبة العودة إلى الحياة بعد كلّ هذه السنين»، الأشياء لا أعرفها ولا تعرفني، فساتيني السوداء المعلّقة في الخزانة كجثث ميتة بهتت ألوانها، حملت كتبي المصفوفة في مكتبة صغيرة معلّقة في الجدار إلى ساحة الدار وأشعلت فيها النار، وقفت أراقب اللّهب الذي يطهّر ذاكرتي القديمة، احتفظت بقرآني، رميت كتب الفقهاء والمشايخ التي تتحدّث عن عذاب القبر دون أن تتذكّر كم هي رحمة اللّه واسعة، مريم تراقبني من نافذة غرفتها ثم تغلقها، تطفئ الضوء لتندسّ في سريرها غير مكترثة بما يحدث، تمنّيت لو أنّ أخي همام بقيَ للعيش معنا كما أصرّت مريم ورفض أبي فاصطحبه معه إلى بيروت، كنت أحتاج أن يراني أحرق استعاراتي، جلست وحيدة، الصمت ينذر بوحشة خريف سنقضيه أنا ومريم ورضوان وحيدين.

الكآبة تتناسل من خطوات رضوان، جلس قريبًا منّي وسألني إن كنت أريد شرب شاي بالنعناع، تركته وحيدًا وعدت إلى غرفتي لأغرق في رائحة مخدّتي محاولة النوم وطرد هواجس السفر إلى أيّ مكان. ماذا يعني أن أذهب كلّ صباح إلى كلية ينظر إليّ طلابها بخوف، يبتعدون عني كجرباء؟ المظليّون والمظليّات قبضوا ثمن ولائهم علامات أتاحت لهم دخول الكلية بامتيازات لا تُعدّ ولا تُحصى.. أنظر إليهم وتعود إليّ هواجس مديح الكراهية، قلت لسلافة «لم نعد صالحات للعيش». أمسكتني من ذراعي ودخلنا أقرب مقهى، ثرثرت بحماس عن حقّنا بالحياة والحب والعمل وهواء البلاد، كانت عيناها تكذبان محاولة إخفاء إحباطها والهرب من نظراتي التي تحاصرها.

بعد خروجها من السجن ذهبت سلافة إلى منزل مضر، انتظرته على درج منزله الفاخر، أمسكت به من صدره، هزّته بقوة وسألته «لماذا تزوّجت ابنة عدوي»، بصقت عليه بعد أن طال صمته، شدّة المفاجأة جعلته لا يحسن التصرف، «لماذا تكذبين مازلت تحبينه» قلت لها ونحن نتمدّد في سريري، لم ترفع رأسها عن ألبوم الصور الفقير، الذي يضم صوري وصور حسام جمعتها أمي لنا بعد تشرّدنا وابتعادنا عنها، كما لو كانت مطمئنة إلى عودتنا وسؤالنا عن أشيائنا التي تركناها في لحظة طيش، وجدت ألبومنا في صرتها التي تركتها في خزانة مريم قبل أن تأخذ صوراً قليلة وترحل إلى بيروت للحاق بأبي، لم تعد سلافة تتحدّث عن مضر، تجاهلته ككذبة اخترعتها لتسليتي في ليالي السجن، أغلقت الألبوم واقترحت على مريم إعداد العشاء، وافقت بحماس ورضوان كما لو أنه استعاد بهجة الأيام الماضية، جلس على درج المطبخ مستعداً لتنفيذ أوامرنا، متلقيًا دعابات سلافة بمرح استغربت شدّته، أنّبت نفسي على الكآبة التي أحطت بها المنزل المشتاق للمرح، ضحكت مريم لنكات روتها سلافة على عجل عن الحماصنة، سألت مريم عن طريقة صنع الكبة بسماقية فأسهبت بشرح طويل شارك فيه رضوان الذي لم يفارقنا حتى منتصف الليل، أنشد مقاطع قصيرة من مديح نبوي ومقطع لعبد الوهاب من أغنية الجندول، صوته مازال قوياً، صافيًا. البهجة التي أحاطتنا بهدوئها قد أيقظت آمالنا جميعًا برغبة هزم الألم.

في تلك الليلة لم نعد أنا وسلافة لتقاسم مضر، أصبح وجهًا غائبًا تستطيع كل واحدة منّا تشكيله على هواها وتعيد تسميته، أفرح حين تأتي سلافة لزيارتنا، تقبّلها مريم بحرارة وتصنع لها أطباقًا تحبها، رضوان كأنّه

وجد بديلاً عن صفاء التي بعثت برسالة أبكتنا جميعًا وهي تصف لنا الشقاء الذي تعيشه في قندهار، صورتها أصابتني بالذعر، ترتدي الشادور ومن فتحة أمام وجهها تظهر ظلالاً لعينيها، كأنّها تعاني من ضيق مزمن في التنفُّس. الرسالة الأولى أبكتنا حين تحدَّثت عن أشواقها والرعب الذي يصيبها ليلاً من انفجار القذائف حول منزلها الطيني، في الرسالة الثانية بعد سنة أصبحت كلماتها جافة، منفعلة كأنّها تخطب فينا نحن جموع المشاهدين غير المرئيين، أخبرتنا عن أحلام المجاهدين بتحويل أفغانستان إلى نموذج لدولة الخلافة، قلت لرضوان «خذنا إلى الحمَّام». الطلب فاجأ مريم فأعدَّت صرتّها بسرعة، أردت إعادة صورة قديمة كانت مريم شغوفة بها، اصطحبتني مع سلافة، طلبت منّا عدم الضحك في الشارع، صحَّحت الطريق لرضوان الذي بدا رجلاً عجوزًا انتابه الملل من تكرار دور تناساه الجميع وفقد الطريق بهجته، لم يعد أصحاب المحلات يعترضونه بالتحيّات كما لم يعد يشمخ برأسه فخورًا بحراسة نساء يفسح الناس لهن الطريق احترامًا، أنا وسلافة بدونا كسائحتين تبحثان عن عبق الماضي في أزقة الجلوم الضيِّقة، لم تعد أمجاد الماضي، أحسست بغربة مريم عن أقواس الحجر التي شهدت كلّ أيامها منذ خمسين عامًا حين كانت جدّتي كل خميس تقود سرب نساء اعتدن طقوس الماء والثرثرة وسط غبشه، عوملت مريم كأيّة زبونة ببرود وعدم اهتمام، أنَّبت نفسي على تحويل حميمية الذكرى إلى عبث فلكلوري، كنت أريد تركيب الصورة التي حدَّثت سلافة عنها كاملة وغير منقوصة، اغتسلنا وأطعنا مريم ثم عدنا من الطريق نفسه نحاول بثّ حرارة الذكرى وإبهاج مريم بما تعتبره ماضينا المشرق. مروة قالت لي «إنسي مريم والتفتي

لحياتك» . . روت لي عن يأسها وضياع المعاني لديها، لم تعد الكثير من الأشياء تعني لها شيئًا، أصبحت عاجزة عن الأمل، لم تعد لنقاشي في ألوان ألبستي التي فاجأتها أول الأمر ثم بدأت تبدي أراء غريبة، كأنّها نادمة على عمرها الذي تسرَّب من بين يديها في غفلة، فجأة أحسّت بأنّ كل ما حلمت به كان وهمًا، حتى المكان أصبح عاجزًا عن استعادة صورته القديمة.

مروة في تقلُّباتها امرأة مختلفة، أنيقة دون تكلف، منطلقة الأسارير تروي نكاتًا فاحشة بلهجة مؤدّبة تُضحك مريم التي تطيعها فيما تقول، لا تدع نذير ينام في فندق أو خارج منزلنا، تحتفي بحضورهما، تترك لعمر حرية ترتيب أحواض الزرع ولا تلحُّ عليه في الزواج مرّة أخرى، أصبحت زيارة مروة فرصة لإعادة البهجة إلى مكاننا المسكون بتكرار مميت، يجعلني أفكِّر بهجره وعدم التمسك بأنفاس الماضي، كراهيتنا ماتت صورتها القديمة لتنمو صورة جديدة لا حدود واضحة لها، الحياة فيها اختبارات غير ثابتة، لم تعد مريم ترغب بأوهام جديدة، شاردة دائمًا كأنّها تنتظر خبرًا تعرف بأنه لن يأتي، في الشتاء لا تخرج إلا نادرًا من غرفتها، لم تسمعني حين نبَّهتها إلى سقف المطبخ الذي يحتاج لطبقة قار جديد، رضوان في غرفته ومريم تنام باكرًا غير آبهة بالعواصف التي تجعلني أحنّ لرجل أرسم ملامحه كل يوم ثم أمزّقها، أفتح نافذتي وأراقب المطر، أنتظر أن يفتح باب غرفة مريم لتفقدها الذي سخرنا منه نحن البنات اللواتي لم نترك لها شيئًا إلا وغيَّرناه، لم تعد تستطيع احتمال العيش من أجلنا، تسألني بلهجة حياديّة عن دراستي، لا تنتظر إجابتي، تغرق في حديث طويل ومفاجئ حول مخلَّل الباذنجان ومربَّى

القرع، ترفع سماعة الهاتف وتطلب عمر في المحل كي تأمره بالقدوم لتناول الغداء، كأنّها فرحة بجهاز الهاتف الجديد الذي أصرّ عمر على تركيبه كي يطمئنّ علينا، وعمر لا يرفض طلبًا لها.

عمر لم يتجاوز الخامسة والأربعين إلا أنّ الشيب قد اكتمل بشعره، منحه وقارًا وهدوءًا لا يطول، حريصًا على ممارسة طيشه مع أصدقاء قلائل وبسريّة تامّة، مستعيدًا سيرة لهو طويل لم يفارقه الحنين إليها، خالي سليم كمجذوب يجلس أمام المحل، يعترض المارة والزبائن لبيعهم حجابات من تأليفه، تأتيه نساء المدينة مؤمنات بقدراته على إرجاع الغائب وفكّ السحر وشفاء المرضى، بينما ابنه جلال وعمر يسدفان السجّاد، ومنشغلان بأخبار بيوت عريقة كثرت هجرتها وبيع أثاثها بأبخس الأثمان بعد وصول الفساد إلى غرف نومها، قلت لنذير «هل تكره صديق طفولتك؟» السؤال فاجأه، أعاد سرد سيرة أحلامه التي دمَّرها طيش القائد صديق طفولته الذي أفرغ خزانة الدولة من النقود وغادر إلى المنفى بعد حلّ سرايا الموت وتفرُّق رجاله، تحدَّث بإسهاب عن الفراشات الجديدة التي التقطها مع مروة من حقولهم، صورتهما أقرب إلى صديقين منها إلى زوجين، تبادلا الحب بسرّية، عاشا بغموض ولم يفصحا عن أسرارهما لأحد.

ممرات كلية الطب كئيبة، لون الجدران المائل إلى اللّون العفني يجعلني أغفر للطلاّب تجهمهم، إيمانهم بأنهم صفوة المجتمع تجعلهم يتحرّكون ببطء، مختبر الكيمياء تفوح منه روائح الأجنة المحفوظة بقطرميزات زجاج مصفوفة في خزانة خشبية كالحة، يصرّ بابها حين تُفتح

فتبدو قبرًا نموذجيًا لفرجتنا، وحيدة أدخلها صباحًا، أجلس بعيدة عن الطلاب، لا أرغب بمحادثة أحد، أسمع همهماتهم التي تشير إليّ، يؤلفون قصصًا عن حياتي وانتمائي وأسرتي ويحاولون التحرُّش بي.
أعجبتني صورتي الغامضة، أعجبتني صرامة المعيد ونظّارته السميكة التي يحرص على نظافتها دومًا، هو أيضًا صامت لا يحب تعليقات الطلاب، لا يردُّ عليها فيبدو كضفدع بفكّه المشدود ووجهه الكالح، ينظر إليّ ويقترب منّي ليصحِّح لي تجربة، يقترب كثيرًا إلى درجة يبدو كأنّه يريد الالتصاق بفخذي، أشمّ رائحة عطره التي تشبه رائحة الموتى، أسأل رضوان وأحاول توصيف الرائحة له كما كانت تفعل مريم، أعجبه اعترافي المتأخِّر به عطّارًا من الممكن استشارته بعد اعتزاله كما يدَّعي، نهض إلى المطبخ، دخلت وراءه قال لي «هاتي بصلة واعصريها» ثم أخرج من كيس أبيض ريحانًا جافًا ذهبت رائحته العطرة، وعدني بتركيب يشبه رائحة الموتى التي لم تثرني أول الأمر، في اليوم الثاني كان رضوان يقف على الباب منتظرًا خروجي، أعطاني زجاجة صغيرة، فتحتها وتشمّمت رائحة أخرى للموت، قلت لنفسي وأنا أقطع شارع الخندق في طريقي إلى الكلية البعيدة «تناسبني هذه الرائحة الغريبة»، يبهجني مروري سيرًا على الأقدام مدندنة بأغان لا أعرف كيف تداعت كلماتها الغريبة إلى ذاكرتي، مستجدية رجلاً أن يأخذ عذريتي في حدائق المدينة، أظنّها أغنية إسبانيّة ردّدتها امرأة أمامي في مكان غريب لم يصدِّق أحد تفاصيله إن أعدت بناءه، كاتدرائيّة مهجورة يحرسها كاهن مجنون، مولع بطبخ خصي الأحصنة والتهامها، روائح الفرُّوج المعلّق صباحًا في محلات الجديدة التي أنعطف إليها تجعل صورة رائحة الموت

مكتملة في ذهني، تجسّست على المشرحة، تمنّيت أن تأتي دروس التشريح لأتخلّص من هاجسي حول عطر موتى أدمنته، تشمّمته في جسد معيد وجدني أشبهه، صامتان دومًا، قرف يبدو في حركتنا العصبية، نضع عطرًا واحدًا يركّبه لنا رجل أعمى لم تعد لمراثيه أيّة قيمة.

صلاح البرجي اسم المعيد الذي بدأت أنتظر اقترابه منّي ليلتصق بركبتي التي أمدّها له خارج طاولتي في المخبر، يكاد يلتصق بها، أحسّ بفحيح عضوه، في السنة الثالثة خرج من الكلية، أخرج مسدّسه ببرود وأمام باب المشفى الجامعي انتحر، حمله الممرضون إلى المشرحة، دفنه أهله بصمت، وبقيَ مهنّد طالب طب السنة السادسة يزور قبره، يضع عليه الورد، يتذكّر غرفته وسريرهما الذي تقاسماه كعشاق لمدة خمس سنوات. رأيت صلاح مرّة مصادفة في سوق السمك يبحث عن سمك أسود نادر وغالي الثمن، كان عصبياً، رافقته إلى خارج السوق، دون أن يدعوني لمرافقته، قلت «إن دعاني إلى البيت وتودّد إليّ سأذهب معه»، لم يدعني لكنّي ذهبت معه، سرت بقربه، على عجل اجتاز ساحة باب الفرج، أوقف سيّارة تاكسي، ظننت أنّه يدعوني، ركبت إلى جانبه، فتح باب غرفته فهبّت رائحة أعرفها، متعبًا وجبينه يقطر عرقًا، مسحت العرق عن جبينه، قلت سأصنع شوربة عدس، تمدّد في سريره وأتى صديقه مهنّد طالب الطب متأنّقًا بتكلّف كعادته، سأله عن السمك الأسود بلهجة باردة، نحن الثلاثة نضع رائحة عطر الموتى كأنّنا غير موجودين في الغرفة، غفا وسمعت شخيره يتصاعد، كان المساء قد تسرّب من نافذة الغرفة المفتوحة المطلّة على شارع تقطنه أربع عائلات أرمنيّة تفوح من منازلها رائحة البسطرما الحلبيّة، قال لي صلاح البرجي «إنّهم يعملون في

صناعة البسطرما»، وأكمل «يهدونني أحيانًا بعض القطع» ثم أضاف «أنا أساعدهم بالتجفيف وأسرق لهم من مخبر الكلية حمضًا يجعل من البسطرمة طرية ولا تجف»، تركته وخرجت من غرفته، لم أعد للنظر إليه في المخبر كما لم أعد أخطئ في التجربة كي لا يقترب منّي، كنت أعرف بأنّه سينتحر، سألني مرّة على باب الكلية «من الأعمى الذي ركّب لكِ هذا العطر»، أجبته دون انتظار تعليقه «رضوان»، لم يعلّق لأنّه لا يعلّق على أيّ كلام. وقفت لأول مرّة أمام جثّة في درس التشريح، أحببت مهنة الطب التي أهدتني ما أنقذ حياتي من الاستهتار بالموت وتمجيد الحياة. بعد تشريحنا للضفادع والفئران والأرانب، رأينا جثة كاملة، بنات صفي تقيّأن، أنا كنت أضحك، أطلب من أستاذي الطبيب المشهور السماح لي بتشريح الذراع الأيسر، ذلك الأستاذ الخمسيني الذي يتكلّم كأنّه لافوازييه مشدِّدًا على الأحرف الصوتية، طلب منّي مراجعته في عيادته فترة الظهيرة، اقترب منّي، التصق برجلي فلم أسحبها، كان عضوه خاملاً وتفوح منه رائحة عطر غالٍ يثير الغثيان. ذهبت إلى عيادته، كان وحده ينتظرني، خلعت قميصي وتمدّدت على طاولة الفحص، اعتصر نهديّ ولم أتأوه، كنت باردة كقطعة ثلج، ضربني وطلب منّي النهوض بعد عجزه عن إثارتي، كانت أول مرّة يضربني فيها رجل، شعرت بلذة أن يضربني رجل ساخط، ضحكت في الطريق واشتريت من بائع سوداني في المنشية فستق عبيد تلذّذت بطعمه، تابعت تشردي حتى التاسعة مساءً في الشوارع، وقفت أمام محل يبيع ألبسة جينز، اشتريت بلوزة ضيِّقة وبنطال ستريشت، عدت إلى المنزل الصامت، رضوان ينتظرني لنتعشى ونتحدّث عن صفاء، مريم نائمة ونافذتها مطفأة، بعد خروجي من السجن

بسنتين لم تعد تنتظرني، انكفأت على نفسها، لم تعد تسألني إن كنت أحب البهارات مع المحشي؛ انشغلتْ بترتيب حياتها الجديدة بعد تجاوزها الستين، لم تصدّقنا بأنّها مازالت تمتلك لمعان عيني صبيّة في الثلاثين؛ ذهبت إلى نجار بعيد عن الجلوم، أوصته على تابوت واسع قليلاً بغطاء يسمح بتنفس من يقطنه، كانت فكرة غريبة تحمّست لها كحل لكوابيس جعلتها تستيقظ في الليل مذعورة من شكل أمي وجدّتي اللتين تأتيان إليها مرتديتين بدلات رقص شرقي ونهودهما متدلية بعبث عاهرتين تعملان في «منزول» راق؛ بكت وجلست بجانب خالي سليم الذي لم يكمل الأيام الثلاثة المقرّرة لزيارته، هرب بعد الليلة الأولى إلى غرفته الدائمة في جامع العثمانية، حيث اللّه هناك أقرب ويزوره مع رفاقه كل فجر، ينعش قلوبهم فيبتهجون بقرع الدفوف وإنشاد قصائد ابن عربي بأصوات متعبة ومبتهلة تسمعها كل المدينة، تبدو قصائد رثاء لأزمنتها الماضية؛ جلست مريم بقربه، سردت كوابيسها بلهجة خائفة، وصفت وجه أمي المطلي بكريمات رخيصة وفستان جدّتي المرشوش بخيوط قصب لمّيع أصفر وأخضر وما لا تذكره مريم من ألوان فاقعة. ابتسم سليم، ضرب بعصاه التي لاتفارقه على الأرض وقال «إنّهما حبيبات اللّه سعيدات بموتهما»؛ ألحّت عليه وقبّلت يده، حملت صرّته وانتظرته على باب الجامع لتمسكه من ذراعه محتمية به. في المنزل الواسع أحسّ سليم بفراغ كبير، فرحت بزيارته، حاولت إقناعه أن يعيش معنا، أحبُّ ابتسامته الطيّبة و حنانه الذي يقرّبه من طبع أنثوي متسامح، لا يتدخل في ما لا يعنيه، يقبّل كلّ الضالّين دون أن يكرههم، تعلّقه بالمتصوفة وإمامهم الأكبر محيي الدين ابن عربي فتح أمام عينيه نوافذ المتعة الأبدية، أقام في النصوص، انتهى

قلقه واستسلم لمتعة الالتصاق بأرض اللّغة، توقَّع الجميع جنونه المحتّم فخذلهم بتعرُّفه إلى إشارات الصالحين بعد قلق البحث الذي كلَّفه سنوات طويلة بعد رؤيته لمدينة تحترق وصوت يستغيث به لإطفائها.

تعلَّقت برقبته، استذكرت معه سورة البقرة، كان صوتي وراءه يجعلني أنتشي بمتعة النصّ حين ينظر إليّ مبتسمًا، منبِّهًا إلى خطأ لغوي سهوت عنه أو حركة تجويد غير صحيحة، نتابع سوية ورضوان يتمتم بشفتيه صامتًا، يهزّ برأسه ويغرق في وجد عميق، يشاركنا مقاطع ويخفت صوته في مقاطع أخرى، أقمنا في تلك الليلة مولدًا على أرواح أمواتنا، تذكَّرناهم ببهجة كما أمرنا سليم.

كم هو رائع أن تشعر بأن الموت ليس سيئًا إلى درجة البكاء، عمر حضر متأخرًا، حاول أيضًا اقناع سليم بالإقامة بيننا، ردّ عليه بتهكم «لم أعد صالحًا للعيش مع العميان»، تلك الليلة تمدَّد في غرفة مريم وتذكرا صورًا قديمة، سليم صامت، مريم تذكِّره بجدّي وجدّتي وأمي وباقي السلالة، أصبح متيقّنًا بعدم قدرته على العيش معنا نحن العميان كما أسمانا. صلّى الصبح ورحل مرّة أخرى، كلّ الذين تشبثنا بهم رحلوا، تركونا وعادوا إلى صوامعهم التي ألفوها، مريم أفهمت النجار بصعوبة طلبها المثير للاستغراب والشفقة، «أريد تابوتًا» قالت له وأكملت «تابوتًا أنام فيه». نظر إليها النجّار باستفسار، أكملت «خذ مقاساتي واصنع لي تابوتًا»، أضافت «وسّعه قليلاً كي أستطيع التقلُّب فيه إن أردت». كانت مبتهجة بفكرتها الجديدة ومتحمِّسة لترك سريرها الملوكي الواسع، بأعمدة نحاسه المنقوش عليها أغصان نباتات متداخلة، تلتفُّ حول بعضها لتشكل

سلسلة لامتناهية من الزخارف يلتهمها أسد مبتسم وعلى القائمة أسدٌ آخر باكٍ في استعادة لتمثالي القلعة الشهيرين، أراد جدي يوم تجهيزه استعراض فخامة الالتصاق بمدينته، لم تقل لأحد ما الذي تنوي فعله، أتى بعد أيام أجراء النجار حاملين التابوت، وضعوه في غرفتها مكان السرير الذي فكّوه وحملوه إلى القبو، رموه قرب مرآة مكسورة إطارها من صدف لونه فضّي يلمع في الظلام، لم تسمح لأحد بالاقتراب من تابوتها، التمعت عيناها برضى وأجراء النجار يركّبون غطاءه الذي تُركت فيه ثقوب للتنفُّس وثُبِّت برذات ألمانية لا تصدأ، تابوت بسيط، لونه يميل إلى السواد، تفوح منه رائحة خشب الجوز، اعتنت مريم بفرشه كي يغدو سريرًا متقشفًا ومريحًا، صنعت له فراشًا من الصوف ولحافًا على مقاسها، ألوانهما تميل إلى بياض ناصع، تفوح منهما رائحة النظافة. تمدَّدت في ليلتها الأولى خائفة، تمتمت بسور قصار، لحظات قليلة وغطّت في نوم عميق، استيقظت منه مرحة ونشيطة.. هجرتها الكوابيس، منذ زمن بعيد لم تتقلّب وتهاجمها صور موتانا. أعدَّت لي الإفطار، سمحت لرضوان بمشاركتنا القهوة في المطبخ، جلسنا إلى الطاولة الكبيرة التي أقنعتها بنقلها إلى المطبخ كي أهرب إليها للقراءة والجلوس مع رضوان دون أن نزعجها، كانت في ذلك الصباح متسامحة، امتدحت رضوان وطلبت من أخيها كما أسمته أن يسامحها، رضوان أعجبته كلمات المديح، غمغم بأنّهما فعلاً أخوة لم يبقَ لهما أحد، الموت اقترب منهما كثيرًا، تسامحا في مشهد لن أنساه، بكثير من العواطف المؤجّلة، جرحا إصبعيهما كطفلين ومزجا دمهما، تنفَّسا الصعداء ورميا وزر سنوات مضت قاسية، كنت شاهدة هذه الأخوة التي أنهت مرحلة التوتر وتشكي مريم من تركها مع رجل غريب

بمفردهما في المنزل الواسع، رضوان لم يعد خادمًا غريبًا، أصبح واحدًا من أخوالي، بقيت أناديه بصديقي رضوان هاربة من الاستعارات الكاذبة، ومريم تناديه بأخي في لهجة جديدة فيها صدق ومودة حقيقية، الاثنان بحاجة لتذكر خمسين عامًا قضياها سويًا ولم يغادرا هذا المكان أبدًا. فكّرت كم هما متلاصقان، أحسّ بندم مريم على عدم موافقتها على اقتراح خالي بكر بزواجهما، الآن انتهى كل شيء بالنسبة لهما. كتبت لصفاء رسائل طويلة ومتلاحقة، لم أنتظر أجوبتها، قلت بأنّني مشتاقة إليها، وصفت دموعهما الحارّة وهما يمزجان دمهما في تبادل صفات متغير، كأنّنا في حفلة تتويج تأجّلت نصف قرن، بكلمات غامضة تستطيع فهمها حدّثتها عن يومياتي، طالبة شغوفة بالطب وأحماض استخدمها الفراعنة في تحنيط مومياءاتهم، في رسالتي الرابعة أعربت عن رغبتي بحب يجرفني إلى الهاوية ولا يعيدني كما كنت، تأخّرت ردود صفاء أكثر من ستة أشهر لتأتي مفاجئة برسالة طويلة كتبت على مهل بخطها الذي يشبه رسوم الأطفال، أنّبتني بكلمات قاسية على فجوري، تحدّثت عن المجاهدين بإعجاب شديد، استشهدت بأحاديث نبوية كثيرة عن مكانتهم، وصفت بيوت قندهار الطينية، استعادتهم لحياة رسول الله وبساطة عيشه، بكلمات فلتت من سياقها أبدت شوقها إلى رضوان وفخرها بسنوات سجني التي دفعتها كي ترتفع راية الإسلام.

اعترفنا لأول لحظة بأنّ صفاء لا تجرؤ على كتابة غير هذه الكلمات خوفًا من مراقبة رسائلها، غفرت لها محاولة قراءة إشاراتها التي لم ألتقطها، كم فوجئت بأنّ صفاء التي حاولت تعليمي السخرية جادة بكل ما قالته، انقطعت عن مراسلتها، من الصعب أن تفقد كائنًا مرحًا

كصفاء، وقبول صورتها الجديدة التي اقتحمت منزلنا بعد سنوات في زيارة قصيرة لم تستغرق سوى يومين.

بعد دخول مريم إلى غرفتها، جلست على الدرج الحجري قلقة من نتائج امتحانات السنة الخامسة، منتظرة رنين الهاتف الذي تحوّل إلى جثة هامدة، منتظرة سماع صوت فراس الذي قال لي يومها بأني المرأة التي يبحث عنها، أعرف أنّه يكذب، أردت تصديقه، لم يقل لي أحد من قبل إنّه انتظرني كلّ هذه السنوات، أعدت رسم شفتيه الورديتين، أضفت من أوهامي إليه، لون عينين غامض يشبه فيهما حيوانًا مفترسًا وقلقًا، قلت سأهرب إليه الليلة إن كرَّر طلب الأمس، ليالي الصيف تجعلني أحس بصداع شديد، ورغبة بهجر المنزل إلى الجبال أو إلى أمكنة أخرى إلاّ أن قدميّ لا تتحركان من مكانهما، أقضي أغلب الوقت في نوم متقطع، أحلام اليقظة لا تتركني، أدخّن وأجلس على الدرج، لم يعد جسد رضوان يحتمل السهر معي والجلوس ساعات طويلة، ركبتاه ترتجفان ويداه لا تستطيعان الإمساك بعصاه، عجوز يقترب من الموت.. بخوف أراه في كلماته التي لم تعد تتجاوز جملاً قصيرة يتبادلها مع مريم، يتشهّى الاثنان لحظة الموت الذي سيحيلهما إلى طيرين يرفرفان فوق سهول الجنة الخضراء، تأملت وجهيهما وذعرت من الشبه بينهما، تبادلا جلديهما وعروقهما، أصبحا صورة توأمين يصعب التفريق بينهما، يتفاهمان بسرعة، يردّدان مفردات من جلس ينتظر موتًا لم يأت. في لحظة نادرة طلب رضوان الاضطجاع بتابوت مريم لليلة لتجريبه بعد اقتراح مريم المتكرّر كي يتخلّى عن سريره الخشبي الذي يصدر أصوات صرير معدني مزعج حين يتقلّب.. وافقت مريم ولم تر دهشتي، مدّت فراش الضيوف في غرفتي واندسست

بجانبها، أمسكت بيد رضوان ومددته في التابوت، أغلقت عليه الغطاء وقبل أن أخرج طلب بإلحاح مني قراءة سورة من القرآن على روحه، ضحكت وقلت له مشجعة «بعد عمر طويل» استغربت إصراره وكلماته تصل إلى حدّ الرجاء، أنزلت القرآن المعلّق قريبًا من التابوت، جلست على الأرض وفي الظلام بدأت أقرأ سورة «آل عمران»، سمعت أنفاس رضوان القوية كرجل ينازع الموت، رفع الغطاء فجأة، اعتدل في جلسته وبدأ يشاركني استظهار بعض المقاطع التي مازال يحفظها. تركت رضوان وخرجت، راقبته من النافذة، رأيته يُخرج الفراش من التابوت ويمدّه على الأرض، نهض وتجوّل في الغرفة التي حرم من دخولها بعد موت جدي، تذكّر السنوات الأربع التي قضاها قربه، أحلام يقظته جعلته يتجسّس على أنفاس مريم قرب النافذة، كم مرة حلم هذا الرجل العجوز باحتضان مريم والذهاب في جسدها الذي كان ذات يوم فتيّاً، حاراً كحقل فلفل ناضج، فكّرت ليلتها بأن رضوان يريد تحقيق حلم قديم بتشمّم رائحة معبودته كما أسماها مرة بعد قسمي على القرآن أمامه بعدم فضح أسرار سيرته التي رواها لي ذات شتاء، بعد دخول مريم في هاجس موتها وعدم خروجها منه، عقدنا شبه اتفاق بيننا لم نحتج فيه إلى مقدمات، نحن وحيدان في ليال طويلة، أنا رفيقة رضوان الوحيدة التي تحفظ أسرار بكائه حين تنهره مريم كسيّدة تقسو على خادمها كي لا يرفع الكلفة بينهما، أعاد سرد طفولة غريبة، وشباب أكثر غرابة، أنظر إلى تعابير وجهه وهو يروي بسخرية حلمه بأن يصبح مطربًا، يؤلّف حياة أحب عيشها ولا يروي الحقائق، متعة السرد لدينا جعلتنا في ذلك الشتاء نهزم الملل، راوٍ وامرأة تستمع، صورتنا الحقيقيّة، أب يروي لابنته سر غيابه عن حياتها.

ذهبت إلى منزل أبي في بيروت مرّات كثيرة بالتواطؤ مع سائق أجرة صديق عمر، حاولت جرّ أبي للحديث عن ماض لا أعرفه، اكتفى بكلام عام عن أجدادي واصفًا إياهم بالطيبين، اكتفيت في الزيارات اللاحقة باصطحاب أخي همام إلى الأسواق، ضحكنا في الشوارع ومقاهي شارع الحمرا، متغاضية عن انزعاج مارينا التي لم يعجبها انتظار أبي لزياراتي، حاولت التقرُّب منها وجعلها صديقتي، اكتفيت بحيادها تجاهي فيما بعد، رأيت فخر أبي بنظراته الطويلة كلما قرعت بابه وارتميت على صدره في زيارات مفاجئة، وجهه مرتاح، رجل وجد أخيراً مستقراً لأحلامه، مارينا تريد المحافظة على رجلها الوحيد بعد مقتل زوجها السابق في الحرب، وتشرُّد ابنتها مع رجل يوناني اصطحبها إلى قبرص بعدما اشترى لها فساتين كثيرة وإسوارة من الذهب، قال بأنّه يحبها، الفتاة التي لم تبلغ الثامنة عشرة من عمرها اضطرت للهرب بجواز سفر مزوّر مع رجل ستيني عرفت في قبرص أنّه قوّاد يلتقط البنات ليُصَدّرهُنّ إلى بيوت الدعارة في روما، استسلمت لقدر لا تستطيع الخلاص منه.
ذوق مارينا واضح في ترتيب أثاث المنزل الصغير الواقع في بناية مهدَّمة المدخل قرب الخندق العميق، استأجره أبي من أحد رجال الميليشيات الذي سيطر عليه بعد هروب أصحابه إلى أستراليا تاركين وراءهم كل شيء حتى الذكريات، أبي ودود وممتنٌّ لمارينا التي تعاملت مع همام كابن لها، همام أعجبته هذه الأم، علّمته الكثير من الأشياء، أولها الابتعاد عن وهم انتمائه إلى عائلة أمي التي تثقل سيرتها كاهل من يعيش في منزلها، رضوان لم يندم على رويه سيرة مفكّكة، شغف بتصحيحها في السنوات اللاحقة لذلك الشتاء، بقي يسألني ماذا قلت عن رفيقي صابر الأعمى،

أجيبه بلؤم «قلت بأنّه حرامي يسرق الفراطة من صحن شركائه المنشدين في الجامع الأموي»، يصحّح بعد استغفاره اللّه، يعيد تركيب الشخصية من جديد، أعرف بأنّ هذه مقدّمة لتصحيح معلومة عن عشق صفاء لجارنا الطيار عباس وحمله لرسائلهما بسرية مطلقة، الطيار الذي قتلته جماعتنا لانتمائه إلى الطائفة الأخرى وحرمت صفاء من النظر إليه من بعيد متحسّرة، سألت رضوان عن رسائله لصفاء فصمت.

تمدّد على الفراش قرب التابوت وانتظم تنفُّسه، غرق في النوم بعد وقت قصير، أسرعت إلى مريم التي انتظرتني جالسة في الفراش، قفزت إليها، أطفأت الضوء واندسست في حضنها، مازحتها وامتدحت جمالها، ضحكت وسهرت على إغفائي، مسَّدت لي شعري وغنّت لي ما تذكّرته من أغاني الحجّة رضيّة التي مازالت تأتي لزيارتنا، تحظى باستثناء الدخول إلى غرفة مريم والنوم قرب تابوتها على الفراش المعدّ للضيوف، يمتد الحديث بين الاثنتين، كانتا تصمتان حين تقترب خطواتي من النافذة، رضوان توضّأ بعد أن أعاد الفراش إلى مكانه، سمعتهما يمتدحان النوم في التابوت، رضوان تهرَّب من حماس مريم بتفصيل تابوت آخر له ليهدأ قلقه، راوغها أيامًا عديدة، نسيت الاقتراح وعادا إلى تشهّي الموت السعيد. ما الذي يجعل الموت سعيداً، فكّرت وأنا أرى شوق مريم لأول المساء كي تغلق باب غرفتها وتنام في صندوق مغلق لم يعد يثير استغرابي، وسخرية عمر الذي لم يعد لزيارتنا إلا مصادفة وفي أوقات متباعدة مكتفيًا بهاتف عاجل وأشياء كثيرة يرسلها مع جلال، يتلكأ قبل خروجه، وينظر إليَ كأنّي أفعى في قفص، نظراته المريبة جعلتني أحسّ بغربتي عن المكان، قلت له مرة بشكل مفاجئ «لماذا تنظر إليَّ خائفًا»؛ ارتبك واعتذر ثم قال

بأنّ سيرة سجني قد جعلته يظنني مجنونة، أضاف بأنّ أمّه تمتدح ذكائي كثيرًا، لم يعجبني تحفُّظه وارتيابه الدائم، تجاهلته وتعاطيت معه على أنّه صانع عمر المسموح له بدخول منزلنا وسؤال مريم عن حاجياتها، منعته مريم من دخول غرفتها كما منعت الكثيرين، لم تعد مهمومة بتفسير أفعالها، من الصعب تصوُّر مريم وحيدة إلى درجة عدم سماعها أصوات الآخرين، قلت لها «اشتقت إلى صفاء» هزّت برأسها، أشارت إلى المزراب الحجري المكسور وتابعت بلهجة خالية من حماسها السابق «يجب إصلاحه قبل الشتاء»، كل سنة تتفقّد ما يجب إصلاحه ثم تتناسى الأمر، لا تصدّق أنّها ستعيش شتاءً آخر، أكملت استعدادها لاستقبال الموت، اشترت كفنًا يكفيها إذا ما انتفخ جسدها، قاسته مع الحجة رضية، قالت بفرح «سبع أذرع تكفي»، اشترت لرضوان أيضًا كفنًا لم يستطع احتمال وجوده في خزانته، رماه في الشارع ولم يعد يظهر كثيرًا ليجلس معها، لا يحب سيرة الموت، مازال يبتسم حين يسمع الضجيج في أرض الدار، يشاركنا الضحك بصوت عال، يؤلّف لنا حكايات غريبة عن ملوك ينصحون أبناءهم بالابتعاد عن رفقة السوء، أميرات أحببن خدمهن وماتوا في حسرة الحب، نصطحبه أنا وسلافة إلى السوق، نبتهج برفقته، يلقي التحيات على التجار بطريقة موسيقيّة، يترحّم على الأموات، يتحسّس مشترياتنا ويشرب الليمونادة كطفل صغير لا يكفّ عن التشهّي.

دخل رضوان إلى غرفتي، رمى إليّ برسائل صفاء إلى الطيار عباس وخرج بصمت، رأيته من النافذة يسرع خطاه للخروج من باب الدار هاربًا، أراد تخفيف إحساسه بخيانة صديقته التي ائتمنته على أخطر أسرارها، فقدت الرغبة بقراءة الرسائل، رميتها في درج الكمودينة لزمن

طويل، أتعبني وجود تنهّدات صفاء الحبيبة في درج مغلق، قلت لرضوان «لماذا أعطيتني الرسائل؟» ضحك وأجابني بلهجة أحسست بسخريتها المحببة «سأموت في الشتاء المقبل»، ثم أضاف «العميان يحبون الموت تحت المطر»، بعد أيام حمل إليّ أوراقًا وتلفّت حوله كمن يودع سرًا خطيرًا «هل نامت مريم؟» قلت دون أن أنهض عن سريري «منذ ساعة ألا تسمع شخيرها»، جلس وفرد كيسًا بلاستيكياً، أخرج أوراقًا ملوّنة «هذه رسائلي احفظيها عندك»؛ أعرف رضوان حين يخاف من وحدته فيلجأ إليّ، نهضت وقلت له «سأصنع شايًا» قفزت بخفة من سريري، قبل أن أخرج من غرفتي أمسك بيدي وأوقفني «هذه أسرار لا تخونيها» ضحكت وطمأنته، في لهجته الكثير من الرجاء كي لا أخون أسرارًا كان يرويها لخالاتي باستعارات مضحكة. حرارة الصيف تجعلنا نتشهّى الماء وبرودته، نلتجئ أنا ورضوان في الظهيرة إلى القبو الرطب كقنفذين خائفين من خبط أقدام عابرة في حقل بطيخ، نثرثر لساعات ثم نصمت، أنظر من النافذة مستجدية المساء الذي يأتي بطيئًا وينسحب مسرعًا ببرودة تنقذ مساماتنا من الخمول، في تلك الليلة الصيفيّة المنعشة شربنا الشاي أكثر من مرة، أخرجنا صحن الفواكه إلى أرض الدار وسهرنا حتى الصباح، ثرثر دون أية روابط بين كلماته التي انتقاها من قاموس ميت، ألّف لي حكاية ابنه الذي لايعرف طريقه وزوجته التي شهد جدي على زواجه منها، أصدّق رضوان ودومًا مروة تضحك من سذاجتي، تخبرني بقية القصة التي يستحلفني بأن أبقيها سرًا بيننا. طلب منّي في تلك الليلة قراءة رسائل صفاء، وأوراقه الخاصة ثم خرج للصلاة في الجامع الأموي، لحقت به مسرعة وصلّيت الفجر وراءه، لم يسألني أحد من أكون كي يؤمّني هذا

الأعمى الشهير في كل بيوت المدينة . . آمنت أن أسطورة رضوان دمَّرها حبه لمريم وإصراره على البقاء قربها ، تعلّقت بذراعه في طريق عودتنا ، رأيت زهوه بنفسه وهو يسير بقربي ملتصقًا بي إلى هذه الدرجة ، كم تشهّى ذراع امرأة تقوده من ذراعه في الأزقّة ، أختًا أو زوجة ، حبيبة أو بنتًا ، تدلّه إلى حفرات الطريق وتنقذه من تعاطف الناس مع عماه الذي يكرهه .

ليالي ذلك الصيف قضيتها مع الرسائل ، حملتها معي في سفري القصير غالبًا لزيارة مروة ونذير ، تبهجني زيارتهما ، منزلهما المطلّ على وادٍ عميق وغابات ممتدّة حتى آخر الأفق حيث البحر يبدو ضبابياً يمنع ندى الصّبح رؤيته واضحًا ، تتنفّس أضلاعي الفجر وأسمع طقطقتها ، أبتهج بالحياة الريفية الساكنة ، مروة كأنّها ولدت في هذا المكان ، تبدو مندغمة مع عاداته وروائحه ، قدّمتني إلى الشيخ عبّاس الذي كنت أخاف لقاءه ، ابتسامته المتسامحة اختصرت المسافات ، لنصبح أصدقاءً نتبارى بحفظ أبيات المعري ، نتبادل الاتصالات الهاتفية ونسأل بحميمية عن صحتنا ، نتبادل النكات ونضحك ، حين يضحك شيخ جليل من قلبه يشعرك بأنّ اللّه جميل ويكره الشقاء ، في المساء يدخل إلى غرفته ، يتركني لصديقات مروة اللواتي يأتين كي يرحّبن بقدومي ويصطحبنني إلى الشلالات القريبة ، تخلّصت من مشاعر الذنب التي انتابتني في أول زيارة ، كيف كنّا سنقتل كلّ هؤلاء البشر الذين تنضح العذوبة من أيديهم ، ووجوههم الضاحكة ، أحببت الإحساس بالحريّة الذي يمارس ببساطة ، دون تكلُّف . ماذا فعل السياسيون بالبلاد! لا تسألني مريم متى سأعود ، معترفة بأنني تجاوزت الثلاثين ، يحقّ لي العبث بعمري دون رقابة أحد ، أصبحنا بالنسبة إليها أشخاصًا عبروا حياتها بملل ولم يشاركوها متعة الذهاب إلى

الجنّة التي تنتظرها، كنت أظنّ بأنّ صفاء ستنقذها من متعة الاسترخاء في تابوت لا تسمح لي بنفض الغبار عنه ليتماهى مع تراب الأرض.

دخلت صفاء بينما كنت وحيدة أرقب النجوم، جالسة على درج غرفتي، قربي رسائل رضوان لمريم التي كتبت بخط صفاء الذي أعرفه، خاطبها بملكتي التي تمرّ قربي ولا تراني أنا الأعمى، بينما يشرق النور من ظلمته ويمنحه قوة الرؤيا لمحبوبة تعبر فتلفحه بوهج رائحتها التي شبهها بعطر البرتقال.. أدهشتني قوّة عباراته، وصف أحزان قربها منه إلى درجة أنفاسه وبعدها عنه كنجمة في السماء، مرّات كثيرة قرأتها، فكّرت بإرسالها إلى مريم عن طريق البريد، تأخر الوقت، لم يعد للاعترافات أية قيمة، أراقبهما وأدرك بأنهما أضاعا عمريهما في انتظار لحظة مناسبة اقتربت منهما آلاف المرات ولم يتمسكا بها كالهواء الذي انتزعاه من الفضاء بسهولة، سمعت صوت مفتاح يدور في قفل الباب، فتحت الباب: امرأة يرافقها فتىً طويل يرتدي ملابس غريبة، لم أعرفهما لأول وهلة، أغلقتْ الباب ودخلت صفاء، هرعتُ نحوها وارتميتُ بين ذراعيها. احتضنتني بقوة، نشيجنا القويّ أيقظ رضوان الذي بكى حين سمع صوت صفاء، قبّلت ابنها، ساعدته في حمل الحقيبة إلى غرفتي، كنّا بحاجة إليها.. هذه الأميرة المبرقعة بثياب تحاول أن تبقيها نظيفة، ثوبها المتقشّف من قماش الكتان الرخيص، عيناها زائغتان وجلدها فقد نعومته، امرأة بسيطة وغريبة عنّي، فقدت مرحها، نظرت بحزن إلى النباتات الذابلة باحثة عن صورتها في أعوادها الجافّة، مريم قبّلتها وجرّتها من يدها إلى غرفتها، عدّدت مزايا تابوتها، أمير يتلفّت حوله، محاولاً تذكر تفاصيل المكان الذي ولد فيه، أعادت رسمه صفاء مرّات

عديدة حين تصطحبه كمحرِم لتستطيع الخروج من منزل طيني يعبث الدجاج في فسحته السماوية الصغيرة بمناقير حادّة باحثًا عن حبّات قمح قليلة. اعتادت صفاء العيش وسط الخرائب، حاولت تقديم المساعدة لأطفال أفغان يتامى فقدوا آباءهم في الحروب المتواصلة، منعها عبد اللّه من مغادرة المنزل بعد صدور تعليمات حركة طالبان التي استولت على قندهار وسنَّت قوانين غريبة دافعت صفاء أمامنا بقوّة عن شرعيتها.

دومًا كانت صفاء نوّارتنا الحلوة، امرأة تحبّ الحياة، كنت أظنّ أنّ عمرًا واحدًا لا يكفيها لترتدي كلّ الحرير الذي تحبّ ارتداءه، كما لا تكفيها أمسيات عمر واحد كي تجلس على درج غرفتها، تفصفص بزر الجبس الأسود وتدندن بأغنيات أم كلثوم، أتت مروة وعمر وعائلة سليم، اجتمعنا في محاولة للهروب من حقيقة أنّ كل شيء قد مات، أحلامنا الصغيرة، ابتساماتنا وضحكاتنا، اختلافنا وشغفنا بالحركة والضجيج، المنزل غرق في كآبة غير منظورة، حاولت القيام بدور لم أعرف أنّني أرثه عن مريم، قضيت مع مروة أغلب وقتنا في المطبخ، أعددنا موائد وفرشنا عليها كلّ أنواع الكبب، طبخنا الفريكة بكميّات تليق بمنزلنا، فاحت روائح اللحوم المسلوقة والمقلية في المطبخ الذي اعتقدنا بأنّ الهروب إليه حلٌ وحيد لعدم الصراخ في وجه هذه المرأة الغريبة التي تقول بأنّها صفاء. مروة أعجبها عرضي، استعادت لحظة لقائها مع نذير، ذكرى فراشاتها التي خصصت لها غرفة كاملة في منزلها الريفي، شاركها نذير فيما بعد التقاطها وتحمَّست صديقاتها لتكوين مجموعات صغيرة زيّنَّ بها صالونات منازلهن. مروة تنظر إليهن بشفقة حين يتحدّثن عن جمال الفراشات قرب خزانة تلفزيون، لو عرفن ماذا تعني الفراشات لما أهنَّها بهذه الطريقة.

خلال ثلاثة أيام استعدنا ذكرى طبخات قديمة، البامية المجففة بالزيت التي كانت ذات يوم طبق عمر المفضّل، قذفناها إلى كيس الزبالة دون أن يمسها أحد. . نجلس إلى مائدة الغداء الذي ينتهي خلال أقل من ربع ساعة، نلملم الصحون وجاطات النحاس الملمّعة، نعيدها إلى خزانة أهملت في غرفة جدّي، لم تعد مريم تصرُّ على تنظيفها يومياً كما لو كان سيدخل سيدها بعد دقائق لتناول قهوته قبل خروجه إلى محلاّته، صورة الخزانة أفزعت مروة، الغبار والحشرات الميّتة مكدّسة بين زبادي البلّلور، ملاعق الفضّة المتسخة دكن لونها والجاطات الكبيرة اسودّت، كانت الخزانة صورة عن مريم التي جلست صفاء بقربها، تحدّثتا بهدوء كأيّة غريبتين، تصمتان قليلاً وتتناديان بألقاب الحاجّة بتكلُّف لا يوصف، عشرة أيام وصفاء لم تهدأ، استقبلت أمّهات شبان التحقوا بدولة الخلافة التي أعلنت من قندهار، طمأنتهم وتحدّثت كقائدة ذكّرتني بالحجّة سعاد التي كانت تردِّد آيات من القرآن الكريم وأحاديث رسول اللّه، لازمة ضرورية لإقناع الفتيات المحتجّات على سلوك أولياء أمرنا، وجهها هرم قليلاً ومازال جميلاً، حزينًا وقاسيًا، هزاله كشف عن أنفها الدقيق المندفع كمنقار ديك، قدماها مشققتان، تتحدث مع ابنها بالأوردية كلمات قليلة قدَّرت أنّها تأمره بالصلاة التي ينهض إليها الصغير وحيدًا، فيثير بهجة مريم التي تصلي وراءه بخشوع، انتظرت أن تأتي صفاء إلى غرفتي لتندسّ في سريري، تمازحني بكلمات ملمحة إلى أسرار النساء وشهواتهن، رضوان لم يحتمل صورتها الجديدة، اكتفى باللّعب مع أمير موافقًا على أحاديث الفتى الذي استعرض أمامنا ولعه بالأسلحة الرشّاشة، عدَّد لنا أنواع القنابل والصواريخ المحمولة على الكتف بحماس استغربته، عبد اللّه

انتظرها في إسلام آباد للعودة إليه، حدثّنا في الهاتف وبتهذيبه المعتاد سألنا عن صحتنا وطمأننا بكلمات غامضة عن أوضاعه. لملمت صفاء حقيبتها وغادرتنا مسرعة إلى مطار دمشق في سيارة عموميّة، وقفت أمام دارنا فجر يوم قائظ من ذلك الصيف الذي قضيته وحيدة أفكّر بشوقي لسماع صوت فراس الذي اقتحم حياتي دون استئذان، رجل خبير قرأ كتاب شهواتي، لم يتمهّل كثيراً ليعترض طريقي في اليوم التالي ويقول لي بأنّ أصابعي جميلة كالملكات. بالليلة نفسها حدثّني بالهاتف وسهرنا حتى الفجر نتبادل الكلمات الحذرة، ضحك وقال ان أهرب إليه ليلاً، كنت أتسلّى وأنا أدخل عامي الثالث والثلاثين الذي لم أعرف كيف انقضت سنواته، لا أريد ترتيبها الآن، تناسيت أيام السجن تمامًا، بدت كابوسًا غير حقيقي اخترعته كي أبرّر ولعي بحياة عابثة لم أجرؤ على الانغماس بها.

كان فراس مريضًا في قسم الإسعاف، تحلّقنا حوله مع أستاذ الأمراض الداخلية، تناوبنا على فحصه، كانت عيناه تدوران ليلتقط فريسة كرجل عابث، يتأوّه كاذبًا ويُقسم بكل غال بأنّ هذه المرأة التي أمامه هي من يبحث عنها، كان ألم أمعائه خفيفًا ولا يستدعي تمدّده على نقّالة، أعجبتني عيناه الكاذبتان وإصراره على معرفتي. مللت من ممرات الكلية، وتجهّم زملائي في ممرات مشفى الجامعة الذي داومنا به طوال السنة السادسة، لأول وهلة أثارتني روائحه، فكّرت بقضاء عمري في ممراته وغرفه قبل أن يستبدّ بي حلم الرحيل إلى مدن بعيدة، لم أعد أحتمل اللحظات المكرّرة في منزلنا، أصبح مقبرة تحتاج إلى شواهد، أخافتني زيارة صفاء التي انتظرتها طويلاً، أحبطتني صورتي القديمة التي رأيتها تشع من يديها المعرورقتين، لأول مرّة أرى عروقها واضحة كأفعى تنسلّ

في أرض جافّة، قلت لها مرّة «سنذهب إلى الحمّام»، اعتبرته ترفًا لا يليق بها بينما إخوانها المجاهدون يعيشون في المغاور.

عبد اللّه لم يعد يستطيع دخول البلاد، عمر تهرَّب من دعوته وغرق في عمله، لم تعجبه تحوّلات صفاء، انقطع عن زيارتنا، منزلنا يحتفي بالموت المقبل، حلٌّ وحيد للسخرية من ماضٍ لم نعد نشتاق إليه، فكّرت بالسنوات الماضية كما لو كانت كابوسًا طويلاً لم تعد لديَّ رغبة باستمراره.

أتجوّل في المشفى الضخم، أدخل إلى المشرحة وأتمهَّل بالخروج، أحسست بقدرتي على هزيمة الموت وطرده من حياتي، هواء المكان ثقيل، الجثث ممدَّدة داخل خزائن معدنية مبرّدة بصمت واستسلام، ساكنة لا تخشى الحشرات، لا تنتظر أحدًا، الموتى لا تهمهم المواعيد، شجرة احترقت وتحوَّلت إلى رماد لا تهمها الجهات التي ستنتشر في أرجائها، كل صباح أشرب قهوتي مع العم صالح الذي يفتح لي الصناديق، يكشف لي عن وجوه الموتى الجدد، نتبادل النكات ونضحك بعد تدقيقي بجديّة بحثًا عن أسباب الموت، الطبيب الشرعي المسؤول عن المشرحة يراني جالسة غير خائفة، يسألني عن اسمي ويشاركنا شرب القهوة، يستعرض أمجاده في كشف أسرار الجثث، أنا بالنسبة إليه جثّة مقبلة كما هم الآخرون، وجهه يشبه كلب سلوقي مصاب بالسعار، مزاجه كئيب، الضحك يعيده طفلاً صغيرًا لديه أسباب كثيرة للسخرية من أحلام الكبار. أخبرني العم صالح بأنّ الدكتور هاني طلَّق زوجته الثانية وعاد للعيش مع أمّه العجوز في شقة صغيرة قرب المشفى، أمّه ما زالت تعمل رئيسة ممرضات في مشفى فريشو، رغم تقدُّمها في السنّ لم تجد رفيقًا أفضل منه، ببساطة

استسلم لها، يعود من المشفى ويثرثر الاثنان حتى آخر الليل، عانسان ما زالا يخافان الصمت لدقائق، أراه جالسًا في مقهى القصر يقرأ الجرائد ولا ينظر إلى الشارع، ينهض في السابعة مساءً ويخرج إلى عيادته التي لا يأتيها إلا مرضى عابرون أو مراجعون يحاولون رشوته لتغيير التقرير الذي كتبه عن أسباب وفاة جثّة، يدفعون له أموالاً كثيرة مقابل تقارير مزيّفة يكتبها بدم بارد؛ قال لي «حقيقة الجثث لا تهمّ أحدًا سواي»، حاول الكثيرون منافسته على منصبه ولم يستطيعوا إزاحته، الحقائق التي يعرفها عن أسباب الموت الذي انتشر في المدينة وتورّط مسؤولين كبار في جرائم غامضة قام بالكشف على جثث ضحاياها، ثم كتب تقارير مزيّفة تُقدَّم للمحاكم فلا يجد القضاة أية قرينة جرمية، يغلقون القضية ويعتبرون ما حصل خطأ الموتى، التقارير الحقيقيّة يخبئها في خزانة قديمة قرب سريره لتحميه دومًا من تطاول المنافسين، رشّحته قيادة حزبه لمناصب عالية، قدرته على الثرثرة عن الوطن وتعداد إنجازات الحزب القائد أوصلته لقيادة فرع الجامعة، سمعته مرّة يخطب ويتقمّص شخصية جمال عبد الناصر، يقلّده في مدّ جسمه قليلاً نحو الأمام مما يوحي باندفاع يهيّج جماهير المستمعين، يجول في المشرحة مع صفية الممرضة الثلاثينية، جسمها ملفوف كممثلة مصريّة في حارات شعبية يدعوها سكّان الحي المفترضون بطة، تجلس صفية والعم صالح يأخذني من يدي لنخرج، نترك لهما المشرحة، الدكتور هاني تعجبه صفية، منذ خمس سنوات يعرف كل العاملين في المشفى بعلاقتهما وبكائها من أجل مضاجعتها خارج المشرحة، لا يلتفت إلى توسُّلاتها، يغلق الباب بقفل داخلي، يمدّدها فوق بطانية على أرض المشرحة بعد أن يسحب الصناديق المعدنية المبرّدة لتراهما

الجثث مضطجعين على الأرض، تتعالى أنفاسهما لدقائق قليلة، يقذف بسرعة ويترك صفية ممدّدة على الأرض تغلق قفل ستيانها بهدوء، وتنهض مقسمة بأنّها لن تعود مرّة أخرى، لا يناقشها ويحدِّد لها موعداً جديداً بعد ثلاثة أيام كأيّة مراجعة، لا تستطيع هجره، ارتبط اسمها بمزاجه الشاذ، سردت قصصًا خياليّة لصديقاتها عن فحولته وولهه بها وسهرات المسؤولين التي يصطحبها إليها، يقدِّمها لهم باسمها الشخصي ويضيف «حبيبتي»، رفيقاتها يعرفن بأنّها تجلس في السكن الداخلي لا تخرج أبدًا إلا بإذن منه، ثرثرن بالسيرة، خفن من نفوذه ومزاجه المتقلّب فأنكرن كلّ شيء دون أن يسألهن أحد.

أيام القتال في المدينة كان الدكتور هاني أستاذ التشريح يضع مسدّسه على الطاولة في قاعة المحاضرات، يشتم جماعتنا فتتعالى أصوات المظليين بالهتاف للحزب والقائد من الصفوف الخلفيّة للقاعة، بعد المحاضرة يسير وراءه الطلاّب المظليّون ببدلاتهم المموَّهة، يقرعون الأرض بقوة، أياديهم على أزندة مسدّساتهم، ينظرون إليه كإله، يشربون الشاي معه، يقدِّمون له تقارير شفهية حول أساتذتهم والطلاب الذين دخلوا كلية الطب بعلاماتهم دون علاوات الحزب وقائد سرايا الموت الذي منحها لأنصاره الطلاّب الذين جمعهم في معسكرات أثناء الصيف، درَّبهم على الصراخ بنشيد يمتدح شجاعته، منح كل مظلي خمسًا وستين علامة من أصل مئتين وأربعين علامة، تكدَّسوا في كليات الطب والهندسة بدلاً من المعاهد، يعاقبون أعداء الحزب، كفصيل نازي مستعد لضرب الأساتذة وإهانة الطلاّب، لحظات الجنون في كليتنا يقودها الدكتور هاني، يتفتق ذهنه عن أفكار تمنحه المشرحة بهدوئها

فرصة اختبارها، بدا في أيام دوامنا الأخيرة شخصًا دون ذاكرة، وحيدًا ولديه حنين كبير لسلوى صديقتي الوحيدة في السنة الرابعة، بعد رسوبها كنّا نلتقي في الممرّات والمخابر، لا نتبادل التحيّة ولا النظرات، نتجاهل بعضنا عمدًا، سلوى الطائشة الغريبة عن كل بنات الكلية، ترتدي بناطيل جينز مشقق، تدخّن بشراهة في الممرّات، تترك أزرار قميصها لتكشف عن نهديها الصلبين، تلوّن أظافرها بألوان غريبة، تجاهر بعلاقاتها الجنسيّة المتحرّرة علنًا، يلاحقها الشباب في كل الأمكنة، يتقرّبون منها سرًا، وهي تفضح كل شيء، تسكن مع عشيقها المصوّر في شقة صغيرة مؤلفة من غرفة واحدة ومطبخ كبير يقضيان أغلب أوقاتهما يستقبلان ضيوفهما فيه، تضحك بصوت عال، كمثرى غريبة بين طلاّب الجامعة، تبادلنا كلمات قليلة كزميلتين في صفّين مختلفين، التقينا في مخبر التشريح بعد رسوبها، تحدّثنا عن الدكتور عزمي الذي طردوه من الجامعة لمنعه طلاّبًا مظليين من دخول القاعة بألبستهم العسكرية، وسخريّته من علاماتهم القليلة وعدم تفريقهم بين القلب كعضلة وكمركز للهوى. . فصلوه من الكلية ولم ينتظر طويلاً، باع أثاث منزله بسعر رخيص، حمل معه لوحة واحدة لصديقه المقرّب الرسام لؤي كيالي كانت معلّقة على جدار صالونه أيقونة غالية، وحقيبة ملابس صغيرة، هاجر إلى أميركا تاركًا لرئيس الجامعة وللدكتور هاني رسالة وزّعتها سلوى في الجامعة، وصفهما فيها بالخنازير القذرة.

سلوى عربة متحركة من الشبق لا تتوقف عن إثارة الرجال بصوتها الخشن، وشفتيها الغليظتين المنفرجتين عن أسنان بيضاء لامعة. في جلسات التشريح العملي تشاركنا الجلوس إلى مقعد واحد، اقتربنا

من بعضنا، ببساطة أصبحنا صديقتين، تقبّلني حين تدخل إلى الكلية، تنقل لي ما يتهامس به طلاب صفنا حول تاريخي الغامض، حدثتها عن السجن كأني أروي فيلمًا كوميدياً، ضحكنا كثيراً وتبادلنا الزيارات، أعجبها منزلنا ورضوان، جلست في مطبخ شقّتها، استغربت جدّيتها ونظافة غرفتها المؤثثة بذوق خاص، سرير عريض دون قوائم، بساط ممدود بألوان بدوية فاقعة، خزانة ملابس صنعتها بنفسها من خشب مهمل لا ترتفع عن الأرض أكثر من ستين سنتمتراً، فوقها شموع غريبة الشكل، على هيئة فواكه وثعابين وأشكال هندسية ثابتة، كل ما في منزلها ملوّن، الصحون والملاعق، الشراشف والمخدّات، الجدران والأثاث القليل، عالم من البهجة حرّرني من وطأة الأشياء في منزلنا.
لم تكن سلوى تافهة أو بائعة هوى كما يهمس الطلاّب الخائفون منها، عالم من سحر الأنثى الذي شدّني إلى بساطته، صديقها جانو الذي ربط شعره من الخلف رحب بصداقتي بحياد أول الأمر، ثم بحرارة، تبادلنا الأسرار، ضحكنا من أعماقنا، سافرنا إلى قرية نذير، نمنا في البساتين، تراشقنا بالبرتقال في موسمه، أصبح لي صديقة مؤمنة بالطب إلى درجة تستطيع هجره لتصبح موسيقيّة أو ممثلة مسرح من طراز رفيع، أبوها مستشار محكمة الجنايات الحائز على الحقوق من السوربون هاجر للعمل في دبي بعد رفضه تبرئة ابن أخي رئيس فرع مخابرات قتل صبيّة صغيرة لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها بعد أن اغتصبها ورمى جثتها في حقل كرز على طريق إعزاز، نقلوه إلى الأرشيف، لم يحتمل أن يدفن تحت أكداس الأضابير المغبّرة في قبو تسكنه الفئران وتفوح منه رائحة بول موظفين عجائز. الكثيرون لملموا صناديقهم ومضوا خارج البلاد، أطباء

ومهندسون وقضاة ومواطنون لم يحتملوا العيش تحت يافطات تمجّد الحزب وتتعالى الحناجر بهتافات حماسية، ضجيجها لا يحتمل بعد تحوُّله إلى هستيريا تذكّر بنباح جوقة كلاب مسعورة.

سلوى عاصفة من الأنوثة والانفلات خارج أسرابهم، تسخر من مظليين اعترضوا طريقها بحجج مختلفة، حدَّثوها بمفردات باهتة عن الحرية الجنسية، دعاها الدكتور هاني للانتساب إلى الحزب، تداولنا كلماتها الجريئة التي أذهلتهم، قالت لهم ببساطة «لا أحب رائحتكم، وأطقم السفاري التي يرتديها مخبرو الحزب»، لم ييأس الدكتور هاني، لاحقها في كل مكان، وعدته على مفارق الطرق وقالت للطلاّب أن يذهبوا لرؤيته يتصبّب عرقًا على مفرق العزيزية، يحمل جريدة وينظر إلى ساعته، حاول اغتصابها وانتقمت منه بتسجيل كاسيت له يرجوها أن تكفّ عن تعذيبه، تولّه بها وحاصرها، طلبت منه أن يبوح لها بحبه وشتم رئيس فرع الحزب، ثم بغنج طلبت منه تقليد نباح كلب، سجّلت له بمسجلة صغيرة لا ترى كل شيء وأسمعته نسخة من التسجيل، أفزعه دهاؤها وابتعد عنها قسرًا، كانت تعذّبه بإسماعه تأوهاتها بين ذراعي جانو، حبيبها المخنّث كما وصفه دكتور هاني في نوبة غضب، وهي تشرب قهوتها بهدوء في عيادته وتتم معه الصفقة للمرة الأخيرة، «خفت أن يخنقني» قالت وهي تروي تفاصيل لقائهما، بينما أنا وجانو ندور حول العيادة خائفين عليها، لم نتنفّس الصعداء إلاّ حين خرجت مبتسمةً، رافعةً قبضتها بعلامة النصر.

سألني الدكتور هاني عن سلوى ولم ينتظر إجابتي، قلت بتشفٍّ «ستسافر إلى أميركا وتتزوّج جانو»، هز برأسه، ارتدى كمّامته ودخل

إلى المشرحة، حاولت اللحاق به، وجدت الباب مغلقًا، سرت في الممر الطويل الرطب، دخلت الأسانسير المفتوح صدفة، صعدت إلى الطابق السابع، لا أدري لماذا أنا هنا، رأيت حلب من هذا المكان تظلّلها سحابة غبار كثيفة، «سأرحل عن هذه المدينة الكئيبة». التفكير بالسفر أراحني قليلاً، سرت في الشوارع تائهة، شربت قهوتي مع سلوى التي ما زالت نصف نائمة، كرهت الدكتور هاني ولم أستطع احتمال وجوده في المشفى، حاولت تجاهل وجود فراس وتمدُّدي على كيس بضائع في محل أبيه، على عجل كان يعري نهديَّ، يحتكّ بجسدي ليقذف سائله الأبيض على تنورتي، لم يبذل جهدًا ويصطحبني إلى غرفة دافئة، يتمهَّل بإقناعي بتعرٍّ بطيء أحبُّه، هاتف آخر الليل الذي انتظرته أول الأمر لم يعد تعنيني كلماته المكرّرة، أنا بالنسبة له مجرّد ظلّ امرأة استسلمت لضوئه، أشبه صانعته التي تغلق باب المحل وقت الظهيرة وتجلس في حضنه، تلعب بأعضائه كي يستمني، يغلق سحاب بنطاله ويخرج مسرعًا من مستودع المحل الصغير ليلحق بمائدة أمه التي تنتظره فتكتمل صورة العائلة المسترخية. كرهت كذبه، فكَّرت بأنّ جسدي الذي تركته لمسرات صغيرة لم تكتمل بدأ يفقد شهوته، نهداي فقدا صلابتهما ولم تعد بطني مشدودة بسمرتها اللامعة، آثار السياط على ظهري لم تختف، تحوَّلت إلى ندوب طولانية، بقايا الجدري رأيتها في المرآة كفرنكات صغيرة مجعّدة، من أين أتى كل هذا القبح إلى جسدي، سلافة وسلوى كاذبتان حين تمتدحان سمرتي وجسدي المشدود، كل شيء فيّ مترهل. جلست في غرفتي ولم أخرج أيامًا طويلة، أعدت قراءة رسائل الطيّار عباس لصفاء، حسدتها على الكلمات الرقيقة التي كتبها طيّار يفكِّر بها وهو يحلّق فوق المدينة

وحقولها البعيدة، «أتذكرك الآن ولا أنساك، رأيت اليوم حقول عفرين وغابات الزيتون والنهر، تمنيتك قربي كي. . . . »، كتب لها مرة وهو يحدِّثها عن لذة طيران العاشق فوق بيت محبوبته: «اليوم كنت فوق الحارة ورأيت أرض داركم، خالفت التعليمات، ألم تشعري بأشواقي. . . ». لم تترك صفاء طائرة تعبر أرض دارنا إلا ولوَّحت لها، بعد موته لم تعد تنظر إلى السماء، تهرب من ذكرى كلماته، أشفقت على مريم ورضوان حين قرأت رسائله التي أملاها كمقطوعات شعر مكسور الأوزان مستعيرًا من أناشيد حفظها أبياتًا كاملة ينسبها لنفسه، مريم لم تقرأ الرسائل ومزجت دمها بدمه ليستطيعا الاسترخاء وحيدين، لم تعد تحتمل مريم النهوض من تابوتها، حركتها بطيئة في أرض الدار وسمعها ثقيل، اختارت أن لا تسمع ثرثراتنا، مطبخنا بارد وضجيج الأطفال لم نعد نحتمله، لا تعرف مريم أحفاد العائلة التي بدأت تلد الجيل الثاني، جلست في عرس جلال ابن سليم امرأة غريبة، استغرب الجميع أن ينهض العروسان ويقتربا منها كي يقبِّلا يدها ويضعاها على رأسيهما، سمعت امرأة جالسة ورائي تقول «إنّها جدتهما». نظرت إليها لأول مرة أراها قد شاخت إلى درجة أن تصبح جدّة عذراء.

رسائل صفاء تباعدت ولم نعد نقرأها بلهفة، أخبرهما بكلمات قليلة كاذبة عن أوضاعها وأبلغهما سلاماتها، لم أصدِّق حماسها لحكومة قندهار، أعدت مرّة أخرى ترتيب كلماتها التي أفلتت منها في لحظات استرخائها على سريرها الناعم، يدها تمسح غطاء السرير الحريري وتتقلَّب، تبحث عن مساماتها لتتنفّس بحرية، وتتذكّر لحظة وصولها أول مرة إلى مطار إسلام آباد مجلّلة بعباءة حريريّة سوداء، ممسكة بيد ابنها

أمير، تأففت من روائح حمالين باكستانيين اندفعوا نحو حقيبتها، انتظرها وسيم وحيّاها بكلمات قليلة، طوال الطريق لم يكلّمها مشيحًا بنظره عنها، رأت وسامته من خلال غطاء وجهها، السفر الطويل لم يتوقف، يجب وصولهما إلى بيشاور قبل منتصف الليل، عبد الله انتظرها على باب منزل ترابي، بثوب أبيض وقبعة صوف كشميري على رأسه، مرهقًا من زحمة العمل، تبادل معها كلمات قليلة، لم تستطع النوم، سهرت حتى الفجر قرب عبد الله الذي غفا بعد أن ضاجعها بعنف وحشمة لم تعهدها، نظرت إلى عينيه المغمضتين باحتراس، ما الذي تغيَّر فيه؟ سفراته الأخيرة لم تعد تعرف أسرارها، ووجهه متعب ومنشغل البال دومًا، يقضي وقته بين معسكرات سريّة في الجبال، وسيم يرافقه، ظلاً لا يتركه، مسدّسه تحت ثيابه ومستعد للتدخل دومًا، يكلّفه بنقل رسائل وأموال لرؤساء القبائل الأفغان، يعلّمه عبد الله الاستماع والشكّ في النوايا، النظر في عيني المتحدِّث لإرباكه ومحاصرته، انتقلت صفاء للعيش في شقة مستأجرة قرب كراج الباصات، لم يسمح لها عبد الله بطلائها، وفهمت بأنّ تشرُّدهما لن يتوقف، بعد وصولها بشهرين انتابتها نوبة كآبة شديدة، انتبه عبد الله إليها، عرض عليها العودة إلى شقتها الفاخرة في الرياض أو حلب، بذل جهدًا كبيرًا كي يرضيها في تلك الليلة، رفضت بشدّة تركه لوحده في مدينة الذباب والقذارة هذه كما أسمتها أول الأمر، أحيانًا لا يغادر الشقّة المغلقة النوافذ ويأتيه رجال قبائل، يجلسون على الأرض ويتحدَّثون لساعات طويلة، وسيم يستمع، يقدِّم التمر وشايًا يمنياً أخضرَ ثقيلاً يتلذَّذ به رجال يبدو من صخبهم أنّهم راضون ومتفائلون، وذات ليلة كان عبد الله قلقًا لتأخر

ضيف بدا مهمًا، لمحته صفاء وعرفت أنّه المستر فيليب أندرسن الذي كبر خلال السنوات الماضية والشيب غزا رأسه، السمنة البادية على وجهه منحته وقار أستاذ جامعي في جامعة عريقة، لم يفقد حيويّته، تعانق الرجلان وابتسم وسيم لطلب المستر فيليب أندرسن قهوة عربية ثقيلة، بقيَ الاثنان يتحدَّثان بهدوء ويستعرضان أوراقًا مختومة حتى الصباح، وسيم في الغرفة المجاورة ينتظر أمرًا من عبد اللّه، صفاء في غرفة نومها ممدّدة على الفراش ينهشها القلق، تذكّرت لقاءهما القديم في بيروت وزوجة المستر فيليب أندرسن المتكلِّفة، ضحكت حين تذكّرت أنفها المفلطح الشبيه بمنقار إوزة. لم يكن كل شيء على ما يرام مع المستر فيليب أندرسن الذي كثرت لقاءاته بعبد اللّه وخروجه متجهمًا، في آخر لقاء نزل عبد الله معه إلى السيّارة المنتظرة قريبًا من كراج الباصات، تصافح الرجلان كغريبين لم يتفقا على شيء، باستعراض سار عبد اللّه إلى الجامع القريب غير آبه برجاء وسيم بضرورة عدم خروجه في هذا الظلام والسير في شوارع بيشاور، دخل الاثنان وصلّيا ثم قرأ عبد اللّه سورة الأنفال كاملة، وسيم يراقب معلّمه الذي رأى فيه صورة أب مفقود هجرها، أحس بحب جارف لهذا الرجل الهادئ، الذي علَّمه قيمة الحلم والعمل بهدوء وتنظيم دقيق، صفاء القلقة تركت الشقة وخرجت للبحث عن عبد اللّه الذي وجدها تبكي بصمت وتدور حول كراج الباصات، بينما الرجال ينظرون باستغراب شديد لها، أنَّبها عبد اللّه بقسوة وعادا إلى الشقة الواسعة، المفروشة على عجل. لا يعرف الرجال معنى قلق النساء، إحساس الغربة الحارق جعل من صفاء امرأة تهذي في هذه المدينة الغريبة، أيام قليلة وأتى وسيم يبلغها بضرورة حزم حقائبها لترحيلها

الليلة إلى مكان آخر، لم يجب وسيم عن أي سؤال، اختفى صوته وظنَّت صفاء أنّ أصوات الجان قد تلبَّستها، فتحت باب الشقّة وسمعت صوت خطواته المسرعة على الدرج، رأته يصعد إلى سيّارة أجرة انطلقت مسرعة، من النافذة رأت صفاء للمرّة الأخيرة السهول المفتوحة أمامها والجبال البعيدة التي تبدو في غبش المساء كأسطورة غير قابلة للتفسير.

ليلة الجبال كما أسمتها صفاء، عبر طرق ملتوية كانت سيّارة الجيب تهرب بمهارة من كمائن منصوبة، السائق الأفغاني صامت، بجانبه جلس وسيم يسبِّح مسترخيًا بمسبحة طويلة تجعله يبدو عجوزًا، صفاء تمسك بكف عبد اللّه وتتحسّس دفئها القديم، وابنهما أمير يغطّ بنوم عميق في خلفية السيّارة قرب رجل مسلَّح نصب رشاشه على مقدمة السيارة، الحذر المبالغ به أتعب صفاء وجعل من رحلتها كابوسًا، لم تستمتع بالفجر البارد الذي كشف ضوؤه عن جبال زرقاء، وكهوف تبدو من بعيد كثغور صامتة، وصلوا إلى قندهار التي أصابت صفاء بمغص معوي حادّ، شجّعها عبد اللّه على الاسترخاء، طمأنها ولم ينتظر سماع رأيها بالبيت الطيني القريب من دار الحكومة، خرج عبد اللّه ورتّبت صفاء المنزل كمكان إقامة مؤقتة لم تتخيَّل أنّها ستستمر سنوات، كبر أمير خلالها، يدخل إلى المنزل وبندقيته على كتفه كمحارب لا يرغب باستراحة قصيرة، نمت ذقنه ومن بين أهدابه الرقيقة كانت القسوة تلتمع في عينيه، وسيم طلب من عبد اللّه البحث له عن عروس مناسبة، وجدت صفاء مهمة تقوم بها بمهارة كي لا تشعر بالوحشة، حدثتنا عنها بالتفصيل، وأنا أحاول لملمة أوصاف وسيم، تخيّلته مرارًا جالسًا قربي على درج غرفتي. دخلت صفاء منازل قادة الأفغان العرب، تعرّفت إلى

نسائهم المنسجمات مع حياة المقاتلين، عالم جديد انغمست فيه بقوة مؤمنة رأت في الوجوه المغبرّة استعادة لحياة الرسول وصحبه، أصبح لها صديقات يشربن الشاي ويشاركن بإنقاذ امرأة تلد على حافة الطريق.
البحث عن عروس لوسيم ذكّرها بمريم وطقوس حلب التي أصبحت مكانًا مستحيلاً في الذاكرة البعيدة، بحثت بين العائلات الحلبيّة القليلة، أعجبها بياض بنت أبي محجن، وغيَّرت رأيها حين قالت لها الفتاة إنّها تشتاق لسماع أغاني نجاة الصغيرة، بالسر كانت الفتاة تستمع لإذاعات معادية وتهزّ برأسها مع الأغاني الإنكليزيّة، أشاروا عليها بالبحث بين عائلات المجاهدين الأفغان، وصفوهن بالمطيعات، لم يعجبها الاقتراح وتابعت بحثها وتعرفت على بنت جزائرية، محتشمة وتتحدّث العربية الفصيحة والفرنسيّة بطلاقة، اختبرت إيمانها وراقبتها عبر أيام عديدة، ثم أخبرت عبد اللّه الذي أتمّ المراسم بسرعة. سكن الاثنان في منزل قريب، أصبحت صفاء أمًا لخديجة ووسيم، تلاشت غربتها، وحنينها إلى منزل أهلها أصبح مستحيلاً غير قابل للتحقيق، انشغلت بهموم النساء الأفغانيات، أيّدت قوانين حكومة طالبان، حلمت بأنّ أم المؤمنين زارتها بالمنام وأخبرتها أنّ رسول اللّه فتح لها أبواب الجنّة بيده، المنام أعجب عبد اللّه واطمأن إلى نهاية قلق زوجته. عبد اللّه مهموم بشكل دائم، قلق من فتاوى حكومة طالبان التي لا تتوقف، وخائف من هجر صفاء وحنينها لاسترخائها في منازل واسعة، أعجبته صورتها الجديدة، تعلّق بها.. طفل صغير يجد خلاصه بين ذراعيها اللذين فقدا نعومتهما رغم الأعشاب التي أحضرتها نساء أفغانيات لها، ورمتها صفاء في كيس القمامة، كأنها تعاقب نفسها أو انسجمت بالدور أكثر مما يجب. كتبت

لنا رسائل قليلة، بعد زيارتها تقاسمنا صورنا الحقيقية المتنافرة إلى درجة التناقض، لم تعد ترسل رسائلها ولم أعد أنتظرها، أبحث بين سطورها عن وسيم الذي رسمت صورته كحبيب بعيد، تلازمني لوقت قصير ثم أرميها في القمامة. قسوتي أم قسوتها سبب ابتعادنا عن بعضنا؟ حلمها بأمّهات المؤمنين والجنة أم حلمي بالعيش في الشكّ الذي تلبّسني؟ لا أعرف كيف انقلبت الأدوار، زيارتها القصيرة كانت ثقيلة الوطأة، أتأخر خارج المنزل كي لا تفاخر أمامي بماضيٍ الذي أردت رميه كما رمت الأعشاب ورفضت الذهاب معنا إلى الحمّام الذي عشقته في صباها.

كلنا كبرنا دفعة واحدة، أنا ومريم وصفاء ومروة وعمر وسليم ورضوان وشبابيك المنزل والأحجار والمزاريب والباب الخشبي الذي استبدلوه في غفلة عني بآخر حديدي وجرس كهربائي بارد، قذفوا بالباب الذي أحببت سقّاطته المحفورة على شكل حيوان خرافي، صنعه سكّاب خصيصًا لإرضاء جدّي الثاني الذي لم يقبل في منزله أيّ شيء يشير إلى تشابهه مع تجّار المدينة، الآن أصبح منزلنا يشبه كل البيوت في المدينة القديمة التي هجرها أغلب سكانها إلى أحياء حلب الجديدة وسيف الدولة، أصبحنا نسكن أحياء الفقراء، لم نعد نعرف جيراننا الجدد الذين يربُّون في الغرف العالية السقوف أغنامًا تفوح رائحتها في الفضاء المفتوح لمدينة استكانت دفعة واحدة وصمتت.

سلوى أخذت شهادتها، بصقت على كلية الطب وهاجرت إلى أميركا، لملمت أشياءها القليلة وذكرياتها، قالت لي في محطة الباصات «أنتظرك في أي مكان من العالم، لا أريد أن أتعفّن هنا». . لوّحتُ لها

بيدي، كان جانو بقربها يشجّعني على اللحاق بهما، رأيت دموعهما والباص يغادر المحطة إلى المطار، بقيت وحيدة لا أنتظر شيئًا. سلافة اقترحت مشاريع كثيرة كالذهاب إلى البحر والركض على رمل الشاطئ، اقترحت عليها كتابة تجربة السجن، صمتت على الطرف الآخر من الهاتف، قالت «أفكِّر وأكلمك». تباعدت زيارات سلافة إلى منزلنا وهواتفها أصبحت نادرة بعد زواجها من مهندس كئيب لا يتوقف عن المخاط والسعال كمصاب بالربو الدائم، حضرنا زفافها، أهدتها مريم أغطية سرير من الحرير الخالص، اعترفنا بأنّه ماتبقى من جهازها الذي بدأت بتوزيعه بعد استمتاعها بالنوم في التابوت، أعطتني مصحفًا مكتوبًا بماء الذهب الخالص محفوظًا بعناية في بيت من الدانتيل المطرَّز بخيوط صوف تركماني، وقطعة قماش حرير أبيض قدّرت أنّه يصلح لفستان عرس ثقيل كانت ترتديه بنات عائلات كبيرة للتباهي أمام نساء المدينة. أخرجتْ كل أشيائها التي فوجئت بكثرتها، فَرَدتها أمامي، كيف استطاعت إخفاءها أربعين عامًا عن أعيننا المتلصِّصة؟ وعن أعين الدوريات التي فتّشت منزلنا أكثر من خمسين مرّة، بعثرتها في الغرفة دون عناية، سجّادتها احتفظت بها، مَدَّتها قرب التابوت للصلاة، قالت لي: طاسة الحمام والمناشف والحذاء الملوكي لزهرة، ثم دارت حول الأشياء كامرأة عجوز تودِّع وهمًا، هذا الظرف لمروة، عرفت من تحسُّسه بأنّها صور ابن السمرقندي وكروت البوستال التي بعثها ذات يوم لها، أشياء ناعمة لا تصلح سوى للذكرى، زجاجات عطور، أقراط فضة تشبه الأقراط الموجودة في متحف التقاليد الشعبية، كفوف من الدانتيل المخرَّم، سراويل تشبه ألبسة القوقاز الكلاسيكيّة، أحزمة عفة

وقطرميزات صغيرة مليئة بالأعشاب لم تعد صالحة للاستعمال، غطاء رأس كشميري أحضره جدي من ضواحي عشق آباد، دهون لتدليك الجسم وأذكار لعودة الغائب مكتوبة بحبر صيني مازال يحتفظ بنضارته على ورق بال، لم تُخف عنِّي شيئًا، استسلمت لاقتراحي بتوزيعها بمعرفتي، كأنَّها تخلَّصتَ من عبء ثقيل، وضعتها في صرّة من قماش عرايسي وأشارت بيدها موافقة. بقيت خزانتها فارغة في غرفتها الواسعة، مفتوحة الأبواب على مصراعيها وتفوح منها رائحة نفتلين قديم، لم تحتمل وجودها فأمرت أولاد سليم بحملها إلى القبو ورميها قرب سرير النحاس الذي غاب لونه اللامع تحت الغبار، نامت ليلتها براحة كبيرة في غرفة فارغة من ترف الدنيا، احتفظت قرب تابوتها بمبصقة فاخرة من النحاس المطلي بالكروم، لا تسمح لأحد بغسلها، بخجل تحملها إلى الحمّام وتعيدها إلى مكانها لتبدو كمنفضة سجائر، جدران الغرفة عارية تتوسطها صور جدي وأخوالي الثلاثة بترتيب هندسي دقيق. حاولت إقناعها بحضور زفاف سلافة، كدت أقنعها بذلك والسفر إلى دمشق ثم إلى قرية نذير ومروة، ابتسمت في اللحظة الأخيرة حين تحمّس رضوان، وقالت «لن أخرج إلا إلى مسكني الجديد». فهمت بأنّها تعني المقبرة، أضافت بكلمات قليلة حزينة كمن تؤدي مشهدًا سينمائيّاً «هناك أحبابي». رضوان حمَّلني زجاجة عطر نفيس كما أسماه هدية لسلافة التي فاجأتني حين طلبت منه المزيد.

منذ سنوات عديدة لم أر رفيقات السجن، اجتمعت رفيقات الألم، أم ممدوح جلست بجانب أم سلافة كأم ثانية، تصرًّفت بهدوء من تزف ابنتها، عدلت لها اليشمق أكثر من مرّة وصافحت المهنئين بثقة،

رقصنا وتعالت أصوات ضحكاتنا عالية، نحتفل بحريتنا مرّة أخرى، أخذنا صوراً تذكارية كثيرة ورقصنا، شريك رقص استعرنا طفلنا الذي كبر، ارتدى بدلة من الجوخ المخطط وكرافة أضحكتني، عدّلتها له لتكسبه مهابة إضافية، لم نعد نستطيع تقبيل شفتيه كما كنّا نفعل، علامات الذكورة المبكرة لم تمنع خجله من إظهارها، كمسؤول عنا أنهضنا للرقص ولبّى أوامرنا الصغيرة كأمّهات له، سهير ما زالت تحتفظ بجمالها الذي أنضجته السنوات الماضية، حافظت على رشاقتها، تزوّجت تاجراً شامياً وسكنت شقة واسعة مطلّة على أوتوستراد المزة، دعتنا إلى الإفطار في اليوم الثاني، غامزة بطرف عينها أنّ العروسين مشغولان، أخذت أم ممدوح للنوم عندها تلك الليلة، بقيتُ مع سلافة، أوصلتها حتى غرفة نومها، قبّلتها بحرارة وقبّلت عصام صهرنا الجديد كما أسميته، ذهبت للنوم في شقة رشا التي مازالت تحتفظ بنضارة وقوة الأمس رغم أطياف خيبة لم تستطع إخفاءها، رأينا الفجر من شرفة منزلها الصغير المطلّ على جبل قاسيون، دخّنا كثيراً وشربنا نبيذاً وقهوة، اندسسنا في سريرها متعبتين من خيبتنا التي لم نقلها صريحة. الجو الاحتفالي لهذا اللقاء الذي لم تتكرر حرارته، شعرنا جميعاً بضرورته كي نزيل ما علق بداخلنا من كراهية عابرة لبعضنا في السنوات الأخيرة من سجننا، سهير تصرّفت كسيدة محترمة، مطمئنة إلى مستقبلها ومستقبل طفلنا وأخته الصغيرة من زوجها الجديد الذي وصفته بالمحترم، أشارت إلى صورته المعلّقة في الصالون، الطيبة على وجهه المبتسم، لكزتني رشا معلّقة بصوت خافت «ألا يشبه الجرذ؟» سهير ضحكت معنا حين أخبرتها، قلّدت صوته ساخرة حين يطلبها إلى فراشه، اتفقنا على

زيارات لم نقم بها كأنّنا نـهرب من ذكرى تعارفنا، تبادلنا أخبارنا عن بعد كحلّ لفكّ ارتباط مع مكان ابتعد الآن وبقيت رائحة عفونته تسكننا.

سحلية دميمة أجول في مدينة صامتة، أقف على جسر شاهق الارتفاع، شبابيك البيوت مضاءة بضوء أسود، تكرّر في المنام وقوفي على الجسر وثقل جسمي يمنعني من الطيران، من حولي فراغ وبراري شاسعة مليئة بجثث غزلان ميتة، تنتظر العقبان والطيور الكاسرة لتلتهمها بشهية، أخاف من النوم، المنامات حاصرتني، جعلتني أجلس في السرير ساعات طويلة أنتظر تحوُّلي إلى جثّة تغفو دون حراك، يرتجف جسمي ذعرًا من الصور المتعاقبة كشريط سينمائي سريع الإيقاع.

«لا بد من الرحيل» قلت لنفسي وأنا أشرب القهوة مع العم صالح للمرة الأخيرة، متكئين على جثة امرأة بدينة مرميّة على نقّالة، تنتظر أوراق رسمية لتحظى بصندوق حديدي بارد في مشرحة انتابها الصمت، بعد رحيل صفية مع ممرض كردي أعرج إلى مشفى القامشلي، تاركة الدكتور هاني لنوبات هذيانه، غارقًا تحت غبار التقارير المزوًّرة. قال العم صالح ببرود «لن تسافري»، يعرف حقيقة أنّ عطري لا يليق به إلا مكان كهذه المشرحة المغلقة النوافذ. غادرت كلية الطب للمرّة الأخيرة، بصقت على المبنى الكئيب منتقمة من نظرات بنات جماعتي اللواتي لم يغفرن لي سفوري، من قسوة المظلين والمظليات أبناء قائد سرايا الموت الذي دفن قرب منزل طفولته البائس مئة صندوق مليئة بمجوهرات نفيسة، نهبها جنوده من حلب وحماة أثناء حصارهما، ومن بيوت شركائه وأصحاب الحاجات الذين كانوا يحملون إليه ذهب نسائهم ليبدّله بألماس أخضر،

حين تنتابه الكوابيس يُخرج حبّات الألماس من صناديق حديدية مثبتة في جدران قصره، يفردها على أعمدة الرخام الإيطالي الناصع البياض، تشعّ كثريات تتكسّر حزم ضوئها حتى تسترخي أعصابه ويغفو كطفل صغير على كنبة واسعة حتى الصباح. لم ألتفت ورائي كي لا أتذكّر أنّني بقيت كل هذا الوقت في هذا المكان وأندم. غريبة في المدينة، لا أحتاج إلى الدموع قلت لعمر الذي ظننته لم يسمعني، حركته البطيئة تمنحه مزيداً من الوقت لتأمل محدثه ببرود ليس من طبعه، انتابه الملل من كل شيء، لم تعد تقلباتنا تفاجئه، دخوله في نفق الوحدة المبكر يشبه ندمي المتأخر ككل الأشياء التي تأتي في غير أوانها وتمنحنا طعمًا غريبًا لا يشبه طعم البهار.

رتّب عمر أمور سفري بهدوء ولم يحاول إقناعي بالبقاء، دفع رشاوى كبيرة لأحصل على جواز سفر لسفرة واحدة، أعطاني نقودًا تكفيني ثلاثة أشهر في لندن ومنحني وقتًا كافيًا للجلوس قرب قبر أمي، قرأت لها الفاتحة، وعرّجت على قبر غادة وقفت قربه وبكيت، أبعدت عنه الأعشاب اليابسة كي لا يبدو مهجوراً إلى درجة أنّه لايجد من يعتني به.

لم تفارقني صورة غادة في سجني، كانت الوحيدة التي تنقذني من الاستعارات حين أكرهها، تأتيني ضحكاتها المنفلتة من زمن غير محسوس، صدرها يسبح في بحر تخيّلته أزرق صافيًا، تشدُّني من ذراعي لأركض على الرمل وألحق بها، احتفظت بها وقتًا طويلاً، أكملت حياتها التي لم تعشها، ألّفتُ لها سيرة مختلفة تداخلت فيها سير سجينات أعرفهن وأخريات أعدت رسم أشكالهن ثم محوتها، ألعب بمصيرها وأمتلكها، أخاف من فقدانها مرّة أخرى. . فكّرت بأنّ السجن يحيلك إلى كائن لا يعترف بالمرئيات، ويمنحك فرصة لتعيد تشكيل الخارج كما

تشتهي، يمنحك قوّة عدم الاعتراف بآلام بشر عاديين يتأبطون أذرع بعضهم في الشوارع ويفصفصون البزر قرب المدافئ، لم أعد أفتح رسائل صفاء القليلة التي تصل متأخّرة شهورًا، أهرب من أخبار وسيم وزوجته التي كانت صفاء تسهب في تفصيلها، كنت أحسّ بأنّ زوجته انتزعته منّي، مريم تمتدح بلاغتها وتقواها بينما عمر يقرأ لها السطور دون اكتراث، ابتعدت صفاء عنّي، فكرت بأنّني لا أستطيع فقدها، كلما فكرت بصورتها الجديدة أتتني ضاحكة ومنتشية بالماء، ساخرة من أصنام كنّا نبجلها وأصبحت أصنامها، تبادلنا الأدوار كأنّنا اتفقنا أخيرًا على الاندماج في صورة واحدة، تقاسمنا فيها سيرتنا المتشابهة التي تبدو لمن يراقبها لعب أدوار خفية متّفق عليه، حملت رسائل الطيار عباس في حقيبتي واحتفظت برسائل رضوان الذي أحسست بأنّه يريدني أن أكون الشاهدة الوحيدة على سيرته؛ بينما كنت أرتّب حقيبتي، قبل يومين من السفر رأيته يحوم قرب نافذة غرفة مريم المغلقة كصقر أعمى وعجوز، اقتربت منه وأمسكت بذراعه، ابتسم وسألني إن كنت حقًا سأغادر هذه الخرائب، ضحكت من تعبيره المستعار من هذياناتي مع سلافة. جلس على كرسي القش قبالة كرسي مريم الفارغ الذي يشغلانه كل مساء بمفردهما، يشربان البابونج الذي أقنعته مريم بأنّه يجعل من رائحتهما عطرة إذا ماتا فجأة ولم يمتلكا الوقت الكافي لتحضير نفسيهما، رضوان استسلم لاقتراحات سيّدته التي أصبحت تناديه بأخي، تشدّد على هذه الصفة التي تريد تحويلها إلى حقيقة، رأيت وجهه متعبًا، تجاعيده ذكّرتني بأرض مشقّقة من العطش المزمن، أخرج من جيبه صورة لطفل يرتدي قنبازًا مقلّمًا ويضع على رأسه طاقية منشد في كورس أذكار، قال إنّها صورة ابنه

الذي يريد مساعدتي بإحضاره للعيش معنا في المنزل، فوجئت بانسحابه إلى غرفته وإغلاق الباب وراءه بهدوء، لم أصدِّق أنّها آخر كلمات رضوان لي قبل سفري، بقيت الصورة في يدي، دسستها في الحقيبة على عجل، لم أفكِّر في اليوم التالي سوى بالساعات القليلة التي قضيتها مع سلافة، تشرَّدنا في الأسواق واكتشفنا بأنّ كل ما نريد قوله قد قلناه سابقًا، تركت كل شيء ورائي ماعدا سجادتي الصغيرة التي دسستها في الحقيبة في غفلة من مريم كي لا تشعر بأنّني لن أعود إلى غرفتي مرة أخرى، تركت كل ثيابي القديمة، احتفظت بالقليل من القمصان القطنية وبناطيل الجينز، تركت دفتر الرسم ولوحاتي التي لا أريد أن تحاصرني، قلت لنفسي «أشياء قليلة تكفيني» . . مريم احتضنتني بحرارة وأهدتني خاتم فضة لم تخلعه من إصبعها منذ خمسين سنة، لم تجد شيئًا غاليًا سواه، آخر ماتبقى لها من متاع الدنيا التي بدأت تصفها كل صباح بالفانية، نظراتها المتسامحة كأنّها لن تراني مرة أخرى وما تبقَّى من وقتها لايكفي لوداع كل أحبتها، رضوان لم يكن يصدِّق حقيقة رحيلي، وفي اللحظات الأخيرة دمعت عيناه، احتضنني ووصفني بابنته، تلعثم بينما عمر ينتظرني مع سلافة في السيارة خارج المنزل، طلب مني البقاء ساعة كي يركِّب لي عطر السلامة، دموعه الغزيرة لم تترك لي مجالاً للضحك، غرقت في نوبة حزن لم أستطع الخروج منها إلاّ بعد هبوط الطائرة في مطار هيثرو اللندني ورؤيتي لبكر وزهرة وولديهما قد كبرا، يلوِّحون لي من وراء بوابة الخروج. لم تعد هناك أيّة امكانية للتراجع والعودة إلى غرفتي التي تركتها عارية، كل أشيائي كدّستها في الخزانة، تركت ثيابي دون نفتلين متمنِّية أن تقضمها الجرذان التي بدأت ترتع آمنة في منزلنا بغد تغاضي مريم عن أصوات

نعوصتها وخروجها ليلاً للتمدُّد تحت ضوء القمر على درابزين الأدراج وحواف البحرة التي غزتها الطحالب. . ما أصعب أن تهجر النساء عاشقات الحياة منزلاً، نباتات الورد ذبلت وتقصّفت أعواد الريحان، لم يعد صوت المياه يثير بهجة صفاء التي اعتقدت للحظة بأنّ منزلنا المهجور يشبهها في كلّ أطوارها، فكَّرت بالسحر الذي تمارسه على الأمكنة، منزلنا يشبه صورتها المركونة على ترابيزة في صالون منزل بكر الضيِّق، تشعّ عيناها وسط النقاب وعبد الله يرفع بندقيته في الهواء، مرتدياً ثوبًا أبيض وتحته بنطال قطني أفغاني وعلى رأسه عمامة ملفوفة، بقربهما وقف ابنهما أمير ينظر بقسوة إلى فتحة الكاميرا، صورة نموذجيّة لعائلة مجاهدة تشبه صور عائلات كثيرة بدأت تغزو صفحات الجرائد. وجه صفاء الثابت في الصورة الوحيدة أحبطني، وصمت بكر الطويل الذي لم أتوقَّعه جعلني أفكِّر بأنّ ما تبقى لي زهرة، اصطحبتني إلى الأسواق، دعتني إلى مقهى يرتاده أفارقة لتكشف لي عن ولعها بموسيقاهم، غمزتني ضاحكة من نادلة من سيراليون تضع أمامنا فنجاني قهوة إكسبريس بأنّ رائحتها تشبه رائحة البهار. لم تتركني زهرة لحيرتي طويلاً، عرضت عليَّ السكن مع أمها وصال وزوجها جون الذي تقاعد ومازال رغم سنواته الثمانين حيويّاً، يجول العالم خبيرًا بالآثار السومرية، يحاضر في أكاديميّات تحتاج إلى مشورته التي يقدّمها لهواة جمع التحف ولصوصها، الذين يسرقون الأمشاط المذهّبة من بغداد لبيعها في لندن.

أحتاج إلى الضياع وسط ازدحام مكان غريب لم أتخيَّله يومًا، صور قليلة لا تكفي كي تعرف مدينة، وجوه البشر الغريبة جعلتني أحسّ مرة أخرى بمرارة سنوات السجن الطويلة، حين كنا نتشاجر في ذلك

المكان الضيق كانت الحياة في مكان آخر لا يتوقف ضجيجها، هؤلاء البشر المسرعون على جسر بيركلي لا يدركون معجزة أنّهم يتنفّسون بحريّة. عدت لوحدتي بعد أسابيع من وصولي إلى لندن، اقتنعت أنّها الوسيلة الوحيدة للهرب من الماضي، الوحدة المثقلة بالألم التي أتشاطر طعم مرارتها مع ملايين البشر العائدين مساءً إلى منازلهم في المترو منكسي الرؤوس أو متأمّلين الفراغ متمسكين بحقّهم أن يكونوا غرباء، لم أرغب بزيارة المتاحف والمعالم الأثرية، وقلت لوصال «لا أريد أن أكون سائحة». ذهبت لمقابلة البروفيسور جيم كارلتن أستاذ الأمراض الباطنية في مشفى «كوين ماري»، نظر بدهشة إلي كما لو أنّني فقمة، سألني وهو يشدّ على يدي إن كنت حقًا احتملت سنوات السجن والتعذيب، غمغم بكلمات قليلة وقال بأنّه فخور بإرادتي القوية، كانت نظراته المحببة سببًا للتفاؤل الذي تحدَّثت عنه لسلوى في مكالمة مطوَّلة عبر الهاتف، شتمنا الدكتور هاني والمظليين بصوت عالٍ فرحتين بأنّ أحدًا لا يستطيع مراقبتنا أو مصادرة حقنا بالصراخ، أكملنا حديثنا بكلمات إباحية عن الحب والجنس، حدَّثتني عن جانو ومنزلهما الصغير المطلّ على المحيط وعملهما المستقر.. اشتقت إليهما. الحياة دومًا تمنحك فرصًا رائعة للسخرية من أعدائك إن استطعت الخروج حياً من بين أيديهم، اقتربت من جيم كارلتن أكثر وتعرَّفت إلى زوجته المولعة بالرقص الشرقي رغم سنواتها الستين، أزور منزلهما الريفي في الآحاد، أتناول غدائي معهما، أشعر بتعاطفهما القوي مع آلامي وأبتسم حين تحدّثني زوجته عن كلبهما الذي هرم، لا يمكن لامرأة إنكليزيّة في الستين من عمرها أن تفهم معنى وجود كائنات بشرية في أقفاص حديديّة سنوات طويلة كحيوانات سيرك.

تحاشيت الحديث مع بكر، واستمعت باهتمام لوصال في ليالي لندن الباردة، أعادت أمامي ترتيب سيرة قديمة ونسجت خيوطها. نزلت من باخرة الشحن «ميركوري» على رصيف ميناء نيويورك بصحبة البحّار الإسباني، لا تريد النظر في عينيه أو العودة على الباخرة نفسها إلى ميناء مانشستر كطبّاخة ضاجعها بحّارة أوغاد في غرفة المحركات أسفل السفينة، الميكانيكيون تحاشوها كجرباء، ألقوا على جسدها قطع قماش مشبعة برائحة الزيوت المعدنية حين أغمي عليها بعد مضاجعة الرجل الخامس.

لم تنسَ وصال تلك الرحلة التي دمّرت ذكرياتها عن لذّة الجنس المقدسة مع عابري نزل قرطبة، انتقتهم وقادتهم إلى قبو المؤونة لتضاجعهم بشغف امرأة تختار كل شيء، ظلال المساء، ورائحة العدس المجروش، لهاث رجل يقبّل ساقها قبل أن تمنحه نهديها بتمهُّل يشعرها بملوكية من يترك للعابرين لذّة لا تُنسى، كثيراً ما أعادتهم تلك الطعمة الحارقة إلى المكان نفسه باحثين عن رضى وصال، التي احتجبت وتركتهم لانتظار قد يطول أسبوعًا لا يحظون فيه إلا بابتسامة بعيدة لا تكفي لانطفاء أعضائهم وأرواحهم المحترقة. «صدّقت بأنّه سيموت إن تركته يغادر رصيف الميناء وحيداً» قالت لي وصال وهي تمدّ لي صورتها، التي تبدو فيها امرأة متشرِّدة أمام إحدى حانات نيويورك تبحث عن ثمن تذكرة عودة إلى لندن قبل إرسالها تلغراف عاجل إلى جون، تطلب فيه حجز تذكرة على أول طائرة إلى لندن. قرأ جون كلماتها المتعالية، فكّر بأنّها مغامرة جديدة وفاشلة، لم يتركها للتشرُّد وحيدة، يراقب تحوُّلاتها ولا يستطيع إقناعها بضرورة العيش ببرود ومجاملة أصدقائه الذين يتذكّرون ملوك بابل الميتين بحماس منقطع النظير.

صعدت إلى الباخرة مع حقيبة صغيرة معدَّة لقضاء عطلة في مكان منعزل لا تحتاج فيه امرأة كوصال إلى أطواقها وخواتمها، حين رفعت الباخرة مرساتها وغادرت الميناء، بحثت عن بحّارها بين الحاويات، ابتعدت أضواء الميناء، اكتشفتْ آخر الليل بأنّها المرأة الوحيدة على ظهر الباخرة، اقتادها عاشقها إلى قُمْرته التي يشغلها مع أربعة بحارة يشاركونه العمل في غرفة المحرّكات، أصبحت الدلافين حكاية كاذبة، انشغل البحارة بخروج الباخرة إلى عرض المحيط في طريقها إلى نيويورك، حاول في الليلة الأولى تخفيف انفعالها، عرَّفها إلى رفاقه الذين استقبلوها في القُمرة، قاسموها السجائر وفيما بعد قاسمتهم فراشهم في تهتّك لم يطل لتلتحق بالمطبخ، تقشِّر البصل وتساعد طباخًا غواتيمالياً بإعداد أطباق شوربة السمك المقزّزة، طردوها من القمرة ليتمكّن البحارة من النوم الذي جفاهم أربع ليال تعالت فيها أصواتها أكثر حدة لتطرد إحساسها بالموت. وقفت أمام الكابتن، رجته باكية السماح لها بإكمال الرحلة وعدم قذفها إلى عرض البحر بعد اتهامها بالتسلّل إلى مملكته، لم يصدِّق أحد بأنّ هذه المرأة المحرومة من الصعود إلى سطح السفينة، والتجوُّل في ممراتها بأمر من الكابتن العجوز، هي نفسها التي كانت تجالس ذلك البحّار العربيد الذي أقنعها بعينيه الذابلتين بأنّه يبحث عنها منذ زمن بعيد، ليترك البحر والسفن ويتشرَّد معها في شوارع نيويورك كمتسكعين باحثين عن لذّة الحب.

أعادت وصال سرد تفاصيل الأيام العشرين التي استغرقها الإبحار، ارتعد جسمها حين أسهبت في وصف روائح الجرذان المختلطة مع الشحوم المعدنية وضجيج المحرّكات، تريد إزاحة تلك الغمامة الثقيلة

عن روحـهـا وقـذفـهـا إلى أعـمـاق المحيط، كـانت تـسـمـع صـوت ارتطام أسماك القرش بالسفينة ولا تراها.

أحببت وصـال الجـالسة أمامي، قـدّيسة تسرد آلامها وتخفّف من قـوة الشكّ الذي نما في قلبي كنبـاتٍ غيـر مرئي، ظلاله لن تتـركني لأيّ يقين أو حب سـاذج مرّة أخرى، حينَ كـانت تحدّثني جالسة قرب سريري في غرفتي الصغيرة التي قدَّمها لـي العم جون بحب غامر، اكتشفت فجأة مـرارة السـذاجـة، تملّكتني الكراهيـة من جـديد ورفض اسـتـعـارة وجـوه أخـرى لعـائلتي، تحرّرت من الانتـمـاء، طرت كـأنثى نسـر فـوق البـلاد والأفكار، حـاملة بين جناحي الكراهية وجهًا آخر للحبّ الذي لم أعد أبحث عنه مكتفية بنثر المرح أمام مدارجه.

سـألتُ وصـال بعـد أن أنهكهـا سـرد الذكـريات «هل تشـتـاقين إلى العم خليل» نفت بهزّ رأسها، وتركتني تلك الليلة العاصفة لأغرق في نوم لذيذ منذ زمن بعيد كنت أستجديه.

في طريقي إلى المشـفى فكّرت برضـوان ومريم كـابنيَّ الـوحيـدين اللذين لا يستطيعان العيش بعيدًا عن اهتمامي، دخلت كـابين هاتف قبل خروجي من محطة المترو، طلبت الرقم محـاولة تخيّل حـركتـهـمـا في المنزل الذي حين اشتقت إليه بدأت أشفى من قروحي، جـاءني صـوت مريم واهنًا ومتـتـالية بكائها اعتدت سماعها كلما طلبتها في الهاتف، أوصتني كـالعادة بارتداء كنزات صوف سميكة، سمعت صوت رضوان يطلب منها سمّاعة الهاتف ليحدّثني ومريم تنهره، لتخبرني بأنّ سليم انضمّ للعيش معهما في المنزل، وأنّهم سعداء بانتظار الموت الذي

سيريحهم ويأخذهم إلى جنة بدأت بوصفها بشغف متناسية آلاف الأميال التي تفصلني عنهم، رضوان كعادته كان خفيف الظلّ، اكتفى بكلمات قليلة وأسئلة لم ينتظر إجابتي عنها، وأخبرني فرحًا بأنّ سلافة أتت إلى حلب ونامت في سريري ثم اصطحبته إلى الحدائق، طلبت منه تدوين الأذكار التي عادت الحجّة رضيّة لترديدها كل يوم جمعة في فضاء المنزل الذي لم يعد مهجوراً، يسكنه رجلان وامرأة ينتظرون الموت بأطوار غريبة كما كتبت لي سلافة عن زيارتها لهم فيما بعد، وصفتْ تماهيهم مع بعضهم واندماجهم بلعب أدوار غريبة لم تفهمها، حركتهم دائبة لترتيب كل ما يوحي بأنّ العالم أصبح بالنسبة لهم تابوتًا يعبرون به إلى الجنائن المعلقة في السماء، حيث الملائكة ينتظرون على محفات قدوم الطاهرين ليحملوهم إلى السماء السابعة. سليم لم يحدِّثني، أخبرتني مريم بأنه منشغل كثيراً بالحديث مع محيي الدين بن عربي الذي يجلس أمامه على الأريكة التي أعدّها خصيصًا لضيوفه الأولياء الذين لا يفارقونه، لا يراهم أحد غيره ومريم تؤكّد بأنّها تحسّ بحركة دخولهم من باب الغرفة ترافقهم إيقاعات الدفوف وغبار الأزمنة البعيدة، فكرت في بهجة العيش مع ملائكة وأولياء يطيرون في الهواء حاملين محفاتهم على ظهورهم كرحّالة يبحثون عن انتماء، استغرب جيم كارلتن وزوجته إيماني بأنّ الملائكة يشبهونني في بحثهم عن الانتماء في بلاد غريبة، نظرا إليّ كفتاة قادمة من أرض كل مافيها ينذر بكوارث لا تُحتمل، ثم فكرا بروعة أن تحرسك ملائكتكَ أينما ذهبت. كنت أحتاج إلى حارس إلهي وأنا أنسلّ في زحام لندن، سحلية متحرِّرة من ثيابٍ سوداء أثقلتني سنوات طويلة، من على جسر أرقب نهر التيمز بانسيابه الهادئ،

تأخرت عن مترو الساعة الثانية عشرة ليلاً، تابعت تسكعي وحيدة في بارات لندن محتفية بحرِّية العيش المنفلت من كل الوجوه التي رأيت صورتها مرسومة على صفحة النهر، وجوه جلاّدين وسجّانين وسجينات كنت واحدة منهنّ، أحسست ببؤسهن من هذه المسافة البعيدة، انفلتّ في المكان الغامض فتاة متسكِّعة، حملت أوزار معصيتي على كتفي، تهت في الشوارع الغريبة بين السكارى. سمعت موسيقى الزنوج في بار مكتظّ بالراقصين، ابتسمت لراقص غاب من شدة الوجد، تمنَّيت مشاركته الرقص وفكّرت بأنّ المكان قد يمنحنا فرصة أخرى للعيش من جديد دون تزييف، لامبالاتي منحتني إحساسًا بالقوة. عدت إلى غرفتي، كانت وصال تنتظرني، تحدَّثنا على عجل وذهبنا إلى سريرينا، لم يعد لدى وصال ما تقوله لفتاة لا تحب تكرار الحكايات. في الصباح أخبرتها أنّني أريد السكن بمفردي، تفهمتني وساعدتني بالبحث عن غرفة صغيرة قرب المشفى، لم يعترض بكر على قراراتي، فُكّت عقدة لسانه وعاد إليّ ذلك الخال الذي تحاشينا العتاب والحديث بكل مايخصنا ثلاثة أشهر، طلبني في المشفى ودعاني إلى الغداء، بعد انتهاء دوامي انتظرني مبتسمًا، سرنا في الشوارع الهادئة قبل أن يقودني إلى مطعم لبناني يعرف أصحابه منذ وقت طويل، جلسنا في ركن قصي وتحاشينا الحديث عن أخطاء التنظيم التي لم أعد أرغب الخوض فيها. لم أعرف لماذا سألته مباشرة «هل رغب حسام بترك التنظيم ولم تسمحوا له؟»، نظرات بكر وكلماته المقتضبة كانت كافية كي أتراجع عن تحميله مسؤولية موت حسام وأمي، تعاطفت مع هذا الرجل المنفيّ، الباحث عن روحه الهائمة في مكان لم يحبه أو ينسجم معه يومًا، حدَّثني عن غربته وشوقه

للصباحات في منزل جدّي وشرب القهوة مع رضوان، كم نفتقد لحظات صغيرة، عابرة وتافهة، كدت أعترف لبكر بأنّني أيضًا أشتاق لمناكدة رضوان واستنشاق رائحة البهار حتّى الشمالة في قبو مؤونة ذلك المنزل البعيد كطائرات الطفولة الورقيّة. لقد شاخ بكر مبكرًا قلت لنفسي وأنا أراقب تجعُّد يديه وكلماته الخائفة من الموت، لم يعد ذلك المحارب الذي خلق للقتال بصمت، كل شيء يعذّبه، الذكريات وأرواح القتلى وصرخات السجناء التي قال لي بأنّهم يطاردونه في منامه، وأكمل بأنّه كتب مقالات طويلة يراجع فيها تجربة التنظيم، سينشرها على حلقات في جريدة الشرق الأوسط؛ نظر إلى صحن الشوربة البارد أمامه وقال بأنّه يشبه حبات العدس المجروش هذه بدون كيان، خانه التعبير ولم أعلّق، تركته يهذي ويخبرني بأنّ رسالة من صفاء وصلتني إن رغبت بقراءتها، أخرج من جيبه ظرفًا كبيرًا وقدمه لي، لم أجرؤ على رفض رسالة صفاء التي تحرّقت مرّة أخرى لقراءة كلماتها؛ خفت من حضور صورة وسيم التي شكّلتها في السنوات الماضية كما أرغب وأتشهّى الرجل، انتابتني رغبة متناقضة بين احتضان كلماتها ورميها إلى حاوية القمامة. في طريق العودة قلت لبكر «هل سنعود ذات يوم لنجتمع إلى مائدة الغداء ؟» لم يجبني، اعتقدت بأنّ صوتي الضعيف لم يصل إليه، كررت سؤالي، أجابني بيقين «لن نعود إلى ما كنّا عليه وصورتنا القديمة تمزّقت للأبد». أحسست بغضبه على عمر الذي يتملّص من لقائه وإرساله نقودًا قليلة تكفي لعيش متقشف، خلافاتهما عادت إليّ، كأنّني أراهما الآن يتشاجران حول كل شيء، كما لو كان الشجار جزءًا ممتعًا في حياتهما، صورتهما في السنوات الأخيرة أصبحت أكثر اختلافًا.

بعد خروجنا من المطعم سألت بكر إن كان نادمًا، لم يجبني ولم أستطع التأكّد بأنّ ملامحه الباردة هي نفسها ملامح ذلك الخال الذي أعرفه، فكّرت بأنّ اختلاط صور مَنْ نحبهم تعطينا فرصة كي نعيد تركيب ندمهم وأفعالهم التي لايريدون الاعتراف بخطئها، استمتعت بأنّني لم أعد تلك الفتاة الصغيرة التي تنظر إلى بكر كإله مخلّص، جالسته كصديقة ترى الأشياء بشكل مختلف، لمحت الرضى في ملامحه وأنا أحدّثه عن العائلة والطوائف الأخرى والحب والسجن وسلافة، كان يسمعني باهتمام وأبدو له امرأة يعرفها للمرّة الأولى، تلك الطفلة الصغيرة التي كنتها لم يبق منها سوى عينيها اللامعتين.

تركني على رصيف المحطة كما رغبت، لحق بعربة المترو، كانت صفحة وجهه من بعيد تبدو لي كأنّه يبكي، شعرت بالشفقة نحوه كما لو كان ابني الضال، قضيت وقتًا طويلاً بالتسكّع والضياع في متاهة لندن، أبحث عن معنى لوجودي كامرأة وجدت نفسها وحيدة، غريبة عن معنى الأصوات المحيطة بها التي تعيدها إلى صمت ذلك البيت الكبير، حاولت استحضار صورة رضوان ومريم، أغمضت عينيَّ وتشهّيت العمى، تأخرت في العودة إلى غرفتي، مازلت أحسّ بغربتي عن جدرانها الفاتحة بلون عاجي لم يعن لي أيّ شيء، مرحلة عابرة في مكان عابر، حاولت إقناع نفسي بأنّ هذه المساحة الصغيرة التي لا تتجاوز العشرة أمتار مربعة تكفيني كي أرتّب كل رغباتي، ضحكت وأنا واقفة تحت الماء الساخن المنسرب بقوة من الدوش، ضحكت من ذكرى حمام السجن وتدافعنا حاملات أسمالنا، واقفات بالدور للحصول على دقائق قليلة لا تكفينا لمنع القمل من غزونا، لايمكن الهرب من تلك الذكرى، تمدّدت عارية على

سريري الضيّق، انتبهت إلى رسالة صفاء التي تحاشيتها، فتحت المغلف، بدأت بقراءة كلماتها المنمّقة وجملها المنظومة سجعًا، أحسست للمرة الأخيرة أنّني لم أعد أعرفها، كلماتها الأخيرة حنونة ورقيقة تشبه صورتها القديمة التي ضاعت وسط غبار قندهار، مزّقتُ الرسالة وتقلّبت في سريري، من الصعب النوم بعد الحديث الطويل مع بكر، سمعت سعال جاري النيجيري الذي قال لي حين رآني أحمل حقيبتي وأستلم المفتاح من صاحب الغرفة بأنّني سأتعفّن إن بقيت في لندن. نظرت إليه بتعاطف أحسست بأنّه يحتاجه، فكرت قد يكون هاربًا من حرب أهلية أو حالمًا بمستقبل مهني رفيع كعالم رياضيات، انتهى وحيدًا في غرفة صغيرة يعتاش على مساعدة المئتي جنيه استرليني التي تقدّمها الحكومة لرجل ينتظر الموت بعد طرده من وظيفته المؤقتة. وددت لو كنت قريبة منه، كم تغيّرت خلال أشهر قليلة، أسجّل على دفتر صغير نقودي التي أكسبها من عملي في المشفى كطبيبة متدربّة، في الصفحة الأخرى أسجّل مصروفي ومدخراتي. رغبت بزيارة إيطاليا وباريس، كتبت لسلوى وجانو أن يرافقاني، وبعد أيام تلقيت ردّاً طويلاً من سلوى تقول بأنّها ستأتي لزيارتي أول الصيف القادم لنرحل سوياً إلى باريس وإسبانيا، بعثت لي صورة التقطها جانو لها وهي تدخّن بمتعة سيجارًا كوبياً فاخرًا وتضحك، أحسست بسعادتها، علّقت الصورة قرب سريري، كنت أحتاج سخريتها وفحش كلماتها، واستقبلت عامي الرابع والثلاثين بتفاؤل كبير، لم أكن وحيدة كما كنت أظنّ أنّني سأقضيه، أتاني صوت سلافة عبر الهاتف، حدّثتني بحرارة عن ذكريات قديمة، زهرة أصرّت على إقامة حفل صغير دعت إليه جيم كارلتن.وزوجته التي أنّبتني لإخفائي تاريخ ميلادي عنهما.

بكر استقبل الضيوف القلائل مرتدياً بذلة من الجوخ الإنكليزي المقلّم، لم يمانع من فتح زجاجة شمبانيا أحضرتها زوجة جيم كارلتن مع غطاء طاولة مشغول بعناية، قالت إنّه من قرى بلفاست، تأثرت بعواطفهم التي غمرتني، أحسست بأنّني لست وحيدة، أطفأت الشموع بهدوء وقبّلتهم جميعًا، وقفت على الكرسي، رفعت كأسي وشربته دفعة واحدة دون أن أستطيع الكلام، رقصت مع ولدي بكر، تركتهما وتابعت رقصي وحيدة إلى أن غبت عن الوعي ولم يعد من حولي سوى ظلال أشخاص كانوا موجودين منذ قليل، تركني بكر وزهرة كانت عيناها تشعان فرحة، بينما جيم كارلتن وزوجته امتدحا رقصي وطعام زهرة السوري التي شرحت بإسهاب طريقة صنع الكبة النية والفريكة، كشفت لهما سر غرامي بالبهار، وأضافت بإنكليزية ركيكة توصيف منزل جدي ومريم ورضوان، استمعا بشغف إلى كل ماقالته زهرة. صمتُّ وأحسست بشوق كبير لرائحة البهارات، انسللت إلى المطبخ ورأيت بكر يصنع الشاي بالنعناع لضيوفنا، احتضنني برقّة وقبّل رأسي، تبادلنا كلمات قليلة وتركني أبحث عن قطرميز بهارات هندية اشترتها زهرة من بقالية هندية، لم تمانع زهرة أن آخذ حصّتي من بهارات الهند، عدت إلى غرفتي كان الهاتف يرنّ بإلحاح، رفعت السمّاعة وسمعت صوت صفاء، لم أستطع التماسك، جلست على حافّة السرير وصمتّ بينما صفاء تصرخ بصوت عالٍ كي تخبرني أنّها تحدّثني من مكان قريب من كابول، و لم تنس يوم ميلادي، كدت أسألها إن كانت حقيقة تعني رسائلها أم كتبتها خوفًا من رقابة المجاهدين لخصوصياتها. . سألتها عن عبد الله، لم أعد أستطيع سماعها، انقطع الخط وأنّبت نفسي على برودي الشديد، أعتقد بأنّها

شعرت به وشكتني لبكر الذي لم يضغط عليّ كي أقول له رأيي الصريح بالأفغان العرب وبحكومة طالبان التي أعلنت عن قيام دولة إسلامية في كابول، قلت بأنّ كل ما يعنيني في تلك المنطقة عودة صفاء وعبد الله سالمين، كنت أودّ أن أكتب رأيي في إحدى الصحف كما فعل بكر بمراجعة تجربة جماعتنا، أحسّ بعدها بأنّه تحلّل من أوزار حمل ثقيل كان يضغط على روحه، اعترف بأخطاء التنظيم وحمل مسؤولية آلاف القتلى السوريين للسلطة ولقائد سرايا الموت الذي وصفه بالفاشي ومجرم الحرب، أثارت مقالاته ردودًا عاصفة من بعض أعضاء التنظيم، وارتياحًا كبيرًا من أعضاء آخرين، ردود فعل كثيرة أتته من سياسيين ويساريين يعيشون في البلاد، قرأ باهتمام الردود التي نشرتها بعض الصحف اللبنانيّة، بهدوء رتّب أوراقه وخاض جدلاً لم يتوقف حول الكثير من مفاهيم العمل السياسي وأخطاء السلطة التي وصفها بالمخرِّبة والمجرمة، قرأت مقالاته وقلت له بهدوء ومباشرة «يجب أن تعتذر لأبناء الطائفة الأخرى كي يكتمل خلاصك وخلاصنا»؛ هزّ رأسه بهدوء وأطلعني على رسائل قادمة من الداخل تطالبه بإعادة التنظيم إلى جادة الصواب والعمل السياسي. بعد عيد ميلادي عاد بكر لانشغاله وانقطع عن زيارة وصال واصطحابها في مشاوير لإطعام البط في الحدائق وشرب الشاي في المقاهي، أحسست مرّة أخرى بالخلاص الذي كنت أسعى إليه، متحلّلة من الانتماء كطير يجوب السماء ولا تستطيع كل الشباك إيقاعه في الأسر.

تذكّرت وجه بكر في السنوات الماضية، ألق عينيه وإيمانه المطلق بدولة الإسلام، صمته المكابر وإحساسه الدائم بعدم الأمان، رأى رفاقه يذهبون للموت ولا يعوْدون، تسحل جثثهم ولا يبقى منهم سوى بضعة

عظام ترمى للكلاب، أخبرتني زهرة بأنّه ينهض أحيانًا في الليل، يجول في المنزل الضيّق، يستجدي الهواء كي لا يختنق، يبقى حتى الصباح جالسًا على سجّادة الصلاة يتمتم بأدعية طويلة، لاشيء ينقذ روحه المتعبة إلا الصلاة والسير في الحدائق ساهيًا عمّن حوله متأمِّلاً قدرة الخالق، يعود بعدها منهكًا إلى المنزل، يفتح بريده الإلكتروني ويبدأ بالعمل، لم ينقطع عن متابعة أدقّ شؤون جماعته ويتملّكه الإحباط لبعده كل هذه المسافات عن مدينته الحبيبة، يتعالى صوته ويتمنّى لو أنّه مات مع رفاقه.

تحوُّلاتي لم تفاجئه وإن كانت قد أزعجته أول الأمر، الثمن الذي دفعته مع رفيقاتي كان كافيًا كي نتحاشى الحديث مرة أخرى بقضية انتمائنا، يمازحني أحيانًا ويصفني بالأميرة، يبتسم ويسألني إن اشتقت لذلك اللّقب، يذكّرني بفرحي القديم به، لا أملك أمام بكر إلا المزاح كي لا أغرق معه بمراجعات لم تعد تعنيني، كما الكثير من الأشياء، وجه أمي شكّل حاجزًا حزينًا بيننا، وجه حسام الذي بقي دون جثّة كأنّه تبخّر في الهواء، غابت تقطيبة حاجبيه حين يريد التحدُّث بجديّة عن الموت، لم نستطع استحضار روحيهما، غاب أبي وعاد إليّ الإحساس باليتم الشديد، لا يريد بكر تذكيري بأنّه يتحمّل مسؤولية كل هذه الأرواح المتطايرة في السماء الباحثة عن مكان تستقرّ فيه، لا يمكن العودة إلى الأيام الماضية، هذا ما فكّرت به إذا كان الماضي مثقلاً بكل هذا الخراب.
ترك لي بكر على الطاولة طلب التنظيم منّي ارتداء الحجاب كوني أحد رموزه من النساء المؤمنات، لم يشر إلى هذا الأمر فيما بعد، فهم بالضبط من حديثنا في ذلك المطعم بأنّ التنظيم لم يعد يعنيني واستمع باهتمام إلى آرائي، أيقن بأنّني لم أعد تلك الفتاة الصغيرة، كما اطمأنّ إلى أنّني

مازلت تلك المسلمة المتسامحة مع الطوائف والأديان الأخرى، قلت له صراحة بأنّ التكفير الذي يجتاح العالم الإسلامي سبب بلائنا، كنت أرى في عينيه نظرات الرضا وفخره بالطبيبة التي جالست العم صالح في تلك المشرحة القذرة، شربت معه الشاي الثقيل بهدوء، تحدّث الشكّ في عيون المظليين والمخبرين، رويت لمعلمي جيم كارلتن وزوجته سيرتنا مع الذين عذبونا وأحصوا أنفاسنا، فروع المخابرات التي راجعناها بعد خروجنا وجلوسنا أمام غرف المحققين ونظرات رجال المخابرات التي تستبيح أجسادنا، تلك اللحظات الفظيعة التي مرّت الآن كأنّها حلم كاذب لا يمكن ترتيبه، تساءلت وأنا أروي فجأة «هل حقًا احتملنا كل هذا الألم» نظراتهما المتشكّكة أول الأمر تحوّلت فيما بعد إلى تعاطف أحتاجه وأحسّ بمذلّته، أن تكون كائنًا لا يصدّقك أحد بأنّك دخلت جهنم وخرجت منها مليئًا بندوب لا يراها أحد غيرك، تتحسّسها حين تسمع عواء الذئاب البعيدة في الليالي المقمرة.

أعبر الآن بحر المانش في قطار سريع، بجانبي سلوى وجانو يتبادلان القبلات، يتشاجران حول مكان وضع الكاميرا لالتقاط صورة تذكاريّة، لم نتمهّل بعد وصولهما إلى لندن بساعات قليلة، لململت ثيابًا قليلة ولحقنا بقطار الثانية ظهرًا، نريد الوصول إلى باريس مساءً، متحلّلين من أوزارنا، نطير بخفّة في فضاءات مدن بعيدة وباردة، لم نتبادل سوى جملاً قليلة، نمتلك كل الوقت لأحدثهما عن الشهور الماضية في لندن، تركتهما لعبثهما الذي أعرفه، غرقت في تأمّل الركاب محاولة عدم الغرق في الذكريات، سألت جانو هل أنفع كموديل امرأة حزينة لمصورين مجانين، غمز لي وقال بإنكليزيّة متقنة لست بحاجة إلى الاستعارات،

شعرت بالراحة، سلوى لم تخف عنه رسائلي، لم يعد جانو بالنسبة إليّ حبيب سلوى، فكّرت كم هو رائع أن تمتلك صديقًا لا تضطر لشرح أيّ شيء له كي يتفهّم قلقك؛ غَفَتْ سلوى على كتفي لوقت قصير، مسّدت شعرها، جانو يغافلنا ويلتقط لنا صوراً غريبة بينما الركاب المتسمّرون في مقاعدهم لا يعجبهم صخب اللغة العربية المتعالي في القطار الذي وصل والمساء يهبط على باريس، ويعيد رسم المدينة الخرافة التي ارتبطت بذهني بالسمرقندي الذي بحثت عن أعماله في متحف اللوفر، رأيت إحدى لوحاته معلّقة على الجدار، مصانة كما ينبغي لأثر عالمي، ارتسم وجه مريم الحزين أمامي كموناليزا غائبة لا يراها أحد سواي.

كم كنت أحتاج إليهما كي أحسّ بأنّ برد لندن لن يقتلني، في الليل لا أترك سلوى، أنام قربها بعد أن يغادرنا جانو دون أيّ تذمر، حدّثتني عن حياتها الهادئة وعملها، أحسست ببرودها وعدم حماسها تجاه الأشياء، قالت لي بحزن «يبدو أنّني عشت أكثر مما ينبغي»، وفكّرت بأنّني عشت أقل مما ينبغي؛ ثرثرت دون روابط عن الحب الذي لم أتذوّقه، عن جاري النيجيري الذي يحثّني دومًا على مغادرة لندن إلى مكان مشمس كي لا أتعفّن، عن مغامرة يوم رأس السنة واصطحابي فيها رجلاً مخموراً من الشارع إلى غرفتي، مدّدته على سريري واضطجعت بجانبه حتى الصباح، حين استيقظت لم أجده ولم أجد النقود القليلة في حقيبتي. ضحكنا من خيبتي، لم نكرِّر الحديث عن الحب، تذكّرنا حلب وأعدنا رسم مساءاتها، تشهّينا السير في أزقّة الجديْدة، حدّثتها عن مخبر السفارة الذي اعترض طريقي في المشفى ودعاني للقاء السفير، لم أستطع تمالك أعصابي فشتمت السفير والحزب وسرايا الموت والمخابرات،

وصفت لسلوى هروبه من المشفى كجرذ خائف، في اليوم التالي مزّقت جواز سفري الممنوح لي أصلاً لسفرة واحدة والمنتهية صلاحيته منذ ستة أشهر، أرسلته بالبريد مع رسالة مقتضبة هددتهم فيها إن كانوا سيراقبونني سألجأ إلى البوليس الإنكليزي، لم أعد أستطيع الاحتمال، قلت لسلوى التي روت لي الكثير من النكات كي نبعد شبحهم عن رحلتنا، حاولت طردهم وفي اليوم الثالث استطعت نسيانهم، عدت في الليل إلى غرفتي تاركة المكان فسيحًا لتمدّد جانو قرب سلوى حتى الصباح، اشتريت هدايا صغيرة، أرسلتها من باريس لمريم ورضوان وسليم، وهدايا أخرى لسلافة وزوجها، قميصًا من الكتان لمروة وكرافة من الحرير الفاخر أيضًا لنذير وألبوم لوحات للشيخ عبّاس الذي خاطبته بصديقي، بحثت عما يليق بهدية لعمر حتى وجدت مجموعة غلايين من الأبنوس الغالي، لم أعرف لماذا خطر لي بأنّه سيحب هذه الهديّة الغريبة، دومًا أتخيَّله جالسًا بهدوء قرب موقد الحطب في مزرعته مغمض العينين، باسترخاء يدخّن تبغًا فاخرًا وينتظر امرأة جميلة لا مجال أنّها في الطريق إليه، صورة لم أكلّف نفسي عناء البحث عن جذورها، كتبت له كلمات قليلة كي أقول له كم أحبُّه، أتشهّى صحبته في سفر طويل يقودنا إلى مدن مجهولة، خابرته وسمعت صوته الواهن كأنني أيقظته من النوم ثم ضحكته وأشواقه التي أخبرني عنها بكلمات حارة، لم أستطع الردّ عليه سوى بضحكات متقطعة ونشيج لم أستطع تفاديه، كان صوته حنونًا كما عرفته دومًا، أحسسته مطمئنًا عليّ مادمت بعيدة عن أذرع رجال المخابرات الذين استدعوه أكثر من مرة كي يعيدوا أسئلتهم الغبية نفسها عني وعن تحرّكات بكر، اعتاد عمر هذه الاستدعاءات، اضطر للتفاهم معهم ورشوتهم من

جـديد كي يغلقـوا هذا الملف، فكّرت بأنّه رجل يريد العـيش بسـلام، تلاحقه لعناتنا، يلاحقني بحزنه الدائم وطيشه الذي مضى، كنت أحتاجه معي كي أقول له كل ما خبّأت له من كلام؛ قلت لسلوى ونحن نسير بهدوء على ضفاف نهر السين بعد ثلاثة أيام صاخبة «أريد رجلاً يشبه عمر». سلوى كعادتها لا تأخذ أمنياتي على محمل الجد، تتركني لأحلام يقظتي الطويلة، تسهب ببساطة بإعادة تذكيري بأنوثتي التي ستذبل كحبة بندورة مرمية في أرض قاحلة. الليلة الرابعة والأخيرة في باريس أحسست بأنّني لا أحب مكانًا إلا منزل جدّي، انتابني الحنين إليه فجأة، تمنّيت العودة إلى سريري كي ترتاح عظامي، لم أجرؤ على الاعتراف أمام جانو وسلوى بأنّني لم أتأقلم مع لندن، يتتابني إحساس دائم بأنّني سأبقى غريبة هنا، في طريقنا إلى إسبانيا عرضت سلوى مساعدتي بتأمين سفري إلى نيويورك، ذكّرتها بأنّني دون جواز سفر، وإقامتي الإنكليزيّة لا تسمح لي بالسفر خارج أوروبا؛ أخبرتني في الأيام اللاحقة عن زيارتها القصيرة إلى حلب لرؤية أهلها الذين عادوا لقضاء عطلة الصيف، قالت بأنّ شوارعها تشبه حظيرة بغال، لم تعد تفكّر بالعودة إلى ذلك المكان، حسمت أمرها بالاستقرار في نيويورك التي لم تمتدحها، تمدّدت على حافة بركة قصر الحمراء، غافلت الحرّاس وأغمضت عينيها، جانو يدور حولها ويلتقط لها عشرات الصور، ما زالت تحلم أن تكون طيرًا وليس سحلية دميمة مثلي، مازال جسمها رشيقًا كأوزة تتمطى دون تكلّف، تسير بهدوء امرأة واثقة كما كانت في ممرّ الكلية التي بصقنا عليها دون ندم، فكّرت بأنّهما لا يسمعان أصوات البشر من حولهما، يصنعان حبّهما ببساطة كما لو أنّهما يشربان ماء من كأس غير مرئي، شجاراتهما

صغيرة وعبثهما محموم، حوّلهما إلى كائنين يشبهان بعضهما كما لو أنّهما توأمي قنافذ أليفة.

عدت فتاة حزينة وتذكّرت فجأة بأنّني عذراء، ضحكت لهذا الخاطر وقلت بأنّني قد أكون العذراء الوحيدة في إشبيليا التي بحثت عن قناديلها الأندلسيّة، دومًا أغرق في الحنين، عادات السجن لم تفارقني بعد، أرشدتنا النشرات السياحيّة التي يتقن جانو التعامل معها إلى فندق رخيص وسط المدينة القديمة، يناسب نقودنا القليلة بعد بذخنا في باريس، الفندق الذي تفوح منه رائحة أزهار يابسة يرتاده سياح ألمان لم أستطع احتمال صراخهم طوال الليل، يحتفون بالجو الأندلسي كعشاق إجازات نموذجيين، أحسست بغربة شديدة لم تستطع حركات جانو المرحة ولا استعارتي للرقص معه، أن تنقذني منها، انسحبت من السهرة التي ارتجلها النزلاء بعد عودتهم من الجولة في المدينة، قدّم صاحب الفندق بعض زجاجات من الخمر الأندلسي البيتي وصحون زيتون، بينما ساهم الآخرون بما لديهم من قطع بسطرما ولحوم مقدّدة فاحت رائحتها فأصابتني بالغثيان، لم أستطع تفكيك رائحة بهاراتها. قبل أن أغفو فكّرت بأنّ تلك الأمكنة الضيقة التي لم أستطع التمدُّد فيها بكامل جسمي والتقلُّب قد نخرتني، ما زلتُ تحت سطوتها، حاولتُ الخروج من حالتي كي لا أفسد الإجازة القصيرة التي خططنا لها أكثر من ستة أشهر، كتبنا في رسائلنا بأنّنا سنصرخ ملء أشداقنا بأوروبا تلك القارة العجوز أن تفتح أبوابها أمام أحلامنا، في الأيام التالية كنت هادئة ومسترخية، طوال الوقت قريبة من سلوى، أثرثر دون توقف، تسمعني بهدوء كما لو كنّا عجوزين لم يتبقّ لنا إلا الكلام.

في الليلة الأخيرة لهما بعد عودتنا إلى لندن أعطيتهما سريري، نمت على طرّاحة مددتها على الأرض في الغرفة الضيِّقة، لم أصدِّق بأنّني سأعود وحيدة مرّة أخرى، تحاشيت البكاء في الطريق إلى مطار هيثرو، تعبنا في الرحلة التي لم تستمر أكثر من عشرة أيام، منعنا أنفسنا من النظر في عيون بعضنا قلقين على مستقبلنا، موقنين بأنّ كل شيء على ما يرام، ما نحتاجه هو مزيد من الوقت كي نرتِّب حياتنا المضمونة. احتضنت سلوى بقوة وبكيت، جانو مازحني وقبلني ثم ضمَّني إلى صدره وتبادلنا كلمات مطمئنة. عدت وحيدة إلى غرفتي، طلبت أستاذي جيم كارلتن في الهاتف كي أعود إلى المشفى قبل نهاية إجازتي، أخبرتني السكرتيرة بأنّه سافر مع زوجته إلى اليونان ليحتفل بعيد ميلاد زواجه الثلاثين، وجدتها مناسبة جيدة كي أعبِّر لهما عن امتناني وأتسكَّع في الأيام الخمسة المتبقية من الإجازة، خابرت زهرة وتحدَّثت معها مطوَّلاً، قلت لها بأنّني كنت سعيدة في رحلتي، رجوتها أن تتركني براحتي لأكمل استرخائي مع وعدي بزيارتها كي نذهب للتسوُّق، تحاشيت الحديث عن سفر ولديها للعمل في السعودية، قصدت عدم إقامة أيّة علاقة معهما كي لا أحسّ بالخسارة مرّة أخرى، تشعرني زهرة بأنّني لست يتيمة، أحب تفهُّمها لأحلامي، أتحسّس الشبه بينها وبين وصال التي خابرتها أيضًا على عجل، طلبت منها أن تقبِّل لي العم جون وتطمئنه بأنّني لن أتخلّى عن سماع حكاياته الخرافيّة عن ملوك بابل، تحلّلت من أوزار الواجبات، فكّرت بأنّ سجّادتي الصغيرة تليق بجيم كارلتن وزوجته كهدية، أخافني هاجس التخلُّص منها، أيقنت بأنّني طوال عمري لم أحترم الأشياء ولا ذكراها، الفرصة مناسبة كي أتخلّص

من القيد الذي أحسست بأنّه سبب نحسي، طويت السجّادة وذهبت إلى محل يصنع هدايا يدوية للسائحين قريبًا من بنايتي، يستخدم جاري النيجيري الذي لم أعد أسمع سعاله وظننت بأنّه مات، طلبت منه صنع صندوق صغير للسجّادة الملفوفة، رأيت جاري جالسًا في زاوية المحل ابتسمت له، وسألني إن كنت مازلت مصمِّمة على العيش والتعفّن هنا، حملت السجادة مطوية بصندوق مغلق بقفل قديم، قرعت باب جيم كارلتن، فتحت لي الباب خادمته الهندية التي لا تغادر المنزل أثناء سفرهما، ابتسمت لي بمودة، أعطيتها السجّادة ورجوتها أن تضعها على سريرهما في غرفة النوم، زوَّدتها ببطاقة كتبت عليها بالإنكليزيّة والعربيّة «عرفانًا بالجميل». غادرت المنزل متحرِّرة من واجب لم أعرف كيف أتخلّص منه، لم أفكِّر كثيرًا سوى بالبعيدين الذين اشتقت أن أكتب إليهم، وقرَّرت تخصيص أغلب وقتي لكتابة الرسائل.

جلست في المقاهي وكتبت رسائل طويلة متناقضة لم أراجعها كي لا أغيِّر رأيي بإرسالها إلى رضوان ومريم اللذين قلت لهما بأنّني سعيدة، وصفت لهما روعة الطبيعة، بحميميّة أخبرتهما كم أحبهما وأشتاق إلى بهارات مريم وروعة طبخها، كتبت لسلافة رسالة طويلة مكوّنة من اثنتي عشرة صفحة، لم أعرف ماذا قلت فيها إلا أنّ ردّها الذي لم يتأخَّر عرفت بأنّني كنت خائبة، طلبت منها الذهاب إلى قبر غادة كي تعتني به وتزيل الأعشاب اليابسة.

في اليوم التالي طلبتني زهرة في السادسة صباحًا، صوتها واهن كأنّها لم تنم، طلبَت مني انتظار بكر الذي لم يتأخّر، ببرود أمرني

بالصعود إلى جانبه في السيارة واصطحبني إلى مشفى سانت لويس، لم ينطق بحرف واحد، صمته ثم تمتماته جعلتني أتوجّس شرّاً، لم أعرف بأنني سأرى صفاء مجلّلة بثيابها السود، من خلال الشادور الأفغاني التمعت عيناها رغم ذبولهما، أحسستها متعبة حين احتضنتها بقوة، أفسحت الطريق أمامي كي أرى عبد اللّه ممدَّدًا على السرير مضمداً وغائبًا عن الوعي، سرت نحو سريره، منعتني الممرضة من الاقتراب، أخبرتها بأنني طبيبة والممدّد على هذا السرير أبي، سمحت لي بقراءة إضبارة عبد الله وأشارت بأنّ المريض الآخر وسام الحلواني وضعه شديد السوء، أضافت بأنهما نزفا كثيرًا قبل أن يصلا إلى لندن والإسعافات الأولية في الباكستان لم تكن كافية، سألتني بشكل مفاجئ «ماذا يعمل أبوك» أجبتها بهدوء «دبلوماسي سعودي»، عدت إلى حيث صفاء وبكر الذي طمأنته بأنّ لا داعي للقلق على حياة عبد اللّه، لم أخبرهما بأنّ ذراعه اليسرى مهدَّدة بالبتر، تمنّيت البقاء وحيدة كي أرتّب أفكاري ولقائي مع عبد اللّه، اقترحت على بكر اصطحاب صفاء إلى المنزل كي ترتاح قليلاً، أخبرتهما بأنّه لن يستيقظ قبل الظهر من غيبوبته، سأبقى هنا بجانبه ولن أتركه، أشارت إليّ صفاء برقم غرفة وسام الحلواني ولم تمانع اصطحاب بكر لها إلى المنزل كي تغفو قليلاً. منذ ثلاثة أيام لم تنم صفاء، وهن شديد على وجهها وجسمها بدا كقطعة قماش معلّقة في الهواء، اصطحبها بكر وغادر المشفى، لم يتأخّر سوى مسافة الطريق كانت كافية كي أرتّب أفكاري وأتحدَّث إلى الطبيب المعالج الذي احترمني كزميلة ووضع بين يديّ كل الأوراق الموجودة لديهم، قرأت في نظراته عدم تصديقه بأنّ ما حدث هو نتيجة ثأر عشائري، ثم اصطحبني لأرى من بعيد وسام

الحلواني الممدّد على سريره في غرفة العناية المشدَّدة، ثم أشار بيده يائسًا وقال ببرود «تعرفين.. لا يمكن إنقاذه! كان من الأفضل تركه يموت في قندهار». نظرت إليه حين لفظ اسم قندهار بتشديد كي يفهمني بأنّه لم يصدِّق بأنّني ابنة عبد اللّه وأخت وسام الحلواني، شرحت له قرابتي بعبد اللّه، تمنّيت لو استطعت رواية سيرته كاملة كي يعرف بأنّ هذا الممدَّد على سرير في مشفى غريب كم عانى من تشابك اليقين بالشكّ، كم بحث عن وجه اللّه وفي أيّ أرض بعيدة وجده.

استيقظ عبد اللّه بعد الظهر من البنج، كنت أمسك بكف يده اليمنى وأضغط عليها، صورتي الضبابية التي تراءت له لم يصدِّقها أول الأمر، قبَّلته وضغطت على كفّه، ليتحسّس وجوه من حوله، صفاء لم تغب أكثر من ساعتين، عادت مع زهرة، طلبت من بكر عدم الاقتراح بذهابها إلى المنزل قبل الاطمئنان على عبد اللّه ووسام، كلماتها الحازمة جعلتنا نصمت، ثرثرنا بأحوالنا دون التطرق إلى سيرة وسام الذي طمأنت كاذبة عبد اللّه عنه، في اليوم التالي دخلت بمفردي بعد أن استأذنت الطبيب المعالج إلى غرفة العناية المشدّدة، اقتربت من وسام الذي كان يتنفّس بمساعدة الأجهزة، تحسّست يده ومسحت بيدي على جبينه، فكّرت كم تأخَّر لقاؤنا الذي كان حلم يقظة طويل، في الأيام التالية فاجأني قربي منه وتشبُّثي بسريره، نظرت إلى عينيه المغمضتين، فتحتهما له ورأيت جمال وجهه، وفكَّرت بأنّه أجمل بكثير من الصورة التي ركّبتها له، الممرضات استغربن أول الأمر نظراتي الطويلة إلى وجهه ورموش عينيه، ثرثرن أنّني امرأة تخصّه كثيرًا، لم يستطعن تحديد الصفة ووافقت على كل ما قلنه، لم أنكر أنّني أخته أو زوجته أو حبيبته، أنا

الوحيدة التي يحقّ لها الدخول والبقاء قربه طوال الليل، بدأت تتشكّل بيننا علاقة تشابكت فيها أرواحنا التي أطلقناها في الفضاء، لا أحد يعرف كم فتنت بعينيه وبعروق يديه اللتين كنت أمسك بهما وأجلس قربه على كرسي مراقبة أجهزة التنفس التي أعرف بأنّها من الممكن أن تتوقف في أيّة لحظة، أصلّي له في سري كي يمتدّ هذا الصمت بيننا.

بعد العملية التي أجريت لعبد اللّه تأكّد بأنّ العطب في اليد اليسرى لا يمكن إصلاحه، لكن دون قطع الذراع بعد استجابتها للعلاج، اطمأنت صفاء في اليوم الرابع وأصبحت أكثر راحة، بعد نوبة نوم استمرّت أكثر من عشر ساعات لم تستطع مقاومته، عبد اللّه وجد أوقاتًا غير مناسبة للتحدُّث مع بكر، تحاشى ذكر أيّ شيء عما حدث سوى الاختصار بأنّها معركة مع الكفّار من إحدى الفصائل المسيطرة على جنوب أفغانستان، استطاع النهوض من سريره في اليوم الرابع، طلب منّي اصطحابه إلى غرفة العناية المشدّدة، أخبرته بأنّه لا يستطيع دخولها، رجوت الطبيب المعالج كي لا يسمح له بدخولها كي لا يرى وسام في سباته العميق.

لم أستطع يومًا أن أتخيّل بأنّنا سنجتمع هكذا، في ممرات مشفى إنكليزي، صورة صفاء كما رسمتها، كأنّنا غريبتان التقتا في مكان مؤقت لا يصلح لتبادل الأخبار والأشواق، طلبت من الدكتور جيم كارلتن الذي حاول إيجاد أيّة فرصة كي يعبِّر لي عن امتنان زوجته وإعجابه اللامتناهي بهديتي الثمينة، وبسعادته فيّ كطبيبة تملك زمام أمورها، عرض على بكر وعبد اللّه كل المساعدات التي يستطيع تقديمها، تحدَّث

إلى الأطباء الذين قالوا الكلام نفسه للمرّة العاشرة عن إمكانية مغادرة عبد اللّه للمشفى بعد ثلاثة أيام، وعدم إمكانية إنقاذ وسام الذي بقيت وحدي أقضي الليالي بقربه على الكرسي، غير مصدّقة التقارير الطبية وموقنة بأنّ ما حدث هو أكبر دليل على أنّني لم أكن كل هذه السنوات وحيدة، أنهي دوامي في مشفى وأعود إلى منزل بكر لساعة واحدة أطمئن على عبد اللّه الذي بدأ رجال غرباء عنّي بزيارته، تلقى برقيات من أمكنة مختلفة تسأل عن صحته التي يصفها بصبر جيدة إن شاء اللّه، تغيم عيناه بحزن وانتظار بارقة أمل تخبره بأنّ صديقه ومرافقه قد استيقظ من سباته، وحدي أعرف بأنّه لن يستيقظ ويحق لي قضاء الليل قربه، انضممت إلى فريق ممرضات العناية المشدّدة وشاركتهن العشاء آخر الليل، تبادلنا سيرًا مختلفة حول الحياة والموت والرقص والطبخ وتحدَّثت لهنَّ عن ولعي بالبهارات، الوحيدة التي أعرف بأنّه يسمعني، كأنّنا لم نمتلك الوقت الكافي كي نتعارف ونمضي إلى مخدعنا. في اليوم العاشر نصحني جيم كارلتن أن لا أبقى قرب المريض بعد أن لاحظ شرودي في أثناء زيارة مرضى قسمنا، فاجأني بسؤال مباشر «هل هو الرجل الذي حدثتني عنه ذات يوم»، ببرود هززت برأسي وأكملت «رغم أنّي لا أعرفه أبدًا»، تابعت طريقي إلى المشفى. في الليلة الأخيرة مسحت جسده بالعطور مبتعدة عن مكان القلب المضمد الذي توقف منذ أكثر من ساعة عن الخفقان ولم أخبر أحدًا، لمست عينيه للمرة الأخيرة، أعدت فتحهما كي أحفظ لونهما قبل إغلاقهما بهدوء للمرة الأخيرة، غطّيت وجهه وقرعت جرس الطبيب المعالج الذي لم يحتج إلى أيّة كلمة كي يعرف بأنّ وسام الحلواني سيغادر سريره، لم أكترث بترتيبات دفنه في

قندهار وبإصرار عبد الله على هذا طالبًا من الجميع عدم إخبار أهله أو التدخل بما لا يعنيهم.

عدت إلى عملي في المشفى، أمسك جيم كارلتن بيدي وقبّلها، ثم طبع قبلة على جبيني، عرض أن يصطحبني مع زوجته لتشييع وسام إلى المطار، شكرته ممتنّة له، طلبت إذنًا كي ألحق بالطائرة وإجازة ثلاثة أيام كي أتم مراسم الحداد، لم يمانع وشجّعني على قضائها في منزلهم الريفي، خرجت من المشفى، لم أعد أستطيع الردّ بأيّة كلمة، وصلت إلى المطار، وقفت قرب الباب المعد لشحن البضائع، رأيت تابوت وسام يتهادى على أكف رجال الإسعاف الذين أنزلوه وحملوه على أكتافهم، ووسط زحام أناس قليلين لمحت عبد الله يقبّل التابوت ويده ملفوفة بالضمادات قبل أن يودِّع بكر وزهرة، متابعًا طريقه للحاق بالطائرة المتوجِّهة إلى كراتشي، رفع يده غير المعطوبة بالتحيّة وكانت بجانبه امرأة في ملابس سوداء معتمة تدعى صفاء، غاب التابوت عن عينيّ وعدت وحيدة إلى وسط لندن. هبط الظلام وما زلت أحسّ بالخدر في أقدامي وجسدي، وحيدة أبحث عن صور الموتى واستعارات لأتبادلها مع الآخرين كسحلية دميمة وعذراء.

محتويات الكتاب

تقتحم هذه الرواية حقبةً من تاريخ سوريا وتعيد طرح الأسئلة الحارقة عن الصراع بين الأصوليين والسلطة ـ وهي حقبة كادت تقضي بها ثقافة الكراهية على الأخضر واليابس.

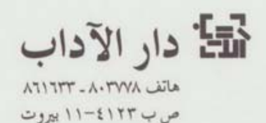
تقود الراوية القرّاء من مدينة حلب الآسرة وعوالم نسائها وحياتهنّ السريّة إلى أفغانستان، مرورًا بالرياض وعدن ولندن وأمكنة أخرى، لتنسج تفاصيل لا شك أنها ستترك روائحها ودمَها وكراهيتَها، كما ستترك رغبةَ الحب، والدهشةَ، في أرواح قرّاء هذا الكتاب.

خالد خليفة روائي وسيناريست سوري ـ مواليد ١٩٦٤.

صدرتْ له روايتان: حارس الخديعة، ودفاتر القرباط. كما كتب للتلفزيون العديد من المسلسلات الناجحة، أوّلها سيرة آل الجلالي، وآخرها مسلل زمنُ الخوف.

تمّ ترشيح هذه الرواية للائحة القصيرة لجائزة «بوكر» العربية.


ISBN: 978-9953-89-033-3


دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت